

دوستويفسكي

U الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٥

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

مقامر
وج الأبدى



0098632



Bibliotheca Alexandrina





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد السابع

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبّارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

.المقام
.النزوح الأبدى

جميع الحقوق محفوظة

تقديم

يضم هذا المجلد السابع من أعمال دوستوفسكى الأدبية الكاملة روايتين ظهرتا بعد نشر روايته الكبيرة « الجريمة والعقاب » .

المقامر

١٨٦٦

ان فكره تأليف رواية « المقامر » قد وافقت دوستوفسكى سنة ١٨٦٣ ، أثناء رحلته الى الخارج مع باولين سوسلوف . فبينما كان دوستوفسكى في طريقه الى باريس للحاق بحبيبه تلبث بمدينة فسباد الألمانية ليقامر على الرولت . وقد ألهمه هوى هذه المقامرة ، ورجح ، وظن أنه أدرك القواعد التى يجب اتباعها فى هذه اللعبة لضمان الربح . وها هو ذا يكتب الى فرفارا كونستان ، أخت زوجته الأولى ، قائلاً : « لقد أصبحت أعرف السر حقاً : انه سر بسيط غاية البساطة ، وهو أن يمتنع المرء من حين الى حين ، دون أن يهتم أى اهتمام بمراحل اللعب ، ودون أن يفلت منه زمام سيطرته على اعصابه . ذلك كل شئ . يستحيل أن يخسر اللاعب متى اتبع هذه القواعد » . ولكن دوستوفسكى ما بلبث أن يروى لأخت زوجته ما أصابه فى اللعب من سوء الحظ وما نالته به المصادفات من نكبات ، فيقول لها فى رسالة بعث بها اليها من مدينة بادن بادن بعد الرسالة الأولى بأسبوع واحد : « لقد وضعت لنفسي بمدينة فسباد طريقة فى اللعب طقتها فسرعان ما ربحت عشرة آلاف فرنك . ولكننى اندفعت فى تبار الحماسة صباحاً ، ففرت هذه الطريقة ، فما لبثت أن خسرت على الفور . حتى اذا عدت فى المساء الى تلك الطريقة ، فانبعثت انبعا دقفاً لا أحيد عنه ، وجدنى أربح من جديد ثلاثة آلاف فرنك بسرعة وبغير كبر جهد . فقولى لى بعد هذا : ألم يكن

من حقى أن ائحمس وأن أظن اننى اذا طبقت طريقتى تطبيقا صارما كنت
أضع سعدانى بين يدى ؟ .. » .

ان هذه الحاجة بعينها الى المال ، وهذا الظمأ نفسه الى الاغتناء فى
سبيل اسعاد ذويه هما الينبوع الذى ستصدر عنه صورة « السوبرمان »
المخفق : راسكولنيكوف ، بطل رواية « الجريمة والعقاب » . ولكن
دوستوفسكى ، قبل أن يتصور روايته « الجريمة والعقاب » يفكر فى
معالجة موضوع آخر . وها هو ذا يكتب الى ستراخوف فى ١٨ كانون
الاول (ديسمبر) ١٨٦٣ ، قائلا : « ليس عندى الآن شىء جاهز . ولكننى
وضعت مخطط قصة موفقة (فى رأى) ، موضوعها هو التالى : شاب
روسى فى الخارج .. شخصية حية (يخيل الى اننى أراها مائلة أمامى) ..
النقطة الأساسية هى ان كل ما يتدفق فى الشاب من نسغ الحياة ، وكل
ما يضطرم فيه من قوى ، وكل ما يعصف به من فوران واندفاع ، وكل
ما يتصف به من جراءة وجسارة ، النقطة الأساسية هى أن هذا كله
تستنفده الروليت . انه مقامر . ولكنه ليس مجرد مقامر ، كما لم يكن
« الفارس البخيل » الذى وصفه بوشكين مجرد بخيل (ولا أريد
أن أقارن نفسى ببوشكين ، وأنا أقول هذا من باب الإيضاح) . انه شاعر
من نوع خاص ، ولكنه يحس بالخلل والعار من هذا الشعر ، لانه يشعر
بصفاره شعورا عميقا ، رغم أن الظمأ الى المخاطرة يرفع قدره فى نظر
نفسه . والقصة كلها ترينا كيف ينصرف الى المقامرة على الروليت خلال
ثلاث سنن فى بيت من بيوت القمار . ولئن اجتذب كتابى « منزل
الأموات » انتباه الناس من حيث هو تصوير لسجناء لم يسبق لأحد أن
وصفهم قبل ذلك عيانا ، فلا شك أن هذه القصة ستجذب هى أيضا
انتباه الناس من حيث هى تصوير مفصل جدا للروليت بالعيان .. » هى
وصف لنوع من الجحيم يشبه جحيم المعتقل « . ولكن من الواضح
أن هذه القصة لا تعدل « منزل الأموات » قوة وعظمة . ولا شك أن
الكاتب أحس بذلك ، فلم يتكلم عن مشروعه هذا بعدئذ خلال ثلاث
سنين . والواقع أنه كان فى أثناء هذه المدة منهمكا أشد الانهماك فى
تأليف روايته « الجريمة والعقاب » التى ما ينفك يعيد النظر فيها ويبدلها
وينقحها ؛ وهو ينتهز أنساء ذلك فرصة من الفرص فيكتب قصته
« فى قبوى » ثم يعود الى روايته الكبيرة « الجريمة والعقاب » التى يبدأ
بنشرها فى شهر شباط (فبراير) ١٨٦٦ ؛ ولكن ها هو ذا يتذكر فى أول
تشرين الاول (أكتوبر) من تلك السنة نفسها العقد الذى أبرمه مع الناشر

الجتمع ستيلوفسكى ، ذلك العقد الذى يلزم دوستويفسكى بأن يقدم للنشر فى أول نشرين الثانى (نوفمبر) رواية جديده لم يسبق نشرها تتألف من عشرة ملارم من القبط الكبير على الأقل ، والا فقد حقوقه عن جميع مؤلفاته السابقة واللاحقة جميعا . فينصحه صديقه ميلوكوف بأن يملئ هذه الرواية املاء (وهو لم يكتب منها سطرا واحدا بعد) ، أن يملئها املاء على فتاة تكتب بالاختزال . وفى الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) بجيئه الفتاة آنا سيبتيكين ، فيأخذ يملئ عليها ، ويسير العمل سرا حسنا . فما هى الا خمسة وعشرون يوما اذا بالرواية قد أنجزت . وقد جاءت الرواية طيبة رغم هذه العجلة فى املائها . انها تنبض بالحياة ، والقارئ يحس احساسا واضحا أن دوستويفسكى يروى فيها طرفا من قصه حياته . هى رواية الحب الملعوب الذى عانسه دوستويفسكى مع باولين سوسلوفا (وقد احتفظ باسمها فى الرواية) ، البطل فيها هو الشاب الكسى ايفانوفش الذى يعمل معلما للأولاد لدى جنرال روسى ، والذى يأسره حبان جامحان قويان ، أولهما الحب الذى يتعمر به نحو باولين الكسندروفنا القاسية العانية العربية ، والثانى هو الهوى الجارف الذى برده الى مائدة الروليت بغير انقطاع . وان الحب الذى يحمله لباولين لهو مزيج من حب وبغض معا : ان الكسى يعترف لباولين بأنه يجد فى عوبيته تجاهها ملذات كبيرة ، ويقول لها ان فى المذلة والسقوط لمتعة عظيمة .. وهو يخاطبها بقوله : استفيدى من عوبيتى ، استفيدى منها ! .. هل تعلمين أننى سأقتلك فى يوم من الأيام ؟

أما هوى المقامرة الذى يمازج هوى الحب فى نفس البطل ، كما كان كذلك فى نفس دوستويفسكى فى لحظة من اللحظات ، فان دوستويفسكى يصوره فى هذه الرواية نوعا من الافتتان ، نوعا من السحر ، نوعا من الهديان ، ويكاد يصوره نوعا من الحدى للفدر ! قال هنرى تروبا متحدثا عن دوستويفسكى : « لقد أباحث له الروليت أن يعيبث بالقدر كما كان القدر يعيبث به » . صدق هنرى تروبا . فيفضل الروليت تحاوز دوستويفسكى « الجدار » ، جدار المنطق ، الذى لطا عنده بطل قصة « فى قبوى » . انه ينتقل هنا الى ميدان المصادفة و « اللامنتطق » ؛ قائلا : « لا يبقى ههنا دلالة لمولك ان انسين واتنين بساوى أربعة . ان القمار هو التجربة الأولى للحرية فى العالم المادى » .

وفى هذه الرواية بصور دوستويفسكى شخصيات اخرى طريفة : بصور السيدة العجور بابولنكا التى ننظر الجنرال ، الرجل التافه ،

موتها الونيك : ما أروع وصف دوستويفسكى لهذه العجوز حين استبد بها هوى المقامرة ! وإذا كان المؤلف يرسم للروس في هذه الرواية صورة غير مسرقة فان الصور النى يرسمها لغيرهم ليسب أكثر اشرافا : فالآنسه بلانش الفرنسيه التى تهب نفسها لمن يجزل العطاء أكثر من غيره ؛ ودى جربو الذى لا يختلف دوره كثيرا عن دور من طفل ان لم يزد عليه حقارة ؛ والبارون الألمانى المتكبر المتعجرف الغبى ؛ والبولونيون الثلاثة « النصابون » ، هؤلاء جميعا ، وهم من غير الروس ، ليسوا بالشخصيات المحببة . وهنا نرى خيبة الأمل التى أحسها دوستويفسكى تجاه أوروبا العربيه ، والتى عبر عنها في « ذكريات شتاء عن مشاعر صيف » . وليس لمة الا استثناء واحد : هو شخصية مستر آستلى ، ذلك الانجليزى الصموت الفاضل الذى يحب باولن دون أن يعترف لها بحبه ، ويمد يد العون الى الكسى ، ويحاول أن يصلح المساوئ التى يقارفها الأبطال الرئيسيون في هذه القصة . ان هذا الانسان المتأمل يرى ان الروليت انما خلقت للروس ، الشرهين المتلافين المذبذبين ، المسعورة أهواؤهم . ان دوستويفسكى يدين هنا على لسان مستر آستلى مليون جامحين كانا بعبتان في نفسه فسادا ، بم برىء منهما آخر الأمر .

الزوج الابدى

١٨٧٠

كتب دوستويفسكى هذه القصة في خريف ١٨٦٩ لمجلة من المجلات الداعية الى السلافة هى مجلة « الفجر » . وقد تحدث دوستويفسكى عن مولد هذه القصة في رسالة بعث بها الى الشاعر آبولون مايكوف ، فقال : « قضيت ثلاثة أشهر في كتابتها .. فملأت احدى عشرة ملزمة من ملازم المطبعة على الأقل . فتستطيع أن تتصور اذن أى عمل من الأعمال الشاقة التى تفرض على سجناء المعتقلات قد قمت به . لا سيما واننى اخذت اكراه هذه القصة الرديئة منذ البداية . لقد كنت أقدر أن اكذب ثلاث ملازم في أكثر تقدير . ولكن تفاصيل كثيرة انبجست من تلقاء ذاتها ، فاذا أنا اكتب احدى عشرة ملزمة ! » . كان دوستويفسكى يظن اذن أن روايته هذه رديئة ! ما أقساه في الحكم على نفسه ! ان الرواية كثيفة متوازنة قوية في الواقع ، وهى تملك من عمق النفاذ الى أغوار النفس الانسانية ما يجعلها تصف شخصيات نموذجية ، وموقفا

نموذجيا . هـا يستطيع فرويد وعلماء التحليل النفسى ان يقولوا كلمتهم . ان الموضوع الذى تدور عليه أحداث هذه القصة هو الأسرة التى تتألف من زوج وزوجة وعشيق ، هو الأسرة الثلاثية على حد المصطلح الحديث الذى أدخله التحليل النفسى . ولكن عبقرية دوستويفسكى لا تسبق التحليل النفسى فحسب ، بل تصور هذا الموقف الذى أصبح معروفا بصورا يهب له أبعادا فنية رائعة . ودوستويفسكى لا يقلد هنا روايات بول دو كوك المبتدلة . ولعل نقطة انطلاقه كانت بورجنيف فى ملهانه « الريفية » التى ظهرت سنة ١٨٥١ ؛ فما الذى نراه فى رواية دوستويفسكى ؟ رجل من المجتمع الراقى بالعاصمة ، يصل فى يوم من الأيام الى مدينة بالأقاليم . فيفاضل امرأة موظف مسن محدود ، فلا يلقى فى اغوائها عناء . ولكن دوستويفسكى لا يبدأ ذكر هذه الواقعة الا بعد ذلك بكثير . فالرجل الذى أغوى المرأة قد عاد الى العاصمة ، والمرأة الى خانت زوجها فد ماب . فلم يبق الا المعوى والزوج . وبطلع الزوج على الواقعة فى يوم من الأيام ، وذلك حين تقع بين يديه رسائل مرسله من زوجته المتوفاة ، ويكتشف فى الوقت نفسه أنه لس أبا بنته ، ويعرف من هو أبوها الحق . ان ما صوره دوستويفسكى بنفاذ اليم هو تلك المواجهة بين الشخصين ، الزوج والعشيق . وهى مواجهة تتم بطبئة ، ولف وندور حنى لكأها كابوس . ان الرجلين المتواجهين ليسا رجلين ، بل هما نوعان من الرجال : زوج أبدى وعشيق أبدى ، رجل هو دائما عبد امرأة ، ولكن تعيش معه امرأة ؛ ورجل يغوى النساء ويتر أخيلتهن ، ولكن النساء لا يعشن معه كأن القدر بملى ذلك ويفرضه . فالعشيق معزل منوحد دائما ، والزوج مصحوب دائما ولكنه مخدوع مخون . والمرأة لا تملكها فى الواقع لا هذا ولا ذاك . فالأطراف جميعها مخففة ، وان يكن اخفاف كل منها من نوع خاص . انهم جميعا يملكون كل شيء ولا يملكون شيئا . هذا هو الظرف الانسابى نراه فى مرآتهم هم الثلاثة . وفتسانسوف ، المفوى ، يشعر نحو « الزوج الأبدي » بتسقة نمازها احنار بل واسمئزاز ، وهو يقول عنه : ان انسانا كهذا انما بولد وكبر لا لىء الا أن سروج وأن يصبح تتمه لزوجته . ويصالب مصر هدين الانسانين المنعازيين ، يتصالبان بغير انقطاع . فكأن نوعا من المغناطسبة يعرب احدهما من الآخر وبسده اليه ؛ ان هاك قوة بحركهما ونفترب بهما فى ذات للة من أبواب جريمة القتل . حتى أن تروسوقسكى ، الأرمل ، يصطحب غريمه ذات يوم الى خطيبته الجديده . . ويعع ما لابد

من وقوعه . ما أروع مشهد الاغواء الذي نرى فيه فلتسانينوف
يحركه شيطان حقا ، فيفتن الفتاة بسحر لا يقاوم ، دون أن يريد ذ
وبعد سنتين نرى تروسوفسكي نفسه زوجا - ومخدوعا - بلفي ذ
الأبدى عرضا على رصيف محطة ، وكان يمكن أن تتكرر الواقعة ذ
- الاغواء - لو أن سفر القطار قد أوقف الصراع ومنع الخاتمة .

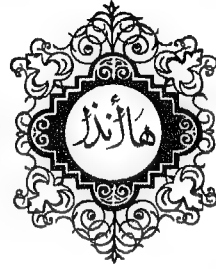
س . د

المقام

١٨٦٦

« المقامر » Igrok) : نشرت هذه الرواية
في « أعمال دوستويفسكى الأدبية » : مج ٣ ،
سنة ١٨٦٦ .

الفصل الأول



أعود أخيرا بعد غياب طال خمسة عشر يوما .
كان أصحابنا قد وصلوا رولتبرج * منذ ثلاثة
أيام . وكنت أحسبهم ينتظروني على صبر بلغ
من النفاذ أقصى الشدة . لكنني كنت على خطأ .

كان الجنرال طلق الهيئة مختال الخطى ، كلمني مستعليا ثم أرسلني الى
أخته . واضح أنهم وجدوا ما يقترضونه من مال . حتى لقد بدا لي أن
الجنرال كان من حضوري في ضيق وحرص . وكانت ماري فيليبوينا
مضطربة كل الاضطراب . فلم تكذب تخاطبني ببضع كلمات ، لكنها أخذت
المال فعدته وأصغت الى تقريرى حتى نهايته . كانوا ينتظرون على العشاء
ميزتنوف والفرنسى الصغير ورجلا انجليزيا . تلكم عادة أهل موسكو
دائما : متى حصلوا على مال دعوا الناس الى عشاء . وحين رأته
پاولين ألكسندروينا سألتني لماذا غبت هذا الغياب الطويل كله ، ثم
مضت لم تنتظر جوابي . واضح أنها فعلت ذلك عامدة . ولا بد مع ذلك
من تعليل . لقد ضاق صدري ذرعا .

أعطيت حجرة صغيرة في الطابق الرابع من الفندق . الناس يعرفون

هنا أننى واحد من حاشية الجنرال . لقد ظفر أصحابى بلفت الأنظار اليهم . كان ذلك واضحا . فالناس جميعا هنا يعدون الجنرال من سراة الروس الذين يملكون ثراء طائلا . وقد كلفنى قبل العشاء بعدة أمور ، منها أنه أعطانى ورقتين تقديتين لتبديلهما (كل ورقة بألف فرنك) . بدلتهما فى مكتب الفندق . الآن ، سينظر إلينا الناس ، خلال أسبوعين فى أقل تقدير ، نظرتهم الى أناس من أصحاب الملايين . ذهبت أبحت عن ميشا وناديا * لأصحابهما فى نزهة : ولكننى فيما كنت أهبط السلم أرسل الجنرال يدعونى اليه . لقد رأى أن من الخير أن يعرف الى أين أقود الطفلين . ان هذا الرجل لا يستطيع حتما أن ينظر الى وجه لوجه . انه يتمنى ذلك ، لكننى أرد عليه فى كل مرة بنظرة تبلغ من الالاحاح ، أى من الوقاحة ، ما يفقده صبره .

وفى حديث متنفخ محشو باستطرادات ، فى حديث صار آخر الأمر الى فوضى كاملة واضطراب تام ، أفهمنى أن علىّ أن أنزّه الطفلين فى الحديقة على مسافة من الكازينو . ومن أجل أن يختتم كلامه ، غضب يقول بلهجة فظة :

— أم تراك تأخذهما الى الروليت ؟ معذرة اذا قلت لك هذا ، ولكننى أعرف أنك ما تزال على شئ من الطيش ، فقد تستسلم لمغريات المقامرة . وعلى كل حال ، رغم أننى لست من يهديك سواء السبيل ، ولست أنوى أن أقوم بهذا الدور قط ، يحق لى أن أتمنى أن لا تعرض سمعتى لأذى ، اذا جاز لى أن أستعمل هذا التعبير ..

قلت بهدوء :

— لكنك تعلم حق العلم أننى لا أملك مالا ، ولا بد أن يملك
المرء مالا حتى يخسره فى القمار .

أجاب الجنرال وقد أحمر وجهه قليلا :

— سأعطيك حالا .

قال ذلك ثم نبش مكتبه قليلا ، فأخرج منه دفترا ، فوجد أنه
مدين لى بما يقارب مائة وعشرين روبلا .

وأردف يسأل :

— كيف أدفع لك هذا المبلغ ؟ يجب أن نحوله الى تاليرات .
ليك الآن مائة تالير رقما مدوِّرا . أما الباقي فنصفه فيما بعد .

تناولت المال دون أن أنبس بكلمة .

— لا يفضبنك كلامى ، أرجوك .. أنت امرؤ سريع التأذى ..
ولئن أبديت لك هذه الملاحظة ، فمن قبيل التحذير ان صح هذا
التعبير ، وأحسب أن ذلك من حقى ..

وفيما كنت عائدا بالأطفال قبيل العشاء صادفت فى الطريق جماعة
راكبة خيلا . كان أصحابنا ذاهبين فى زيارة لبعض الآثار . عربتان
فخمتان ، جياد رائعة ! كانت مدموازيل بلانش فى احدى العربتين مع
مارى فيليووثنا وپاولين ؛ وكان الفرنسى الصغير والانجليزى وصاحبنا
الجنرال يخفرون العربى على صهوات أفراسهم . وكان المارة يتوقفون
لينظروا اليهم . لقد أحدث هذا أثره . لكن ذلك سوف ينتهى
بالجنرال الى نهاية سيئة . لقد حسبت أنهم بالآلاف الأربعة من
الفرنكات التى جئتهم بها ، وبما استطاعوا أن يقترضوه من غير شك ،

يملكون الآن مبلغا يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية . وهذا قليل جدا على مدموازيل بلانش .

ان مدموازيل بلانش تنزل مع أمها نفس الفندق الذى نزل به نحن، وينزله الفرنسى القصير أيضا . ان خدم الفندق ينادونه « سيادة الكونت » . أما أم مدموازيل بلانش فهي تسمى نفسها « السيدة الكونتيسة » . ومن يدري على كل حال ؟ لعلهما كونت وكونتيسة حقا .

كنت على ثقة من أن سيادة الكونت لن يتعرفنى اذا نحن التقينا على العشاء . وواضح أن الجنرال لم يخطر بباله لحظة أن يعرف أحدنا بالآخر ، أو أن يقدمنى اليه على الأقل . لقد عاش سيادة الكونت فى روسيا ، فهو يعرف اذن صِغَر شأن ما يسمى هنالك « أوتشيتل » (المربى) . على أن سيادة الكونت يعرفنى حق المعرفة . لكننى لم أكن منتظرا فى العشاء . لا شك أن الجنرال نسى أن يصدر أوامره فى هذا الشأن ، والا لأرسلنى الى المائدة المعدة من غير شك . جئت من تلقاء نفسى ، فرمقنى الجنرال بنظرة استياء . وسرعان ما بادرت مارى فيليپوفا الشهمة فعينت لى مكانا . غير أن التقائى بمستر آستلى قد أخرجنى من الحرج فاذا أنا بحكم الظروف واحد من الحفل .

فى بروسيا انما كنت قد التقيت أول مرة بهذا الرجل الغريب الأطوار . كنا جالسين متقابلين فى حجرة واحدة من حجرات القطار . كنت يومئذ مسافرا للحاق بأصحابنا . ثم التقيت به مرة أخرى على الحدود الفرنسية ، والتقيت به أخيرا فى سويسرا . معنى ذلك أتى

اجتمعت به مرتين في مدى خمسة عشر يوما . وهأنذا ألقاه اليوم في رولتبرج ! ما رأيت في حياتي رجلا في مثل خجله . انه خجول الى درجة عجيبة . وهو يعلم ذلك حق العلم لأنه ليس بالغبي قط . على أنه ذو طبع مسالم لطيف . لقد حملته على الكلام أثناء لقائنا الأول . فذكر لي أنه زار في ذلك الصيف رأس الشمال ، وأنه يرغب كثيرا في أن يرى معرض نيجنى * نوقجورود . ولا أدري كيف أصبح على صلة بالجنرال . يخجل الى أنه موله بحب پاولين . فلقد احمر وجهه احمرارا شديدا حين دخلت . وقد سره كثيرا أن يكون الى جانبي على المائدة . وأظن أنه يعدني منذ الآن صديقا حميما .

وكان الفرنسي الصغير مسرفا في تصنع الأوضاع المجوجة . كان يعامل جميع الناس في احتقار ودون كلفة . اننى أتذكر أنه كان في موسكو يجب أن يذر الرماد في العيون . وقد أظن في الكلام على الأحوال المالية والسياسية الروسية . فسمح الجنرال لنفسه أن يعارضه مرة أو مرتين ، ولكن على تخفٍ وتلطف ، أى بالقدر الذى لا يفقده مهابته تماما .

كنت في حالة نفسية غريبة . ومن نافل القول أن أذكر أننى ما بلغت من العشاء نصفه حتى كنت قد طرحت على نفسى ذلك السؤال المعتاد الأبدى : « ما الذى يجرنى وراء هذا الجنرال ؟ لقد كان ينبغي لى أن أتركهم منذ زمن طويل ! » . وكنت ألقى نظرة خاطفة على پاولين ألكسندروثنا من حين الى حين ، فألاحظ أنها لا تولينى أى اتباع . وصعدت أبخرة الخردل الى أنفى آخر الأمر فقررت أن أقارف وقاحة من الوقاحات .

ومن أجل أن أبدأ ذلك ، اقتحمت المناقشة على حين فجأة ، دون أن أدعى الى المشاركة فيها ، متكلسا بصوت مرتفع . كنت أحاول خاصة أن أشاجر الفرنسى الصغير . فالتفت نحو الجنرال ، أقول دون تمهيد ولا توطئة ، بصوت عال واضح مفهوم (وأظن أنني قاطعته) : لقد استحال تقريبا على الروس فى هذا الصيف أن يتناولوا وجبات طعامهم على الموائد المعدة . فما ان سمع منى الجنرال هذا الكلام حتى رمقنى بنظرة دهشة . وتابعت أقول :

— ان من يحترم نفسه فلا بد أن يتعرض للوقاحات وأن تناله الالهانات . ففى باريس ، وعلى نهر الراين ، وحتى فى سويسرا ، ترى الموائد المهيأة غاصة بالبولونيين وأشباههم ، صغار الفرنسيين ، بحيث لا تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة متى كنت روسيا .

قلت ذلك بالفرنسية . فكان الأمير ينظر الى حائرا لا يدرى يجب عليه أن يغضب أم يكفيه أن يدهش لنسيانى نفسى الى هذه الدرجة من النسيان .

قال لى الفرنسى الصغير بلهجة الاحتقار والاهمال :

— يظهر أن أحدا قد لقنك درسا .

فأجبت :

— فى باريس تشاجرت أولا مع بولونى ، ثم مع ضابط فرنسى انتصر للبولونى ، ثم ناصرنى جزء كبير من الفرنسيين حين رويت لهم اننى أوشكت أن أبصق فى قهوة أحد كبار الكهنة « مونسنيور » .

— تبصق ؟

كذلك سأل الجنرال بدهشة منكبرة ، حتى لقد جال ببصره في أطراف الغرفة . وألقى علىّ الفرنسي نظرة متفحصة مرتابة .

قلت :

— تماما . لقد ظللت ثمانى وأربعين ساعة أظن أنه ربما كان علىّ أن أثب إلى روما من أجل قضيتنا ، لذلك ذهبت الى السفارة البابوية أطلب تأشيرة على جواز سفرى . فاستقبلنى هنالك قس قصير يشارف الخمسين من عمره ، نحيل القامة ، جلبدى الوجه ، فبعد أن أصغى الى كلامى رجائى أن أنتظر ، وذلك بلهجة مهذبة لكنها جافة جدا . وكنت مستعجلا ، لكننى جلست طبعاً ، وأخرجت من جيبى جريدة «الأوپينيون ناسيونال»* ، وأخذت أقرأ فيها مقالا هو هجوم عنيف لاذع على روسيا . وفى أثناء ذلك سمعت أحدا يمضى الى «المونسينيور» فى الغرفة المجاورة ، ورأيت القس يظهر له أنواع الاحترام . وجدت طلبى الى القس ، فرجائى مرة أخرى أن أنتظر ، ولكن بمزيد من الخشونة فى لهجته . وما هى الا لحظة حتى دخل زائر نبين أنه نمساوى . فلما استمعوا الى كلامه ، سعدوا به فورا الى فوق . عندئذ شعرت بشيء من الغضب ، فنهضت عن مكانى ، واقتربت من القس وقلت له بلهجة قاطعة : ما دام « مونسينيور » يستقبل غبرى ، فإن فى وسعه أن ينجز قضيتى . عندئذ التفت القس وقد بدت فى وجهه دهشة خارقة . انه لا يستطيع أن يفسر لنفسه كيف يجرؤ روسى أن يقارن نفسه بضيوف « مونسينيور » . فاذا هو ينظر الىّ من قمة رأسى الى أخمص قدمى ، ويصيح بأوقح لهجة ممكنة ، كأنما يفتنه ويسحره أن يهيننى : « ما ينبغى أن تظن مع ذلك أن « مونسينيور »

يمكن أن يستغنى من أجلك عن فنجان القهوة الذى يحسنه ! «
فما كان منى الا أن صحت أنا أيضا بصوت أعلى من صوته قائلاً :
« فاعلم اذن أنتى أبصق فى قهوة « مونسنيورك » ، وأنتى أستخف به !
فاذا لم تنجز لى جواز سفرى فورا ، فسأضى اليه بنفسى لألقاه » .
— كيف ؟ فى اللحظة التى يستقبل فيها كردينا لا ؟

كذلك صاح القس مذعورا وهو يتنعد على ؛ وركض نحو الباب
فمدّ ذراعيه كالمصلوب ، ليفهمنى أنه يؤثر أن يهلك على أن يدعنى
أدخل . عندئذ قلت له انتى زنديق وانتى متوحش ، وانتى لا أحفل
بهؤلاء الأساقفة والكرادلة والمونسنيورين جميعا ، الخ الخ . أى
أظهرت له أنتى لن أخضع ولن أتنازل . فرشنى القس بنظرة بغض
عميق ، وانتزع من يدى جواز سفرى ، فمضى به الى فوق . وما هى
الا دقيقة واحدة ، حتى كنت قد حصلت على التأشيرة . وهى الآن
معى ، فهل تريد أن تراها ؟

أخرجت جواز سفرى ، وأريته التأشيرة البابوية .

قال الجنرال يريد أن يبدأ الكلام :

— ومع ذلك ..

فقاطعه الفرنسى الصغير قائلاً وهو يضحك ضحكة صغيرة :
— ان ما أقضك هو تصريحك بأنك زنديق ، وبأنك متوحش .
كانت تلك وسيلة غير غبية * .

— أنا لا أستطيع على كل حال أن أفعل ما يفعله أصحابك الروس
الذين يظنون مكتوفى الأيدى ، لا يجراًون أن ينبسوا بكلمة ،

ويقدرّون اذا لزم الأمر أن ينكروا وطنهم . وعلى كل حال فان نزلاء فندق باريس قد أظهرّوا لى مزيدا من التقدير والاحترام حين قصصت عليهم مشاحناتى مع القس . أما ذلك الذى كان أكثر الناس فظاظة معى على المائدة المهيأة ، وهو سيد بولونى ضخّم ، فقد توارى . حتى أن الفرنسيين لم يحتجوا حين رويت لهم أنتى قد رأيت منذ سنتين انسانا أطلق عليه صياد فرنسى ناره سنة ١٨١٢ ، لا لشيء الا ليفرغ شحنة بندقيته . وكان ذلك الانسان طفلا فى العاشرة من عمره ، لم يتسع وقت أسرته لأن تترك موسكو .

صاح الفرنسي الصغير يقول :

— مستحيل . ما من جندى فرنسى يمكن أن يطلق النار على طفل.

قلت :

— مع ذلك فقد وقع الأمر . ان تقييا محترما محالا على المعاش هو الذى روى لى هذه القصة ، وقد رأيت بأى عيني الندبة التى خلفها الجرح فى الخد .

وظفّق الفرنسي يتكلم متدفقا . وأراد الجنرال أن يدعمه ويؤيده، فنصحت له أن يقرأ ، على سبيل المثال ، « مذكرات » الجنرال بيروفسكى * الذى سجنه الفرنسيون سنة ١٨١٢ . وأخيرا أخذت مارى فيليبوتنا تتكلم فى موضوع آخر تغييرا لمجرى الحديث . وكان الجنرال مستاء منى أشد الاستياء ، لأننا كنا أنا والفرنسى قد أخذنا تنصايح فيما يشبه الشتائم . ولا كذلك مستر آستلى فقد لاح لى أن

تشاجرنا قد فاز برضاه ، حتى اذا نهضنا عن المائدة دعانى الى تناول قدح من الكحول معه .

واستطعت فى المساء أن أتبادل الكلام خلال ربع ساعة مع پاولين ألكسندروفنا كما كنت أرغب . وقد جرى الحديث بينى وبينها أثناء النزهة . كان جميع الحفل قد مضى الى الكازينو عن طريق الحديقة . فجلست پاولين على مقعد من المقاعد أمام نافورة الماء وأذنت لناذيا أن تروح تلعب مع أطفال آخرين على مسافة ما . وأرسلت أنا ميشا الى قرب حوض الماء ، فمكثنا أنا وپاولين نتحدث وحيدين .

تكلمنا أول الأمر عن الأعمال بطبيعة الحال . فما كان أشد استياء پاولين حين لم أنقدها الا سبعمئة فلورين على التمام والكمال ! فلقد كانت مقتنعة بأننى استطعت أن أقترض فى باريس مالا يقل عن ألفى فلورين لقاء رهن ماساتها . قالت پاولين :

— أنا فى حاجة الى المال مهما كلف الأمر ، فلا بد لى من الحصول عليه ، والا فقد ضعت .

سألتها عما جرى أثناء غيابى . فقالت :

— لا شئ . لقد تلقينا نبأين من بطرسبرج ، أولهما أن جدتى فى حالة صحية سيئة ، والثانى (وقد بلغنا بعد يومين) أنها لعلها توفيت . وأضافا پاولين الى ذلك قولها :

— وهذا عرفناه من تيموتى پتروفتش ، وهو انسان دقيق فيما ينقل من أبناء ، ونحن فى انتظار أن يتأكد الخبر .

قلت :

- فالجميع اذن هنا ينتظرون ؟
- نعم ، الجميع ينتظرون . لقد قضينا حتى الآن ستة أشهر لا نأمل غير هذا .
- أأنت أيضا تأملين ؟
- أنا لا أمت اليها بقربى ؛ ما أنا الا قرية الجنرال . ولكننى على يقين من أنها لن تسانى فى وصيتها .
- قلت بلهجة التأكيد :
- أظن أنك ستلتقين مبلغا ضخما .
- أظن ذلك ، فلقد كانت تحببني كثيرا . ولكن من أين تستمد أنت هذا الاعتقاد ؟
- أجبتها سائلا :
- قولى لى : هل المركز مطلع أيضا على جميع أسرار الأسرة ؟
- أيعنيك أن تعرف هذا ؟
- كذلك سألتنى پاولين وهى تنظر الىّ فى برود وقسوة .
- أظن ذلك . اذا لم يخطيء ظنى فان الجنرال قد استطاع أن يدبر أموره فيقترض منه بعض المال .
- تخميناتك صحيحة .
- أكان يقرضه لو كان يجهل قصة الجدة ؟ ألم تلاحظى حين كنا على المائدة أنه قد دعاها بابولنكا * ثلاث مرات اذ جاء على ذكرها ؟ يا لها من مودة حميمة بغير كلفة !

— نعم ، انك على حق . ولسوف يخطبنى متى علم أننى سأنال
من الميراث نصيبا . هذا ما ترغب فى معرفته ، أليس كذلك ؟
— أما يزال فى مرحلة التفكير فى خطبتك ؟ كنت أحسب أنه يعد
نفسه خطيبا منذ زمن طويل .

قالت پاولين غاضبة :

— أنت تعلم أن الأمر ليس كذلك .

وأردفت تسأل بعد لحظة صمت :

— أين التقيت بهذا الانجليزى ؟

— كنت على يقين من أنك ستطرحين علىّ هذا السؤال .

— وقصصت عليها لقاءاتى بمستر آستلى أثناء السفر . ثم أضفت :

— انه خجول وعاطفى ، ولا شك أنه قد وقع فى هوائك .

— نعم انه يجبنى .

— وهو أغنى من الفرنسى عشر مرات . هل للفرنسى ثروة حقا ؟

أهذا أمر لا يتطرق اليه أى شك اطلاقا ؟

— اطلاقا ! ان له قصرا منيفا . ولقد أكد لى الجنرال ذلك أمس .

أيكيفيك هذا ؟

— لو كنت فى مكانك لتزوجت الانجليزى .

— لماذا ؟

— الفرنسى فتى أجمل . ولكنه حقير مجرم . أما الانجليزى فرجل

شريف ، وهو فوق ذلك أغنى من الفرنسى عشر مرات .

قلت لها ذلك بلهجة قاطعة .

أجابت بهدوء :

— هذا صحيح ، ولكن الفرنسى مركزى ، وهو أذكى فؤادا
وأخف ظلا .

قلت بتلك اللهجة نفسها :

— أهذا مؤكد ؟

— مؤكد تماما ؟

كانت أسئلتى تسوء پاولين كثيرا ، ولاحظت أنها تريد أن تغىظنى
وأن تغضبنى بلهجة جوابها وغرابته . فلم ألبث أن ذكرت لها ذلك ،
فأجابت بقولها :

— صحيح . انه ليسلىنى أن أثير غيظك . وعليك أن تكافئنى
لمجرد أننى أسمح لك بالقاء هذه الأسئلة وتصور هذه الافتراضات .
قلت بهدوء :

— اننى أعترف لنفسى بحق القاء جميع ما أريد القاءه من أسئلة ،
لأننى مستعد لدفع أى ثمن تريدينه لها ، ولأننى لا أقيم لحياتى نفسها
أى وزن .

فانفجرت پاولين ضاحكة :

— لقد قلت لى ذات يوم ، ونحن على جبل شلانجنبرج ، انك
مستعد ، بكلمة واحدة منى ، أن تلقى بنفسك الى تحت ، منكس
الرأس ، بينما نحن على علو ألف قدم . لسوف أقول هذه الكلمة يوما ،

لا لشيء الا لأرى أأنت تقدم على التنفيذ حقا ؛ وثق أنتى سأظهر يومئذ
ما أتصف به من صلابة وحزم . أنا انما أكرهك لأنتى سمحت لك بتلك
الأشياء كلها ، وأنا أكرهك مزيدا من الكره لأننى لا غنى لى عنك .
انتى ما زلت فى حاجة اليك . فلا بد اذن من أن أدخرك .

قالت ذلك ثم نهضت . كانت تبدو خارجة عن طورها . لقد
أصبحت فى الآونة الأخيرة تختتم أحاديثنا دائما بمثل هذه اللهجة من
الشراسة والحقد ، وهو حقد لا تظاهر فيه ولا افتعال .

قلت لها ، رغبةً منى فى أن لا أدعها تمضى من غير تفسير :

— هل تسمحين لى أن أسألك من هى مدموازيل بلانش ؟ .

— أنت تعرف ذلك حق المعرفة . لم يحدث أى شيء جديد . ان
مدموازيل بلانش ستصبح زوجة الجنرال من غير شك ؛ هذا اذا صح
طبعا أن الجدة قد توفيت ، ذلك أن مدموازيل بلانش وأمها وابن عمها
المركزيز يعرفون جميعا تمام العلم أننا لا نملك شيئا البتة .

— وهل الجنرال هائم بها موله ؟

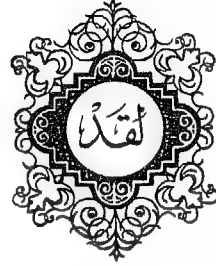
— ليس هذا هو الموضوع الآن . اسمع ما سأقوله لك وعه تمام
الوعى : خذ هذه السبعمائة فلورين ، والعب بها على الروليت ، واجن
أكبر قدر ممكن من الربح . لا بد لى من مال الآن ، مهما كلف الأمر .
قالت هذا الكلام ، ثم نادى ناديا وذهبت الى الكازينو تلتحق
بأصحابنا . وسرت أنا فى أول ممر على اليسار . كنت أفكر وأفكر
فما تنقضى دهشتى . ان هذا الأمر الذى أصدرته الى بالعب على
الروليت قد صعقتنى . والغريب فى الأمر أنى رغم كثرة ما يشغل بالى ،

غرقت غرقا كاملا في تحليل عواطفى نحو ياولين . صحيح أننى أثناء
الخمسة عشر يوما التى غبتها عنها كنت أشعر بخفة لا أشعر بمثلها
اليوم بعد عودتى ؛ ولكننى تأملت أثناء هذه الرحلة كمن فقد صوابه :
كنت أركض من مكان الى آخر كأن الشيطان يطاردنى ؛ وحتى فى
المنام كنت أراها دائما أمامى . وفى ذات مرة (كان ذلك فى سويسرا)*
خاطبتها بصوت عال ، فأضحك ذلك جميع من كانوا معى فى القطار .
مرة أخرى طرحت اليوم على نفسى هذا السؤال : «أأنا أحبها ؟» .
ومرة أخرى لم أستطع أن أجده لهذا السؤال جوابا ؛ أو قل اننى
أجبت ، للمرة المائة ، بأننى أكرهها ، نعم أكرهها . مرت بى لحظات
(وخاصة فى ختام الأحاديث التى تقوم بيننا) تمنيت فيها أن أهب
نصف عمرى فى سبيل أن أخنقها ! أقسم أنه لو كان فى وسعى أن أغمد
خنجرا مسنونا فى صدرها على مهل ، لشعرت من ذلك بمتعة فيما
أظن . ومع ذلك أقسم بأقدس ما أقدّس أننى لو طلبت منى ونحن على
جبل شلانجنبرج ، أن ألقى بنفسى من أعلى قمة يرتادها الناس ،
لرميت نفسى فورا ، ولشعرت من ذلك بغبطة . لقد كنت أعرف ذلك .
كان يجب أن ينحل هذا الأمر بطريقة من الطرق . وهى تفهم ذلك كله
أروع فهم ، فاذا تصورت أننى أدرك حق الإدراك أن لمسها مستحيل ،
وأنتى أعى كل الوعى أن رغباتى كلها عبث لا رجاء فيه ، شعرت من
ذلك بلذة لا تفوقها لذة . اننى على ثقة من ذلك . والا فهل كان لها ،
هى التى تملك ما تملك من رصانة وذكاء ، أن تعاملنى بهذه الألفة كلها
وبهذه الصراحة كلها ؟ يخيّل الى أنها حتى هذا اليوم تنظر الى نظرة
تلك الامبراطورة القديمة التى نضت عنها ثيابها حتى أصبحت عارية

كل العرى أمام عبد من عبيدها ، لأنها لا تعده رجلا . نعم انه يتفق لها في كثير من الأحيان أن لا تعدنى في الرجال .

ومع ذلك فقد عهدت الىّ اليوم بمهمة : أن أربح في الروليت مهما كلف الأمر . وليس يتسع الوقت لأن أتساءل لماذا يجب أن أربح، وخلال أية مدة من الزمن يجب أن أحقق هذا الربح ، وما هي الحسابات الجديدة التي بزغت في هذا الرأس الذي لا يكف عن العمل لحظة واحدة ! ثم ان من الواضح أن أحداثا جديدة كثيرة قد وقعت خلال هذه الأيام الخمسة عشر : اننى ما زلت أجهل الأحداث . فيجب علىّ أن أجلو هذا كله ، يجب علىّ أن أخرج هذا كله الى النور ، بأقصى سرعة . ولكن مهمة أخرى تقع على عاتقى الآن : هي أن أذهب الى الروليت .

الفصل الثاني



سأنتنى هذه المهمة والحق يقال : كنت قد قررت أن أقامر ، ولكننى لم أتوقع أبدا أن أبدأ المقامرة لغيرى . حتى لقد شعرت بشيء من الحيرة ، ودخلت قاعات المقامرة متجههم المزاج . وكل ما رأيته فيها قد ساءنى منذ أول نظرة . اننى لا أستطيع أن أحتمل تلك المقالات التى تكتب فى العالم بأسره ، وخاصة فى جرائدنا الروسية ، والتى يعالج فيها أصحابها كل عام تقريبا ، عند مطلع الربيع ، موضوعين اثنين : أولهما البذخ والترف فى قاعات المقامرة من مدن المياه على نهر الراين ، والثانى أكوام الذهب التى يزعمون أنها تتكسد على الموائد . هذا رغم أن هؤلاء الكتاب لا يؤجرون على هذه المقالات ، وإنما هم يتطوعون تطوعا منزها عن الغرض مبرأ من المنفعة. ان هذه القاعات الرديئة خالية من كل بهاء أو سناء ؛ والذهب فيها لا يتكوم على موائدها ويندر أن يثرى على هذه الموائد . لقد يفد طبعا من حين الى حين رجل شاذ الطبع متفرد المزاج ، انجليزى أو آسيوى (تركى كما حدث فى هذا الصيف) فيربح أو يخسر مبالغ خرافية فى مدة قصيرة . أما الآخرون فانهم لا يجازفون الا بدريهمات ؛ ولست ترى على المائدة الا قليلا من المال فى المتوسط .

حين دخلت قاعة القمار (لأول مرة في حياتي) بقيت بعض الوقت مترددا لا أعزم أمرى . أضف الى ذلك أن الجمهور كان يقف في طريقي . ولكن هبنى كنت وحيدا ، فأغلب ظني أنني كنت سأنصرف قبل أن أبدأ المقامرة . أعترف أن قلبي كان يخفق خفقانا قويا وأننى لم أملك رباطة الجأش وهدوء النفس . كنت مقتنعا منذ زمن طويل أنني لن أبارح رولتبرج كما جئتها ، وكنت مزمعا على أن لا أبارحها كما جئتها . فلا بد أن حدثا أساسيا حاسما سيتدخل في مصيرى لا محالة . يجب أن يقع هذا ، ولسوف يقع . ومهما يكن هذا الأمل الذى عقدته على الروليت سخيفا مضحكا ، فأننى أجد أن الرأى الذى يسلم به عامة الناس اذ يقولون ان من السخف أن يتوقع المرء من المقامرة أى شىء ، أقرب الى السخف وأبعث على الضحك ، لماذا تكون المقامرة أسوأ من أية وسيلة أخرى من وسائل الحصول على المال ؟ لماذا تكون المقامرة أسوأ من التجارة مثلا ؟ صحيح أن واحدا من مائة يربح . ولكن هل يهمنى هذا ؟

ومهما يكن من أمر ، فلقد قررت أولا أن لا أشرع جادا فى ذلك المساء . فاذا حدث شىء فسيكون من قبيل المصادفة العابرة . ذلك ما كنت أنويه . أضف الى هذا أنه كان علىّ أن أدرس المقامرة نفسها ؛ ذلك أننى رغم كثرة ما قرأت من أمور لا حصر لها فى وصف الروليت ، وقد قرأتها فى نهم شديد وشرهة قوية ، لا أستطيع أن أفهم شيئا من أصول ممارستها قبل أن أراها بعينى رأسى .

فى الوهلة الأولى ، لاح لى كل شىء قدرا ، قدرا حقيرا بالمعنى الأخلاقى . لا أريد أن أتحدث عن تلك الوجوه الشرهة القلقة التى

تحاصر موائد القمار عشرات بل مئات . اننى لا أرى أى ضير فى رغبة المرء فى أن يربح أكبر مقدار ، بأقصى سرعة . لطالما استبدلت فكرة ذلك الواعظ البطر الذى كان فى منجى من العوز والحاجة ، فقال فى الرد على ما ذكر له بعضهم من أنهم يقامرون على مبالغ زهيدة قال : « وهذا أنكى وأسوأ ، لأنه صادر عن طمع صغير » . لكأنه يظن الطمع الصغير والطمع الكبير شيئين مختلفين لا شيئاً واحداً . ان المسألة مسألة نسب . فما هو صغير فى نظر روتشيلد هو الثراء الطائل نفسه فى نظرى أنا . والناس فيما يتصل بالأرباح والخسائر ، لا فى الروليت فحسب ، بل فى كل مجال آخر ، انما يحركهم دافع واحد : هو أن يربحوا أو أن ينتزعوا شيئاً من شخص آخر . هل الربح والنفع عيبان فى ذاتهما ؟ تلك مسألة أخرى . وما هنا سأحلها . ولما كنت أنا ممن تستبد بهم الرغبة فى الربح الى أقصى حد ، فان هذا الطمع كله ، بل ان رذيلة الطمع هذه ، اذا شتمت هذا الاسم ، كانت قريبة منى مألوقة عندى ، ان صح التعبير ، منذ دخولى الى القاعة . لا شئ أمتع من أن لا يتخرج المرء أمام الآخرين ، بل ينطلق فى عمله صريحا لا يصده عنه صاد . وفيهم يخدع المرء نفسه ؟ ذلك أسخف وأعجب ما يشغل به الانسان باله . غير أن الشئ الذى كان يثير الاشمئزاز منذ النظرة الأولى فى هذا الحشد كله انما هو الجد الكبير والاهتمام العظيم بل والاحترام الهائل الذى كان هؤلاء الناس جميعا يحيطون به موائد القمار . من أجل هذا انما يجب أن نميز هنا تمييزاً واضحاً بين نوع من اللعب الرديء وبين اللعب الذى يباح لانسان محترم . هناك نوعان من المقامرة : مقامرة المهذبين من الناس ، ومقامرة الغوغاء . والحدود

بين هذين النوعين واضحة فاصلة . وما أعيب هذا في حقيقة الأمر !
 الرجل المهذب ، مثلا ، يمكن أن يجازف بخمس ليرات ذهبية أو عشر؛
 وقلما يجازف بأكثر من ذلك ، فإذا كان غنيا فقد يجازف بألف فرنك
 لكنه لا يفعل ذلك الا لعبا ، الا على سبيل التسلية ، من أجل أن
 يباع مجرى الربح أو الخسارة . فإذا ربح كان يمكن مثلا أن
 يروح يضحك ملء صوته ، وأن يشارك واحدا ممن حوله ملاحظاته ،
 بل وأن يقامر مرة أخرى مضاعفا رهانه ، ولكنه لا يفعل ذلك الا من
 باب حب الاطلاع ، بغية أن يلاحظ الحظوظ كيف تجرى وتدور ،
 بغية أن يجرى حسابات ، لا رغبةً مبتذلة منه في الربح . أى أنه
 لا يرى في جميع موائد القمار هذه (سواء الروليت منها أو « الثلاثين
 والأربعين ») الا تسلية جعلت للذة وحدها . حتى أنه ما ينبغي له أن
 تخطر بباله الاغراءات والمصائد التي يعتمد عليها « البنك » ؛ بل انه
 ليكون ظرفا وأناقاة منه أن يتخيل أن سائر اللاعبين ، أن جميع هؤلاء
 الصغار الذين يرتجفون من أجل فلورين واحد انما هم أناس مهذبون
 أغنياء مثله ، وأنهم لا يقامرون الا على سبيل التسلية ازجاءً للوقت .
 ان هذا الجهل الكامل بالواقع ، وهذه الآراء الساذجة في البشر تعد
 ولا شك من أرفع الأشياء ارسنقراطية .

كنت أرى أمهات يدفعن بناتهن الى أمام ، صبايا ضعيفات بريئات
 في الخامسة عشرة من أعمارهن أو في السادسة عشرة ، يعطينهن بضع
 نقود ذهبية ويعلمنهن سير اللاعب . فإذا ربحت الصبية أو خسرت ،
 انسحبت مفتتة ، تبسم ابتسامة واحدة لا تختلف باختلاف الربح
 والخسارة . وقد دنا جنرالنا من المائدة بثقة قوية متينة ، فهرع أحد

الخدم يدفع له كرسيا ، ولكنه لم ينتبه هو الى ذلك ؛ وأخرج محفظته ببطء ، وببطء أخرج من المحفظة ثلاثمائة فرنك ، نقدا ذهبيا وضعه على الأسود فربح ؛ فلم يأخذ المال بل تركه في مكانه على المائدة، فربح الأسود مرة أخرى ، وفي هذه المرة أيضا لم يأخذ المال بل تركه حيث هو ، فلما ربح الأحمر في المرة الثالثة خسر الجنرال ألفا ومائتي فرنك ، فانسحب مبتسما ، مسيطرا على نفسه كامل السيطرة . أنا واثق أن قلبه كان يضطرب ، فلو كان ما راهن عليه ضعفى المبلغ أو ثلاثة أضعافه لما ملك أن يحافظ على رباطة جأشه ، ولظهر اضطرابه . ومن جهة أخرى كان الى جانبى فرنسى ربح ثم خسر حوالى ثلاثين ألف فرنك ، وظل وجهه مع ذلك هادىء المظهر لم يثلمح فيه أثر من آثار انفعال . فليس للارستقراطى الحق أن يفعل ولو خسر ثروته كلها . يجب أن يظل المال دون الارستقراطى حتى لكان الارستقراطى لا يكاد يحفل به أو يقلق له . ومن الارستقراطية طبعا أن يظهر المرء جاهلا بالوحل والمشهد اللذين يضطرب فيهما هذا الحشد كله من الناس . ومع ذلك فإن الموقف المناقض موقف مرموق في بعض الأحيان كالموقف الأول سواء بسواء : أن تلاحظ هؤلاء الحشرات جميعا ، أى أن تنظر اليهم ، بل أن تراقبهم وترصدهم أيضا ، ولو بالنظارة المقربة . ولكن شريطة أن لا ترى في هذا الجمهور كله وفي هذا الوحل كله الا نوعا من تسلية ، الا تمثيلا أعد لدفع الملل عن « الجنتلمان » . وقد تقحم نفسك في هذا الجمهور ، شريطة أن تنظر حواليك مقتنعا كل الاقتناع أنك لست فيه الا مشاهدا ، وأنت لست منه ولا هو منك . على أنه لا يليق أيضا أن تلاحظ بكثير من اللاحاح واللجاجة : والا لم تكن

جديرا بصفة الجنتلمان ، لأن هذا المشهد لا يستحق على كل حال أن تشد اليه انتباهك متصلا غير منقطع . وقلّ بين المشاهد على وجه العيوم مشهد يستحق من الجنتلمان أن يشد اليه انتباهه متصلا غير منقطع . أما أنا فكنت أحس أن هذا كله يستحق انتباهها مشدودا متصلا ، لا سيما ممن لم يجيء ليلاحظ فحسب ، بل لينضم الى هذه الجماهرة كلها أيضا . ويجب أن يكون واضحا في الأذهان أنه لا محل فيما أسوقه الآن من ملاحظات ، مكان لآرائى الأخلاقية التى أضمرها فى قرارة نفسى . ومهما يكن من أمر ، فأنى أقول هذا الكلام تخفيفا عن ضميرى . ولكننى أحرص على أن أضيف ما يلى : لقد صرت فى الآونة الأخيرة أشعر بنفرة قوية من اخضاع أفكارى وأفعالى لأى مقياس أخلاقى . فأنا الآن مسوق فى اتجاه آخر .

ان هذه الجماهرة الوضيعة تقامر حقا على نحو قدر . بل لست بعيدا عن التفكير فى أن سرقات عادية تتقترف هنا كثيرا حول مائدة القمار . ان القيمّين « الكروبييه » الجالسين عند أطراف الموائد ، يراقبون المبالغ التى يضعها المراهنون ، ويجرون الحسابات ، فيقومون بعمل مضمّن مرهق . ويا لهم من لصوص ، هم أيضا ! ان أكثرهم فرنسيون ! على أننى اذا كنت أجرى هذه الملاحظات ، فلست أفعل ذلك من أجل أن أصف الروليت . فانما أنا أتلاءم مع الجو ، بغية أن أعرف كيف أسلك فى المستقبل . لقد لاحظت مثلا أنك كثيرا ما ترى يدا تمتد على المائدة فجأة فتلمّ ما تكون قد ربحت أنت . ويتبع ذلك أن تشب مشاجرة بطبيعة الحال ، وأن يعلو صراخ . وانى لا تحذاك

أن تستطيع البرهان باستشهاد الشهود على أن الريح كان ربحك أنت حقا .

كانت هذه المهزلة كلها ألغازا عسيرة على الحل فى نظرى . ولكننى تعلمت ، على نحو من الأنحاء ، أن المرء يراهن على أرقام (فاما شفع واما وتر) ، ويراهن على ألوان . فقررت أن أجازف فى ذلك المساء بمائة فلورين من أموال ياولين ألكسندروفتا . غير أنه أزعجنى أننى أقبل على اللعب لغيرى لا لنفسى . كان ذلك احساسا شاقا الى أبعد حدود المشقة ، وتمنيت أن أتخلص منه بأقصى سرعة . كنت أشعر طوال الوقت أننى اذ أبدأ اللعب لحساب ياولين انما أخرب حظى أنا . هل يستحيل حقا أن يدنو المرء من مائدة القمار دون أن تسرى اليه عدوى الايمان بالخرافات فورا ؟

ومن أجل أن أبدأ أخرجت خمسة فيدريكات * ، أى خمسين فلورينا ، فوضعتها على رقم شفع . ودارت الدائرة ، فربح الرقم ١٣ ؛ لقد خسرت اذن . فتأملت ألما شديدا ؛ ورغبةً منى فى الخلاص من هذه الورطة وفى الانصراف ، وضعت خمسة فردريكات أخرى على اللون الأحمر . فربح الأحمر . فوضعت الفردريكات العشرة .. فربح الأحمر أيضا . فتركت المبلغ كله ، فربح الأحمر مرة ثالثة . فتناولت أربعين فردريكا ، فوضعت منها عشرين على الأرقام الاثنى عشر من الوسط ، دون أن أعرف ما قد تعطيه هذه الأرقام عند الربح . فدفع لى المبلغ ثلاثة أضعاف . فجأة استحالت فردريكاتى العشرة الى ثمانين . لكننى شعرت عندئذ باحساس غريب بلغت من العجز عن احتماله أننى قررت أن أخرج من المكان . خيل الى أننى لو كنت ألعب لنفسى لما

لعبت على هذا النحو . ومع ذلك وضعت الثمانين فردريكا على رقم شفع . فربح الرقم « أربعة » : فتشقت ثمانين فردريكا أيضا . فوضعت المائة والستين فردريكا في جيبي ومضيت باحثا عن باولين ألكسندروفنا . كانوا يتنزهون جميعا في الحديقة ، فلم أرها الا على العشاء . لم يكن الفرنسي هناك في هذه المرة ، فاستطاع الجنرال أن يتمتع بكامل حريته . ورأى أن من الواجب أن ينهني مرة أخرى الى أنه لا يجب أن يرانى على مائدة القمار ، فهو يرى أننى اذا خسرت كثيرا أساء ذلك الى سمعته اساءة كبيرة . ثم أضاف يقول بلهجة فخمة :

— واذا ربحت كثيرا ، فان هذا أيضا يسىء الى سمعتى . طبعاً ليس من حقى أن أتحكم فى أفعالك ، ولكن يجب أن تقتنع أنت نفسك بأن ..

ولم يكمل جملته بل تركها معلقة على عادته .

فأجبت بلهجة جافة بأن ما أملكه من مال قليل جدا ، واننى اذن لن أخسر خسارة ظاهرة جدا ، ولو بدأت ألعب . وحين صعدت الى غرفتى أتيح لى أن أمد الى باولين المبلغ الذى ربحتة لها ، وقلت اننى لن ألعب من أجلها بعد اليوم قط .

فسألتنى بلهجة قلقة :

— لماذا ؟

فأجبت وأنا أنظر اليها دهشا :

— لأننى أريد أن ألعب لنفسى ، لأن هذا يزعجنى .

— اذن فما زلت تعتقد أن الروليت مخرجك الوحيد ، وسيلك
الوحيد الى الخلاص ؟
ألقت علىّ هذا السؤال ساخرة .

فأجبتها جادا كل الجد بأن هذا صحيح . أما عن يقيني بأننى
سأربح لا محالة ، فأتنى أسلم بأن ذلك يبدو مضحكا ، ولكن
« دعونى وشأنى » .

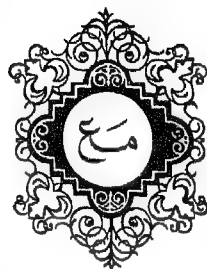
ألحت پاولين ألكسندروفنا على ضرورة أن أقاسمها ربح ذلك
اليوم ، ومدت الىّ ثمانين فردريكا ، عارضةً علىّ أن أستمّر فى المقامرة
على هذا الشرط . فرفضت رفضا قاطعا ، وأكدت لها أتنى اذا كنت
لا أستطيع أن أقامر للآخرين ، فما ذلك لأتنى لا أريد ذلك ، بل لأتنى
واثق من الخسارة .

قالت لى شاردة اللب :

— ومع ذلك ، فأنا أيضا لم يكذب يلقى لى من أمل فى غير
الروليت . لهذا يجب عليك قطعا أن تستمر فى اللعب على أساس
المنافسة . وستفعل ذلك . فهمت ؟

قالت هذا وتركتنى دون أن تستمع الى احتجاجاتى .

الفصل الثالث



ذلك لم تحدثنى أمس مرة واحدة عن اللعب . وتحاشت على وجه العموم أن تنجّه الىّ بكلام . انها لم تغير أساليبها في معاملتى . فاذا لقيتها قابلتني بذلك الهدوء المطلق نفسه ،

وبنوع من شعور مبغض محقّر . ومهما يكن من أمر فانها لا تحاول حتى اخفاء نفورها منى . اننى أرى ذلك واضحا كل الوضوح . على أنها ، رغم هذا ، لا تخفى عنى أيضا أنها فى حاجة الىّ ، وأنها تحتفظ بى لغرض أجهله . لقد نشأت بيننا صلات غريبة يصعب علىّ فهم أكثرها ، هذا اذا نظرنا بعين الاعتبار الى ما تقابل به سائر الناس من زهو و صلف واحتقار . انها تعرف مثلا اننى أحبها حب جنون . بل انها لتسمح لى أن أحدثها عن هيامى بها . وهل ثمة وسيلة أفضل من هذه الوسيلة لاطهار ازدرائها بى ؟ ان خير ما يمكن أن تفعله اظهارا لهذا الازدراء هو أن تتيح لى أن أحدثها عن حبى حديثا حرا طليقا لا تحول دونه حواجز أو حجب . فكأنها نقول : « اننى من قلة الاحتفال بعواطفك بحيث لا أكثرث أى اكتراث بكل ما قد تقوله ، بكل ما قد تعبّر لى عنه من عواطف » . ولقد كانت تحدثنى فى الماضى عن شئونها ، ولكنها

لم تكن في يوم من الأيام مخلصة صادقة . أكثر من ذلك أنها في استهانتها بى كانت تعتمد الى « براعات » من هذا القبيل : هب أنها كانت تعلم أتنى مطلع على ظرف من ظروف حياتها ، أو على احتمال من الاحتمالات يوقظ بعض المخاوف في نفسها : لقد كانت تقص على من تلقاء نفسها بعض هذه الأحداث ، اذا هى كانت في حاجة ، من أجل بلوغ أهدافها ، الى استخدامى عبدا أو ساعيا . ولكنها لم تكن تكشف لى الا عما لا بد من معرفته لانسان يوفد في مهمة . حتى اذا ظل ترابط الوقائع مجهولا لدى ، ولاحظت أن عذابها يعذبني ويقلقني لم تتنازل أن تطمئننى طمأننة كاملة بصراحة كالصرخة التى تكون بين أصدقاء ، مع أتنى أرى أنها ما دامت تعهد الى في كثير من الأحيان بمهمات دقيقة بل ومحفوفة بالمخاطر فقد كان عليها أن تصارحنى . ولكن أتراها كانت تحفل بعواطفى ، وتكثر بمشاركتي اياها مخاوفها ، وتهتم بضروب القلق التى كانت تثيرها في نفسى همومها مضاعفة ثلاث مرات في أغلب الظن !

كنت منذ ثلاثة أسابيع أعرف أنها عقدت نيتها على أن تلعب الروليت . حتى لقد طلبت الى أن أتولى اللعب نيابة عنها ، اذ لا يليق أن تلعب بنفسها . وقد لاحظت من لهجة كلامها أن هناك أمرا هاما يشغل بالها ، ليس مجرد الرغبة في المقامرة . والمال في ذاته لا يعينها . لا شك أن هناك هدفا وظروفا أستطيع أن أحتمها ولكننى ما زلت أجهلها . واضح أن وضع الاستعباد والاذلال الذى تضعنى فيه سوف يتيح لى (وهو كثيرا ما يتيح لى ذلك) أن أسأله بلا لف ولا دوران ولا كلفة . فما دمت عبدا لها ، وما دمت غير موجود في نظرها ،

فلا يمكن أن تشعر باهانة تلحقها اذا أنا لم ألتزم معها حدود الأدب ،
واذا أنا أظهرت شيئا من حب الاستطلاع . ولكنها في الواقع ، رغم أنها
تسمح لى أن أطرح عليها بعض الأسئلة ، لا تجيب على هذه الأسئلة ،
بل انها فى بعض الأحيان لا توليها أى ائباه ! تلكم كانت العلاقات
بيننا .

ولقد تحدثوا أمس كثيرا عن برقية أرسلت الى بطرسبرج منذ
أربعة أيام ولم يصل جوابها الى الآن . كان واضحا أن الجنرال
مضطرب مشغول البال . لا شك أن الموضوع يتعلق بالجدة .
والفرنسى مضطرب أيضا . من ذلك أنها ظلا يتحدثان ، أمس ، بعد
العشاء ، زمنا طويلا ، حديثا تبدو فيه علائم الجد . ان الفرنسى يصطنع
فى معاملتنا أوضاعا متعالية متعطرة لا يصدقها العقل ؛ يصدق عليه
المثل القائل : « تدعوه الى مأدتك فما يلبث أن يضع فوقها قدميه » .
وحتى مع باولين يصل عدم تحرجه الى درجة الغلظة والفظاظة . يجب
أن أضيف الى هذا أنه كان يشترك فى النزعات العائلية بحديقة
الكازينو ، أو فى النزعات التى كانت الأسرة تقوم بها ركوبا على الخيل
فى الضواحي . لقد اطلعت منذ زمن طويل على بعض الظروف التى
جعلت الفرنسى على علاقة بالجنرال : لقد كان فى نيتهما أن ينشئا
مصنعا فى روسيا معا . ولست أدري الآن هل هجر هذا المشروع
أم هما ما يزالان يتكلمان فيه . أضف الى ذلك أننى وقعت عرضا على
جزء من سرهما العائلى : ان الفرنسى قد أخرج الجنرال من مأزق
حقا فى العام الماضى ، اذ أقرضه ثلاثمائة روبل اكمالا للمبلغ الذى كان
الجنرال يدين به للتاج حين استقال من مناصبه . والجنرال هو الآن

فى قبضة الفرنسى . ولكن مدموازيل بلانش هى التى تمسك بالدور الأساسى فى هذه الكوميديا كلها ، وأنا على يقين من أننى لا أخطئ التقدير حين أقول هذا الكلام .

فمن هى مدموازيل بلانش ؟ يقال هنا عندنا انها فرنسية من طراز رفيع ، تسافر مع أمها ، وتملك ثروة طائلة . ويقال أيضا انها تمت بقرابة بعيدة للمركز من جهة العمومة . ويروى أن علاقات مدموازيل بلانش بالمركز كانت قبل رحلتى الى باريس تتصف بمزيد من الكلفة والتأنق . أما الآن فان صداقتهما وقرابتهما تظهران ظهورا أبعد عن التكلف وأقرب الى الصلة الحميمة . ولعل أوضاعنا تظهر لهما الآن على حالة من السوء تجعلهما يريان أنه من غير المفيد بعد اليوم أن يعمدا الى التظاهر والمراعاة والمدارة . وقد لاحظت أمس كيف كان مستر آستلى يتفرس فى مدموازيل بلانش وأمها . بدا لى أنه كان يعرفهما . حتى لقد اعتقدت أن صاحبنا الفرنسى قد سبق أن التقى هو أيضا بمستر آستلى . ومهما يكن من أمر فان مستر آستلى يبلغ من الخجل والحياء والخفر والصمت أنه لا يمكن أن يتعد عليه أى أمل : فسيظل الغسيل الوسخ يفصل داخل الأسرة . والفرنسى لا يكاد يحببه على كل حال ، ولا يكاد يوليه أى انتباه . معنى ذلك أنه لا يخشاه . وهذا أمر أفهمه . ولكن لماذا تتجاهله مدموازيل بلانش أيضا ؟ لا سيما وأن المركز قد زل لسانه أمس فجأة أثناء الحديث (لا أنذكر الآن فى أية مناسبة) فقال ان مستر آستلى ثرى ثراء فاحشا فهو يعرف ذلك . وفى تلك اللحظة انما كان على مدموازيل بلانش أن تنظر الى مستر آستلى ! المهم أن الجنرال قلق . ولا شك أنك تقدر مدى ما يمكن أن يكون لبرقية قد تصل من موسكو معلنة موت عمته من خطورة الشأن عنده !

ورغم اقتناعي بأن پاولين كانت تتحاشى عن قصد أن يقوم بينى وبينها حديث ، فقد اصطنعت هيئة البرود وقلة الاكتراث : كنت أقدر أنها ستقرر فجأة أن تجيء الىّ . وعلى خلاف ذلك وجهت انتباهي كله ، أمس واليوم ، الى مدموازيل بلانش . مسكين هذا الجنرال .. انه ضائع لا محالة . فلأن يهيم هذا الهيام كله ، وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ، قتلك مصيبة ولا شك . أضف الى ذلك ترملة ، وأولاده ، والدمار الذى هو فيه ، والديون .. وأخيرا هذه المرأة التى فتنت عقله وسحرت لبه . ان مدموازيل بلانش جميلة ولكننى لا أدرى هل يفهمنى القارئ اذا قلت ان وجهها هو من تلك الوجوه التى توقظ الرعب فى النفس . أنا على الأقل ، كنت أخاف دائما هذا النوع من النساء . انها فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، فارعة الطول ، جميلة الكتفين ، مكتنزة العنق والثديين ، لها بشرة بلون البرونز ، ولها شعر أسود كأنه الأبانوس سوادا ، الى غزارة تكفى رأسين لا رأسا واحدا . أما العينان فسوداوان ، الى ازرقاق فى بياضهما ، وجراحة فى نظرتهما . والأسنان ساطعة ، والشفتان مصطبغان دائما . والجسم كله يعقب بشذى كأنه المسك . وهى تحسن اختيار ملابسها ثرية باذخة ولكن على ذوق مرهف أتيق . قدماها ويدها رائعة . صوتها أبح . قد تضحك فى بعض الأحيان قهقهة فتظهر أسنانها كلها ، ولكنها فى أكثر الأحيان تظل صامتة صمتا فيه شىء من وقاحة ، على الأقل فى حضور پاولين ومارى فيليبوئنا (تروج الآن اشاعة غريبة هى أن مارى فيليبوئنا عائدة الى روسيا) . ويخيل الىّ أن مدموازيل بلانش ليست على شىء من ثقافة ، حتى لقد تكون غبية ،

ولكنها فى مقابل ذلك شديدة الحذر مأكرة . وأعتقد أن حياتها لم تخل من مغامرات . ومن الجائز جدا أن لا يكون بينها وبين المركز أية قرابة ، ومن الجائز جدا أن لا تكون أمثها أمثها حقا . ولكن يبدو أنها وأمثها كاتتا ، فى برلين ، حيث التقينا بهما ، على علاقات طيبة . أما المركز ، فأننى ما زلت أشك حتى الآن فى أنه مركز ، أما أنه ينتمى الى المجتمع الراقى ، سواء عندنا فى موسكو أو فى ألمانيا ، فذلك أمر يبدو أنه لامجال للريب فيه . لست أدرى ما هو فى فرنسا . يقال انه يملك هنالك قصرا . وقد أيقنت أن مياها كثيرة كان لابد أن تجرى تحت الجسور أثناء غيايى خلال خمسة عشر يوما ، ولكننى ما زلت لا أدرى على وجه الدقة هل تكاشف الجنرال ومدموزيل بلانش بكلام حاسم . ومهما يكن من أمر فان كل شىء مرهون الآن بأحوالنا ، أى بمقدار المال الذى يمكن يلاؤه الجنرال أمامهم . فاذا عثر مثلا أن الجدة ما تزال على قيد الحياة ، فيقضى أن مدموزيل بلانش ستختفى فورا . انى لأدرك بنفسى أن من الغريب والمضحك أن يصبح المرء ناما ومشاء الى هذا الحد . وان ذلك كله ليثير فى نفسى الاشمزاز جدا . وما أشد ما ستكون فرحتى حين أترك هؤلاء الناس جميعا ، وهذه الأمور كلها ! ولكن هل أستطيع أن أبتعد عن پاولين ، هل أستطيع أن لا أحوم حولها مستطلعا متجسسا ؟ صحيح أن التجسس أمر حقير .. ولكننى لا أعبا بهذا ..

أمس واليوم ، ظهر لى مستر آستلى غريب الأطوار هو أيضا . نعم اننى مقتنع بأنه يجب پاولين . انه لطيف ومضحك كل ما قد تعبر عنه فى بعض الأحيان نظرة رجل عاشق ، يتصف بالخجل الشديد،

وبالخفر الى درجة المرض ، بينا هو يؤثر أن يغيب في غياهب الأرض على أن يفضح نفسه بكلمة أو بنظرة . اننا كثيرا ما نلتقى بمستر آستلى أثناء النزهة : يخرج من مخبئه ويمضى في طريقه وهو يحترق رغبة في الانضمام الينا بغير شك . فاذا رجونا أن ينضم الينا أذعن على الفور . وفي الأماكن التي نستريح فيها ، سواء بالكازينو أو عند الفرقة الموسيقية أو أمام نافورة المياه ، فانه يقف دائما على مقربة من مقعدنا . وحيشا نكن ، سواء في الحديقة أو في الغابة أو في جبل شلابنبرج ، يكفي أن ندير البصر من حولنا حتى نرى مستر آستلى في أقرب ممر أو وراء دغل . يخيل الىّ أنه يبحث عن فرصة للتحدث معى خاصة . وقد التقينا في هذا الصباح فتبادلنا بضع كلمات . انه في بعض الأحيان يتكلم بجمل متقطعة . صاح يقول لى ، حتى قبل أن يحيينى تحية الصباح :

— آ .. الآنسة بلانش .. لقد رأيت نساءً كثيرات مثل الآنسة بلانش ! .

قال ذلك وصمت ينظر الىّ نظرة بليغة . لا أدري ما الذى أراد أن يقوله بهذا الكلام . ذلك أنه حين سألته : « ماذا تريد أن تقول » ، هز رأسه وهو يتسم ابتسامة مأكرة ، وأردف :

— هكذا .. هل تحب الآنسة پاولين الأزهار كثيرا ؟
قلت :

— لا أعرف .

فصاح مشدوها :

— كيف ؟ حتى هذا لا تعرفه ؟

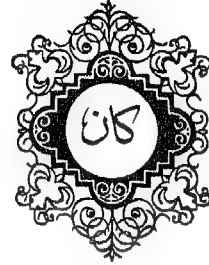
— لا ، لا أعرفه . لم أفطن الى ذلك ولم ألتبه اليه .

ذلك ما رددته وأنا أضحك .

— هيم° .. هذا يعطينى فكرة .

قال ذلك ثم حيانى بحركة من رأسه وتابع طريقه . وكان وجهه
ينم عن سرور على كل حال . وقد تحدثنا كلانا بلغة فرنسية فظيعة .

الفصل الرابع



النهار مضحكا فاضحا سخيفا . هي الآن الساعة الحادية عشرة من المساء . وهأنذا في غرفتي الصغيرة أحاول أن أرتب ذكرياتي . لقد ابتدأت الأمور في الصباح على النحو التالي : كان علىّ أن أذهب الى الروليت أقامر من أجل پاولين ألكسندروفنا . أخذت فردريكاتها الستمائة ، ولكن على شرطين : أولهما أننى لا أقبل أن ألعب على أساس المناصفة ، أى اننى اذا ربحت فلن آخذ لنفسى شيئا ؛ والثانى أن تشرح لى پاولين فى المساء لماذا هى فى مثل هذه الحاجة الماسة الى الربح ، وما هو المبلغ الذى تود أن تربحه . كنت لا أستطيع أن أفترض أنها تريد ذلك للمال وحده . لقد كان واضحا أنها فى حاجة كبيرة للمال ، لا أدرى لأى غرض . فوعدتنى پاولين أن تشرح لى ذلك . ومضيت .

الناس محتشدون فى قاعات القمار يسحق بعضهم بعضا . ألا ما أشد وقاحتهم جميعا ، وما أشد شراحتهم ! شققت طريقى بين الجمهور ووقفت قرب القيّم . ثم بدأت اللعب وجلا ، لا أجازف الا بليرتين أو ثلاث دفعة واحدة . وكنت أثناء ذلك أراقب

وألاحظ . يخيّل الى أن جميع هذه الحسابات ليس لها كبير قيمة ، وليس لها من خطورة الشأن ما يزعمه لها كثير من اللاعبين . ان هؤلاء يجلسون هنالك وبين أيديهم أوراق مملوءة أرقاما : فهم يسجلون الضربات ، ويعدون ، ويقدرّون الاحتمالات ، ويجرون عملية حسابية أخيرة ، ثم يراهنون بعد ذلك كله .. فاذا هم يخسرون ، كما يخسر الناس البسطاء الذين يلعبون دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الحساب . وفي مقابل ذلك استخرجت نتيجة تبدو صادقة : فالواقع أن تعاقب الحظوظ عرضاً يخضع لنوع من الترتيب ، ان لم يكن لنوع من النظام . ذلكم شيء غريب جدا بطبيعة الحال . انه يتفق مثلا أن يعقب ظهور الأرقام الاثنى عشر الوسطى، ظهور الأرقام الاثنى عشر الأخيرة. يحدث هذا مرتين مثلا . فالضربة تقع على الأرقام الاثنى عشر الأخيرة ، ثم تنتقل الى الأرقام الاثنى عشر الأولى ؛ حتى اذا وقعت على الأرقام الاثنى عشر الأولى عادت الى الأرقام الاثنى عشر الوسطى . وثلاث مرات أو أربعا متتالية تخرج الأرقام الوسطى، ثم تخرج الأرقام الاثنا عشر الأخيرة من جديد ؛ وبعد دورتين تعود الى الأولى ، التي لا تخرج الا مرة واحدة ثم تخرج الأرقام الوسطى ثلاث مرات متتاليات ، ويستمر ذلك ساعة ونصف ساعة أو يستمر ساعتين . واحد ، ثلاثة ، اثنان . واحد ، ثلاثة ، اثنان . شيء عجيب جدا . وفي أحد الأصباح أو في أحد الأصائل ترى الأسود والأحمر يتناوبان ، على غير نظام تقريبا ، وفي كل لحظة ، ولا يخرج كل لون الا مرتين متتاليتين أو ثلاثا حتى اذا جاء الغد أو كان المساء رأيت الأحمر وحده متلا يخرج ، حتى لقد يظل يخرج اثنتين وعشرين مرة متتالية . ويستمر الحال على هذا

المنوال زما ، وقد يستمر نهارا بأسره . اتى مدين بجزء كبير من هذه الملاحظات لمستر آستلى الذى يقضى النهار كله قرب موائد اللعب ، لكنه لا يقامر أبدا .

ولنعد الى ما حدث لى . لقد خسرت كل شىء حتى آخر قرش ، وذلك خلال برهة وجيزة . وضعت فى أول الأمر عشرين فردريكا على رقم شفع ، فربحت ، ووضعتهما مرة أخرى فربحت ، وهكذا مرتين أو ثلاثا . أعتقد أن المبلغ الذى تجمع بين يدي بعدئذ قد صار أربعمائة فريدريك فى مدى خمس دقائق . وقد كان علىّ فى تلك اللحظة أن أنصرف ، ولكن احساسا غريبا قام فى نفسى هو رغبة فى استفزاز القدر ، فى ثقل القدر على خده ، فى اخراج لسانى له . فجازفت بأكبر مبلغ تجوز المقامرة به : أربعة آلاف فلورين ، فخسرت . فازدادت حرارة رأسى فأخرجت كل ما كان قد بقى لى ، فوضعت حيث وضعت المبلغ الأول فى المرة السابقة فخسرت أيضا . عندئذ تركت المائدة طائش اللب مصعوقا . كنت عاجزا حتى عن استيعاب ما جرى لى ؛ ولم أبلغ پاولين ألكسندروثنا عثارى الا قبيل العشاء . أما ما قبل ذلك فقد ظلت أضرب فى الحديقة ذاهبا آيبا .

وأثناء العشاء كنت مضطربا كاضطرابى قبل ذلك بثلاثة أيام . وكان الفرنسى والآنسة بلانش ما يزالان يتناولان طعام العشاء معنا . وقد اتفق أن الآنسة بلانش كانت فى الصباح بالكازينو فشهدت ما وقع لى . فرأيتها فى هذه المرة تخاطبني بمزيد من الاعتبار . أما الفرنسى فقد مضى بخطوات أسرع وأصرح فسألنى من غير لف ولا دوران هل المال الذى خسرتة كان مالى أنا . أعتقد أنه يقدر أن المال مال پاولين .

« ان فى الرز بصلا » . فما لبثت أن ارتجلت الجواب فقلت ان المال الذى خسرتة مالى .

كان الجنرال دهشا الى أقصى حدود الدهشة : من أين جئت بهذا المبلغ كله ؟ فشرحت له ائتى قد بدأت المقامرة بعشرة فردريكات ، فلما ضاعفت المبلغ بعد ذلك ست مرات متتالية أو سبعا أصبح ما معى يبلغ خمسة آلاف فلورين أو ستة ، خسرتها بعدئذ فى ضربتين اثنتين.

هذا الكلام كله يحتمل التصديق طبعا . ولقد كنت أنظر الى ياولين أثناء ارتجالى تلك الشروح ، فلم أستطع أن أكشف فى وجهها عن أى تعبير . لكنها تركتني أتم كلامى دون أن تستوقفنى . فاستنتجت من ذلك أنه كان علىّ أن أكذب وأن أخفى أئنى قامرت بمالها . ومهما يكن من أمر فقد قلت لنفسى : ان عليها أن تشرح لى الليلة ما وعدتني بشرحه فى هذا الصباح .

وكنت أحسب أن الجنرال سيبدى لى ملاحظة ما ، ولكنه لزم الصمت . وفى مقابل ذلك ، رأيت فى وجهه أنه كان مضطربا قلقل . لعله ، وهو يعانى ما يعاينه من مصاعب ، لم يزد على أن آلمه أن يسمع واحدا من الناس يذكر أن كومة كهذه الكومة الكبيرة من الذهب قد صارت فى مدى ربع ساعة بين يدى غبى يبلغ هذا المبلغ كله من الطيش .

وأغلب الظن أنه قد نشبت بينه وبين الفرنسى فى مساء أمس مناقشة حادة . لقد تحدثا حديثا حارا عنيفا خلال مدة طويلة ، بعد أن أحكما اقفال باب الغرفة عليهما بالفتاح . وخرج الفرنسى من

الاجتماع حاقا غاضبا . وعاد في هذا الصباح يلقي الجنرال مبكرا ..
لاستئناف حديث الليلة البارحة ما في ذلك شك .

حين علم الفرنسي بخسارتي نبهني بلهجة ساخرة ، وشيء من الخبث
والمكر ، الى أن على المرء أن يكون أقرب الى التعقل والتبصر .
ولا أدرى لماذا أضاف الى ذلك قوله ان الروس عاجزون في رأيه عن
المقاومة رغم أنهم كثيرا ما يقامرون .

فقلت :

— في رأيي أنا أن الروليت لم تبتدع الا للروس .
فلما رأيت الفرنسي يسمعني ضحكة صغيرة تحمل معنى الاحتقار،
لفت نظره الى أنني على حق ، ذلك أن وصف الروس بأنهم مقامرون
يشتمل على تقرير أكثر كثيرا مما يشتمل على اطراء . فعليه اذن أن
يوافق على ما قلت . فسألني الفرنسي :
— على أي أساس تبني رأيك ؟

— على أساس أن ملكة جمع رؤوس الأموال قد دخلت ، خلال التاريخ،
في سجل فضائل الانسان الغربي المتمدن ومزاياه ؛ بل لعلها أصبحت
البند الرئيسي في هذا السجل . أما الروسى فليس عاجزا عن جمع
رؤوس الأموال فحسب ، بل أيضا يبعثر هذه الأموال هنا وهناك دون
أي احساس بما يحسن وما لا يحسن . ونحن الروس في حاجة أيضا
الى مال على كل حال . لذلك ترانا شرهين الى وسائل ، كالروليت
وما إليها ، نستطيع بها أن نحصل ثروة طائلة على حين بغتة خلال
ساعتين من غير أن نعمل . ان هذا يغرينا ويفتن لبنا . ولما كنا نقامر
بلا تعقل ونخطئ خبط عشواء دون أن يسوءنا ذلك ، فاننا نخسر .

قال الفرنسى موافقا على خيلاء :

— هذا صحيح بعض الصحة .

فقال الجنرال بلهجة قاسية متفخمة :

— بل هو خطأ . وعار عليك أن تقول مثل هذا الكلام فى حق بلدك .

فأجبتة قائلا :

— عفوك .. اننا لا نستطيع أن نقول أيضا أى الأمرين أسوأ :
أطيش الروس أم أسلوب الألمان فى جمع المال بالعمل الشاق الشريف !

صاح الجنرال متعجبا :

— يا لها من فكرة قليلة الحياء !

وصاح الفرنسى :

— فكرة روسية حقا !

وكنت أضحك . كنت أحترق شوقا الى وخزهما واستفزازهما ،
فقلت :

— انى لأؤثر طوال حياتى أن أعيش حياة بدواة مترحلة فى خيمة
من خيام الكرخيز على أن أعبد معبود الألمان .

فقال الجنرال وقد بلغ غضبه مبلغ الجد :

— أى معبود ؟

— أسلوب الألمان فى تكديس الثروات . اننى هنا منذ وقت
قصير ، ومع ذلك فان الأمور التى أتاح لى هذا الوقت القصير أن

ألاحظها وأن أتتحقق منها تشير طبيعتي التنرية وتبعثها على التمرد . يميناً
 اننى لا أريد لنفسى تلك الفضائل . لقد قطعت أمس حوالى عشرة
 فراسخ فى الضواحي . ان ما رأيته هو عين ما تقرأه فى تلك الكتب
 الألمانية الصغيرة التى تدعو الى مكارم الأخلاق وتزدان بالصور : لكل
 بيت ههنا « فاطر » * رهيب التمسك بالفضائل ، خارق التشبث بمزايا
 الاخلاص والشرف : هو من ذلك كله بحيث يخاف المرء أن يدنو منه .
 اننى لا أطيق أولئك الشرفاء الذين يخشى المرء أن يقترب منهم . ولكل
 « فاطر » أسرة يجتمع أفرادها كل مساء يقرأون جميعهم كتباً مثقفة
 بصوت عال ؛ وفوق البيت الصغير يسمع خفيف أشجار الدردار
 والكستناء .. غروب الشمس .. طائر على السطح .. كل ذلك شعري
 مؤثر الى أقصى الحدود .. لا تغضب يا سيدى الجنرال ، واسمح لى
 أن أتكلم عن الأسلوب الذى يؤثر فى القلب . أذكر أن المرحوم أبى كان
 يقرأ لنا كتباً من هذا القبيل ، يقرأها لى ولأُمى ، فى المساء ، تحت
 أشجار الزيزفون فى حديقتنا الصغيرة . فأنا اذن قادر على أن أقطع
 فى الأمر برأى . ان كل أسرة هنا يستعبد لها « فاطر » استعباداً كاملاً .
 انهم جميعاً يعملون كأبقار ويكنزون المال كيهود . فلنفرض أن الأب
 قد سبق أن جمع مبلغاً من المال ، وينوى أن يورث ابنه الأكبر مهنته
 أو أرضه : انه لن يمهر بنته التى لن تتزوج . وسيبيعون الابن الأصغر
 خادماً أو جندياً فيضمون ثمنه الى الميراث . هذا صحيح . هذا ما يحدث
 هنا . لقد سألت فعرفت أن هذا ما يحدث . وذلك كله انما مصدره
 الاخلاص ، مصدره اخلاص مسرف الى أبعد حدود الاسراف ، حتى
 ليعتقد الابن الأصغر الذى باعوه ، اعتقاداً جازماً ، انهم انما باعوه

بداعى الشرف والاخلاص . ذلك هو المثل الأعلى حقا ، حين تغتبط الضحية نفسها باقتيادها الى التضحية بها ! ثم ماذا بعد ذلك ؟ ان الابن الأكبر لن تكون حياته أملاً بالفرح : ان له فتاة يحبها قلبه ، ولكنه لا يستطيع أن يتزوجها ، اذ لم يجمع بعد مبلغ كاف من الفلورينات. وها هما ينتظران متمسكين بأهداب الفضيلة والاخلاص ، ويمضيان الى التضحية بتسمين . وتأخذ وجنتا الفتاة بالتخدر ، ويجف مأؤهما . وأخيرا ، بعد عشرين عاما ، يكون ما لهما قد ازداد ، فالفلورينات تكدست بالاخلاص والفضيلة . فيبارك « فاتر » ابنه الأكبر الذى بلغ الأربعين ، والفتاة التى بلغت الخامسة والثلاثين ، فذبل منها الصدر واحمر الأنف .. ويكى الأب فى هذه المناسبة ، ويعظ بمكارم الأخلاق، ويلفظ أنفاسه .. ويصبح الولد الأكبر « فانر » فاضلا هو أيضا ، وتكرر الحكاية . حتى اذا انقضى خمسون عاما أو ستون كان حفيد « فاتر » الأول قد جمع حقا رأس مال ضخيم ، فتركه لابنه ثم أورثه هذا ابنه ، وبعد خمسة أجيال أو ستة يظهر البارون دو روتشيلد بشخصه أو يظهر هوب وشركاه * ، أو يظهر لا أدري أى شيطان ! أليس هذا مشهدا فخما رائعا : قرن أو قرنان من عمل شاق وصبر دائب وذكاء نشيط ، واخلاص كامل ، وطاقة مستمرة ، وحزم صلب ، وتبصر بالمستقبل ! ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ لا شيء أروع من هذا ولا أرفع : ومن وجهة النظر هذه انما يأخذون يحكمون على العالم بأسره ، ويعاقبون المذنبين ، أى أولئك الذين يخلطون عنهم ولو أيسر الاختلاف ! ألا ان الاستهتار على الطريقة الروسية أو جنى الثراء بالروليت أحب الى نفسى وآثر فى قلبى . لا أريد أن

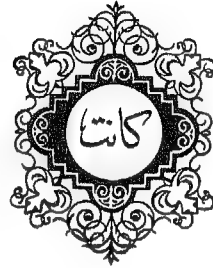
أكون هوب وشركاه في ختام خمسة أجيال ! اننى فى حاجة الى مال
لنفسى ، ولا أقيس نفسى أبدا برأس مال . أعرف أننى قلت سخافات
كثيرة . ولكن لا ضمير .. تلکم هى آرائى .

قال الجنرال مفكرا واجما :

— لا أدرى هل يشتمل كلامك على جانب من حق ، غير أن هناك
شيئا أنا منه على يقين ، وهو أنك تبدى غرورا لا يطاق متى ترك لك
الجل على الغارب ..

ولم يكمل الجنرال جملته ، على عادته حين يعالج موضوعا أوسع
قليلا من موضوعات الأحاديث العادية . ان جنرالنا لا يتم أبدا جملة
فى مثل هذه الأحوال . وكان الفرنسى يصغى الى الكلام محملا وقد
اتخذ وضع من لا يكثرث به . وكانت پاولين تظهر بمظهر متعال
لا يبالى ؛ حتى لكانها لم تسمع شيئا من هذه الأحاديث التى
دارت هذه المرة على المائدة .

الفصل الخامس



حاملة مفكّرة أكثر مما تكون كذلك
في العادة . ولكن ما ان نهضنا عن المائدة حتى
سألتنى أن أرافقها في النزهة . فأخذنا الأطفال
ومضينا الى الحديقة من جهة نافورة المياه .

واذ كنت مهتاجا شديد الاحتياج ، فقد سألتها في حماقة وفضاظة
وسرعة ، لماذا أرى أن صاحبنا المركيز دى جريو * ، الفرنسى القصير ،
أصبح لا يقتصر على أن لا يصحبها حين تخرج ، بل يبقى كذلك أياما
برمتها لا يخاطبها بكلمة .

فأجابتنى بصوت غريب :

— لأنه غليظ .

لم يسبق قط أن سمعتها تتكلم عن دى جريو بهذه الطريقة ،
فصمت ، خشية أن أفهم سبب هذا الحق وهذا الغليظ . ثم قلت :

— هل لاحظت أنه كان اليوم على غير وفاق مع الجنرال .

فأجابت بلهجة جافة مغتازلة :

— أنت تعلم أنه أقرض الجنرال مالا على رهن جميع أملاك

الجنرال . فاذا لم تمت الجدة آلت الرهائن كلها الى الفرنسى ،
فأصبح هو مالكما .

— أصبح اذن أن كل شيء قد رهن ؟ لقد سمعت عن هذا
الأمر ، لكننى لم أكن واثقا .

— بلى !

قلت :

— وداعا اذن يا مدموازيل بلانش . انها لن تصبح زوجة الجنرال .
هل تعلمين أنه يخيل الى أن الجنرال قد بلغ من فرط هيامه بالآنسة
بلانش أنه سوف ينتحر اذا هى هجرته . ان الغرام العنيف خطر
جدا فى مثل سنه .

قالت پاولين ألكسندروثنا حاملة شاردة :

— أعتقد أيضا أنه سيقع له شيء ما .

صحت قائلا :

— ألا ما أروع هذا ! ما من برهان أعنف من هذا البرهان على
أنها لم تكن راضية بالزواج منه الا فى سبيل المال . انهما لم يراعىا
حتى أصول اللياقة والحشمة ، ولم يحفلا بشيء البتة . هذا رائع !
ثم ما هذا الذى يعمدون اليه فيما يتعلق بالجدة ؟ هل هناك ما هو
أسخف أو أخط من ارسال البرقية ليسألوا : « هل ماتت ؟ هل ماتت ؟
هل ماتت حقا ؟ » . ما رأيك يا پولين ألكسندروثنا ؟

قالت تقاطعنى مشمئزة :

— ما هذا الكلام كله الا سخافات غبية ! وانى ليدھشنى أن تكون فرح المزاج الى هذا الحد . ما الذى يبهجك ؟ أتراك مبتهجا لأنك خسرت مالى ؟

— لماذا أعطيتنى هذا المال لأخسره ؟ لقد قلت لك اننى لا أستطيع أن ألعب لغيرى ، ولا أستطيع أن ألعب لك أنت من باب أولى ! اننى أطيع كل ما يمكن أن تأمرينى به . وقد حذرتك مع ذلك ، قائلاً انه لن يخرج من هذا كله خير . ولكن قولى : هل يؤثر فيك كثيرا أن تخسرى مثل هذا المبلغ الضخم من المال ؟ فيم كان يمكن أن ينفعك هذا المال ؟

— لماذا هذه الأسئلة ؟

— ولكنك وعدتني أن تشرحى لى الأمور .. اسمعى : أنا مقتنع بأننى اذا أخذت ألعب لنفسى (وعلى اتنى عشر فردريكا) فلسوف أربح . وسأعطيك عندئذ كل ما تريدينه من مال . فنظرت الى نظرة احتقار . فتابعت أقول :

— لا تغضبى منى اذا أنا عرضت عليك هذا . فان شعورى هو من شدة الامتلاء بأننى فى نظرك « صفر » بحيث تستطيعين أن تقبلى منى حتى مالا . ليس يضيرك ولا يلحق بك اهانة أن أقدم اليك هدية . ثم اننى قد خسرت مالك .

فرشقتنى بنظرة عجلى ؛ واذ لاحظت أننى أتكلم حائقا ساخرا ، غيرت موضوع الحديث مرة أخرى .

— لا شيء من أمورى يمكن أن يعينيك . فاذا حرصت على أن

تعرف ، فاعلم أن على ديونا . لقد افترضت مالا ، وأود أن أرد المال الى صاحبه . لقد راودتني فكرة مجنونة عجيبة هي أنتى سأربح هنا في القمار . لماذا ؟ لا أدري . ولكنني كنت أعتقد أنتى سأربح . ومن يدري ؟ لعل هذا الأمل قد استقر في نفسي لأنتى لم يكن لي خيار ، ولأن الربح في القمار كان آخر حظ يمكن أن أعوّل عليه .

— أو لأنه كان ينبغي الربح مهما كلف الأمر ؛ مثلك في ذلك كمثل انسان يغرق فاذا هو يتشبث بقشة . أكان يحسب القشة جذع شجرة لولا أنه كان بسبيل أن يغرق ؟

ظهرت الدهشة على پاولين . فسألتني :

— كيف ؟ أليس يراودك هذا الأمل نفسه أنت أيضا ؟ لقد قلت لي منذ خمسة عشر يوما ، وأنت تطنب في الشرح ، انك واثق من الربح هنا في الروليت ؛ ورجوتى أن لا أنظر اليك نظرتى الى مجنون . أكنت تمزح اذن ؟ لكننى أذكر أنك كنت تتكلم بلهجة تبلغ من الجذ أن المرء يستحيل عليه أن يحمل كلامك على محمل المزاح .

قلت مفكرا :

— صحيح . وما زلت واثقا كل الثقة أنتى سأربح . بل انى لأعترف لك بأنك تقودينى الآن الى أن أطرح على نفسى هذا السؤال : لماذا لم تؤد هذه الخسارة الغبية الفاضحة التى خسرتها اليوم الى ادخال الشك في نفسى ؟ اننى مازلت مقتنعا بأننى رابح حتما متى لعبت لنفسى لا لغيرى .

— لماذا هذا الاقتناع كله ؟

— الحق اننى لا أدرى . لكننى أعرف أنه يجب أن أربح ، وأن هذا الربح مخرجى الوحيد . ولعل هذا هو السبب أيضا فى شعورى بأننى سأربح لا محالة .

— اذن يجب أيضا أن تربح مهما كلف الأمر ، ما دمت على يقين يبلغ هذا المبلغ كله من الصلابة .

— أراهن أنك تشكين فى أن يكون من الجائز أننى أشعر بضرورة ماسة وحاجة ملحة ؟

قالت پاولين بلهجة هادئة غير مكترثة :

— ذلك أمر لا يعنينى فى شيء . ولكن ما دمت تسألنى فأنا أقول لك : نعم . اننى أشك فى أن يكون هناك شيء يعذبك عذابا عميقا . فلقد تشعر ببعض عذاب ، ولكن عذابك لا يمكن أن يكون خطيرا . أنت امرؤ مشوش لا تستقر على حال . ما حاجتك الى المال ؟ اننى فى كل ما ذكرته لى من أسباب ، ذلك اليوم ، لم أجد شيئا ذا بال . قاطعتها قلائلا :

— بالمناسبة ، قلت انك فى حاجة الى سداد دين ، دين كبير فيما يخيّل الىّ . أليس الفرنسى هو الدائن ؟

— ما هذا ؟ انك اليوم لفارس . أتراك سكران ؟

— أنت تعلمين أننى أبيع لنفسى أن أقول كل شيء ، وأن أطرح فى بعض الأحيان أسئلة مباشرة جدا . فأنا عبدك ، وما يستحق امرؤ من عبده ، ولا يشعر امرؤ بشيء من غضاظة أمام عبده .

— يا لها من سخافات ! اننى لا أطبق نظرية « العبودية » هذه
التي تعرضها !

— لاحظى أننى لا أتكلم عن عبوديتى لأننى أرغب فى أن أكون
عبدك . وانما أنا أتكلم عنها شيئا مستقلا عن ارادتى كل الاستقلال
— قل لى بصراحة : لماذا أنت فى حاجة الى مال ؟

— وأنت لماذا تريد أن تعرفى ذلك ؟
فأجاب تقول وهى تهز رأسها بحركة ملأى كبرياء :
— أنت حر ..

قلت :

— أنت لا تطيقين نظرية العبودية ، ولكنك تطيبين أن يستعبد
لك المرء : « أجب دون أن تناقش » . هذا لسان حالك . ألا فليكن
ما تريد : لماذا أنا فى حاجة الى مال ؟ هذا سؤالك . ويا له من
سؤال . ان المال هو .. كل شيء ..

— مفهوم . ولكن يجب أن لا يعجن المرء هذا الجنون كله رغبة
فى المال ! ذلك أننى أرى أنك تمضى الى حد الهذيان .. ان ثمة شيئا
بعينه ، ان هناك هدفا بذاته . تكلم بلا لف ولا دوران . أريد هذا .
لكنها أخذت تغتاظ . وملا لى افتتاناً أن أراها تظل تطرح
على أسئلة بهذه اللهجة الغضبية .

قلت :

— ان لى هدفا ولا شك . ولكننى لا أعرف كيف أشرح لك ما هو

هذا الهدف . كل ما هنالك أنتى بالمال سأصبح رجلا آخر ، حتى فى نظرك أنت ، فما أبقى عبدا .

— كيف ؟ كيف تصل الى هذا ؟

— كيف أصل الى هذا ؟ انك لا تستطيعين حتى أن تفهمى أن فى امكانى أن أصل الى أن تنظرى الى نظرتك الى انسان غير عبد ! وذلك بعينه هو ما أصبحت لا أريده . أصبحت لا أريد هذه الدهشات وهذه الاستغرابات !

— كنت تقول ان هذه العبودية تهىء لك لذائد عذبة . وكنت أنا أصدق هذا الكلام !

صحت أقول وأنا أشعر بلذة غريبة نادرة :

— كنت تصدقين ذلك ؟ يا لها من سذاجة جميلة ! نعم ان العبودية التى تخضعينى لها هى عندى لذة عذبة . ان المرء ليجد لذة فى أدنى درجة من درجات الانحطاط والمذلة ! (كذلك استمرت أهذى) . ومن يدرى ؟ فلعل المرء يجد هذه اللذة العذبة أيضا تحت ضربات المقرعة حين تهوى على ظهره وتسلخ جلده .. ولكن لعلنى أريد أن أشعر بمتع أخرى .. منذ قليل ، قرعنى الأمير أمامك ، من أجل سبعمائة روبل قد لا أقبضها يوما ؛ ورفع المركيز دى جريو حاجبيه يتفرسنى متظاهرا فى الوقت نفسه بأنه يجهل وجودى . هذا على حين أننى ربما كنت ، من جهتى ، أحترق شوقا الى أن أمسك بالمركيز ، أمامك ، من أرنبه أنهه .

— كلام صبية أغرار ! ان فى وسع المرء ، فى كل ظرف من الظروف،

أن يتصرف تصرفا يحفظ له كرامته . ان الكفاح يرفع قدر الانسان ولا يخفضه .

— جمل محفوظة أو أقوال مأثورة : هكذا تتكلمين ! انك تفترضين أننى لا أحسن الظهور بالمظهر الكريم ، وأننى على كونى انسانا ذا كرامة ، لا أعرف كيف أتصرف تصرفا يصون الكرامة .
تظنين أن الأمر يمكن أن يكون كذلك ! ألا ان جميع الروس هكذا .
لأن الروس يبلغون من غنى المواهب وتنوعها أنهم يعجزون عن أن يجدوا ، بسرعة ، شكلا يناسبهم . أما هنا فالشكل هو الأمر الهام .
اتنا ، نحن معشر الروس ، نبلغ من غنى المواهب أنه لا بد لنا من عبقرية حتى نجد لأنفسنا شكلا مناسباً . ونحن فى أغلب الأحيان تعوزنا العبقرية ، لأن العبقرية شىء نادر جدا على وجه العموم . ان الشكل ، لدى الفرنسيين وربما لدى أوروبيين آخرين أيضا ، يبلغ من كمال التحديد ودقة التعيين أن من الممكن أن يظهر المرء بمظهر كريم الى أبعد حدود الكرامة ولو كان أبعد الناس عن الكرامة . هذا هو السبب الذى يجعل للشكل لديهم هذه الأهمية كلها . ان الفرنسى قد يتحمل اهانة من الاهانات دون أن يقطب جبينه غيظا ، مع أن الاهانة قد تكون عميقة ، حقيقية ؛ ولكنه لن يتحمل بحال من الأحوال نفرة على أنه بسبابة ، لأن ذلك مخالف للآداب المقررة والشكل التقليدى . ولئن كنا نرى الفرنسيين يظفرون بهذه الخطوة وهذا النجاح لدى بناتنا ، فلأن لهم شكلا حسنا . على أننى ، من جهتى ، لا أرى هنا أى شكل وانما أرى ديكا ، ديكا من ديوك بلاد

الغال ؛ ولست بمن يستطيع أن يفهم هذا على كل حال ، لأننى لست امرأة . ولعل فى الديكة خيرا أجهله . ولكننى أقول ترهات ثم أنت لا توقفينى عن الكلام . ألا أوقفينى أكثر من ذلك . حين أتحدث اليك فانتى أحب أن أقول كل ما فى قلبى ، كله ، كله .. فأفقد القدرة على مراعاة أى شكل . بل اننى أعترف أننى لا أفتقد الشكل فحسب ، بل تعوزنى كل مزية . أصرح لك بهذا . حتى اننى لا أحفل بأية مزية . لقد تجمد الآن كل شئ فى نفسى . وأنت تعرفين سبب ذلك . لم يبق فى ذهنى فكرة واحدة . أصبحت منذ زمن طويل لا أعرف ماذا يجرى فى العالم ، لا فى روسيا ولا هنا . هذا مثل : لقد مررت بمدينة درسدن ، ونسيت ماذا تشبه هذه المدينة . انك تعرفين ما الذى يستغرقنى .. واذا لم يكن لى أى أمل ، واذا كنت فى نظرك صفرًا . فانتى أسوق كلامى صريحا صريحا : اننى لا أرى فى أى مكان شيئا سواك ، وكل ما عدالك فهو عندى سواء . لماذا أحبك ؟ وكيف أحبك ؟ لا أدرى . قد لا تكونين من الجمال على شئ البتة . هل تتصورين أننى لا أعرف أنت جسيلا أم لا ، حتى من ناحية جمال الوجه ؟ أما قلبك فسيء ولا شك ، وأما فمك فم الجائز جدا أن يكون مجردا من كل رفعة ونبيل .

— فلعلك لعدم ايمانك بنبلى بعّول على أن تشترينى اذن

بالمال ؟

هتفت أقول :

— متى عولت على أن أشتريك ؟

— لقد ضللت الطريق ، وفقدت المنطق . ان لم تكن تأمل أن

تشترينى أنا بالمال ، فان اعتبارى لك هو ما تأمل أن تشتريه .

— ليس الأمر كذلك تماما . قلت لك ان من الصعب على أن أشرح ما بنفسى . انك تسحقينى سحقا . لا تغضبىك ثرثرتى . أنت تفهمين لماذا يجب أن لا يزعل منى . أنا امرؤ مجنون ، هذا كل ما فى الأمر . على أن ذلك لا يهمنى ، فازعلى اذا شئت . انه ليكفينى وأنا بغرفتى الصغيرة ، فى أعلى ، أن أنذكر أو أن أنخيل حفيف ثوبك حتى أكون مستعدا لعض أصابعى . لماذا زعلت منى ؟ ألاأتى أعلن أننى عبدك ؟ استفيدى من عبوديتى ، استفيدى منها ! هل تعلمين أننى سأقتلك فى ذات يوم ؟ لا غيرة ولا لأننى أكون قد انتهيت من حبك ! لا ، وانما سأقتلك لمجرد أننى أشعر فى بعض الأيام برغبة فى أن ألتهمك . تضحكين ؟

قالت بلهجة غضبى :

— لست أضحك . ولكننى أمرك أن تسكت .

وتوقفت ، وهى تختنق غضبا . شهد الله لا أدري أهى جميلة ، لكننى أحب أن أنظر اليها حين تتوقف أمامى هذا التوقف ؛ ومن أجل ذلك انما أحب أن أستثير غضبها . ولعلها لاحظت هى ذلك ، فتعمدت أن تغضب . وقلت لها ذلك . فصاحت مشمئزة :

— يا للشناعة !

واستأنفت كلامى قائلا :

— يستوى عندى .. ثم اعلمى أيضا أن من الخطر أن تنزعه معا : فكثيرا ما تراودنى رغبة لا تقاوم فى أن أضربك ، فى أن أشوهك ،

فى أن أختقك . أنظنين أن الأمر لا يمكن أن يمضى الى هذا الحد ؟
 انك تعيظيننى . أتحيين اننى أخشى الفضيحة ؟ أتحيين أننى أخشى
 سخطك ؟ أنا أستخف بسخطك ! اننى أحبك بغير أمل ، وأعرف أن
 حى سيزداد بعد ذلك ألف مرة . واذا قتلتك يوما فسيكون على أن
 أقتل نفسى أيضا . ولكننى سأؤجل قتل نفسى ما استطعت الى التأجيل
 سبيلا ، حتى أشعر من فراقك بذلك العذاب الذى لا يطاق !
 هل تصدقين هذا الشئ الذى لا يصدق : أننى فى كل يوم أحبك أكثر
 مما كنت أحبك فى اليوم السابق ؛ وهذا أمر مستحيل مع ذلك !
 أفتريدين بعد ذلك أن لا أومن بالقدر ! تذكرى : لقد قلت لك
 أول أمس ، ونحن على جبل شلانجبرجر ، قلت لك بصوت خافت
 جدا ، حين تحدثتى : « قولى كلمة واحدة ، فأرمى بنفسى الى
 الهاوية » . لو أنك قلت تلك الكلمة اذن لرميت نفسى . أنت تصدقين
 هذا ، أليس كذلك ؟

صاحت تقول :

— ثرثرة غبية .

— يستوى عندى أن تكون غبية أو أن لا تكون كذلك .
 أنا أعلم أننى حين أكون معك أحتاج الى أن أتكلم ، أن أتكلم ،
 أن أتكلم .. فأتكلم . اننى حين أكون معك أفقد حب نفسى كله ،
 وليس يهمنى هذا .

قالت بلهجة خسنة ، ونبرة مهينة :

— فيم عساني أجبرك على أن تلقى بنفسك من قمة جبل
شلانجنبرجر ؟ لا فائدة من هذا البتة .

هتفت أقول :

— رائع ! لقد استعملت هذا التعبير الرائع عامدة لاذلالى :
« لا فائدة » . كشفتك . تقولين : « لا فائدة » . ولكن اللذة مفيدة
دائما ، والسلطة المطلقة التى لا حدود لها نوع من المتعة ، ولو كانت
سلطة على ذبابة . الانسان ظالم بطبيعته : انه يجب التعذيب .
وأنت تحبين هذا أكثر مما تحبين أى شىء آخر .

أذكر أنها كانت تفرسنى بائبناه خاص . لا شك أن وجهى كان
يعبر عندئذ عن جميع الاحساسات العجيبة السخيفة الخارقة التى
كنت أشعر بها . وأذكر الآن أن حديثنا قد جرى بهذه الألفاظ نفسها
التي أوردها هنا تقريبا . كانت عيناى محققتين دما . وكان الزبد يصعد
الى شفتى . أما عن قصة جبل شلانجنبرجر ، فأقسم بشرفى ، حتى هذه
اللحظة ، لكنت ألقى بنفسى الى تحت لو أمرتنى بذلك ؛ ولكنت أفعل
حتى ولو طلبته منى مازحة محنقة باصقة على .
قالت :

— لا ، لماذا ؟ اننى أصدقك .

ولكنها قالت ذلك بتلك اللهجة التى تجيد وحدها استعمالها ،
بلهجة تبلغ من الاحتقار والمكر والتعالى ما كان يمكن أن يدفعنى الى
قتلها فى تلك اللحظة . لقد عرّضت نفسها لمثل هذا فعلا . ولم أكذب
عليها حين قلت لها ذلك .

سألتني فجأة :

— أأست جيانا ؟

— لا أدرى . قد أكون كذلك . منذ زمن طويل لم أسأل نفسي
هذا السؤال .

— هبني قلت لك : « اقتل هذا الرجل » .. أقتلته ؟

— من ؟

— من أريد .

— الفرنسى ؟

— لا تسألنى بل أجبنى . أقتل من أسألك أن تقتله ؟ أريد أن
أعرف هل كنت جادا فيما كنت تقوله منذ هنيهة .

كانت من شدة الاهتمام ونفاد الصبر فى انتظار جوابى اننى
دُهِشت حقا . فهتفت أقول :

— هلاّ قلت أخيرا ماذا يحدث هنا ؟ أترأك خائفة منى ؟ اننى أرى
جميع التعقيدات التى تضطربون هنا فى زوبعتها . أنت قرية رجل مدمر
مجنون ، يخربه هيامه بهذا الشيطان .. الآنسة بلانش . ثم هنالك
الفرنسى وما له عليك من نفوذ خفى . وها أنت ذى تطرحين علىّ منذ
لحظة ذلك السؤال . فلا أعلم شيئا على الأقل . والا جنت واندفعت الى
تطرف لا نعرف ما عسى يكون ! أم تراك تستحين أن تشرفينى بصراحتك ؟
ولكن ليس فى الامكان أن تستحى أمامى .

— ما عن هذا قط أكلمك . لقد ألقيت عليك سؤالا وأنا أتنظر
الجواب .

فانفجرت أقول :

— طبعا أقتل من تسأليننى أن أقتله ، ولكن هل يمكن أن ..
هل يمكن أن تأمرينى بشئ من هذا القبيل ؟

— لا تقدّر على كل حال أننى سأدخرك ! وانما أنا أصدر اليك
أمرى ، وأبقى بعيدة . أفى وسعك أن تتحمل هذا ؟ ما أظن .. فلست
أهلا لذلك ! وسوف ترجع الى " تقتلنى لأننى تجرأت فأرسلتك ترتكب
جريمة .

شعرت بكلماتها كأنها تصعقنى صعقا . طبعا ، كنت حتى ذلك
الحين أحمل كلامها على محمل نصفه المزاح ونصفه التحدى . ولكنها
كانت قد تكلمت جادة مفرطة فى الجد . لقد أذهلنى أنها تكلمت على
هذا النحو ، فأكدت أن لها على مثل هذا الحق ، واعترفت لنفسها
بمثل هذه السلطة ، وقالت صراحة : « تهلك أنت ، وأبقى أنا بعيدة » .
ان فى هذه الأقوال من الاستهتار والصراحة ما يخرج فى رأى عن القصد
ويتجاوز الحد . وكيف تراها تتصرف معى بعد أن أنفذ أمرها ؟ ان
هذا يتخطى حدود العبودية والحنة . ان هذه الطريقة فى النظر الى
الأمر ترفعنى الى مستواها . ومهما يكن الحديث الذى دار بيننا
سخيفا لا يصدق فقد أحسست بقلبى يتهاوى .

وفجأة ، انفجرت ضاحكة . كنا جالسين على مقعد أمام الأطفال
الذين كانوا يلعبون ؛ تماما مقابل المكان الذى تتوقف عنده العربات
لتنزل الناس فى الممر المؤدى الى الكازينو .

هتفت تقول :

— أتري هذه البارونة الضخمة ؟ انها البارونة ثورمو هلم .
هى هنا منذ ثلاثة أيام فحسب . أنظر الى زوجها : هذا الپروسى النحيل
المتخلع الذى يمسك فى يده عصا . هل تذكر كيف تفرسا فينا
أول أمس . الحق فورا بالبارونة ، واطهر لها ، وقل لها شيئا
بالفرنسية .

— لماذا ؟

— لقد حلفت لى لترمين نفسك من أعلى جبل شلانجنبرجر
إذا أنا أمرتك بذلك ؛ وأنت تحلف اليوم أنك مستعد للقتل إذا أنا أمرتك
أن تقتل . فبدلا من هذه الجرائم وهذه المآسى أريد اليوم أن أتسلى
قليلا . أريد أن أرى البارون يضربك بعصاه .

— أتتحديننى ؟ أتظنين أننى لن أفعل ؟

— نعم أتحداك . هيا اذهب اليها . أريد ذلك .

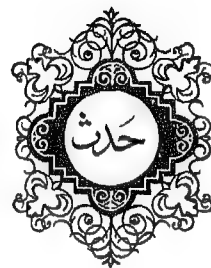
— طيب . سأذهب : ولكنها نزوة غريبة جدا . يجب أن لا يجلب
هذا الأمر بعض المكاره للجنرال ، ولا أن يجلب لك أنت بعض
المكاره تبعا لذلك . يميننا ما أنا بالخائف على نفسى ، بل عليك ..
وعلى الجنرال . أية فكرة غريبة هذه : أن أمضى أهين امرأة !

قالت لى باحتقار :

— ما أنت اذن الا ثرثار كما أرى . عيناك وحدهما كانتا محتقتين
منذ قليل . ولعل مرد ذلك على كل حال الى أنك أسرفت فى الشراب
أثناء الغداء . أنا أعرف أن ما أسألك أن تفعله سخيف ودنىء ، وأن

الجنرال سيغضب . ولكننى أحب أن أتسلى . هذا كل ما فى الأمر .
ولن تكون فى حاجة الى اهانة امرأة . لسوف تخطب قبل أن تفعل .
نهضت ومضيت أنفذ مهمتى دون أن أنطق بكلمة واحدة . واضح
أن الأمر كان سخيفا . ولم أستطع أن أتملص . ولكننى أذكر أنتى ،
بينما كنت أقترب من البارونة ، شبت فى نفسى رغبة فى أن أقارف عملا
أرعن طائشا . ثم انتى كنت من شدة احتياجى كسكران .

الفصل السادس



ذلك منذ يومين . با له من نهـار أحـمق !
 ما أكثـر ما ارتفع فيه من صياح ، وما قام فيه
 من ضجة وجلبة ، وما جرى فيه من تعليق
 وتعقيب ! وأنا السبب في كل هذا الهرج
 والمرج ، في كل هذا السخف ، في كل هذه العامية ! على أن الأمر
 مهزلة تبعث على الضحك ، في رأيي على الأقل . لا أستطيع أن أفهم
 ما وقع لي : أنا في حالة من حماسة وحميا ، أم أنا انسان خرج عن جادة
 العقل ، وراح يقارف السفاهات تلو السفاهات بانتظار أن يحبس ؟
 يخيل لي في بعض اللحظات انني بسبيل أن أجن ؛ ويخيل لي في
 بعض اللحظات أنني لم أكـد أتجاوز عهد الطفولة ، لم أكـد أخرج
 من المدرسة فأنا أندفع في أعمال صبيانية فظة مما يندفع فيه
 التلاميذ .

ان الخطأ خطأ ياولين ؛ ان كل الذنب ذنبها . لعنـى ما كنت أندفع
 في تلك الأعمال الصبيانية لولا أنها كانت هنالك . ومن يدري على
 كل حال ؟ لعنـى فعلت ذلك كله يأسا (رغم أن تفسير الأمر على هذا

النحو غباء) . ولست أفهم ، لا لست أفهم ما تتمتع به من مزايا .
 انها جميلة ، أو هذا ما أعنقده في أقل تقدير . ولست المجنون الوحيد
 بها . انها فارعة القوام ، حسنة الخلقة . لكنها نحيلة جدا . يخيل
 الى أن في وسع المرء أن يربطها عقدة أو أن يشيها نصفين . أثر قدمها
 طويل ضيق .. معذب . نعم معذب .. هذه هي الكلمة . في شعرها
 انعكاسات ضاربة الى حمرة . عيناها عينا قطة حقا .. وما أكثر
 ما تستطيع أن تضع فيهما من كبرياء وعجرفة ! منذ حوالي أربعة أشهر ،
 وكنت قد دخلت في خدمتهم منذ قليل ، شب بينها وبين دى جريو ،
 ذات مساء ، حديث طويل ، في الصالون . كانا يتكلمان في اندفاع
 وحرارة . فكانت ترمقه بنظرة تبلغ من القوة .. أتتى حين صعدت
 أنام بعد ذلك تخيلت أنها قد صفعته ، أنها قد صفعته منذ لحظة ،
 وأنها الآن واقفة أمامه تنظر اليه .. وفي المساء الما وقعت في
 هواها .

ولنعد الى ما وقع .

سرت في مضيق صغير يؤدي الى الطريق ، فتوقفت في وسطه
 أتنظر وصول البارون والبارونة . فلما صارا منى على مسافة خمس
 أقدام ظهرت لهما وألقيت عليهما السلام .

أذكر الآن أن البارونة كانت ترتدى ثوبا من حرير أشهب واضح ،
 واسع سعة عظيمة تبعث على الدهشة ، مزدان بتخاريم مطرزة ،
 ونسيج من شعر ، وذيل سابغ . انها قصيرة ، بديئة جدا ، لها ذقن
 كثيفة متراجعة تختلط بخديها ، ووجه أحمر ، وعينان صغيرتان خبيثتان

وقحطان ، ومشية تفيض طواعية وانقيادا . أما البارون فرجل جاف خشن ، طويل القامة ، ذو وجه مقلوب تخدده طائفة من غضون صغيرة . وهو يضع على عينيه نظارتين ، كمادة الناس في ألمانيا . وهو في الخامسة والأربعين من عمره ؛ تكاد ساقاه من طولهما أن تخرجا من صدره رأسا : وتلك علامة نبالة المحتد . انه مغرور كطاووس . ثقيل قليلا . وشيء من مظهر الخروف في التعبير ينوب عنده مناب العمق . لاحظت ذلك كله في بضع ثوان .

لم يكادا يلتفتان في أول الأمر الى تحيتي التي ألقيتها عليهما حاملا قبعتي في يدي . واكتفى البارون بأن قطب حاجبيه قليلا . وأقبلت البارونة على قدمي وهى تسير بخطى جليلة . قلت بصوت مسموع مفهوم ، مميّزا كل مقطع من مقاطع كلامي :

— سيدتي البارونة ، انه ليشرفنى أن أكون عبدك* .

قلت ذلك ثم انحنيت اجلالا ، وأعدت قبعتي الى رأسى ، ومضيت قرب البارون أنظر اليه بابتسامة رقيقة متوددة .

لقد أمرتنى پاولين أن أظهر لهما . أما التذللوات والصيانيات فهى من عندى أنا . لا يعلم الا الله ما الذى كان يدفعنى الى ذلك دفعا . كان يخيّل الى أننى أهوى من أعلى جبل .

— هيه ! .

كذلك صرخ البارون أو قل كذلك عوى وهو يستدير نحوى بدهشة غاضبة .

فالتفت متجمدا على وضع الاحترام ، منتظرا ما سيحدث ،
مستمرا في النظر اليه بابتسام . كان واضحا أنه متحير . ثم ها هو ذا
يقتطع حاجبيه الى أقصى حد ، ويكفهر وجهه شيئا بعد شيء مزيدا من
الاكفهار . والتفت البارونة أيضا الى جهتي دهشة مستاءة . وأخذ
مارة من الناس يراقبونا . حتى لقد توقف بعضهم يشاهد .

— هيه !..

كذلك عوى البارون مرة أخرى بصوت تضاعف صراخه وتضاعف
حنقه .

— يا فؤول * .

قلت له ذلك أجر الكلمة جرا ، وظللت أحرق في عينيه .

— أأنت مجنون . * ٩ .

قال ذلك ملوفا بعصاه ، حتى ليخال المرء حين يراه أنه أخذ
يرتجف . لعل ردائي هو الذى أدخل الاضطراب في قلبه ؛ وكنت حسن
الهندام ، بل جيد الأناقة ، كرجل ينتسب الى أرقى طبقة .

— يا فووول ..

صحت هكذا بكل ما أملك من قوى ، مطيلا « الواو » كما يفعل
سكان برلين الذين يستعملون هذه الكلمة « يا فؤول » في الحديث
كل لحظة مطيلين الواو أو مقصريها تبعا لاختلاف ما يريدون التعبير
عنه من الفكر أو من العاطفة بعض الاختلاف .

استدار البارون والبارونة فجأة ، وابتعدا بما يشبه الركض .
لقد خافا خوفا شديدا . أما المارة الذين تجمهروا فبعضهم أخذوا
يتكلمون ، وبعضهم راحوا ينظرون الى مدهوشين . ولست أذكر
جيذا على كل حال .

عدت أدراجى بخطواتى العادية نحو ياولين ألكسندروقتنا
ولكن ما ان صرت على مسافة مائة متر تقريبا من مقعدها حتى رأيتها
تنهض وتتجه نحو الفندق مع الأطفال .
وأدركنها أمام درجات سلم المدخل ، حتى اذا صرت حذوها
قلت لها :

— ها قد نفذت .. تلك السخافة .

فأجابتنى بقولها :

— والآن دبر نفسك .

وصعدت° درجات السلم ، حتى دون أن تلقى على نظرة .

ظللت السهرة كلها أطوف فى الحديقة . ثم اجتزت الحديقة ،
واستمرت أسير الى أن بلغت قرية من القرى ، قطعتم لدى بعض
الفلاحين بيضا وشربت خمرا ، فكلفتنى هذه القصة الشعرية تاليرا
ونصف تالير .

ولم أعد الا فى الساعة الحادية عشرة من المساء . فما ان وصلت
حتى استدعيت الى لقاء الجنرال .

ان أصحابنا يحتلون من الفندق شقتين . انهم يشغلون أربع غرف .
فأما الأولى فهي الصالون : غرفة واسعة يزيناها بيانو ذو ذيل ، وتتصل
بغرفة واسعة أخرى هي مكتب الجنرال . فهناك كان الجنرال
ينتظرنى واقفا فى وسط الغرفة ، متخذاً وضعا فى غاية الفخامة والجلال .
وكان دى جريو متمددا على الديوان فى تكاسل واسترخاء .

بدأ الجنرال كلامه قائلا :

— هلا أذنت لى أيها السيد العزيز أن أسألك ماذا فعلت ؟

أجبت :

— أوثر أن تمضى الى الأمر رأسا يا سيادة الجنرال . لعلك
تريد أن تكلمنى فى أمر لقاء مع أحد الألمان منذ قليل .

— أحد الألمان ؟ ان هذا الألماني هو البارون فورمرهلم .
انه شخصية كبيرة . لقد كنت فظا غليظا معه ومع البارونة .

— أبدا ..

— لقد أرعبتهما أيها السيد .

كذلك صاح الجنرال .

— لم أرعهما قط . لقد كنت فى برلين أسمع كلمة « ياقول »
هذه فى كل حديث ، يرددها الناس بعد كل كلمة ، ويطيبلونها اطالة
مزعجة . فلما صادفت البارون فى الطريق الذى تحف به الأشجار ،
استيقظت هذه الكلمة فى ذاكرتى فجأة (لا أدري لماذا ؟) ، فأنارت
حفىظتى .. زد على هذا أن البارونة قد لقيتنى فى الطريق ثلاث مرات
قبل ذلك ، فكانت تسير نحوى قدما كما لو كنت دودة من ديدان

الأرض يمكن سحقها . ويجب أن تسلم بأننى انسان له كرامته .
فما كان منى الا أن نزلت قبعتى وقلت لها فى أدب جم (أوكد أنتى
كنت جم الأدب) : « يشرفنى يا سيدتى أن أكون عبدك » . فلما التفت
البارون صارخا : « هيه ؟ » ، انتهت أن أصرخ أنا أيضا بقولى
« يا قول » . ولقد قلت هذه الكلمة مرتين : مرة بطريقة عادية ، ومرة
أخرى باطالتها ما وسعتنى الاطالة . هذا كل ما حدث .

أعترف أن هذا الشرح قد رافنى وفتنى الى أقصى حد يليق بفتى
وقع . كنت أحترق شوقا الى تطريز هذه القصة على أسخف صورة
ممكنة . وكنت كلما أمعنت فى ذلك ، ازددت تلذذا به .

صاح الجنرال :

— أنت تسخر منى فيما يبدو .

والنتف نحو المريكز فشرح له باللغة الفرنسية أننى كنت أسعى
الى خلق مشكلة حتما . فابتسم دى جريو ابتسامة احتقار ، رافعا
كتفيه .

هتفت أقول :

— لا تصدق هذا .. ليس فى الأمر شىء من ذلك قط . صحيح
أن حركتى كانت مزعجة .. أعترف لك بذلك صادقا مخلصا . ويمكن
أن توصف بأنها سخيفة ، بأنها عمل صبيانى قليل الحياء غبى .. لا أكثر.
واعلم ، يا جنرال ، أننى أشعر بندامة كبيرة على ما بدر منى . غير أن
هنالك ظرفا يكاد يعفينى فى رأى من الندم . اننى فى الآونة الأخيرة ،
منذ خمسة عشر يوما ، وربما منذ ثلاثة أسابيع ، أشعر بأننى فى حالة

صحية سيئة : اننى مريض ، عصبى ، سريع الاهتياج ، كثير الهواجس ، حتى لأفقد فى بعض المناسبات كل سيطرة على نفسى وكل تحكم بأعمالى . هذا صحيح . من ذلك مثلا أتنى قد شبت فى نفسى عدة مرات رغبة رهيبه فى أن أقوم فجأة الى المركز دى جريوف .. ولكن لا فائدة من اكمال كلامى .. والا فقد يشعر الأمير من ذلك باهانة فيثور غضبه .. المهم أن هذه الأشياء أعراض مرض .. لا أدرى هل تأخذ البارونة ثورمرهلم هذا الظرف بعين الاعتبار ، حين سأعتذر اليها (وفى نيتى أن أعتذر اليها) . ولكن أغلب الظن أنها لن تفعل ، خاصة وأن الناس ، فى الآونة الأخيرة ، قد أخذوا ، فيما أعلم ، يسيئون استعمال هذا المبرر فى عالم القضاء : فالمحامون ، فى القضايا الجنائية ، أخذوا يبررون جرائم موكلهم زاعمين أن هؤلاء كانوا لحظة ارتكاب الجريمة لا يشعرون بما يفعلون ، وأن هذا مرض من الأمراض . يقول هؤلاء المحامون مثلا : « لقد ضرب ، نعم . لكنه لا يتذكر الآن شيئا » . وتصور ، يا سيادة الجنرال ، أن الطب يؤيدهم .. فهو يدعى أن هناك مرضا من هذا النوع ، أن هناك جنونا موقتا اذا استبد بالانسان لحظة جعله لا يتذكر أو لا يتذكر الا نصف تذكر . ولكن البارون والبارونة هما من الجيل القديم ، ناهيك عن أنهما من النبلاء البروسيين وأنهما من الريف ، فهما لمّا يعلما ، بعد ، بهذا التطور الذى حققه الطب الشرعى ، لذلك لن يقبلا شروحي وتعليلاتى . ما رأى الجنرال ؟

قال الجنرال بغتة وهو يكظم استياءه :

— كفى أيها السيد كفى ! .. سوف أحاول، أن أجعل نفسى فى

منجى من أعمالك الصيبانية مرة واحدة الى الأبد . لن يكون عليك أن تعتذر للبارون والبارونة . ان أى اتصال لك بهما ، ولو اقتصر على الاعتذار اليهما ، سيبدو لهما ذلاً ما بعده ذل . وحين علم البارون أنك واحد من منزلنا ، حدثنى فى الأمر بالكازينو وأوشك أن يطالبني بترضية ، أعترف لك بذلك . فهل فهمت على ماذا حملتنى أنا ، أيها السيد العزيز ؟ لقد اضطررت أن أعتذر اليه ، وأن أعدده وعد الشرف أنك منذ هذا اليوم لن تكون واحدا من منزلنا ..

— اسمح لى ، اسمح لى يا جنرال ، أهو الذى طلب أن لا أكون منذ اليوم واحدا من منزلكم ، على حد تعبيرك ؟

• — لا .. ولكننى شعرت بأننى مضطر أن أصلح الأمر بهذه الطريقة ، وطبيعى أن يظهر البارون ارتياحه لذلك ورضاه به . بقى أن أدفع لك أربعة فردريكات وثلاثة فلورينات . فإليك مالك ، وهذا هو الحساب ، فى وسعك أن تراجعته . والوداع . فنحن بعد الآن غرباء لا يعرف بعضنا بعضا . اننى لم أجن منك الا ما يصدع الرأس ويزعج النفس . وسوف أستدعى « الجرسون » الآن فأقول له اننى لن أكون مسئولا عن نفقاتك بالفندق ابتداء من غد . الوداع .

تناولت المال والورقة التى سجل عليها الحساب بالقلم الرصاص ، ثم حييت الجنرال ، وقلت له بلهجة جادة كل الجد :

— ان الأمر لا يمكن أن ينتهى على هذا النحو ، يا جنرال . يؤسفنى ويؤلمنى أن البارون قد أبدى لك ملاحظات مزعجة ، ولكن اسمح لى أن أقول ان الخطأ خطؤك . فلماذا توليت أن تكون مسئولا

أمام البارون نيابةً عنى ؟ وما معنى هذا التعبير : « أنتى واحد من منزلكم » ؟ أنا معلم أولادك لا أكثر . فلا أنا ابنك ، ولا أنت وصى علىّ ، وما كان لك أن تسأل عن أعمالى . ان لى شخصيتى القانونية . عمرى خمسة وعشرون عاما . وأنا متخرج من الجامعة . وأنا نبيل . ولست أمت اليك بأية قربى ، فأنا غريب عنك كل الغرابة . ثق أن ما أحمله لمزاياك من احترام لا حد له هو الذى يصدنى الآن عن أن أطلبك باصلاح ما بدر منك حين أعطيت نفسك حق أن تكون مسئولا عنى .

بلغ الجنرال من شدة الانشداه أن تهدلت ذراعاها ؛ ثم اذا هو يلتفت نحو الفرنسى فجأة ، فيقول له موجزا اننى أوشكت أن أطلبه لمبارزة . فانفجر الفرنسى ضاحكا بقهقهة .

واستأنفت كلامى فقلت بهدوء كامل ، دون أن أدع لنفسى أبدا أن تستفزها قهقهات مسيو دى جريو :

— على أن حسابى لا يكون بذلك قد صفى مع البارون ، وما دمت قد رضيت اليوم أن تصفى الى شكاوى البارون ، وأن تعنى بشئونه هذه العناية ، فأنك قد دخلت فى هذه القضية بمعنى من المعانى، لذلك يشرفنى أن أبلغك يا سيادة الجنرال أنتى ، غدا لا بعده ، سوف أطلب البارون ، باسمى أنا ، بنفسير قاطع للأسباب التى حملته ، رغم أن شأنه كان معى ، على أن يتجاهلنى وأن يتجه الى شخص ثالث ، كما لو كنت غير قادر على أن أتحمل مسؤولية أفعالى ، أو كما لو كنت غير جدير بذلك .

وحدث ما كنت أتوقعه . فها هو ذا الجنرال يأخذه 'الخوف' اذ
يسمع هذه السخافة الجديدة . وصاح يقول :

— أترأى تنوى أن تسير بهذه القضية المشئومة أشواطاً أخرى !
ألا انك لتضعنى فى أخرج المواقف ! .. ولكن حذار أيها السيد ..
حذار ثم حذار .. والا فاننى أقسم بشرفى .. لاحظ أن فى هذا البلد
سلطات أيضا .. وأنا .. أنا .. الخلاصة .. نظراً لمركزى .. ونظراً لمركز
البارون أيضا .. الخلاصة .. لسوف توقعك الشرطة ، وسوف تطردك
من هذه المدينة ، منعا لك من ارتكاب فضيحة .. فاجعل هذا ماثلاً
فى ذهنك .. لقد حذرتك ..

كان الجنرال خائفاً خوفاً شديداً ، رغم أن الغضب كان
يخنقه خنقاً .

أجبت قائلاً بهدوء مثير :

— سيادة الجنرال ، لا يمكن أن يعتقل أحد لفضيحة قبل ارتكابه
الفضيحة . اننى لم أفاتح البارون بعد ، وما زلتَ تجهل كل الجهل من
أى جانب أنوى أن أواجه القضية ، وعلى أى أسس أنوى أن أعالجها ،
ان كل ما أريده هو أن أبدد ذلك الظن الذى يلحق بى اهانة كبيرة ،
ألا وهو أن هناك وصياً علىّ يملك أن يضغط على حرية ارادتى .
فأنت اذن تفزع وتقلق فى غير ما حاجة الى الفزع أو القلق .

بدل الجنرال أوضاعه المتكبرة فجأة فقلبها الى لهجة توسل وضراعة
حتى لقد أمسك بيدي ، وقال :

— ناشدتك الله ، ناشدتك الله يا الكسى ايثانوقتش ، دعك من

هذا المشروع السخيف المستحيل . تصور ما قد ينجم عنه ! مزعجات جديدة . لاحظ أن علىّ هنا أن أظهر بمظهر خاص ، لا سيما الآن ، لا سيما الآن .. لعلك لا تعرف الوضع كله . أنا مستعد لاستردادك متى سافرنا من هنا . أما الآن فالتقضية قضية شكل .. الخلاصة .. انك تعرف الأسباب التي تدفعني الى هذا دفعا .. ألكسى ايثانوقتشس ، ألكسى ايثانوقتشس (كذلك صاح يائسا) .

فرجوته مرة أخرى ، وأنا أنسحب ، أن لا يملكه القلق ، ووعده بان تجري الأمور مجرى حسنا ، وأسرت أبارح الغرفة .

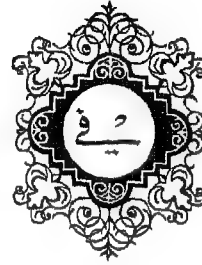
ان الروس يسرفون في الجبن أحيانا حين يكونون في الخارج . ان بهم خوفا رهيبا مما سيقال عنهم ، من نظرة الناس اليهم . انهم يخشون أن يخلوا بمظاهر اللباقة ، ولا سيما أولئك الذين يطمعون في أن يكون لهم شأن كبير . انهم يحرصون أشد الحرص على أن يراعوا ، مراعاة العبودية ، شكلا معينا سبق تصوره وسبق تقريره مرة الى الأبد ، سواء في الفنادق أو في النزعات أو في الاجتماعات أو في الأسفار .. ولكن الجنرال قد أقلت من لسانه أن هناك ظروفًا تضطره « الى الظهور بمظهر خاص » . فلذلك شعر فجأة بذلك الخوف كله ، وغير اللهجة التي كان يخاطبني بها . وقد لاحظت ذلك ووعيته . انه أجبن من أن يلجأ الى السلطات ، وعلىّ أن أعمل في روية وحذر .

على أنني لم تكن بي أى شهوة الى اغصاب الجنرال . ان ياولين هي من كنت أتمنى الآن لو أحققه . لقد بلغت من القسوة في معاملتي ، ودفعتي في طريق بلغ من السخف أنني أصبحت أرغب في حملها على

أن ترجوني هي نفسها أن أتوقف .. ان الأعمال الصبانية التي قد أقوم بها يمكن أن تسيء الى سمعتها هي أيضا . ثم ان احساسات جديدة ورغبات جديدة قد نبتت في نفسى : فلئن تلاشيت أمامها بارادتي ، مثلا ، فان ذلك لم يكن يعنى أبدا أننى ازاء الآخرين كدجاجة مبللة ، وليس الأمير حتما من كان عليه أن يؤدبنى « بالعصا » . كنت أريد أن أسخر من جميع هؤلاء الناس ، وأن أخرج من ذلك بأمجاد الحرب . لسوف يرون . ولا شيء يخشى منه ! وهبها لم تستدعنى ، فلسوف ترى على كل حال أننى لست بالدجاجة المبللة ..

وهذا نبأ مدهش : لقد علمت منذ لحظة من خادمة الأولاد التي صادفتها على السلم أن مارى فيليپوئنا سافرت اليوم وحدها الى ابنة عمتها بكارلسباد فى قطار المساء . ما معنى هذا ؟ وقالت الخادم ان مارى فيليپوئنا كان فى نيتها أن تسافر منذ زمن طويل . فكيف لم يعلم أحد بشيء من هذا ؟ على كل حال ، قد أكون الشخص الوحيد الذى كان يجهل الأمر . وقد أفهمتنى الخادم أن مارى فيليپوئنا قد قامت بينها وبين الجنرال مناقرة عنيفة أول أمس . فهمت . لا شك أنها .. مدموازيل بلانثس . نعم : ان شيئا حاسما بهم أن يقع .

الفصل السابع



هذا الصباح استدعيت خادم الفندق وطلبت اليه أن يجعل حسابي مستقلا . ولم يكن أجر غرفتي بالأجر الباهظ حتى أخاف فأترك الفندق نهائيا . كان معي ستة عشر فردريكا .. وهناك .. هناك .. ربما كانت تنتظرني ثروة ! شيء غريب : لم أكن قد ربحت بعد ، ولكنني أنصرف وأحس وأفكر كما لو كنت رجلا غنيا ، ولم يكن في وسعي أن أرى نفسي غير ذلك .

كنت أنوى ، رغم بكرة الصباح ، أن أذهب حالا الى مستر آستلي الذي كان يقيم في « فندق انجلترا » القريب من فندقنا كل القرب ؛ فاذا أنا أرى دى جريو داخلا الى غرفتي على حين فجأة . لم يكن قد حدث هذا قبل اليوم قط ، وأكثر من ذلك أن صلاتي بهذا السيد قد أصبحت في الآونة الأخيرة كلها بعيدة كل البعد متوترة أشد التوتر . حتى لقد أصبح لا يكفيه أن لا يخفى استخفافه بى واحتقاره لى ، بل أصبح كذلك يحاول اعلان ذلك جهارا .. أما أنا .. فكان لى من الدواعى ما يجعلنى لا أحبه ؛ حتى ليتمكن أن أقول اننى كنت أكرهه كرها .

لذلك أدهشنى مجيئه كثيرا ، وسرعان ما أدركت أن شيئا خاصا غير مألوف كان يحدث .

كان لطيفا معى كل اللطف ، وأخذ يطرئ غرفتى ؛ فلما رآنى أحمل قبعتى بيدى أدهشه أن أخرج للنزهة فى مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح . فقلت له اننى كنت ذاهبا الى مستر آستلى لبعض الأعمال ، فشرد لحظة ، وعبر وجهه عن هم شديد .

كان دى جريو رجلا كسائر الفرنسيين ، أى انسانا دمثا مرحا متى وجب عليه أن يكون كذلك ومتى كان ينفعه أن يكون كذلك ، ولكنه انسان ممل مضجر الى حد لا يطاق متى زالت الضرورة التى كانت تحمله على أن يكون دمثا مرحا . ان الفرنسى قلما يكون لطيفا محببا من أول اندفاعه ، وانما هو لطيف محبب على نظام مرسوم ، وبحساب مدروس . فاذا رأى مثلا أن من الضرورة أن يخرج على المألوف ، وأن يركب هواه ، وأن يشذ عن القاعدة ، وأن يتفرد فى السلوك ، رأى أشد ألوان الشذوذ اغراقا فى العجب تكتسى لديه أشكالا مقرررة مقبولة من قبل ، شائعة مبذولة من زمان بعيد . أما اذا ترك نفسه على سجيته الطبيعية فهو انسان وضعى ، بورجوازى ، تافه ، لا طعم له ؛ هو على وجه الاجمال أكثر من على وجه الأرض املا لا واضجارا . وفى رأى أن الاغرار وحدهم ، ولا سيما الفتيات الروسيات ، هم الذين يمكن أن يفتنهم الفرنسيون . وما من انسان حصيف الا ويلاحظ ثم يكره رأسا تلك السلسلة المتكرزة من الأشكال الثابتة التى يصطنعها الفرنسيون لطفاً فى الصالونات ، وطلاوة فى الحديث ، ومرحا فى الحركة .

بدأ الكلام يقول منطلق الحركة ولكن على لباقة وأدب :

— انما جئتكم اليوم لعمل . لا آكنمك أنتى موفد اليك من الجنرال
سفيرا أو وسيطا . اننى لم أكد أفهم شيئا من الحديث الذى جرى بينك
وبين الجنرال أمس ، لأننى أسىء معرفة اللغة الروسية جدا ، ولكن
الجنرال شرح لى كل شىء تفصيلا ؛ وأنا أعترف ..

فقاطعته قائلا :

— اسمع يا سيد دى جريو .. هأنت ذا ، فى هذه القضية أيضا ،
تقوم بدور الوسيط . أنا لست الا معلما ، ولم أزعم لنفسى يوما ترف
وجود صداقة حميمة بينى وبين هذا البيت ، ولا شرف وجود علاقات
وثيقة خاصة تربطنى به ، ولذلك فان هناك ظروفًا أجهلها . ولكن هلا
قلت لى شيئا : أأنت قد أصبحت الآن واحدا من الأسرة على وجه
التمام ؟ ذلك أتى أرى أنك تبلغ من الاهتمام بهذه الأمور جميعها أنك
تطرح نفسك وسيطا فى كل شأن ..

سأه سؤالى . انه سؤال مسرف فى الشفافية ؛ والرجل لا يريد
أن يكشف أمره .

قال فى جفاء وخشونة :

— تربطنى بالجنرال أعمال من جهة ، وظروف خاصة من جهة
أخرى . وقد أوفدنى اليك الجنرال لأرجوك أن تعدل عما كنت تنتويه
أمس . ان كل ما تخيلته شىء ظريف طبعًا . ولكن الجنرال يرجونى أن
ألفت نظرك الى أنك لن تصل الى أية نتيجة . وأكثر من ذلك .. أن
البارون لن يستقبلك وهو يملك على كل حال جميع الوسائل التى

تمكنه من تجنب ما قد يجيئه منك من ازعاجات . اعترف بهذا أنت نفسك . فقيم العناد اذن ؟ والجنرال يعدك بأن يستردك متى سمحت الظروف بذلك ، ويتعهد بأن يحتفظ لك حتى ذلك الحين بمرتباتك ألا ترى أن العرض مربح ؟

فأجبت بלהجة هادئة كل الهدوء أنه مخطيء قليلا ، وأن البارون قد لا يطردنى ، بل سيصغى الى كلامى . ورجوته أن يعترف بأنه انما جاء الى الآن ليعرف ما عسانى فاعلا على وجه الدقة !
قال :

— ما دام الجنرال مهتماً بالأمر هذا الاهتمام فانه ليسره طبعاً أن يعرف ما سأقوم به ؛ فذلك أمر طبيعى .

فأخذت أشرح ، وأخذ يصغى ، مسترخيا على مقعده ، مائلا برأسه قليلا نحوى ، وفي عينيه شعاع من استهزاء لا يخفيه ؛ أى كان يعاملنى بكثير من الاستعلاء . حاولت ما وسعنى ذلك أن أنظاھر بأئنى أعد هذه القضية على جانب عظيم من الخطورة . قلت ان البارون ، حين شكائى الى الجنرال كما لو كنت خادم هذا الجنرال ، قد خفض من شأنى أولا ، وانه ، ثانيا ، قد عاملنى معاملة شخص لا يمكن أن يكون مسئولا عن أفعاله ، بل ولا يستحق أن يخاطب . فلقد ألحقت بى اذن اهانة كبيرة . ومع ذلك ، فائنى ، نظرا الى فارق السن والمركز الاجتماعى ، الخ ، الخ (لم أكد أستطيع أن أحبس نفسى عن الضحك حين قلت هذه الجملة الأخيرة) ، لن أندفع الى ارتكاب عمل طائش جديد ، أى أئنى لن أطالب البارون صراحة ، بل ولا أن أعرض عليه

أن يصلح ما أفسد . ومهما يكن من أمر فأنا أرى أن من حقى تماما أن أعتذر اليه (وأن أعتذر الى البارونة خاصة) ، لا سيما وأنتى أشعر حقا فى هذه الأيام الأخيرة بأنتى مريض مهدم النفس غريب الأطوار ان صح التعبير ، الخ ، الخ . غير أن البارون نفسه ، اذ قام بذلك العمل الذى ألحق بى الالهانة ، وأصر على الجنرال أن يفصلنى من عملى ، قد وضعنى فى موقف أصبح يستحيل علىّ معه أن أعتذر اليه وأن أعتذر الى البارونة ، لأنتى لو فعلت لظن هو ولظنت البارونة ولظن جميع الناس ، بدون أى شك ، أنتى انما جئت أعتذر اليه خوفا وطمعا فى العودة الى عملى . وينتج عن هذا كله أنتى أجد نفسى الآن مضطرا أن أرجو البارون أن يعتذر هو الىّ أولا ، وذلك بعبارات معتدلة الى أبعد حدود الاعتدال ، كأن يقول مثلا انه لم يشأ أبدا أن يهيننى . فاذا وافق البارون على طلبى هذا ، يكون قد أطلق يدى من عقالهما ، فاعتذرت اليه صادقا من أعماق القلب .

وختمت كلامى قائلا : ان كل ما أطلبه هو أن يطلق البارون يدى من عقالهما .

— هه .. يا لها من حساسية ! ويا لها من حذاقات ! لماذا تعتذر ؟ هيا اعترف ، يا مسيو .. ، يا مسيو .. أنك دبرت هذه المكيدة كلها لازعاج الجنرال .. وربما كانت لك أهداف شخصية يا مسيو .. يا مسيو .. اعذرنى لقد نسيت اسمك .. مسيو الكسى ، أليس كذلك ؟

— ولكن اسمح لى يا عزيزى المركيز ، فيم يعنيك هذا الأمر ؟

— وفيهم يضير الجنرال هذا ؟ لقد قال لى أمس انه مضطر أن يظهر بمظهر ما .. اتنى لم أفهم شيئاً .

— هنا انما يكمن ظرف خاص ..

كذلك أجاب دى جريو بلهجة ضارعة متوسلة تشف شيئاً فشيئاً عن مزيد من الغضب . أنت تعرف مدموازيل دى كومانج ؟

— تقصد مدموازيل بلانش ؟

— نعم ، مدموازيل بلانش دى كومانج .. والسيدة والدتها .. انك تسلم أنت نفسك أن الجنرال .. أعنى .. أن الجنرال مغرم بها .. حتى أن .. حتى أن .. الزواج قد يتم هنا . فتخيل الفضائح والمشاكل فى هذه المناسبة ! ..

— لست أرى لا فضائح ولا مشاكل فيما يتعلق بهذا الزواج .

— ولكن البارون رجل شديد الغضب سريع التأثر : طبعاً روسى، كما تعلم ؛ ولسوف يثير الأمر شجاراً كما يشيره ألمانى ..

— سيكون هذا شأنى أنا ، لا شأنكم أنتم ، لأننى لست بعد الآن واحداً من المنزل (كنت أحاول أن أنغابى الى أقصى حد ممكن) . ولكن اسمح لى : لقد تقرر الأمر على هذا النحو : مدموازيل بلانش تتزوج الجنرال . فماذا ينتظرون إذن ؟ أقصد : لماذا يخفون الأمر ، لماذا يخفونه عنا على الأقل ، نحن أهل البيت ؟

— لا أستطيع أن .. على كل حال .. ليس هناك شىء حاسم بعد .. مع ذلك .. أنت تعلم أنهم ينتظرون أخباراً من روسيا . يجب أن يرتب الجنرال أموره ..

— ها .. ها .. الجدة العزيزة ..

رشقني دى جريو بنطرة كارهة مبغضة ، وقال يقاطعنى :

— انتى أعتمد اعتمادا قويا على رهافتك التى فطرت عليها ،
أعتمد على ذكائك وذوقك .. ويقىنى أنك ستفعل ذلك فى سبيل هذه
الأسرة التى استقبلت فيها استقبال قريب معزز مكرم ..

— اسمح لى .. لقد طردونى . انك تذهب الآن الى أن المسألة
مسألة شكل ، ولكن لابد أن تسلم معى بأنه اذا قال لك أحد الناس :
« أنا لا أريد طبعاً أن أشدك من أذنيك ، ولكن اسمح لى أن أشدك
من أذنيك مراعاة للشكل » لابد أن تسلم معى بأن الأمرين واحد .

قال بلهجة مستعلية متعطرسة :

— اذا كان الأمر كذلك ، اذا كان لا يجدى فيك أى رجاء ،
فدعى أوكد لك أن اجراءات ستتخذ . ان فى البلد سلطات مسئولة ،
ولسوف تطرد فى هذا اليوم نفسه .. أمر عجيب .. أفتى غر مثلك يريد
أن يطلب للنزال شخصية فى مثل منزلة البارون ؟ .. ثم تظن أنهم
سيدعونك وشأنك ! ثق تمام الثقة أن أحدا لا يخشاك هنا ! ولئن
قدمت اليك ذلك الرجاء ، لقد فعلت هذا من تلقاء نفسى ، لأنك أقلقت
الجزال . كيف تستطيع أن تتصور أن البارون لن يطردك بمجرد أمر
بسيط يلقيه الى خادم ؟

قلت هادفاً كل الهدوء :

— ولكنى لن أذهب الى البارون بنفسى . أنت مخطيء يا مسيو
دى جريو . ان الأمور ستجرى على غير هذا النحو الذى تصوره

خيالك . سوف أذهب توا الى مستر آستلى أرجوه أن يكون وسيطى ،
 أى بايجاز ، أن يكون معاونى . ان هذا الرجل يشعر بمحبة نحوى .
 فلن يرفض طلبى حتما . سيمضى الى البارون ، وسيستقبله البارون .
 لئن كنت أنا معلما ، ولئن ظهرت بمظهر المرءوس الخاضع لغيره العاجز
 عن الدفاع عن نفسه ، فان مستر آستلى هو ابن أخى لورد من
 اللوردات ، لورد حقيقى ؛ جميع الناس هنا يعرفون ذلك ؛ انه اللورد
 پيبروك ، وهو الموجود هنا الآن . ثق أن البارون سيكون مهذبا مع
 مستر آستلى ، وأنه سيسغى اليه . واذا لم يصغ اليه ، فان مستر
 آستلى سيعد ذلك اهانة لحقت بشخصه هو (وأنت تعرف مدى عناد
 الانجليز) ؛ فيرسل أحد أصدقائه الى البارون ، وان له لكثيرا من
 الأصدقاء . هل ترى الآن كيف أن الأمر قد ينحل على غير الصورة
 التى تخيلتها ؟

جزع الفرنسى حقا . والواقع أن هذا كله كان قريبا من الحقيقة ؛
 وكان يبدو علىّ اذن أننى قادر فعلا على أن أقوم بفضيحة .
 فعاد يقول بلهجة متوسلة :

— أرجوك .. دعك من كل هذا ! لكأنه يسرك أن تثير فضيحة !
 لكأنك لا تنشُد اصلاح ما فسد من الأمر ، بل تنشُد فضيحة . قلت
 لك ان هذا كله قد يصبح مثار تسلية وتفكه ، ولعلك محقق هذا
 الهدف .. ولكن ..

هنا لاحظ أننى أنهض وأتناول قبعتى فختم يقول :
 — لقد جئت اليك بكلمة من شخص .. فافقرأها .. وقد رُجيت أن
 أنتظر الجواب .

قال هذا وسل من جيبه ورقة صغيرة مطوية مختومة ، فمدها الى .

كانت الورقة من پاولين ، كتبت فيها بخط يدها ما يلى :

« سمعت أنك تنوى متابعة هذه القصة . أنت زعلان ، وقد بدأت تلعب لعب الصبية . غير أن هناك ظروفًا خاصة ، قد أشرحها لك يوما ، فرجائي اليك أن تتوقف وأن تعقل . ما أسخف هذا كله ! أنا فى حاجة اليك ، وقد وعدتني بأن تطيعنى . هل تتذكر جبل « شلانجبرج » ؟ أطلب اليك أن تكون طيعا ، بل أمرك أمرا اذا لزم . » .

المخلصة لك

پ

حاشية : « اذا كنت حائقا على بسبب ما حدث أمس ، فسامحنى » .

رأيت كل شئ يرقص وأنا أقرأ هذه الأسطر . اصفرت شفثاى وأخذت أرتعش . تظاهر الفرنسى الملعون بقله الانتباه ، وحوّل عينيه عنى كمن لا يريد أن يرى اضطرابى . كنت أؤثر لو ينفجر ضاحكا أمام أنفى . قلت :

— حسن . قل للآنسة أن تهدأ وأن تطيب بالا .

ثم ما لبثت أن أردفت أقول فجأة :

— ولكن اسمح لى .. لماذا انتظرت هذا الانتظار كله حتى تعطينى هذه الورقة ؟ كان فى وسعك أن تبدأ باعطائى هذه الورقة ، بدلا من قول تلك السخافات كلها ، اذا كنت قد جئت للقيام بهذه المهمة .

— كنت أريد .. على كل حال .. ان هذا الأمر كله يبلغ من الغرابة أن عليك أن تعذر ما رأيته من نفاق صبرى .. وهو طبيعى . لقد

كنت أريد أن أعرف ، بأقصى سرعة ، من فمك نفسه ، ما كنت تضر من نيات . وأنا أجهل على كل حال ما تتضمنه هذه الورقة ، فقدرت أن في الوقت متسعا لأعطائك أياها .

— فهمت الآن . كل ما في الأمر أنهم أمروك بأن لا تعطيني الورقة الا عند الضرورة ، وأن لا تستعملها اذا أنت استطعت أن تدبر المسألة بالنصح . أليس كذلك ؟ أجبنى بصراحة يا مسيو دى جريو !
قال وهو يصطنع أقصى التحفظ ، وينظر الى نظرة غريبة :
— ربما ..

تناولت قبعتي ؛ وحياني بحركة من رأسه ؛ وخرج . يخيل الى أنني رأيت على شفتيه ابتسامة ساخرة . وكيف يمكن أن لا يكون الأمر كذلك ؟

دندنت وأنا أهبط السلم :

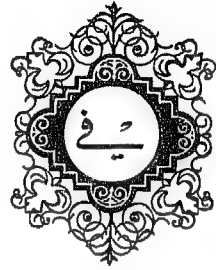
— ما يزال بيننا حساب يا أيها المتطرف .. ولسوف نعرف من يكون غالبا ومن يكون مغلوبا .

كنت ما أزال عاجزا عن جمع شتات فكري . كان يتراءى لى أنني كمن تلقى على رأسه ضربة مطرقة . ولكن الهواء النقي الطرى أحسن الى .

فبعد دقيقتين ، منذ أصبحت قادرا على التفكير ، عرضت لذهني فكرتان واضحتان : الأولى أن تسلية صبيانية ، وتهديدات خيالية قالها أمس في الهواء فتى غر ، قد أثارت ذعرا شاملا ؛ والثانية : ما أعظم ما لهذا الفرنسي اذن من نفوذ على پاولين ! كلمة واحدة منه تحملها على

أن تفعل ما هو في حاجة اليه ، فتكتب رسالة ، وتمضى الى حد أن
 ترجونى . صحيح أن العلاقات بينهما كانت دائما لغزا في نظرى .
 ولكننى لاحظت فى الأيام الأخيرة أنها أصبحت تنفر منه نفورا قويا ،
 بل تحتقره احتقارا . أما هو فكان لا يلتفت اليها ولا يلقى عليها نظرة ،
 وكل ما فى الأمر أنه كان فظا معها . وكنت أنا ألاحظ ذلك . حتى لقد
 أفرت لى پاولين بأشمئزازها منه ، وأفلتت من لسانها اعترافات بليغة
 الدلالة الى أقصى الحدود .. فهو اذن قابض عليها بيده ، وهى اذن
 خاضعة لسيطرته ..

الفصل الثامن



« النزهة » ، كما يقال هنا ، أى فى الطريق
الذى تصطف على حافتيه أشجار الكستناء ،
التقيت بصاحبى الانجليزى .
صاح اذ لمحنى يقول :

— أوه ! أوه ! أنا ذاهب اليك ، وأنت آت الىّ ! اذن فقد تركت
أصحابك ؟
فسألته مدهوشا :

— قل لى أولا كيف اطلعت على هذا كله . أجميع الناس على علم
اذن بالأمر ؟
— لا .. لا جميع الناس .. فالمسألة لا تستحق .. وما من أحد
يتكلم فيها .
— فكيف تعلم بها اذن ؟

— أعلم بها ، أو قل لقد أتيح لى أن أعلم بها عرضا . الى أين
أنت الآن ذاهب ؟ انى أحمل لك شعورا بالصدقة ، لذلك كنت
ذاهبا اليك .

قلت وقد تملكنتى الدهشة من اطلاعه على المسألة :

— انت رجل شهيم يا مستر آستلى ؛ واذا أنتى لما أشرب قهوتى
بعد ، واذا أنك لم تتناول فى أغلب الظن افطارك ، فهيا بنا الى الكازينو.
وسندخن هناك ، فأقص عليك كل شيء .. وربما رويت لى شيئا
أنت أيضا ..

كان المقهى على مسافة مائة متر .. شربنا ، وجلسنا جلسة مريحة ،
وأشعلت أنا سيجارة . وكان مستر آستلى لا يدخن ، وها هو ذا
يثبت نظره فى منتهيا للصغاء الى حديثى . بدأت الكلام بقولى :
— لن أسافر الى أى مكان . سأبقى هنا .
— كنت موقنا أنك باق .

كذلك قال مستر آستلى بلهجة التحييد والتأييد .

حين كنت ذاهبا الى مستر آستلى لم يكن فى نيتى أبدا أن
أحدثه عن حىي لپاولين . بل لقد كنت أريد أن أتجنب هذا الموضوع .
ولم أكن طوال تلك الأيام الأخيرة قد نبست بكلمة واحدة فى هذا
الشأن . ثم انه انسان خجول جدا . وكنت قد لاحظت الأثر القوى
الذى تحدثه لپاولين فى نفسه ، ولكنه لم ينطق باسمها فى يوم من
الأيام . شىء غريب عجيب : منذ جلس مستر آستلى وثبت فى نظره
الكايبة الملحاح ، شبت بى ، لا أدري لماذا ، رغبة عنيفة فى أن أروى له
كل شىء ، أى أن أحدثه عن حىي كله بجميع ما يشتمل عليه من ألوان.
فاذا أنا أتكلم نصف ساعة تماما ، واذا أنا أحس من ذلك بارتياح
عظيم : تلك أول مرة أفتح فيها نفسى لأحد فى هذا الأمر . واذا لاحظت

أنه كان يضطرب حين أصل من حديثي الى فقرات حارة ، فقد زدت حرارة قصتي عامدا . شيء واحد أندم عليه : لعننى أسرفت فى الكلام على الفرنسى .

كان مستر آستلى يصغى الىّ جالسا أمامى ، ساكنا لا ينطق بكلمة ولا يتفوه بحرف ، مثبتا عينيه فى عينى ، ولكن حين ألمعت الى الفرنسى ، استوقفنى فجأة وسألنى بلهجة قاسية هل يحق لى أن أذكر هذا الظرف الثانوى . لقد كان لمستر آستلى دائما طريقة عجيبة جدا فى القاء الأسئلة . قلت :

— انك على حق . أخشى أن لا يكون لى هذا الحق .

— عن هذا المركز وعن الآنسة پاولين لا تستطيع أن تقول شيئا معينا دقيقا الا على سبيل الافتراض ؟

— نعم ، لا شيء معينا دقيقا .. هذا أكيد .

— فاذا كان الأمر كذلك فقد أخطأت لا حين حدثتنى فى هذا فحسب ، بل حين فكرت فيه أيضا .

فقاطعته أقول وقد شعرت بدهشة بينى وبين نفسى :

— طيب . طيب . موافق .

ثم قصصت عليه قصة الأمس بحذايرها : نزوة پاولين ، مغامرتى مع البارون ، طردى من على ، ما أظهره الجنرال من جبن خارق ؛ وحكىته له أخيرا زيارة الفرنسى تفصيلا ، وختست القصة باظهاره على الورقة الى أرسلتها الىّ پاولين . ثم سألته :

— فماذا تستنتج من ذلك ؟ انسا جئت اليك لأسألك رأيك .

أما أنا فلا مانع عندي من قتل هذا الفرنسي الصغير المتظرف ، ولعلنى فاعل ذلك .

قال مستر آستلى :

— وأنا أيضا . أما عن الآنسة باولين .. فأنت تعلم أننا نعقد صلات حتى بأناس نكرهم ، اذا قادتنا الضرورة الى ذلك . فقد يكون هنالك صلات تجهلها ، صلات لها علاقة بطروف ثانوية طارئة . فتستطيع أن تطمئن نفسك من هذه الناحية .. بعض الطمأنينة طبعاً .. وأما عن نزوتها أمس فهي غريبة واضحة الغرابة ، لا لأنها أرادت أن تتخلص منك بإرسالك الى عصا البارون (واني لأستغرب حقاً أنه لم يستعمل العصا وقد كانت في يده) بل لأن نزوة كهذه من فتاة مرموقة مثلها .. هي نزوة تعوزها الحشمة .. وأغلب الظن أنها ما كانت تقدّر أنك تنفذ هذه الرغبة الخبيثة حرفاً حرفاً ..

هتفت فجأة أقول وأنا أتفرس في مستر آستلى :

— هل تعرف ؟ أحس أنك قد سمعت هذه القصة كلها . هل تدري ممن ؟ من الآنسة باولين نفسها !

فنظر الى مستر آستلى مندهشاً . ثم سرعان ما استرد هدوءه فقال :

— عيناك تلتصقان ، واني لأرى فيهما الاشتباه . وليس لك أن تدع لشبهاتك أن تظهر . اننى لا أعترف لك بهذا الحق ، وأرفض رفضاً قاطعاً جازماً أن أجيب عن سؤالك .

— طيب . دعنا من هذا . وما هو بالأمر المفيد على كل حال ..

هكذا صحت وقد أخذنى اضطراب شديد ، ولم أفهم كيف خطر
بإلى هذا . ثم متى وأين وكيف كان يمكن أن تكون پاولين اختارت
مستر آستلى نجيا لها تفضى إليه بأسرارها . ثم انتى فى هذه الأيام
الأخيرة كان مستر آستلى قد غاب عن عينى تماما . أما پاولين
فلقد كانت لغزا يحير عقلى دائما ، حتى أنتى الآن ، مثلا ، حين قررت
أن أحكى لمستر آستلى قصة حبى كلها فوجئت لحظة شرعت فى رواية
القصة بأنتى أكاد أعجز عن أن أذكر أى شىء دقيق واضح محدد
عن صلاتى بها . بالعكس : كان كل شىء أقرب الى الخيال ، غريبا ،
مهلهلا ، مفككا ، لا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء .

قلت وأنا أكاد ألث :

— طيب . طيب . لقد خرجت عن الموضوع ، وفقدت تسلسل
الكلام .. هناك أشياء أخرى كثيرة لا أقدر الآن أن أفكر فيها ..
ومهما يكن من أمر ، فأنت انسان شهم : وسأسألك الآن لا نصحا ،
بل سأسألك رأيك .

وصمت لحظة ثم أردفت أقول :

— ما هو السبب الذى جعل الجنرال يخاف ذلك الخوف
كله ، فى نظرك ؟ لماذا جعلوا من ذلك العمل الصياني المضحك
الذى عملته مأساة خطيرة ، حتى بلغوا من ذلك أن دى جريو نفسه
وجد أنه لا بد أن يتدخل فى الأمر (وهو لا يتدخل الا فى أخطر
الظروف شأنا) ، فجاء الى (نعم !) ، وأخذ يرجونى ، ويتضرع
الى ، هو ، دى جريو ! .. لاحظ أخيرا أنه جاءنى قبيل الساعة التاسعة،

وكانت ورقة الآنسة پاولين معه . فمتى كتبت تلك الورقة ؟ للمرء أن يسأل نفسه هذا السؤال . أتراهم أيقظوا الآنسة پاولين من نومها خصيصا لهذا الغرض ؟ اننى ، عدا كونى أستنتج من ذلك أن الآنسة پاولين مستعبدة له (ما دامت تسألنى أنا الصبح والمغفرة) ، أتساءل: ما شأنها هى فى هذا الأمر كله ؟ ما معنى شدة اهتمامها به ؟ لماذا خافوا من أول بارون يظهر لهم ؟ وما عسى أن يكون لهذا كله من شأن بزواج الجنرال ومدموازيل بلانش ؟ هم يقولون ان على الجنرال أن يظهر بمظهر خاص ، بسبب هذا الظرف ؛ ألا انه لمظهر خاص أكثر مما يجب . ألا توافقنى على ذلك ؟ ما رأيك أنت ؟ انى لأقرأ فى عينيك أنك هنا أيضا تعرف من الأمر أكثر مما أعرف .

ابتسم مستر آستلى وهز رأسه ، ثم قال :

— نعم . أعتقد فعلا أننى ، فى هذا الموضوع أيضا ، أعرف أكثر كثيرا مما تعرف . ان القضية كلها لا تتعلق الا بمدموازيل بلانش، وأنا على يقين بأن هذه هى الحقيقة المطلقة .

صحت أقول نافدَ الصبر (وقد أمّلت فجأة أن أعرف شيئا عن الآنسة پاولين) :

— ما شأن مدموازيل بلانش هنا ؟

— أعتقد أن للآنسة بلانش الآن مصلحة خاصة فى أن تتحاشى ، بأية طريقة ، أى لقاء مع البارون أو البارونة ، فكيف اذا كان لقاء مزعجا ، وكيف اذا كان لقاء فاضحا ؟

— دعك من هذا ..

— ان الآنسة بلانش كانت هنا فى رولتنبرج ، منذ سنتين ،
أثناء الموسم . واتفق ان كنت أنا أيضا هنا . ان اسمها حينذاك لم يكن
مدموازيل دى كومنج ، ولم يكن لمدام أرملة كومنج وجود فى ذلك
الوقت . ولا كان دى جريو هناك أيضا . وأنا مقتنع فى قرارة نفسى
لا بأنهم ليسوا أقرباء فحسب ، بل بأنهم لم يتعارفوا الا منذ وقت
قصير . ليس دى جريو مركيزا الا من عهد قريب : هناك ظرف
معين بجعلنى على يقين من هذا ؛ حتى ليمكن أن نفترض أنه لا يسمى
نفسه دى جريو الا منذ فترة . أعرف هنا شخصا قابله باسم آخر .

— ومع ذلك فان له حلقة متينة من العلاقات .

— أوه .. هذا ممكن جدا . وان مدموازيل بلانش نفسها يمكن
أن تكون لها علاقات . ولكن مدموازيل بلانش هذه قد استدعتها
الشرطة منذ سنتين ، بناء على شكايات من هذه البارونة نفسها ، وطلبت
اليها مغادرة البلد ، فغادرتها .

— كيف هذا ؟

لقد ظهرت أول الأمر هنا فى صحبة رجل ايطالى ، أمير ذى اسم
تاريخى ، باربيني .. أو شىء من هذا القبيل ، رجل تغطيه الخواتم
ويغطيه الماس . كانا يتنزهان فى عربة رائعة تخطب الأبواب . وكانت
مدموازيل بلانش تلعب « ثلاثين وأربعين » : ربحت فى أول الأمر ،
ثم دار الحظ على ما أذكر ؛ حتى لقد خسرت فى ذات مساء مبلغا
خرافيا . ولكن الأنكى من هذا أن أميرها غاب فى أحد الأصباح
لا يدرى أحد أين .. وغابت الخيول ، وغابت المركبة الفخية ، وغاب

كل شيء . وكانت مدينةً للفندق بمبالغ ضخمة . فكنت ترى مدموازيل زلما (استحال اسم دى بارينى الى اسم مدموازيل زلما فجأة) فى ذروة الألم واليأس ، فهى تنتحب وتسلأ الفندق نعاقا وعباطا ، وتأخذ تمزق ثوبها وهى فى سورة الحنق والغيط . وكان أيامئذ فى الفندق كونت پولونى (ان جميع البولونيين كوتات حين يكونون على سفر) ، فلما رأى مدموازيل زلما تمزق ثيابها وتخدش وجهها يديها الجميلتين المعطرتين ، كما تفعل قطة ، أحدثت فى نفسه بعض التأثير ، فجرى بينهما حديث ، فما جاء موعد العشاء الا وكانت زلما قد تأست عن حزنها ؛ حتى اذا كان المساء ظهرت فى الكازينو متأبطة ذراع الكونت البولونى ؛ فكانت تضحك ضحكا عاليا على عاداتها ، وأصبحت أكثر انطلاقا على السجية فى حركاتها ، فسرعان ما أصبحت فى عداد تلك الزمرة من السيدات اللواتى اعتدن لعب الروليت ، فاذا أرادت احداهن أن تشق لنفسها طريقا الى مائدة القمار رأيتها تدفع أحد اللاعبين من منكبها لتتخذ لها مكانا . هذه أنافة خاصة من أناقات السيدات هنا ، لا بد أنك لاحظتها .

— نعم لاحظتها .

— والأمر لا يستحق ذلك . ان الناس يحتملوهن هنا على مضض ، أو يحتملون على الأقل أولئك اللواتى يبدلن أوراقا نقدية من ذات الألف فرنك . حتى اذا انقطعن عن تبديل الأوراق النقدية ذات الألف فرنك ، أخذوا يرجونهن أن يبتعدن . وقد استمرت مدموازيل زلما تبديل أوراقا نقدية من ذات الألف فرنك ، ولكن حظها فى القمار ساء مزيدا من السوء . لاحظ أن أمثال هاته السيدات

كثيرا ما يحالفهن الحظ في اللعب ، فانهن يملكن السيطرة على أنفسهن .
على أن حكايتي قد انتهت . ففي ذات يوم اختفى الكونت كما اختفى
قبله الأمير . فجاءت زلما تقامر في المساء وحيدة ، لم يتقدم اليها هذه
المرّة أحد بذراعه تتأبطها . فما انقضى يومان حتى كانت قد خسرت كل
ما كانت تملك ، ولما قامرت بآخر ليرة ذهبية فخسرتها ، نظرت حولها
فرأت البارون ثورمرهلم يتأملها بانتباه وقد ظهر في وجهه استياء
عميق ؛ لكن مدموازيل زلما لم تميز الاستياء ، فاتجهت الى البارون
بابتسامة لا لبس فيها ، راجية منه أن يضع من أجلها عشرة ليرات
ذهبية على الأحمر . وبعد ذلك ، على أثر شكاية قدمتها البارونة ،
طلب من مدموازيل زلما أن لا تظهر بعد ذلك اليوم في الكازينو . فاذا
كان يدهشك أنتى أعرف جميع هذه التفاصيل التفاهة ، فاعلم أنتى
اطلعت عليها من مستر فيدر ، وهو قريب من أقربائي اصطحب
مدموازيل زلما في ذلك المساء نفسه الى « سپا » بمركبته . فافهم
الموضوع اذن : اذا كانت مدموازيل بلائش تريد أن تصبح زوجة
جنرال فأغلب الظن أنها تريد ذلك حتى لا يطلب اليها بعد الآن طلب
كذاك الطلب . لقد أصبحت لا تقامر ، ولكن ذلك يرجع الى أنها
تملك الآن ، كما تدل على هذا جميع القرائن ، رأس مال تقرضه
للمقامرين هنا بفائدة . ذلك أقرب الى العقل وأدنى الى الحكمة .
وفى ظني أن الجنرال المسكين واحد من المدينين لها . ولعل دى جريو
يدين لها بمال أيضا .. اللهم الا أن يكون شريكها . فافهم اذن لماذا
لا تتمنى مدموازيل بلائش ، على الأقل الى أن يتم الزواج ، أن تلفت
اليها انتباه البارون والبارونة . ان الأمر أمر فضيحة يمكن أن تسيء

اليها أكثر مما يمكن أن يسيء اليها أى شىء آخر فى الظرف الذى هى فيه الآن . انك ملحق بأسرتهم ، ويمكن لأفعالك أن تثير فضيحة ، لا سيما وأنها تظهر كل يوم أمام الناس متأبطة ذراع الجنرال أو ذراع الأنسة پاولين . فهل فهمت الآن ؟

— كلا .. لم أفهم ..

بهذا صحت وأنا أضرب المنضدة بيدى ضربة قوية جعلت خادم المقهى يهرع مذعورا .

وأردفت أقول وأنا فى سورة شديدة من الغيظ والحقن :

— فاذا كنت ، يا مستر آستلى ، تعرف حق المعرفة من هى مدموازيل بلانش دى كومانج ، فكيف لم تحذرنى ، لا أنا ، ولا الجنرال ، ولا الأنسة پاولين خاصة ، التى تظهر هنا فى الكازينو على مرأى من جميع الناس متأبطة ذراع مدموازيل بلانش ؟ أهذا ممكن ؟

فأجاب مستر آستلى هادئا :

— لم يكن فى وسعى أن أحذركم ، اذ لم يكن فى وسعكم أن تفعلوا شيئا . ثم مم أحذركم ؟ لعل الجنرال يعرف من أمر مدموازيل بلانش أكثر مما أعرف ، ثم لا يمنعه ذلك من أن يتنزه معها ومع الأنسة پاولين . ان الجنرال انسان سيء الحظ . لقد رأيت مدموازيل بلانش بالأمس تعدو على حصان رائع فى صحبة مسيو دى جريو والأمير الروسى القصير ، ورأيت الجنرال يتبعهم على فرس أشهب . كان قد شكأ فى الصباح من ألم فى ساقه ، وها هو ذا الآن يمتطى

صهوة الفرس مع ذلك . فخطر ببالي في تلك اللحظة على حين فجأة أن الجنرال رجل ضاع الى الأبد ، أضف الى ذلك أن هذا الأمر كله لا يعنيني في شيء ، وأنا لم أشرف بمعرفة الآنسة پاولين الا منذ فترة قصيرة .

صمت مستر آستلى ، ولكنه لم يلبث أن أردف يقول فجأة :
 — ثم اننى قد سبق أن أعلنت لك أتى لا أخولك حق القاء بعض الأسئلة على ، رغم ما أحمله لك من صداقة مخلصة ..
 قلت وأنا أنهض :

— يكفينى هذا . اننى أرى الآن رؤية واضحة أن الآنسة پاولين تعرف هى أيضا ما تريد أن تعرفه عن مدموازيل بلانش ، لكنها لا تستطيع أن تنفصل عن الفرنسى ، وهى من أجل ذلك انسا ترضى أن تنتزه معها . ثق أنه ما من نفوذ آخر كان يمكن أن يجبرها على التنزه مع مدموازيل بلانش ، وعلى أن تضرع الىّ فى رسالة تكتبها بخط يدها أن لا أمس البارون . هنالك انسا تدخل هذا النفوذ الذى ينحنى أمامه كل شيء ! ومع ذلك ، فانها هى نفسها قذفتى نحو البارون ! عجيب ! .. أمور لا يفهم المرء منها شيئا ..

— أنت تنسى أولا أن هذه المدموازيل دى كومانج هى خطيبة الجنرال ، وتنسى ثانيا أن للآنسة پاولين ، بنت زوجة الجنرال ، أخا وأختا أصغر منها سنا ، هما ولدا هذا الجنرال المجنون ، وهما مهملان اهمالا تاما ، ولا شك أنهما فى دمار .

— نعم نعم ، هذا صحيح ، ان ترك هذين الولدين يعنى هجرهما

هجرا كاملا ؛ أما البقاء ففيه دفاع عن مصالحهما ، وقد يكون فيه انقاذ لبعض فئات من ثروتهما نعم نعم ، هذا كله صحيح . ولكن مع ذلك .. مع ذلك ! أوه ! . فهمت لماذا يهتمون جميعا كل هذا الاهتمام بالجدة الآن !

— بمن ؟

— بتلك العجوز الخرفة المقيمة بموسكو والتي لم تقرر أن تموت بعد . انهم ينتظرون البرقية التي تبلغهم نبأ وفاتها .

— طبعا . الاهتمام كله مركز عليها . ان كل شيء متوقف على الوصية . فمتى فتحت الوصية تزوج الجنرال ، وأصبحت پاولين مطلقة الیدين ، واستطاع دی جریو ..

— ماذا يستطيع دی جریو ؟

— أن یسترد قروضه . ذلك كل ما ينتظره .

— أعتقد أن هذا هو كل ما ينتظره ؟

فأجاب مستر آستلی معتصما بصمت عنید :

— لا أعرف بعد شيئا .

قلت أكرر غاضبا حائقا :

— أنا أعرف ، أنا أعرف .. انه یستظر المیراث أيضا ، لأن پاولین ستحظى بمهر ، فمتى حصلت علیه ، ارتمت على عنقه . جميع النساء سواء . أكثرهن كبرياء یصبحن أحطهن عبودية ! ان پاولین لا تستطيع أن تحب الا حبا قويا ، هذا كل شيء ! ذلك هو رأيی ! أنظر إليها ، خاصة حين تكون جالسة وحدها تفكر : انها تبدو كمن كتب علیه

النحس ، وكتبت عليه اللعنة ، وكتب عليه أن يقاسى جميع مكاره الحياة والهوى الجامح ! .. انها .. انها .. ولكن من ذا ينادينى (كذلك صحت فجأة) .. من ذا يصرخ ؟ (لقد سمعت من يصرخ باسمى بالروسية : ألكسى ايفانوفتش . انه صوت امرأة) . اسمع اسمع ! كنا فى تلك اللحظة نقرب من فندقنا . لقد تركنا المقهى منذ مدة طويلة ، دون أن نلاحظ ذلك تقريبا .

قال مسرر آستلى وهو يمد الى يده :

— سمعت صوت امرأة تصيح ، ولكننى لا أعرف من كانت تنادى . كانت تتكلم بالروسية . والآن أرى من أين يأتى الصوت : انها تلك المرأة ، الجالسة على مقعد فخم حمله الآن هؤلاء الخدم الكثر الى الشرفة . وها هم أولاء يحملون وراءها حقائب . اذن لقد وصل القطار .

— ولكن لماذا تنادينى ؟ ها هى ذى تستأنف المناذاة : أنظر ! انها تومىء اليها .

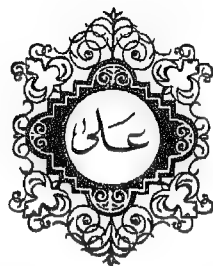
قال مسرر آستلى :

— نعم ، أرى .

— ألكسى ايفانوفتش ! ألكسى ايفانوفتش ! أوه ! رباها ما أغباه ! كانت هذه الصيحات تصل اليها من شرفة الفندق .

فركضنا حتى درجات المدخل تقريبا . فما ان اجتزت فسحة السلم حتى تهدلت ذراعى من شدة الدهول ، وحتى تسمرت قدمائى فى الأرض لا تتحركان .

الفصل التاسع



الفسحة العليا من السلم العريض ال
 نقلت اليه قاعدةً يحيط بها الخدام والخداما
 ويحف بها ذلك العدد الذى لا يحصى
 مَهَّانَ الفندق الذين يبالغون في اظهار آ.
 الاحترام بحضور مدير الفندق نفسه الذى جاء يستقبل هذه الزائرة ذ
 المكانة الرفيعة والمنزلة العالية ، التى تنزل الفندق مع هذه الجلبة -
 ومع ناسها هؤلاء كلهم ومع هذه الأكوام الكبيرة من الحضا
 والصناديق .. كانت تتربع على عرشها .. الجدة ! نعم انها بع
 آنطونين فاسيلقنا تراسقتش ، الرهيبة ، الثرية ، البالغة من ال
 خمسة وسبعين عاما ، صاحبة الأملاك ، السيدة العظيمة من سيد
 موسكو ، مدار تلك البرقيات الذاهبة الآية ، الميته التى ما تم
 حية ، تبجس الآن بيننا بشخصها دون سابق انذار . لقد فق
 القدرة على استعمال رجلها ، فهى تحمل دائما على مقعد ، منذ خه
 سنين ، ولكنها ما تزال على عهدى بها نشيطة يقضى حادة اللس
 معجبة بنفسها منتصبه الجذع عالية الصوت حين تتكلم ، تص
 بلهجة الأمر ، وتفرع جميع الناس ، أى على عهدى بها تماما .

شرفت برؤيتها مرتين في الفترة التي عينت فيها معلما أو مرييا في منزل الجنرال . ولقد كان طبيعيا أن أقف أمامها متجمدا من الدهشة . كانت هي قد لمحتني حينما كانوا يصعدون بها على مقعدها درجات السلم . فعرفتني فنادتني باسمي الصغير ثم باسمي الأبوي ، وكانت قد حفظتهما الى الأبد بها عرفت به من قوة الذاكرة . مر في خاطري هذا السؤال : « امرأة كهذه يأملون أن يروها في القبر ويعولون على ميراثها ؟ ألا انها لسوف تدفننا نحن وجميع من في هذا الفندق !! رباه رباه ما عسى يحدث للآخرين الآن ، ما عسى يفعل الجنرال ! لسوف تقلب البيت فتجعل عاليه سافله ! » .

وتابعت الجدة تصرخ قائلة :

— هيه يا عزيزي .. ما الذي دهاك حتى جمدت في مكانك هذا الجمود محمقا ؟ ألا تعرف كيف تحيىي ؟ ألا تعرف كيف نقول صباح الخير ؟ ألا تعرف ؟ أم تراك أشد كبرياء وأشد زهوا من أن تفعل ؟ أم تراك لم تعرفني ؟ هل تسمع يا پوتاپتش (كذلك تابعت كلامها وهي تلتفت نحو عجوز قصير أبيض الشعر ، يرتدى لباسا رسميا مع ربطة عنق بيضاء ، ورأسه أصلع بلون الورد ، انه رئيس خدمها الذي بصحبها في الأسفار) هل تسمع يا پوتاپتش، انه لم يتعرفني ! لقد دفنوني وانتهوا ! كانوا يرسلون البرقية تلو البرقية يسألون : « هل ماتت ؟ أما ماتت بعد ؟ » . أنا أعرف كل شيء . وهأنت ذا ترى . ان الدم ما يزال يجري في عروقي !

قلت بلهجة مرحة حين ثبت الى نفسي :

— عفوك يا أنطونين فاسيليتنا ، فيم عساني أتمنى لك سوءا ..
كل ما في الأمر أنني دهشت .. وكيف لا تصيبي الدهشة ؟ ان
وصولك أمر لا يتوقع ..

— وما الذى يدهشك ؟ .. ركبت القطار وسافرت . وكان القطار
مريحا ، فلا اهتزاز ولا ارتجاج . هل كنتَ في نزهة ؟
— نعم قمت بجولة في الكازينو .

قالت الجدة وهى تنظر فيما حولها :
— يرتاح المرء هنا . الجو دافئ والأشجار رائعة ! هذا ما أحبه !
هل جماعتنا هناك ؟ الجنرال ؟
— نعم هو في جناحه . انهم يلتقون جميعا هناك في هذه
الساعة .

— ها .. هنا أيضا .. يضبطون المواقيت ويراعون الأصول
ويضعون القواعد . قيل لى ان لهم مركبة ، هؤلاء السادة الروس !
انهم بعد أن أتلفوا ثروتهم ، انسلوا الى خارج البلاد . هل پراسكوفيا
معهم أيضا ؟

— نعم ، پاولين ألكسندروفنا هنا أيضا ؟
— والفرنسى القصير ؟ ولكننى سأراهم جميعا بنفسى . ألكسى
ايثانوفتشس ، قدنى الى الجنرال . وأنت ، أنت هنا بخير ؟
— لا بأس .. يا أنطونين فاسيليتنا .

— أنت يا پوتاپتشس ، قل لهذا الخادم الثقيل أن ينزلونى شقة
مريحة ، جميلة ، فى الطابق الأول ؛ وليحملوا اليها متاعى على الفور .

ولكن لماذا يسارعون جميعا ليحملوني ؟ ما الذى يدفعهم الى هذه العجلة ؟ يا لها من مذلة ..

والتفتت الى " مرة أخرى فسألتنى :

— من هذا الرجل الذى معك ؟

قلت :

— انه مستر آستلى ؟

— من هو مستر آستلى ؟

— مسافر من المسافرين أصبح لى نعمَ الصديق . وهو يعرف الجنرال أيضا .

— هو انجليزى . لذلك يتفرس فى " دون أن يفتح فاه . على كل حال ، أنا أحب الانجليز . طيب انقلونى الى فوق ، قودونى فورا الى شقتهم . أين يقيمون ؟

أنهضت الجدة عن الأرض ، وتقدمت أنا الموكب أصعد سلم الفندق العريض . كان موكبنا يخطف الأبصار . كان جميع من نصادفهم يتوقفون ويأخذون ينظرون بكل أبصارهم . ان فندقنا يعد أجمل فنادق المدينة ، وأغلاها سعرا ، وأرفعها ارسنقراطية . وأنت تلتقى دائما على السلم ، وفى الأروقة والممرات ، بسيدات بارعات الحسن ، وانجليز من ذوى المهابة والوقار . وقد مضى كثير من هؤلاء يسألون مدير الفندق عن هذه السيدة من تكون ، وكان مدير الفندق نفسه مأخوذا مفتونا ، فكان يجيب السائلين طبعاً بأنها أجنبية مرموقة من الطبقة الراقية ، روسية ، كوتيسية ، سيدة عظيمة الشأن ، وبأنها

ستحتل الجناح الذى كانت تحتله منذ ثمانية أيام دوقة ن ..
العظيمة .. ان القسمات الصارمة والملامح المسيطرة فى الجدة المترتبة
على عرشها هى التى كانت تجذب الانتباه خاصة . وكانت كلما صادفنا
أحدا نزنه بنظرته الفاحصة فورا ، ولا تنى تلقى على أسئلة عن جميع
الناس بصوت عال . كان للجدّة مزاج قوى ، ورغم أنها لم تبارح
كرسيها فإن المرء يحزر متى رآها أنها طويلة القامة . انها تجلس
منتصبّة الجذع كحرف الألف لا تستند على الكرسى ، وترفع رأسها
الواسع عاليا ، أبيض الشعر ، سميك القسمات بارز الملامح . وهى
تنظر اليك نظرة كبرياء بل ونظرة تحد . ولكنك تحس أن نظرتها
وحركانها طبيعية تماما لا اصطناع فيها . ورغم الخمسة والسبعين عاما،
كان فى وجهها شيء من نضارة ، وحتى أسنانها لم تكن قد ساءت
حالتها كثيرا . وكانت ترتدى ثوبا من حرير أسود ، وتضع على رأسها
قبعة صغيرة بيضاء .

قال لى مستر آستلى مدمدما وهو يصعد السلم الى جانبى :
— انها تشوقنى كثيرا ..

قلت لنفسى : « انها على علم بأمر البرقيات ، وهى تعرف
دى جريو ، ولكنها ما تزال تجهل مدموازيل بلانش فيما يظهر » .
وسرعان ما أفصحت عن هذا لمستر آستلى .
أعترف ، على خجل ، أنى ما ان ذهبت عنى دهشتى الأولى ،
حتى شعرت بابتهاج شديد واعتباط عظيم للضربة التى كنا ذاهبين
نكيلها للجنرال بعد لحظة . وكان لهذا الشعور فى نفسى أثر الحافز
والدافع ، فكنت أغذ الخطى فرحا كل الفرح .

كان أصحابنا قد اتخذوا مقرهم في الطابق الثالث . فلما وصلت
 فنحت الباب على مصراعيه دون انذار ومن غير أن أطرقه ، فدخلت
 الجدة دخولها المظفر . كانوا جميعا هنالك ، كأنما على عمد ، قد التأم
 شملهم في حجرة الجنرال . وكان الوقت ظهرا ، وكانوا ينوون ،
 فيما يظهر ، أن يقوموا بنزهة مشتركة ، اما في المركبة واما على ظهور
 الخيل . وكان هناك ضيوف أيضا .. كان في الحجرة ، عدا الجنرال
 وپاولين والأولاد وخادمتهم : دى جريو ، ومدموازيل بلانش مرتدية
 تنورة الفارسات من جديد ، وأمها مدام أرملة دى كومنج ، والأمير
 القصير ، وعالم ألماني كنت قد رأيته عندهم مرة .

قدّم كرسى الجدة حتى صار في وسط الحجرة على بعد ثلاث
 خطوات من الجنرال . اللهم انى لن أنسى الأثر الذى أحدثه دخولنا
 ما حييت ! .. حين دخلنا كان الجنرال يحكى شيئا ما ، وكان دى جريو
 يناقسه . يجب أن أذكر أن مدموازيل بلانش ودى جريو قد أصبحا
 منذ يومين أو ثلاثة ملتفتين حول الأمير القصير يحتفلان به أشد
 الاحتفال بحضور الجنرال المسكين . وكان الجع قد اصطنع أسلوبا
 لعل فيه شيئا من تكلف ولكنه مرح ودود حميم . فلما رأى الجنرال
 الجدة جمد فاغرا فاه على النصف من كلمة كان ينطق بها .. وأخذ
 يحرق فيها جاحظ العينين كأن غولا ظهر له فأذهله وفتته عن نفسه .
 وكانت الجدة تتأمله أيضا دون أن تنطق بكلمة ، ولكن ما كان أعجبها
 نظرة ظافرة متحدية ساخرة ! هكذا ظل الاثنان ينظر أحدهما في
 الآخر مدى عشر ثوان في صمت مطبق . وقد ذهل دى جريو أول
 الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ظهر في وجهه قلق شديد الى أبعد حدود

الشدة . أما مدموازيل بلانش فقد رفعت حاجبيها ، وفغرت فاهها ، وراحت تنفّس في الجدة كالبلهاء . وكان الأمير والعالم يتأملان هذا المنظر متحيرين مرتبكين . وفي نظرة پاولين كان يقرأ المرء دهشة عظيمة واضطرابا شديدا ، ثم لم تلبث أن أصبحت بيضاء كالثلج على حين فجأة ؛ وما هي الا لحظة حتى عاد الدم يزدهم في وجهها فاذا خذاها بلون الأرجوان حمرة . نعم لقد كان وصول الجدة كارثة للجميع ! وكنت أنا لا أزيد على أن أنقل نظراتي بين الجدة وسائر الحضور . أما مستر آستلي فقد ظل ، على عادته ، متنحيا وقورا هادئا .

وانفجرت الجدة تقطع الصمت أخيرا فتقول :

— نعم .. هأنذا ! لقد جئتكم بدل البرقية . ما كنتم تتوقعون مجيئي ، أليس كذلك ؟

— أنطونين فاسيليثنا .. يا عمتي الطيبة .. يا لها من مصادفة ! كذلك جميع الجنرال ، ولو قد لزمت الجدة الصمت بضع ثوان أخرى ، اذن لكان يمكن أن يصاب بنوبة .

— عن أية مصادفة نتحدث ؟ لقد ركبت القطار وجئت . وما فائدة السكك الحديدية اذن ؟ كنتم تتصورون أنني سأخرج من منزلي على نعش ، تاركة لكم الميراث ؟ انني أعرف أنك أرسلت برقيات . ولا بد أن يكون ذلك قد كلفك نفقات باهظة . ان أجور ارسال البرقيات من هنا ليست بالزهيدة . ولكنني حملت شجاعتي بين يدي وجئتكم بنفسى . هوذا الفرنسى ؟ مسيو دى جريو فيما أظن ؟ ..

أجاب دى جريو :

— نعم يا سيدتى ، وثقى أنني مبتهج أشد الابتهاج ، معتبط

أعظم الاغتياب ، لاستردادك عافيتك .. انها لمعجزة أن نراك هنا ..
انها لمفاجأة رائعة ..

— أما أنها رائعة فنعلم . اننى أعرفك أيها الممثل المهرج ،
ولا أصدق من كلامك مقدار أنملة (قالت ذلك وهى ترفع خنصرها) .
من هذه ؟ (سألت هذا السؤال وهى تشير الى مدموازيل بلانش) .
كان واضحا أن الفرنسية التى يدل مظهرها على كثرة الحركة
والصخب ، والتى ترتدى تنورة الفارسات ، وتحمل بيدها سوطا ، قد
خطفت بصر الجدة .

وأردفت الجدة تقول :

— أهى من هنا ؟

قلت :

— هى مدموازيل بلانش دى كومنج ، وهذه أمها مدام
دى كومنج ؛ وهما تنزلان هذا الفندق .

سألت السيدة العجوز بغير كلفة ولا حرج :

— أهى متزوجة ؟

قلت بأكبر احترام ممكن وأنا أغض طرفى عامدا :

— بل هى آنسة .

— أهى مريحة ؟

ولم أفهم السؤال .

— ألا يشعر المرء بالضجر من صحبتها ؟ هل تتكلم الروسية ؟

لقد كان دى جريو فى موسكو يثلث بضع كلمات .

فشرحت لها أن مدموازيل دى كومنج لم تذهب الى روسيا يوما.
 قالت الجدة بلهجة مباغتة وهى تتجه بالكلام الى مدموازيل
 بلانش بغير نوطئة ولا تمهيد :

— صباح الخير .

— صباح الخير يا سيدتى .

كذلك ردت مدموازيل بلانش ، مغرقةً فى تبجيل مقصود واحتفال
 مدروس ، مظهرةً من تحت ستار هذا التهذيب الشديد ، بكل تعبير
 وجهها وشخصها ، دهشتها من سؤال غريب هذه الغرابة ، ومن
 سلوك شاذ هذا الشذوذ .

— أوه .. انها تغض عينيها ، وتصطنع الأدب ، فيرى المرء فوراً مع
 أى طير من الطيور يتعامل : ممثلة أو شيء من هذا القبيل . لقد نزلت
 هذا الفندق ، وسكنت تحت (قالت هذه الجملة الأخيرة وهى تتجه
 فجأة نحو الجنرال) . سنصبح جيرانا . أيسرك هذا أم لا ؟
 فأجاب الجنرال :

— أوه .. عمتى .. ثقى أنتى أشعر بأصدق عواطف الابتهاج ..

كان الجنرال قد ثاب الى نفسه بعض الشيء ، واذا كان يعرف
 عند الضرورة كيف يجد التعابير المناسبة طامعا فى أن تحدث أثرها ،
 فقد أخذ يسهب فى الكلام ويطنب فيقول فيما يقول : لشد ما ألمانا
 وهزنا ما كان يصل إلينا من أنباء عن مرضك .. لقد كانت تصلنا
 برقيات تبلغ من شدة إيلامنا أننا .. وفجأة ..
 فقاطعتها الجدة فوراً تقول :

— أنت تكذب .. أنت تكذب ..

فقاطعها الجنرال بدوره ، رافعا لهجته متظاهرا بأنه لم يسمع :

— كيف قررت أن تقومي برحلة كهذه الرحلة ؟ لا شك أنك توافقيني على أن قيامك برحلة كهذه ، في مثل سنك وفي مثل حالتك الصحية .. هو .. على الأقل .. أمر لا يتوقع فلا عجب اذا دهشنا .. ولكننى سعيد جدا بوصولك إلينا . وسوف نبذل كل ما فى وسعنا (هنا أخذ يتسم معبرا عن فرح حنون) من أجل أن نجعل اقامتك هنا ممتعة الى أقصى حد ممكن ..

— دعك من هذا الكلام .. كفى ثمرات لا فائدة منها ولا جدوى فيها . ما أراك تقول الا ترهات ، على عادتك . لسوف أعرف بنفسى كيف أحسن قضاء الوقت . على أثنى غير حائقة عليك ، فما أنا بالحقود .. تسألنى كيف قررت القيام بهذه الرحلة ؟ الأمر بسيط غاية البساطة . ما لهم يتعجبون جميعا ؟ صباح الخير يا پراسكوف .. ماذا تفعلين هنا ؟

قالت پاولين ، وهى تقترب :

— صباح الخير يا جدتى . هل طالت رحلتك ؟

— هذا سؤال ذكى على الأقل ، بدلا من تلك الأوهات والآهات جميعها .. هذا ما حدث : لبثت زمانا طويلا راقدة فى سريرى أعالج من المرض . وبعدئذ طردت جميع الأطباء ، واستدعيت قندلفت كنيسة القديس نيقولا ، وكان قد شفى احدى النساء من هذا المرض نفسه

ببعض الأعشاب ؛ فخفف هذا الدواء عني ، اذ رأيتني في الغداة أنضج عرقا من كل جسمي ، فنهضت ، وجاء الألمان فقالوا لي مجتمعين ، بعد أن وضعوا نظاراتهم على أعينهم ، وبعد أن تذاكروا في الأمر : « اذا قمت الآن برحلة الى الخارج للتداوى بالمياه المعدنية ، فان انسداد الشريان سيزول زوالا كاملا » . قلت لنفسي : « لم لا ؟ » . وأخذ أفراد أسرة دور زايجين يصيحون صيحات عالية قائلين : « انه لجنون أن تذهبى الى هنالك ؟ » . ولكننى لم أكثرث . فما انقضت أربع وعشرون ساعة حتى صرّت أمتعتى . فأخذت خادمة ويوتايتش ثم فيدور الذى عدت فأرجعته من برلين اذ رأيت أننى في غير حاجة اليه قط ، وأنه كان في وسعى أن أسافر وحدى .. وحجزت في القطار حجرة خاصة . ألا ما أكثر الحمالين في جميع المحطات ! تنقدهم عشرين كوبكا ، فينقلونك الى حيث تشاء .

وختمت الجدة كلامها وهى تنظر حوالها قائلة :

— ان لكم لشقة جميلة . من أين تجيء بالمال يا عزيزى ؟ لقد رهنت كل شىء اذا صدق ظنى : هذا الفرنسى الصغير وحده له عليك أكوام من مال . أنا أعرف كل شىء .. لا تؤاخذنى .. أعرف كل شىء .

قال الجنرال وقد بلغ ذروة الاضطراب :

— أنا يا عمتى في دهشة .. وأحسب أننى أستطيع دون رقابة أحد أن .. ثم ان نفقاتى لا تزيد على مواردى ، ونحن هنا ..
— نفقاتك لا تزيد على مواردك ؟ ألا انك لجريء ! .. لا بد أنك جردت أولادك من آخر قرش اذن ، وأنت الوصى عليهم ..

عاد الجنرال يقول :

— بعد هذا ، بعد مثل هذا الكلام الذى تقولينه .. لا أدرى ..

— لا تدرى ماذا ؟ اننى أفرض أنك لا تترك الروليت ! فأنت

اذن على الحصار !

بلغ الجنرال من الانصعاق أنه كاد يختنق من شدة الانفعال .

— أنا أذهب الى الروليت ؟ أنا ؟ أرجل فى مثل مركزى يفعل

ذلك ؟ هدئى روعك يا عمتى .. انك ما شفيت بعد ! ..

— كل هذا أكاذيب ! أراهن على أنه يستحيل انتزاعك من

الروليت ! أنت تهرف لا أكثر .. سأذهب اليوم بنفسى لأرى ما هى

هذه الروليت ؟ پراسكوفيا ، اذكرى لى ما يستحق أن يزار هنا .

سيقودنى ألكسى ايثانوفتش .. أنت يا پوتاپتش سجّل قائمة بجميع

الأماكن التى سنزورها . ما الذى يستحق أن يرى هنا ؟ (كذلك

رددت تقول متجهة بالسؤال الى پاولين) .

— فى الضواحي توجد آثار قصر خرب ؛ ثم هنالك شلانجنبرج .

— ما هو شلانجنبرج هذا ؟ أهو غابة ؟

— بل جبل . وتوجد هنالك قمة .

— ما هى هذه القمة ؟ ..

— هى أعلى موضع فى الجبل ، قد أحيط بسياح ، فليس لجمال

المنظر هنالك ما يضارعه .

— ويجب الصعود الى هناك فى الكرسى . أهذا ممكن ؟

قلت :

— جدا . فى امكاننا استئجار حمالين .

وفى لحظة من اللحظات جاءت فيدوسيا ، الخادمة ، تحيى الجدة ،
وأنت لها بأولاد الجنرال ..

— آ .. دعونا من التبويس .. أنا لا أحب تقبيل الأطفال . انهم

جميعا تسيل أنوفهم .. كيف تجددين نفسك هنا يا فيدوسيا ؟

أجابت فيدوسيا تقول :

— نحن هنا بخير يا سيدتى الطيبة أنطونين فاسيليثنا . وأنت

كيف حالك يا سيدتى العزيزة ؟ لشد ما أقلقنا أمرك !

— أعرف . أنت وحدك على الأقل انسانة بسيطة النفس . أجميع

هؤلاء الناس ضيوف عليكم ؟ (هكذا أضافت الجدة توجه السؤال

مرة أخرى الى پاولين) . من هذا النجيل ذو النظارتين ؟

فأجابت پاولين بصوت خافت :

— هو الأمير نلسكى يا جدتى .

— آ .. هو اذن روسى ؟ وأنا كنت أظن أنه لا يفهم كلامنا ..

لعله لم يسمع ! لقد سبق أن رأيت مستر آستلى ! ولكن ها هو ذا

مرة أخرى (قالت الجدة ذلك حين لمحته) .

وحيته مسرعة بقولها :

— صباح الخير .

فانحنى مستر آستلى دون أن يقول شيئا .

قالت الجدة :

— هيا .. قل لى شيئا ممتعا . قل شيئا ما .. ترجمى له كلامى
يا پاولين .

وترجمت پاولين .

— سأقول لك اننى مبتهج برؤيتك ابتهاجا كبيرا ، وبسعدنى أن
أراك موفورة العافية .

كذلك أجاب مستر آستلى بلهجة جادة ، ولكن على لطف كبير .
وترجمت هذه الكلمات للجدة ، فكان واضحا أنها أعجبت بها .
قالت الجدة :

— ان لى هؤلاء الانجليز جوابا على كل شيء دائما . لا أدرى
لماذا أحب الانجليز ! لقد أحببتهم عسى كله . لا وجه للمقارنة
بينهم وبين الفرنسيين ! أرجو أن تزورنى يا مستر آستلى ، وسأحاول
أن لا أضجرك كثيرا . ترجمى له هذا الكلام ، وقولى له اننى أقيم
فى الطابق الأول . فى الطابق الأول ، هل فهمت ؟ (كررت الجدة
هذه الجملة الأخيرة وهى تشير بأصبعها الى أرض الغرفة) .

سُر مستر آستلى لهذه الدعوة سرورا عظيما .

وألقت السيدة العجوز على پاولين نظرة منتبهة راضية لفتها
من قمة رأسها الى أخمص قدميها . ثم قالت لها بغتة :

— سأحبك كثيرا يا يراسكوفيا . أنت فتاة شهمة . أنت خيرهم

جميعا . لكن لك طبعاً من تلك الطباع .. وأنا مثلك على كل حال ..
استديري قليلا : هل شعرك هذا مستعار ؟

— لا يا جدتي ، هذا شعري أنا !

— الحمد لله .. اننى أمقت تلك « الموضة » السخيفة . أنت
جميلة جدا . لو كنت شابا لوقعت فى غرامك . لماذا لا تتزوجين ؟
ولكن آن لى أن أنصرف . أحب أن أتنزه قليلا بعد أن قضيت ذلك
الوقت كله فى عربة القطار ..

وأضافت تقول للجنرال :

— هه .. أما زلت غضبان ؟

قال الجنرال وقد هدأ روعه :

— كفى يا عمتى ، أرجوك .. اننى أفهم .. فى مثل سنك ..

دمدم دى جريو يقول لى همسا :

— هذه العجوز رجعت الى الطفولة .

قالت الجدة للجنرال تسأله :

— أريد أن أرى كل شىء هنا ؛ هل تستغنى لى عن الكسى

ايفانوفتش ؟

— المدة التى تريدين . ولكننا جميعا ، أنا وپاولين ومسيو

دى جريو .. سيسعدنا كثيرا أن نصحبك .

قال دى جريو وهو يبتسم ابتسامة مخادعة متملقة :

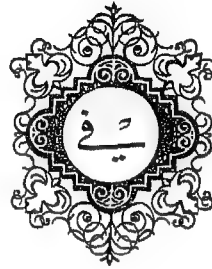
— ولكن يا سيدتى ، انها لمسة لنا أن ..

فقاطعته قائلة :

— هم .. مسرة .. أنت تضحكنى يا عزيزى . على كل حال لن أعطيك شيئاً من المال (أضافت هذه الجملة الأخيرة متجهة الى الجنرال) . خذونى الى شقتى : أريد أن ألقى عليها نظرة ؛ ومن ثم نمضى نطوف فى كل مكان . انقلونى .

حملت الجدة من جديد ، ونزلنا السلم موكبا وراء كرسيها . كان الجنرال يسير كمن أطاشت صوابه ضربة من عصا . وكان دى جريو ممعنا فى التفكير . أما مدموازيل بلانش فقد أرادت فى أول الأمر أن تمكث فى الفندق ولكنها رأت بعد ذلك أن من الأفضل أن تتبعنا ، فمشى الأمير وراءها رأسا . فلم يبق فى شقة الجنرال الا الألمانى ومدام أرملة دى كومنج .

الفصل العاشر



مدن المياه المعدنية ، وربما في أوروبا كلها .
 ترى مديرى الفنادق ، حين يعينون لأحد
 النزلاء شقة من الشقق ، لا يستوحون
 اختيارهم من رغبات النزيل أو مطالبه ، بل
 يستوحونه من رأيهم في هذا النزيل . ويجب أن نعتزف أنهم قلما
 يخطئون . ولكنهم خصصوا للجدة ، الله يدرى لماذا ، مسكنا يبلغ
 من البذخ أنهم في هذه المرة تجاوزوا الحدود : أربع غرف مزدانة
 بفاخر الأثاث ، مع حمام ، وحجرات ملحقة للخدم ، وغرفة مستقلة
 للوصيفة ، الخ الخ . ان دوقة عظيمة قد قضت في هذه الغرف ثمانية
 أيام فعلا ، وسرعان ما أبلغ النزلاء الجدد هذه الواقعة طبعاً ، بغية
 أن يخلع على المسكن مزيد من القدر والقيمة . نقلت العجوز بل قل
 نقلت بين جميع الغرف ، فكانت تدقق النظر فيها باتتباه وقسوة ،
 يصحبها المدير نفسه ، وهو رجل متقدم فى السن قليلاً ، ويلطفها أثناء
 هذه الجولة التى قامت بها تتفقد الحجرات تفقد مالك .

لا أدري ماذا حسبوا الأميرة . لا شك أنهم عدوها شخصية

مرموقة جدا ، وثرية جدا بخاصة . حتى لقد أسرعوا يسجلون في سجل النزلاء : السيدة الجنرالة ، أميرة ثاراسقشيقا ، رغم أن الجدة لم تكن يوما أميرة . ولا شك أن كثرة الخدم ، والجناح المحجوز في القطار ، وهذا الجبل من الرزم التي لا لزوم لها ، ومن الحقائق ، بل ومن الصناديق التي أنزلت مع الأميرة ، لا شك أن هذا كله كان بمثابة قاعدة قامت عليها مهابتها في نظرهم ؛ ثم ان الكرسي الذي تقعد عليه ، واللهجة القاطعة التي تخاطب الناس بها ، وصوتها ، وأسلتها الغريبة الشاذة التي تلقىها طلقة بلا تحفظ ، ولا تحتل أي رد عليها ، وجملة شخصيتها المنتصبة ، العنيفة ، المتسلطة ، أقول ان هذا كله قد انتهى بأن أكسبها تعظيم جميع الناس وتبجيلهم . كانت السيدة العجوز ، أثناء استعراض شقتها ، تأمر بوقف كرسيها فجأة ، فتشير الى قطعة من قطع الأثاث ، وتلقى على المدير أسئلة ليست في التوقع أو الحسبان ، فيبتسم المدير اجلالا واحتراما ، ولكنه كان قد أخذ يرتجف ويرتعد . وكانت تلقى عليه أسئلتها بفرنسيته الرديئة ، فكان على في أكثر الأحيان أن أتولى الترجمة . وكانت أجوبة المدير لا يرضيها أكثرها ، وكانت تبدو لها هذه الأجوبة ناقصة غير كافية . ثم انها كانت تلقى أسئلة لا معنى لها تملئها عليها النزوة الطارئة والخيال العجيب : كانت تتوقف مثلا أمام لوحة من اللوحات على حين فجأة ، لوحة هي نقل ضعيف عن أصل شهير موضوعه مستمد من الأساطير اليونانية ، فتسأل :

— من تصوّر هذه الصورة ؟

فيجب المدير بقوله :

— لعلها تصوّر إحدى الكوتيسات .

— كيف ؟ أنت ألا تعلم ذلك علم اليقين ؟ أتسكن هنا ثم لا تعلم علم اليقين ؟ لماذا وضعت هذه الصورة في هذا المكان ؟ ولماذا تنظر المرأة هذه النظرة الحولاء ؟

فكان المدير لا يستطيع أن يجيب على هذه الأسئلة كلها اجابات ترضيها ، حتى لقد كان يشده ويذهل :

قالت الجدة باللغة الروسية :

— يا له من غبي !

وثقلت الجدة الى أبعد من ذلك ، فتكرر هذا الأمر نفسه بصدد تمثال صغير من الساكس تأملته العجوز طويلا ، ثم أمرت باخراجه من هذا المكان ، لا يدرى أحد لماذا ! وأغرقت المدير أخيرا بوابل من الأسئلة : كم كانت أثمان سجادات غرفة النوم ، وأين تصنع هذه السجادات ، فوعدها المدير بأن يستعلم عن هذه الأمور .

دمدمت تقول :

— يا لهم من حمير !

ثم التفتت باتتباها كله الى السرير . وقالت :

— يا لهذه المظلة كأنها مظلة عرش ! هيا .. فكشوها !

ففكت مظلة السرير

— أيضا أيضا ، انزعوا كل شيء . انزعوا المخدات ، والأغطية ، واللحاف .

قلب السرير رأسا على عقب . وراحت الجدة تنعم النظر في كل شيء .

— من حسن الحظ أنه لا يوجد بقى . خذوا جميع الأغذية .
وستضعون في مكانها أغظيتى ومخداتى . على كل حال ، هذا كله
مصرف فى الترف والبذخ . ما حاجتى الى مثل هذه الشقة وأنا فى
هذه السن ؟ ان المرء يشعر بالملل والضجر وحده ! يا ايقان ايثانوفتش
لا يفوتك أن تأتى الىّ كثيرا بعد فراغك من تدريس الأولاد .
قلت :

— لقد أصبحت لا أعمل فى خدمة الجنرال منذ أمس .
— لماذا ؟

— وصل من برلين منذ مدة ألمانى ذو مكانة ، تصحبه زوجته .
انه بارون . وأمس ، أثناء النزهة ، خاطبته بالألمانية دون أن أراعى
اللهجة البرلينية .

— وبعد ذلك ؟

— عدّ ذلك وقاحة منى ، فشكأنى الى الجنرال ، فطرطنى
الجنرال من عملى فورا .

— ولكن ماذا ؟ هل أنت شتمت ذلك البارون ؟ وهبك فعلت ،
فليس فى هذا ضير كبير !

— بالعكس . انه هو الذى رفع عصاه علىّ .
فقلت العجوز للجنرال بغتة :

— وأنت يا مخاط ، كيف سمحت للبارون أن يعامل مربى أولادك
هذه المعاملة ؟ ثم تطرده من عمله فوق ذلك كله ؟ .. ما أرى الا أنكم
جميعا تافهون لا تصلحون لشيء .

أجاب الجنرال بلهجة فيها الألفة والتعالى معا :
— لا تقلقى يا عمة . اننى أعرف كيف أدبر شئونى بنفسى .
ثم ان ألكسى ايفانوفتش لم يصور لك الواقع تصويرا صحيحا .
قالت لى الجدة :
— وكيف احتملت ذلك ؟
قلت مصطنعا أكبر التواضع وأعظم الهدوء :
— أردت أن أدعوه الى المباراة ، ولكن الجنرال عارض فى ذلك .
سألت الجدة :
— لماذا ؟
ثم التفتت الى المدير فقالت له :
— امض الى شأنك أنت يا عزيزى ، ثم تعود متى ناديناك .
وأضافت :
— اننى لا أطيق رؤية هؤلاء النورنبرجيين الذين تشبه وجوههم
وجوه السكارى .
فحيا المدير وانصرف ، دون أن يفهم هذا التقريظ طبعاً .
أجاب الجنرال وهو يطلق ضحكة صغيرة :
— عفوك يا عمتى .. هل المبارزات ممكنة ؟
— ولم لا ؟ الرجال جميعا دبكة . كانا سيقنتلان ، وينتهى الأمر .
ولكنكم دجاجات مبتلة ، هذا واضح . انكم عاجزون عن الدفاع
عن شرف بلدكم . هيا احملونى . پوتاپتش ! أصدر الأوامر بأن يكون

هنالك دائما شيالان في خدمتى . عينهما وحدد الشروط . يكفى اثنان.
 لن يكون عليهما أن يحملانى الا عند صعود السلم . أما على الأرض
 المستوية ، وفى الشارع ، فسأجر جرا . اشرح لهما هذا . واثقدهما سلفة،
 فيكونوا أكثر أدبا وتهذيبا . وستظل أنت دائما قري . وأنت يا ألكسى
 ايثانوفتشس ، سوف ترى هذا البارون أثناء النزهة : أحب على الأقل
 أن أرى من هو هذا ال « فون بارون » . هيا بنا ! أين هى تلك
 الروليت ؟

فشرت لها أن موائد الروليت موضوعة فى قاعات الكازينو .
 ثم أخذت أسئلة الجدة تنهمر : « هل هناك كثير من موائد الروليت
 هذه ؟ هل ثمة ناس كثيرين يقامرون ؟ هل تستمر المقامرة طول النهار ؟
 كيف هى مرتبة ؟ .. » فأجبت أخيرا بأن الأفضل أن ترى هذا كله
 بعينها ، لأن الوصف بهذه الطريقة صعب .

— طيب . احملونى اذن الى هناك رأسا . تقدمنا أنت يا ألكسى
 ايثانوفتشس !

— كيف هذا يا عمتى ؟ هلا نلت قسطا من الراحة أولا ؟

كذلك سألها الجنرال متلطفًا متوسلا .

كان الجنرال مضطربا بعض الاضطراب . على أن الجميع كان يبدو
 فى وجوههم شىء من الارتباك ، وكانوا يتبادلون النظرات . ولعل مرد
 ذلك الى أنه كان يزعمهم أو يخجلهم أن يصبحوا الجدة الى الكازينو ،
 فقد تندفع هنالك فى سلوك شاذ ، على مرأى من الناس فى هذه
 المرة . ومع ذلك اقترحوا أن يرافقوها .

— وعلام ارتاح ؟ لست تعبانة . لقد لبثت خمسة أيام برمتها ساكنة لا أتحرك . وبعد ذلك نمضى الى ينابيع المياه المعدنية ، المياه الحارة .. وبعد ينابيع المياه نذهب الى .. كيف سميتها يا پراسكوڤيا ؟ .. الى القمة .. أهكذا سميتها ؟

— نعم يا جدتى !

— اذهب الى القمة . وماذا يوجد هنا أيضا ؟

قالت پاولين مرتبكة :

— يوجد أشياء كثيرة .

— طيب . أنت لا تعرفين شيئا . مارتا ، تعالى معى أيضا . كذلك خاطبت الجدة وصيفتها .

فقال الجنرال قلقا على حين فجأة :

— لماذا تريدان أن ترافقك يا عمتى ؟ هذا مستحيل . وانى لأشك أيضا فى أن يسمح لپوتاپتش بالدخول الى الكازينو .

— سخافات . أئدعها اذن خارج الكازينو ، لأنها خادم ؟ أليست مخلوقا حيا ؟ لقد قضينا ثمانية أيام نقطع الطرق ، فهى تحب أيضا أن ترى شيئا . مع من يسكن أن تذهب اذا لم تذهب معى أنا ؟ انها لا تجرؤ حتى أن تخطو فى الشارع وحدها !

— ولكن يا جدتى ..

— لعلك تخجل أن تصحبنى . فما عليك الا أن تبقى حيث أنت ،

ولست أطلب منك شيئا . جنرال ! شخصية عظيمة ! ولكنني جنرالة
أنا أيضا ! ثم اتى لست في حاجة الى أن أجز ورائي كل هذا الموكب ،
سأرى كل شيء في صحبة الكسى ايفانوفتشس . .

ولكن دى جريو أصر على أن يرافقوها جميعا ، وأخذ يتدفق
جملا لطيفة تعبر عن متعة مرافقتها ، الخ . وسار الجميع .

كرر دى جريو يقول للجنرال :

— لقد رجعت الى الطفولة .. فلو تركناها وحدها اذن لارتكبت
حماقات . .

ولم أسمع ما قاله بعد ذلك . ولكن لا شك أنه كان يبيّت في
ذهنه فكرة ما ، بل لعله قد عاوده الأمل ..

المسافة بيننا وبين الكازينو خمسمائة متر تقريبا . سلكنا طريق
أشجار الكستناء حتى وصلنا الى الدائرة فدرنا حولها ثم دخلنا
الكازينو رأسا . كان الجنرال قد اطمأن روعه بعض الاطمئنان ،
لأن موكبنا كان ، على غرابنه وشذوذه ، لا يخلو من مهابة ووقار .
وليس غريبا أن تأتي الى مدن المياه شخصية مريضة أصابها
الضعف والكساح . ولكن كان واضحا أن الجنرال يخشى الكازينو .
فعلام تذهب امرأة كسيحة ، هي فوق ذلك عجوز هرمة ، علام
تذهب امرأة كهذه الى الروليت ؟ وكانت باولين ومدموازيل بلانس
تسيران على جانبي الكرسي المتحرك * ان مدموازيل بلانس تضحك ،
وتظهر شيئا من مرح متخف ، وتتبادل والجدة بعض الأمازيح من
حين الى حين ، حتى أن الجدة لم يسعها الا أن تكيّل لها آخر الأمر

بعض المديح . وكانت پاولين ، على الجهة الأخرى من الكرسي ، مضطرة الى الاجابة على الأسئلة الكثيرة المستمرة التى تلقىها عليها السيدة العجوز ، وهى من نوع الأسئلة التالية : « من هذا الذى صادفناه الآن ؟ من هى تلك المرأة الراكبة العربية ؟ هل المدينة كبيرة ؟ هل الحديقة واسعة ممتدة الأطراف ؟ ما هذه الأشجار ؟ ما أسماء هذه الجبال ؟ هل يوجد هنا نسور ؟ ما هذا السطح المضحك ؟ » .. وتمتم مستر آستلى الذى كان يسير الى جانبى ، تتمم يقول لى : اننى أتوقع من هذا الصباح أشياء كثيرة .

وكان پوناپيتش ومارتا يسيران فى الخلف وراء الكرسي تماما : فأما پوناپيتش فهو يرتدى لباسا رسميا مع ربطة عنق بيضاء ، ولكنه يضع على رأسه قبعة من نوع « الكاسكيت » ، وأما مارتا ، وهى فى الأربعين من العمر ، وذات خدين حمراوين وشعر غزاه الشيب منذ ذلك الحين ، فقد كانت تضع على رأسها قبعة من نوع « البونيه » ، وتلبس ثوبا من حرير الهند ، وتنشغل حذاءين من جلد الماعز يقطقطقان . وكانت الجدة تلفت اليها كثيرا فتكلمها . وقد ظل دى جريو والجنرال وراءنا بعيدين بعض البعد ، يدور بينهما الحديث حاميا حارا . كان الجنرال مصعوقا خائر القوى . وكان دى جريو يحاول أن يرد الى رفيقه بعض الشجاعة ؛ وكان واضحا أنه يسدى اليه ببعض النصائح . ولكن الجدة كانت قد نطقت بجميلتها الحاسمة : « لن أعطيك شيئا من المال » . فلعل دى جريو يعد هذا الكلام بعيدا عن التصديق ، ولكن الجنرال يعرف عمته حق المعرفة . وكنت قد لاحظت أن دى جريو ومدموازيل بلانش مستمران فى تبادل النظرات

المختلصة . ولمحت الأمير والألماني في آخر الطريق : لقد تركا لنا أن
تتقدم . ومضيا في اتجاه آخر .

دخلنا الكازينو دخول الظافرين . وقد أظهر السويسري والحجاب
من الاحتفال بمقدمنا مثل الذى أظهره خدم الفندق . ومع ذلك كانوا
ينظرون إلينا متعجبين . وأصدرت الجدة أمرها أولا بالقيام بجولة في
القاعات . فكانت تكيل المديح والاطراء تارة ، وتبقى غير مكترثة
ولا مبالية تارة أخرى . ولكنها كانت تسأل عن كل شيء . ووصلنا
أخيرا الى قاعات القمار . فما ان رأنا الحاجب الواقف أمام الباب
الموصد ، حتى فتح الباب على مصراعيه كمن تملكته دهشة .

وأحدث ظهور الجدة في قاعة الروليت أثرا عميقا في الناس . كان
يتجهمر حول موائد الروليت وفي الطرف الآخر من القاعة ، حيث
وضعت مائدة « الثلاثين والأربعين » ، نحو من مائة وخمسين مقامرا
أو مائتين اصطفوا صفوفًا متراسة . ان الذين استطاعوا منهم أن يتسللوا
حتى المائدة يحرسون على البقاء في أماكنهم أشد الحرص ، وقد جرت
العادة أن لا يتنازلوا عنها لأحد قبل أن يخسروا كل ما كان معهم من
مال . ذلك أنه ليس يباح لأحد أن يكون في مكان من تلك الأماكن
مشاهدا فحسب ، فيحتل بالمجان مكان لاعب . ورغم أن هناك كراسي
مصفوفة حول المائدة ، فان عددا قليلا من اللاعبين كان يجلس على
الكراسي ، خاصة حين يكون الجمهور كثيفا ، لأن الوقوف يشغل
حيزا أضيق من الحيز الذى يشغله الجلوس ، كما أن الواقف يسهل
عليه أن يضع الرهان حيث يريد أن يضعه أكثر مما يسهل ذلك على
القاعد . والناس يتزاحمون في الصف الثانى أو الثالث وراء الواقفين

في الصف الأول ، ينتظرون دورهم ؛ ولكن صبرهم ينفد في بعض الأحيان فتراهم يدسون أيديهم بين اللاعبين ليضعوا رهانهم على المائدة. والواقفون في الصف الثالث يجاهدون على هذه الطريقة نفسها من أجل أن يوصلوا رهانهم الى المائدة الخضراء . لذلك ما تكاد تنقضى عشرة دقائق أو خمس حتى يسمع المرء أصوات مشاجرة أو مناقرة عند طرف من أطراف المائدة . على أن شرطة الكازينو منظّمون أحسن تنظيم . انهم لا يستطيعون طبعاً أن يمنعوا الهرج والمرج . حتى ليسرهم أن يكون الازدحام شديداً ، لأنهم يستفيدون من ذلك . غير أن هناك ثمانية موظفين جالسين حول المائدة يراقبون اللعب مراقبة يقظة . انهم هم الذين يدفعون الأرباح ، فاذا نشب خلاف كانوا هم الذين يفصلون في الخلاف . ولا تستدعى الشرطة الا في الحالات القصوى ، فيسوى الأمر عندئذ على الفور . ورجال الشرطة في القاعة يرتدون اللباس المدني ، ويقفون بين المشاهدين ، فلا يستطيع المرء أن يعرفهم . وهم يراقبون خاصة صغار اللصوص والمخترفين ، وما أكثرهم في الروليت ، وما أسهل ممارستهم صناعتهم في قاعاتها ! ذلك أن السرقة في غير هذا المكان تحتاج الى نبش جيوب أو كسر أقفال ، وقد تجلب للسارق في حالة الاخفاق متاعب كثيرة . أما هنا فحسب اللص أن يقترب من الروليت ، وأن يأخذ يقامر ، ثم اذا هو فجأة ، على رءوس الأشهاد ومن غير تخف ولا مداورة ، يمد يده الى ربح غيره فيستولى عليه ويضعه في جيبه . فاذا حدث اعتراض راح اللص يصيح بصوت عال مفهوم أن الربح ربحه . فاذا كان قد أحكم الضربة حاذقا ، وتردد الشهود ، استطاع اللص في كثير من الأحيان أن يحتفظ بالمال ، هذا

إذا لم يكن المبلغ ضخما بطبيعة الحال ، والا فان القيّمين يكونون قد لاحظوه ، أو يكون لاعب آخر قد لاحظته . أما اذا لم يكن المبلغ ذا بال ، فان الراجح الحقيقي يكف من تلقاء نفسه عن مواصلة الشجار في بعض الأحيان وينسحب من اللعب مخافة الفضيحة . ولكن اذا أمكن كشف القناع عن وجه اللص ، طُرد من اللعب فورا بغير مراعاة ولا مداراة .

تأملت الجدة هذا كله ، من بعيد ، باستطلاع شره . ولشد ما كانت تسر حين يطرد لص من اللصوص . ولم تفتتها كثيرا لعبة « الثلاثين والأربعين » وانما أعجبتها الروليت وأسرتها ، وخاصة حين كانت تدور الكرة . وأرادت أخيرا أن تشاهد اللعب عن كثب . فاذا بالخدم وأفراد آخر (أغلبهم پولونيون دمرهم القمار ، فهم يفرضون خدماتهم على المقامرين الموقفين وعلى جميع الأجانب) يسارعون فيؤمنون لها مكانا قريبا من وسط المائدة قرب القيّم الرئيسي ، ويجرون كرسيها اليه رغم الزحام الشديد . وها هي ذى جمهرة كبيرة من الزوار الذين لا يقامرون بل يشاهدون (وأكثرهم من الانجليز مع أسرهم) تتزاحم فورا نحو المائدة تريد أن ترى الجدة من فوق أكتاف المقامرين . وعقد القيمون على الجدة آمالا كبارا : ان مقامرة غريبة هذه الغرابة ، شاذة هذا الشذوذ ، لتعد حقا بأشياء خارقة . امرأة في السبعين من عمرها ، كسيحة ، تريد أن تقامر .. ذلك ظرف نادر قل أن يواتي .. واندست أنا أيضا حتى وصلت الى المائدة فوقفت قرب الجدة . أما پوتاپتش ومارتا فقد ظلا بعيدين وسط الجمهور . وانضم الجنرال وپاولين و دى جريو الى صفوف المشاهدين كذلك .

أخذت الجدة في أول الأمر تلاحظ اللاعبين الذين يحيطون بها ، فتسألني بصوت خافت أسئلة سريعة : « من هذا الرجل ؟ » « من تلك المرأة ؟ » . وقد اهتمت اهتماما شديدا بشاب صغير كان على طرف المائدة يقامر بمبالغ ضخمة ، فهو يضع الفرנקات آلافا ، وكان قد ربح ، فيما كان يدمدم به الجيران ، حوالى أربعين ألف فرنك كانت قابضة أمامه كومة من الليرات الذهبية والأوراق النقدية . كان الفتى ممتنع اللون ، وكانت عيناه تقدحان شررا ، وكانت يدها ترتجفان . كان يضع المال من غير أن يعدده ، فانما هو يتناوله قبضات قبضات ، وما ينفك مع ذلك يربح ، وما ينفك المال يتكدر أمامه ، وكان الخدم يتحركون من حوله ، فهذا يحمل اليه كرسيه ، وذلك يوسع من حوله المكان ، حتى تزداد حركته طلاقة ، وحتى لا يزحمه الناس .. كل ذلك أملا في مكافأة طيبة . ان بعض المقامرين الموفقين يعطونهم أحيانا بلا عد ، يخرجون المال من جيوبهم قبضات ملأى يمدونها اليهم عطايا . والى جانب الفتى كان قد جلس پولونى لا يستقر في مكانه ، ويوشوشه في كل لحظة باحترام ، ليسدى اليه النصيح وليوجهه في اللعب من غير شك ، أملا في مكافأة بطبيعة الحال . ولكن الفتى المقامر لا يكاد ينتبه اليه ، وانما هو يراهن ذات اليمين وذات الشمال خبط عشواء ، وما ينفك يكدر ثم يكدر . كان واضحا أنه فقد صوابه .

لاحظته الجدة خلال بضع دقائق .

ثم احتاجت فجأة فلكزتنى بكوعها وقالت لى :

— قل له أن يكف ، قل له أن يلم ماله بأقصى سرعة وأن يفر .

سوف يخسر ، سوف يخسر كل شيء في لحظة واحدة .

قالت ذلك وهى تكاد تلهث من فرط الانفعال . ثم أضافت :

— أين پوتاپتش ؟ أرسلوا اليه پوتاپتش . لماذا لا تقول له ؟ قل له أن يرحل (قالت لى ذلك وهى تنكعنى) . ولكن أين پوتاپتش ؟ أخرج ، أخرج (هكذا أخذت تصيح لتهيب بالفتى أن يخرج) .

فملت عليها وقلت بصوت خافت ولهجة حاسمة انه لا يسمح بالصراخ فى هذا المكان على هذا النحو ، بل ويحظر الكلام الا بصوت منخفض .. لأن ذلك يعرقل اجراء الحسابات ، ولسوف يخرجوننا من القاعة ..

— خسارة ! ان هذا الرجل ضائع لا محالة . لا شك أنه يريد ذلك .. لا أستطيع أن أنظر اليه . لقد حولت بصرى عنه .. يا له من غبى !

قالت الجدة ذلك ، والتفتت الى جهة أخرى على الفور .

وهناك ، على الشمال ، كانت تترى بين اللاعبين سيدة شابة يصحبها رجل يشبه أن يكون قزما من الأقزام . من هو هذا القزم ؟ لا أدرى .. أهو قريب من أقربائها ، أم انها جاءت به لتحدث أثرا ، وتلفت نظرا ؟ كنت قد لاحظت هذه السيدة قبل ذلك . انها تجيء الى الكازينو كل يوم ، فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، وتنصرف فى الساعة الثانية تماما . كانت تلعب اذن ساعة فى كل يوم . والناس يعرفونها ، وسرعان ما قدم لها كرسى قعدت عليه . فأخرجت من جيها بضعة دنائير ذهبية وبضع أوراق نقدية من ذات الألف فرنك ، وأخذت تراهن برصانة وبرود ، وتسجل الأرقام على ورقة ، محاولة أن تكتشف نظام تجمع الاحتمالات

في لحظة من اللحظات . كانت تخاطر بمبالغ كبيرة . وتربح في كل يوم ألف فرنك ، أو ألفين ، أو ثلاثة آلاف ، لا أكثر من ذلك ، ثم ما تلبث أن تنسحب . راقبتها الجدة برهة طويلة .

— هذه لن تخسر .. هذه لن تخسر . من هي هذه السيدة ؟

هل تعرف ؟

فدمدمت أقول :

— هي فرنسية ، لعلها من أولئك النسوة ..

— من طيرانه يعرف الطير . واضح أن لها مخالب حادة .. اشرح لي الآن ماذا تعني كل دورة ، وكيف تجب المراهنة .

فشرحت للجدة ، ما أمكنني الشرح ، مزاولات اللعب التي لا حصر لعدددها : أحمر وأسود ، شفع ووتر ، الخ ؛ وشرحت لها بعد ذلك بعض الأمور المتصلة بنظام الأعداد . فكانت السيدة العجوز تصغى الى كلامي منتبهة أشد الانتباه ، وتحفظ ما أقول ، وتلقى أسئلة جديدة وتستزيد من التعلم والفهم . وكان من السهل أن أضرب لها مثالا مباشرا على كل نظام من نظم المراهنة ، فكان ذلك ييسر لها حفظ الدرس . وسرت الجدة من ذلك كله سرورا عظيما .

— وماذا يعنى صفر ؟ ان القِيَمَ الرئيسي ، هناك ، ذا الشعر الأبعد ، قد صاح يقول الآن : صفر . ولماذا لم كل ما كان على المائدة ؟ هل أخذ تلك الكومة كلها لنفسه ؟ ما معنى هذا ؟

قلت :

— الصفر ، يا جدة ، يعنى أن الرابح هو البنك . فاذا وقفت الكرة

على الصفر كان كل ما على المائدة للبنك بغير تمييز . الواقع أنهم يديرون دورة أخرى تبرئة للذمة ، ولكن البنك لا يدفع شيئا .

— غريب .. ولا آخذ شيئا !

— اذا كنت قد راهنت على الصفر سلفا ، فانهم يدفعون لك المبلغ الذى وضعته مضاعفا خمسا وثلاثين مرة .

— خمسا وثلاثين مرة ؟ وهل يخرج الصفر كثيرا ؟ فلماذا لا يضعون عليه ، هؤلاء الأغبياء ؟

— لأن هناك ستة وثلاثين احتمالا مخالفا ، يا جدة !

— يا له من سخف ! پوتايتش ! پوتايتش ! انتظر . ان معى بعض المال . خذه (أخرجت من جيبها كيسا منتفخا فتناولت منه فردريكا) . خذ هذا ، وضعه على الصفر فورا .

— ولكن الصفر قد خرج الآن ، ولن يخرج مرة أخرى الا بعد زمن طويل . انك تجاوزفين كثيرا : تريشى بعض التريث .

— لن أنتظر . كلامك سخيف . ضع هذا .

— اسمحى لى . قد لا يخرج مرة أخرى قبل المساء ، ولو وضعت عليه ألف مرة . هذا شيء معروف .

— سخافات ، سخافات . لا يذهب الى الغابة من يخاف الذئب . ماذا ؟ خسرت ؟ ضع مرة ثانية .

وخسرنا مرة ثانية . ووضعنا مرة ثالثة . ان الجدة لا تكاد تستقر فى مكانها . انها تحضن بعينها البراقتين الكرة التى تتواهب بين حجرات الصفيحة الدائرة . لقد خرجت الجدة عن طورها . أصبحت

لا تستطيع المحافظة على هدوئها ، حتى لقد ضربت المائدة بقبضة يدها
حين نادى الموظف قائلاً : ست وثلاثون ، بدلا من أن يعلن خروج
الصفير المرتقب .

قالت الجدة زعلانة :

— هيا .. لا بأس .. ان هذا الصفير اللعين سيخرج قريبا ! أفضل
أن أضيع على أن لا أبقى الى أن يخرج الصفير ! الذنب ذنب ذلك
القيّم الخبيث الأجعد الشعر ، ان الصفير لا يخرج معه أبدا . الكسى
ايثانوقتش ضع دينارين مرة واحدة ! ان ما تضعه قليل ، فلو خرج
الصفير لما ربحنا شيئا .

— جدة ! ..

— ضع ، ضع ، ليس المال مالك !

ووضعت فردريكين . وتدحرجت الكرة برهة طويلة على الصفيحة،
ثم أخذت تتوابع فوق الحجرات . تهالكت الجدة وشدت على ذراعى.
وفجأة .. تك ..

— صفير .

كذلك أعلن القيّم .

قالت الجدة وهى تلتفت نحوى بحماسة :

— رأيت ؟ رأيت ؟ قلت لك ان الصفير سيخرج .. قلت لك ..
الرب نفسه هو الذى ألهمنى أن أضع دينارين ذهبيين . كم أقبض
الآن ؟ لماذا لا يدفعون ؟ پوتاپتش ، مارتا ! أين هى اذن ؟ وجماعتنا
كلهم ، أين ذهبوا ؟ پوتاپتش ، پوتاپتش !

فدمدمت أقول لها :

— حالا يا جدة . بوتانيتش على الباب . لن يأذنوا له بالدخول الى هنا . أنظري يا جدة .. ها هم يدفعون لك المال . خذيه .

وألقيت الى الجدة لفة ثقيلة تضم ٥٠ فردريكا مغلفة بورق أزرق قاتم ، وعدها لها عدا ذلك عشرون فردريكا بغير لف . وقربت المبلغ كله بمجرفة الى أمام الجدة .

— العبوا أيها السادة ! العبوا أيها السادة ! هل انتهى كل شيء ؟
كذلك صاح القيثم يدعو اللاعبين الى الحط ، ويتهاى لقذف الكرة .
— رباه ! تأخرنا في الحط . سيبدأون فوراً . حط . حط .
أسرع . لا تضيع الوقت .

هكذا أخذت تقول الجدة ، وقد خرجت عن طورها وأخذت تلكنزني بكوعها .

— ولكن أين أحط يا جدة ؟

— على الصفر ! على الصفر ! أيضا على الصفر ! حط أكبر مبلغ ممكن . كم يبلغ كل ما معنا ؟ سبعين فردريكا ؟ لا فائدة من التباخل .
حط عشرينا دفعة واحدة !

— تعقلى يا جدة ! قد لا يخرج الصفر بعد مائتى دورة ! كذلك هو في بعض الأحيان . أحلف لك . لسوف تخسرين كل ما معك من مال .

— كفى سخافات ، كفى سخافات . حط بسرعة . هذه هي المطرقة تدق ! أنا أعرف ما أفعل .

هذا ما قالته الجدة التي كانت ترتجف من توتر أعصابها .
قلت :

— النظام يحظر أن يحط اللاعب أكثر من اثني عشر فردريكا على
الصف ، ها قد حططتها .

وكان القيّم على يسارها يهم أن يقذف الكرة ، فلكزته الجدة
بكوعها تسأله بفرنسية لا تفهم :

— كيف هذا ؟ صحيح هذا يا مسيو ؟ صحيح هذا يا مسيو ؟
كم على الصف ؟ اثنا عشر ؟ اثنا عشر ؟

فأسرعت أشرح السؤال بالفرنسية . فأجابها القيّم في أدب :
— نعم يا سيدتي ، كما لا يجوز أن تتجاوز حطة كل فرد أربعة
آلاف فلورين .

وأضاف معللا ذلك قوله :

— بهذا يقضى النظام .

— طيب . لا حيلة لنا اذن . حط اثني عشر فردريكا .

صاح القيّم :

— تم اللعب .

ودارت الدائرة ، فخرج الرقم « ثلاثة عشر » . لقد خسرنا .

صاحت الجدة تقول لى :

— حط أيضا ، حط أيضا .

لم أعترض في هذه المرة ، لم أظهر أية مقاومة ، بل أسرعت أحط

اثنى عشر فردريكا وأنا أرفع كنفى . ودارت الدائرة زمنا طويلا .
فكانت الجدة ترتجف وهى تلاحقها . قلت لنفسى وأنا أنظر اليها مندهشا:
« أهى تعتقد حقا أن الصفر سيربح أيضا » . وكان يلتصق فى وجهها
ايمان مطلق بأنها ستربح ، وأمل راسخ فى أنها ستسمع القيم يصيح
بعد قليل : صفر . ووثبت الكرة الى احدى الحجرات : فهتف القيم:
— صفر .

قالت الجدة ملتفتة نحوى وقد بدا فى وجهها معنى الانتصار
وروح التهجم :
— أرايت ؟

لقد كنت مقامرا . أحسست بذلك فى تلك اللحظة عينها . كانت
ذراعاى وساقاى ترتجف . لقد كان نادرا بطبيعة الحال أن يخرج
الصفر ثلاث مرات خلال عشر ضربات . ولكن لم يكن فى هذا ما يبعث
على دهشة خاصة . فلقد رأيت الصفر بنفسى ، أول البارحة ، يخرج
ثلاث مرات متتالية ؛ وقال أحد اللاعبين فى تلك المناسبة ، وكان قد
سجل الضربات على ورقة تسجيلا دقيقا ، قال بصوت عال ان الصفر ،
فى اليوم السابق نفسه ، لم يخرج الا مرة واحدة خلال
أربع وعشرين ساعة .

أعطيت الجدة ربحها مقرونا بالاحترام والانتباه الخاصين اللذين
يستحقهما كل من حقق ربحا ضخما . لقد تقاضت أربعمئة وعشرين
فردريكا على التمام والكمال ، أى أربعة آلاف فلورين وعشرين
فردريكا . عثدت لها الفردريكات نقودا ذهبية ، وأعطيت الفلورينات
أوراقا مالية .

ولكن الجدة لم تناد پوتاپتش في هذه المرة . لقد كان في رأسها شيء آخر يشغلها عن ذلك ! أصبحت الآن لا تضطرب ولا ترتعش في الظاهر ، ولكنها كانت في داخل نفسها ترتعش ان صح هذا التعبير . كان انتباهها كله مركزا على نقطة كأنها تسدد الى هدف ؛ وقررت أخيرا فقالت لى :

— الكسى ايشانوقتش ، لقد قال القيّم ان اللاعب لا يجوز له أن يحط أكثر من أربعة آلاف فلورين في آن واحد ؛ أليس كذلك ؟ اليك اذن هذه الأربعة آلاف ؛ حطها على الأحمر .

كان من العبث أن يحاول المرء صرفها عن تصميمها . ودارت الدائرة . واذا بالقيّم يصيح :

— أحمر .

ربح جديد قدره أربعة آلاف فلورين . أصبح المجموع ثمانية آلاف .

أمرتى الجدة بقولها :

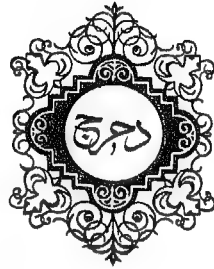
— دع لى أربعة آلاف ، وحط الأربعة الأخرى على الأحمر مرة ثانية .

فجازفت بالآلاف الأربعة مرة أخرى . ثم اذا بالقيّم يعود فيصيح :

— أحمر .

— المجموع اثنا عشر ألفا . أعطنى كل شيء . ضع الذهب في الكيس ، ولم الأوراق المالية . كفانا هذا الآن . لنعد الى المنزل . دحرجوا كرسيى .

الفصل الحادي عشر



الكرسى نحو الباب فى الطرف الآخر من القاعة . كانت الجدة مشرقة . وأسرع جماعتنا كلهم يحيطون بها مهئين . فمهما يكن سلوك الجدة غريبا شاذا ، فإن انتصارها يعطى أشياء كثيرة ؛ لقد أصبح الجنرال لا يخشى على سمعته ومهابته بين الناس من قرابته بامرأة غريبة الأطوار هذه الغرابة كلها ؛ حتى لقد أخذ يطرئ الجدة وهو يتسم ابتسامة متلطفة ، ويظهر مرحا ودودا ، كما يفعل المرء مع طفل يريد أن يسليه . وكان واضحا من جهة أخرى أنه كان مأخوذا كسائر المشاهدين ، الذين يعلقون على الحادث ويشيرون الى الجدة . حتى أن كثيرا منهم كانوا يملكون قريبا لبروها عن كذب . وكان مستر آستلى يتحدث عنها بعيدا مع اثنين من أصدقائه الانجليز . وهذه سيدات مرموقات وقورات يتأملنها فى دهشة فحمة نظرتهن الى ظاهرة عجيبة . وكان دى جريو يتدفق تهاني وبسمات . قال :
— نصر عظيم !

وأضافت مدموازيل بلانش وهى تبسم ابتسامة مداهنة متعلقة :

— ولكن ، يا سيدتى ، لقد كنت كمن يطلق النار !
فقلت الجدة :

— نعم ، بدون أن أعد واحدا أو اثنين ، ربحت اثني عشر ألف فلورين . ماذا أقول ؟ اثني عشر ألف ؟ هذا عدا الدنانير الذهبية . فيكون المجموع ثلاثة عشر ألفا على وجه التقريب . كم يساوى هذا المبلغ روبلات ؟ حوالى ستة آلاف ؟
فأوضحت لها أن المبلغ يساوى أكثر من سبعة آلاف روبل ، وقد يصل الى ثمانية آلاف بالسعر الراهن .

— ثمانية آلاف .. ليس هذا بمزحة ! ما لكما تجمدان هنالك ككلاب من خرف ؟ هل رأيتما يا پوتاپتش ويا مارتا ؟
صاحت مارتا مفرطة فى الاطراء :

— ولكن كيف فعلت يا سيدتى ؟ ثمانية آلاف روبل ..
— خدا ، هذه خمسة دنانير ذهبية لكل منكما ، خدا ..
فأسرع پوتاپتش ومارتا يقبلان يدها .

— وليوهب فردريك واحد لكل حمال . أعط كلا منهم دينارا ذهبيا يا ألكسى ايشانوفتش . ما لذلك الخادم ينحى تلك الانحناءات ؟
وذاك الآخر أيضا ؟ تهنة لى ؟ هب لكل منهما دينارا أيضا .
— سيدتى الأميرة .. فقير منفى من وطنه .. شقاء متصل ..
الأمراء الروس كرام جدا .

كذلك أخذ يقول مستجديا مستعظيا شخص ذو شاربين وقف قرب الكرسي بردنجوته المهترى وصديرتة المبرقشة ، رافعا قبعته ، مبتسما ابتسامة التذلل والخضوع .

— اعطه دينارا أيضا ، بل اعطه دينارين . والآن كفى ! والا لما كان لهذا نهاية .. احملوني ، انقلوني ! براسكوڤيا ! (قالت هذا لپاولين ألكسندروڤشنا) سأشتري لك ثوبا في الغد ، وكذلك مدموازيل .. ما اسمها ؟ مدموازيل بلانش ، أليس كذلك ؟ سأعطيها ما تشتري به ثوبا . ترجمي لها هذا الكلام يا براسكوڤيا !
— شكرا يا سيدتي .

— كذلك قالت مدموازيل بلانش وهى تنحنى اجلالا للجدة ، وترسم على شفيتها ابتسامة ساخرة تتجه بها الى دى جريو والجنرال . وكان الجنرال منزعجا بعض الانزعاج ، فلم يتخفف من ضيقه وبرمه الا حين بلغنا الطريق الذى تصطف على حافته أشجار الكستناء .
قالت الجدة وهى تتذكر خادمة الأطفال :

— وفيدوسيا ، وفيدوسيا ! لن تصدق أذنيها حين تسمع النبأ . يجب أن أعطيها أيضا ما تصنع به لنفسها ثوبا . هيه ! ألكسى ايفانوفتش، ألكسى ايفانوفتش اعط هذا الشحاذ شيئا .
كان يمر في الطريق رجل مقوس الظهر يرتدى أسملا بالية ، وينظر إلينا .

قلت :

— قد لا يكون هذا الرجل شحاذا بل وغد من الأوغاد !

— اعطه ! اعطه ! أعطه فلورينا !

فاقتربت من الرجل ومددت اليه قطعة النقد ، فنظر الى مشدوها ، ولكنه تناول الدرهم دون أن ينبس بكلمة . وكانت رائحة الخمرة تفوح منه .

— وأنت يا ألكسى ايثانوقتش ، ألم تجرب حظك بعد ؟

— لا لم أفعل بعد .

— كانت عينك تلتصمان ؛ لاحظت أنا ذلك .

— سأحاول حتما ، يا جدة ، ولكن فى المستقبل .

— وحط على الصفر دون تردد . وسوف ترى ا كم معك

من مال ؟

— عشرون فردريكا يا جدة .

— ليس هذا بالكثير . سأقرضك خمسين فردريكا اذا شئت .

خذ ، خذ هذه اللفة . أما أنت يا عزيزى (قالت هذه الجملة متجهة بها الى الجنرال على حين فجأة) فلا تراودنك الأوهام والأحلام : لن أعطيك شيئا .

فاضطرب الجنرال ولكنه لم يقل شيئا ؛ وقطب دى جريو حاجبيه ؛ ثم التفت الى الجنرال يدمدم من بين أسنانه قائلا :

— امرأة فظيعة .

صاحت الجدة .

— شحاذ ، شحاذ ، شحاذ آخر ! يا ألكسى ايثانوقتش ، اعط

هذا الرجل فلورينا أيضا .

كان يقبل علينا فى هذه المرة شيخ عجوز أبيض الشعر ، يسير على ساق من خشب ، ويرتدى نوعا من معطف طويل كحلى اللون ، ويحمل بيده عصا يتوكأ عليها . انه يشبه أن يكون واحدا من قدماء

المحاربين . فما ان مددت اليه الفلورين حتى ارتد خطوة الى وراء ،
وهو يحدق الى مهددا ، ويقول بالألمانية :

— ما هذا ؟

ثم يضيف الى سؤال التعجب هذا سيلا من الشتائم .
قالت الجدة وهى تومىء بيدها ايماءة احتقار .

— يا له من غبى ! امضوا بى . أكاد أموت جوعا . سوف أتناول
غداى فوراً ، ثم أرتاح قليلا ، لأعود بعد ذلك الى هناك .
هتفت متعجبا :

— أتريدون أن تقامرى أيضا يا جدة ؟

— ماذا تظن اذن ؟ أحسب أن علىّ ، اذا أنت لبست تتعفن هناك ،
أن أكنفى بالنظر الى محياك ؟
قال دى جريو وهو يقترب :

— ولكن الحظوظ يا سيدتى يمكن أن تنقلب . ورب حظ سيىء
واحد يفقدك كل شىء ، وخاصة اذا لعبت على طريقتك الرهيبة تلك !
وزأزأت مدموازيل بلانش تقول :

— لسوف تخسرين حتما !

— وما شأنك أنت ؟ ان ما سأخسره ليس مالك بل مالى ! ولكن
أين هو ذلك المستر آستلى ؟ (ألقت هذا السؤال علىّ) .

— بقى فى الكازينو يا جدة .

— خسارة ! انه لفتى شهم حقا !

فلما وصلنا الى المنزل ، فصادفت الجدة رئيس الخدم على السلم ، نادته وأخذت تتباهى بما حققتة من ربح . ثم استدعت فيدوسيا فأعطتها ثلاثة فردريكات ، وأمرتها بأعداد الغداء . وفى أثناء تناول الطعام كانت فيدوسيا ومارتا تتندفقان عبارات تعجب .

قالت مارتا :

— كنت أنظر اليك يا عزيزتى ، فأقول لپوتاپتش : « ماذا تريد سيدتنا أن تفعل ؟ » . ثم تكدس المال وتكدس . يا قديسى السماء ! لم أر فى حياتى مالا بهذا المقدار ! وليس من حولك الا رجال ، ليس من حولك الا رجال ! « من أين يأتى جميع هؤلاء السادة يا پوتاپتش ؟ » كذلك كنت أسأل پوتاپتش . ثم أقول : « فلتساعدنا العذراء أم الرب ! » كنت أدعوك يا سيدتى الطيبة . وكان قلبى يكاد يبارحنى ؛ لقد توقف عن الخفقان . وكنت أرتعش ارتعاش ورقة . « كن فى عونها يا رب » كذلك كنت أضرع الى الله . وقد حماك الله ورعاك . وما زلت أرتعش من ذلك حتى الآن ، ما زلت أرتعش من قمة رأسى الى أخمص قدمى .

— ألكسى ايغانوفتش ! هبىء نفسك بعد الغداء . سنعود الى هناك فى نحو الساعة الرابعة . فالى ذلك الحين أودعك الآن . ولا تنس أن تبحث الىّ بواحد من أولئك الأطباء التافهين . يجب علىّ أن أعالج بالمياه المعدنية أيضا . أتراك تنسى أن تفعل ؟

خرجت من عند الجدة كمن طاش صوابه . كنت أحاول أن أتصور ما سيحدث لأفراد جماعتنا كلهم ، وأن أتخيل المجرى الذى ستجرى

فيه الأمور ، كنت أرى رؤية واضحة أنهم لما يفيقوا بعد من الصدمة الأولى (وخاصة الجنرال) . ان وصول الجدة بدلا من البرقية التي كان يترقب وصولها من ساعة الى ساعة منبهة بموتها (ومنبهة تبعا لذلك بفضل الوصية) قد دمر جميع ما بنوه من مشاريع وخرب ما اتخذوه من قرارات ، حتى أصبحوا يتابعون باضطراب شديد وبنوع من الانشدهاء ما ستقوم به السيدة العجوز من مغامرات في الروليت . ومع ذلك فلعل هذا الأمر الثاني أن يكون أخطر شأنا من الأمر الأول ، ذلك أن تصريح الجدة مرتين بأنها لن تعطى الجنرال شيئا من المال ، يجب أن لا يفقدهم مع ذلك كل أمل . لا شك أن دى جريو ، المشارك في جميع شئون الجنرال ، لم ييأس . وأغلب الظن أن مدموازيل بلانش التي تهتم بالأمر اهتماما كبيرا (أو التي لا بد أن تهتم به اهتماما كبيرا على الأقل : زواج من الجنرال ، وميراث عريض) لن تشبط عزيبتها كذلك ، وأنها سوف تعتمد الى جميع ما تملكه من وسائل الاغراء والفتنة والغنى للتأثير في الجدة ، خلافا لپاولين المتعطرسة المتعجرفة التي لم تكن تجيد الخضوع ولا تحاول أن تجامل سعيها الى الارضاء . أما الآن ، الآن وقد قامت الجدة بتلك المغامرات الطائشة في الروليت ، الآن وقد تأكدت شخصيتها أمام أعينهم واضحة هذا الوضوح كله (عجوزا عنيدة مستبدة متقهقرة الى عهد الطفولة) ، أما الآن فلعل كل شيء قد ضاع . لقد كانت سعيدة سعادة تلميذ تحرر من الحجر عليه ، فلا بد أنه سيندفع في اللعب الى أن ينتف ريشه تنفا . قلت لنفسي (وأنا أشعر بفرح خبيث أسأل الله أن يغفره لى) : يا رب ، يا رب ! ان كل دينار جازفت به الجدة منذ قليل ، كان يطعن قلب الجنرال طعنا ، وكان

يحق دى جريو حنقا شديدا ، وكان يثير غضب مدموازيل كومنچ
التي تمر المعلقة تحت أنفها ! شىء آخر : حتى حين راحت الجدة ،
وهى فى فرحة الربح ، توزع المال على جميع الناس ، وتعد كل عابر
شحاذا ، حتى حينذاك لم تستطع الجدة أن تمنع نفسها أن تقول
للجنرال : « أما أنت فلن أعطيك شيئا » . هذا معناه أن العجوز قد
استقرت على هذه الفكرة ، وأنها مصرة عليها ، وأنها آلت على نفسها
أن تفعل . فالأمر اذن خطر خطر !

هذه الخواطر كلها كانت تضرب فى رأسى بينما كنت أصعد من
عند الجدة على سلم الشرف الى غرفتى الصغيرة فى الطابق الأخير .
كان ذلك كله يهمنى كثيرا . ورغم أننى استطعت أن أستشف الخيوط
المتينة التى تشد هؤلاء الممثلين بعضهم الى بعض أمام بصرى ، فلقد
كنت أجهل دوافع هذه التمثيلية وأسرارها . ان ياولين لم تمحضى
ثقة كاملة فى يوم من الأيام . صحيح أنها كانت قد فتحت لى قلبها أحيانا
كالمكرهة على ذلك ، ولكننى كنت قد لاحظت أنها فى كثير من
الأحوال ، بل فى جميع الأحوال تقريبا ، ما تكاد تفضى الى بعض
الأسرار حتى تحيل الى مزاح كل ما سبق أن قالت ، أو حتى تبادر الى
« لخبطة » كل شىء فتعمى الأمور عامدة . نعم .. لقد كانت تخفى عنى
أشياء كثيرة . ومهما يكن من أمر ، فقد كنت أحس أن هذا الوضع
السرى العجيب المتوتر يقترب من خاتمته . فما هى الا ضربة واحدة
حتى ينتهى كل شىء ، ويزول كل قناع . أما مصيرى أنا ، وهو مرتبط
بهذا كله أيضا ، فكنت لا أكاد أحفل به .

ما أغرب هذه الحالة النفسية التى أنا فيها : ليس فى جيبى

الا عشرون فردريكا ، وأنا بعيد عن وطنى ، بلا مركز ، بلا موارد ، بلا أمل ، بلا مشاريع ، الخ .. ثم لا يقلقنى ذلك ! ولولا أن پاولين ماثلة فى ذهنى ، اذن لاستسلمت استسلاما تاما لهذا الاهتمام بالخاتمة القريبة النى ستختتم بها هذه المهزلة ، ولضحكت ملء صدرى . ولكن پاولين تبث فى نفسى الاضطراب . اننى أحس أن مصيرها سينتقر قريبا. ومع هذا فأنا أعترف أن ذلك ليس ما يشغل بالى . لعلى أئمنى أن أنفذ الى أسرارها ، أن تجيء الى فتقول « أنت تعلم أننى أحبك » ، والا فما الذى أرغب فيه ، اذا لم تكن هذه الفكرة الجنونية ممكنة التحقيق ؟ هل أعرف ما الذى أرغب فيه ؟ اننى كالذى فقد صوابه . ان كل ما أريده هو أن أبقى قريبا منها ، فى الهالة التى تحيط بها ، فى الاشعاع الذى يصدر عنها ، الى الأبد ، مدى الحياة . لا أعرف أكثر من هذا .. هل أطيق أن أبعد عنها ؟

فلما بلغت الطابق الثالث شعرت ، فى دهليزهم ، بما يشبه الصدمة؛ فالتفت فاذا أنا الملح پاولين على مسافة عشرين خطوة خارجة الى الممر. لكأنها كانت تتربص بى ، وتتنجسس على ، وسرعان ما أومأت الى أن أقرب .

هتفت :

— پاولين ألكسندروفنا ..

فأمرتنى بقولها :

— أخفض صوتك .

فقلت بصوت خافت :

— تصورى أنتى أحسست فى هذه اللحظة بما يشبه ضربة فى جنبى ، فالتفت فاذا أنا أراك ! لكأن شعاعا يخرج منك .
قالت ياولين وقد بان فى وجهها التجهم والهم (وأغلب الظن أنها لم تسمع كلامى) :

— خذ هذه الرسالة فاعطها مستر آستلى حالا . فورا .
أرجوك . ولن يعطيك جوابا ، انه ..
ولم تتم ياولين جملتها .

قلت مدهوشا :
— أعطى الرسالة الى مستر آستلى ؟

ولكن ياولين كانت قد اختفت .

— هكذا اذن . ان بينهما مراسلة ..

وهرعت طبعاً أبحث عن مستر آستلى : ذهبت أولاً الى الفندق فلم أجده ، ثم مضيت الى الكازينو فطفت فى جميع قاعاته فلم أجده؛ وفيما كنت أعود الى المنزل حائقا غاضبا يائسا ، رأيته مصادفة مع موكب من الانجليز ، رجال ونساء على ظهور الجياد . فأشرت اليه ، فوقف ، فناولته الرسالة . ولم يتسع الوقت لأن تتبادل كلمة واحدة . وأظن أن مستر آستلى قد تعمد ذلك ، فانه ما ان تناول الرسالة حتى لكز حصانه يستحث خطاه !

هل كانت الغيرة تعذبني ؟ لقد كنت منهارا انهيارا كاملا .
لم أشأ حتى أن أستطلع موضوع المراسلة . هو موضع سرها ومحل ثقتها اذن ! أما أنه صديقها فذلك واضح (منذ متى ؟) ، ولكن

هل بينهما حب ؟ همس لى عقلى قائلًا : « حتما لا » . ولكن العقل وحده ليس له كبير وزن فى مثل هذه الحوادث . وكيف كان الحال ، يجب على أن أخرج هذا أيضا الى النور . كانت الأمور تتعقد تعقدا مزعجا .

ما كدت أدخل الفندق حتى هرع الى البواب ورئيس الخدم يبلغانى أن الجماعة طلبتنى ، وأنها تسأل عنى ، وأنها أرسلت ثلاث مرات حتى الآن تستطلع عن المكان الذى ذهبت اليه ، وأنها ترجونى أن أمضى الى منزل الجنرال بأقصى سرعة . كنت معتكر المزاج مضطرب النفس . وجدت الجنرال فى حجرته ومعه دى جريو ، ومدموازيل بلانش ، وحدها دون أمها ؛ لا شك أن هذه الأم كانت تمثل دور من له شأن ، وهى فى حقيقة الأمر لا شأن لها البتة . فتى كان هناك « قضية » حقا ، رأيت مدموازيل بلانش تصرف الأمور وحدها ؛ بل اننى لأشك فى أن تكون هذه المرأة على علم بشئون ابنتها المزعومة .

كانوا يتناقشون فى كثير من الحرارة والاندفاع ، حتى أن باب الغرفة كان مقفلا بالفتاح ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث يوما . سمعت ، حين اقتربت من الباب ، صيحات متدفقة : سمعت لهجة دى جريو الوقحة الساخرة المستهزئة ، وسمعت الشتائم الحاتقة البذيئة تطلقها مدموازيل بلانش ، وسمعت الصوت المتباكى ، صوت الجنرال الذى كان واضحا أنه يحاول أن يبرىء نفسه . فلما دخلت عليهم ثابوا الى أنفسهم ، وأصلحوا وضعهم . فها هو ذا دى جريو يعدل شعره ويصنع لنفسه وجها باسم : يا لهذه البسمة الفرنسية ،

المتظرفة ، الرسمية ، كم أمقتها ! وهذا هو الجنرال ، المرهق ،
الطائش اللب ، ينتصب ، ولكن بحركة تشبه أن تكون آلية . ان
مدموازيل بلانش وحدها لم تكد تغير هيئة الغضب والحنق في وجهها ،
فصمتت وهي تحقق الى بنظرة نافذة الصبر . يجب أن أذكر هنا أنها
كانت الى ذلك الحين تعاملنى معاملة فيها من قلة الاكتراث ما لا يصدق
عقل ، فهي ترفض حتى أن ترد على تحياتى وتتجاهل وجودى تجاهلا
كاملا .

ابتدرنى الجنرال يقول لى بلهجة عتب ودود :

— الكسى ايقانوئتش ! اسمح لى أن ألفت نظرك الى أنه من
الغريب ، من الغريب كل الغرابة .. أقول باختصار ان سلوكك نحوى
ونحو أسرتى .. أقول بايجاز ان هذا السلوك عجيب ، غريب الى
أقصى حدود الغرابة .

— ليس هذا هو الموضوع ..

هكذا قاطعه دى جريو بحق يمازجه احتقار (كان لابد أن
يتدخل فى كل أمر ..) ؛ وأردف يقول :

— يا سيدى العزيز ، يا سيدى العزيز ، ان الجنرال يخطئ
حين يتخذ هذه اللهجة (تابعت كلامه بالروسية) . انه يريد أن
يقول لك ، أعنى أن ينبهك ، أو قل أن يرجوك ملحا أن لا تضعيه ،
نعم أن لا تضعيه ! وأنا أستعمل هذا التعبير صراحة ..

فقاطعته قائلا :

— ولكن كيف ؟ كيف ؟

قال دى جريو مرتبكا :

— اسمح لى ، لقد جعلت من نفسك اليوم دليلا (أو ماذا أقول؟)
نعم ، جعلت من نفسك دليلا لهذه السيدة العجوز ، لهذه العجوز
الرهيبة . ولكنها ستخسر ، ستخسر آخر قرش تملكه ! لقد رأيت
بنفسك كيف تلعب ، لقد شهدت ذلك بنفسك . فاذا أخذت تخسر ،
فلن تترك مائدة القمار بعد ذلك قط ، غنادا واصراراً أو حقنا وغيظا ،
وستقامر بكل شيء ، ستقامر بكل شيء ! ان المرء فى مثل هذه الحالة
لا يثوب الى رشده ، وعندئذ ، عندئذ ..

قال الجنرال مؤيدا :

— وعندئذ ستضيع الأسرة كلها .. اتنا ، أنا وأسرتى ، ورثتها ،
فليس هناك من هو أقرب اليها منا . وانى لأقول لك بصراحة : ان
أمورى مضطربة ، مضطربة أشد الاضطراب . ولعلك تعرف طرفا
من ذلك .. فاذا خسرت مبلغا ضخما أو اذا خسرت ثروتها كلها
وهذا ممكن (يارب !) ، فما عسى أن يصير اليه أولادى (قال الجنرال
ذلك وهو يلقى نظرة على دى جريو) ، وما عسى أن أصير اليه أنا
(قال هذا ونظر الى مدموازيل بلانش التى أشاحت وجهها باحتقار) .
أنقذنا يا ألكسى ايثانوفتش !

قلت :

— ولكن كيف يا جنرال ، قل لى كيف أستطيع أن .. أية سلطة
لى عليها ؟

قال :

— أرفض ، أرفض ، اتركها ! ..

فصحت أقول :

— سيوجد شخص آخر ..

فقال دى جريو مقاطعا مرة أخرى :

— ليس هذا هو الموضوع ! ليس هذا هو الموضوع ! لا لا تتركها ،
ولكن عظمها ، انصحبها ، اصرفها عن القمار .. أو لا تدع لها أن
تخسر كثيرا ، سلّها بطريقة من الطرق .

فقلت مصطنعا السذاجة :

— ولكن كيف أفعل ؟ ليتك تتولى هذا الأمر بنفسك يا مسيو

دى جريو !

فما ان قلت هذا الكلام حتى رأيت نظرة سريعة ، محرقة ،
متسائلة ، تلقبها مدموازيل بلانش على دى جريو . فاذا بوجه دى جريو
يتخذ ، فى مدى لمحة طرف ، تعبيرا خاصا صادقا لم يستطع اخفائه .

— المصيبة أنها لن تقبل هذا فى أغلب الظن !

كذلك هتف دى جريو وهو يحرك يده بإشارة عجز . أما اذا ..

فيما بعد ..

ثم ألقى دى جريو نظرة ذات دلالة على مدموازيل بلانش .

فاذا بمدموازيل بلانش نفسها تجيء الىّ وهى تبسّم ابتسامة
فاتنة ، فتتناول كلتا يدي ، وتشد عليها ، وتقول لى :

— عزيزى السيد ألكسى ، كن طيبا ، كن شهما .

ان هذا الوجه الشيطاني يعرف كيف يتحول على الفور ! ان وجهها يعبر الآن عن ضراعة كبيرة ، ولطف عظيم ، الى ابتسامة كابتسامة الأطفال ، ومكر كمكر الأطفال . حتى لقد توجهت الى ، في ختام عبارتها ، بغمزة عابثة مختلصة ؛ أتراها تريد أن تغزوني ؟ انها تعرف كيف تفعل ذلك ، ولكن الأسلوب كان هنا مفضوحا ! وانجس الجنرال وراءها (نعم «انجس» ، هذه هي الكلمة) ، فأخذ يقول لى متوسلا :

— ألكسى ايثانوفتش ، اغفر لى الطريقة التى استعملتها فى التعبير منذ هنيهة ؛ ليس ذلك ما كنت أريد أن أقوله تماما . فانما أنا أرجوك ، بل أضرع اليك ، وأنحنى لك حتى الحزام على الطريقة الروسية . أنت وحدك ، وحدك تستطيع أن تنقذنا ! أنا ومدموازيل دى كومنچ تتوسل اليك ، نبتهل اليك . أنت فاهم ، أنت فاهم ، أليس كذلك ؟

قال هذه العبارة الأخيرة وهو يدلنى بنظرته على مدموازيل بلانش . كان يرثى لحاله حقا ، كان يبعث على الشفقة .

وفى هذه اللحظة تقرر الباب ثلاث نقرات خفيفة مهذبة . فلما فتح للطارق ، ظهر خادم الطابق ، وظهر وراءه ، على مسافة بضعة خطوات ، پوتايتش واقفا . لقد أرسلتهما الجدة ، وأمرتهما أن يبحثا عنى ، وأن يجيئوها بى حالا .

قال پوتايتش :

— انها غاضبة .

قلت :

— ولكن الساعة لم تتجاوز الثالثة والنصف .

— لم تستطع أن تنام ، لم تزد على أن التفتت ، ثم اذا هي
تنتصب فجأة ، فتطلب كرسيها ، وترسل تستدعيك . هي الآن على
باب الفندق .

صاح دى جريو يقول :

— امرأة فظيعة .

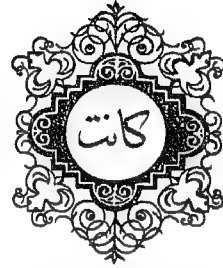
ووجدت الجدة فعلا عند فسحة المدخل ، حائقة من غيابه .
لم تطق الانتظار حتى الساعة الرابعة .

صاحت حين رأته :

— هيا . قدنى الى هناك ا

وعدنا الى الروليت .

الفصل الثاني عشر



الجدة مهتاجة احتياجا شديدا . وكان واضحا أن الروليت تحاصر فكرها . انها لا تنتبه الآن الى شيء آخر غير الروليت ، وتبدو ذاهلة ذهولا قويا على وجه العموم . من ذلك مثلا أنها لم تلق على أسئلة أثناء الطريق كما فعلت في الصباح . وحين لمحت عربة فخمة تتبختر أمامنا ، حركت يدها قليلا تسألني عن صاحب العربة ، ولكنها لم تسمع جوابي في أغلب الظن . وكان يقطع استرسالها في الأحلام حركات متقطعة تنبئ عن نفاد الصبر ، هيجانات مفاجئة ليست في الحسبان . حتى اذا اقتربنا من الكازينو ، فرأيت البارون والبارونة فورمرهلم ، فأشرت اليهما وسميتهما ، نظرت اليهما نظرة ذاهلة تدل على أنها لا تكثرث للأمر أقل اكتراث ، ولم تزد على أن قالت : « هه ! » وهى تلتفت بحركة قوية نحو پوتاپتش ومارتا اللذين كانا يتبعانها ، فتقول لهما :

— ما لكما تلاماني ؟ لن أصحبكما في كل مرة ! عودا ..

وأضافت تقول لى حين انصرف الآخرون بعد أن ودعاهما
بتحية سريعة :

— أنت تكفينى .

كانت الجدة تنتظر فى الكازينو . وسرعان ما حجز لها المكان
نفسه ، قرب القيم . يخيل الى أن هؤلاء القيمين الذين
يظهرون بمظهر الموظفين المتجربين الذين يكاد يستوى عندهم أن
تربح الخزانة أو أن تخسر ، ليسوا فى حقيقة الأمر غير مبالغين بالخزانة .
فلا شك أنهم مزودون بتعليمات لاجتذاب المقامرين ، والحرص على
مصالح الضرائب ، ولا شك أن هذا يعود عليهم بمكافآت وهبات .
ان أقل ما يقال هو أنهم كانوا ينظرون منذ الآن الى الجدة نظرتهم
الى ضحية .

ووقع ما كان يتوقعه جماعتنا . واليكم كيف جرت الأمور :
اختارت الجدة الصفر رأسا ، وأمرتني أن أحط اثني عشر
فردريكا دفعة واحدة . فحططنا مرة أولى ، فمرة ثانية ، فمرة
ثالثة .. ولكن الصفر لم يظهر . فكانت الجدة ما تنفك تلكرنى
بكوعها نافذة الصبر قائلة : « استمر ، استمر » . فكنت
أطيع الأوامر .

وسألتني أخيرا وهى تصر بأسنانها من شدة الغيظ والحنق :

— كم مرة لعبنا ؟

— اثنتى عشرة مرة . وقد خسرنا مائة وأربعة وأربعين فردريكا .

أعود فأقول لك ، قد يجيء المساء قبل أن ..

فقاطعتنى تقول :

— اسكت . حط على الصفر ، وحط ألف فلورين أيضا على الأحمر . هاك ورقة نقدية .

فخرج الأحمر ، ولكن الصفر امتنع عن الخروج في هذه المرة أيضا . ولحت الألف فلورين .

قالت الجدة بصوت خافت :

— رأييت ؟ رأييت ؟ ها نحن استرجعنا كل ما خسرناه . حط أيضا على الصفر . وسننصرف بعد عشر دورات .

ولكن العجوز استغنت عن الصفر بعد خمس دورات .

قالت لى أمرة :

— دعك من هذا الصفر المنحوس . خذ . حط أربعة آلاف فلورين على الأحمر .

فتضرعت اليها قائلا :

— هذا كثير يا جدة ! .. ماذا اذا لم يخرج الأحمر ؟ ولكنها أوشكت أن تضربنى (هذا الى أن لكزات كوعها كانت لطمت حقا) ، وكان لابد من الامتثال لأمرها ، فوضعت على الأحمر الأربعة آلاف فلورين التى ربحناها فى الصباح . وأخذت الدائرة تدور . كانت الجدة هادئة ، منتصبة القامة ، معتزة ، واثقة من أنها ستربح .

صاح القيّم :

— صفر .

فلم تفهم الجدة فى أول الأمر ؛ ولكنها حين رأت القيّم يلم
ألوفها الأربعة من الفلورينات مع كل ما كان موجودا على المائدة ،
فأدركت أن الصفر الذى ظل مختفيا طوال تلك المدة والذى حططنا
عليه ما يقرب من مائتى فردريك ، قد ظهر الآن ، كأنما عن عمد
وقصد ، بعيد أن أهائته وهجرته ، صرخت صرخة تعجب ، وصفقت
كفا بكف صفقا مدويا . فأخذ الناس من حولها يضحكون .

صرخت الجدة بصوت حاد تقول :

— يا قديسى الجنة ! ها هو ذا يخرج الآن ، هذا الجرو !
الذنب ذنبك . هذا كله ذنبك (قالت ذلك وهى تهجم على حاقنة
وتأخذ تنكعنى) . أنت ثببتى عن الصفر .

— يا جدة ، أنا حاولت أن أردك الى التعقل ، ولست مسئولا
عن جميع الحظوظ .

فجميعت تقول بلهجة التهديد :

— لسوف أعطيك حظوظا . هيا انصرف !

قلت وأنا أتحوّل عنها كمن يريد أن ينصرف :

— وداعا يا جدة .

— ألكسى ايثانوفتش ، ألكسى ايثانوفتش ! ابق معى . الى
أين أنت ذاهب ؟ ابق ، ابق قليلا أيضا . أنا الحمقاء . أنا الغبية .
قل لى الآن ما يجب أن نفعل .

— لن أنصحك بشيء بعد الآن يا جدة ، حتى لا تلومينى .
العبي بنفسك . أنت تأمرين ، وأنا أخط .

— طيب طيب : حظ أيضا أربعة آلاف فلورين على الأحمر .
اليك محفظتي (قالت ذلك وهى تخرج محفظتها من جيبها وتمدها
الىّ) . أسرع . فيها عشرون ألف روبل .
تمتت أقول :

— يا جدة ! هذه مبالغ ..

— أوثر أن أشنق على أن لا أسترده . حظ .
فحططنا وخسرنا .

— حظ أيضا . حظ أيضا . حظ ثمانية آلاف دفعة واحدة .

— هذا محظور يا جدة . الحد الأقصى الذى يجوز حظه هو
أربعة آلاف .

— حظ اذن أربعة آلاف .

فربحنا فى هذه المرة . فاستردت الجدة شجاعتها .
قالت لى وهى تلكزنى بكوعها :

— أرايت ؟ أرايت ؟ حظ أربعة آلاف أخرى .

فحططنا ، فخسرنا ، ثم حططنا ثم خسرنا ..

قلت لها مبلتًا :

— ضاعت الاثنا عشر ألف فلورين يا جدة .

فأجابتنى بنوع من الحق الهادىء ان صح التعبير :

— أعرف أنها ضاعت .

ثم أضافت مدممة ، وهى جامدة النظرة كأنها تفكر :

— أعرف أنها ضاعت يا عزيزى ، أعرف . هيه ! سوف أخسر هنا جلدى نفسه . ولكن لا ضير .. حط أربعة آلاف فلورين أخرى .
— لم يبق معنا نقود يا جدة . لم يبق فى محفظتك الا صكوك روسية بفائدة خمسة فى المائة ، وبضعة سندات ؛ أما المال فلا مال .

— وفى كيسى ؟

— نقود صغيرة يا جدة .

فقلت الجدة بلهجة قاطعة :

— ألا يوجد هنا صرافون ؟ لقد قيل لى ان فى وسعنا أن نبدل جميع ما معنا من سندات وصكوك .

— تستطيعين تبديل كل ما تريدين تبديله . ولكنك ستخسرين فى عملية التبديل .. ألا ان يهوديا ليرتعث من هذا .

— سخافات ! أريد أن أسترده مالى . قدنى الى الصرافين .
استدع هؤلاء الأوغاد .

فدخرجت الكرسى ، وهرع الحمالون يدركوننا ، وخرجنا من الكازينو .

قالت الجدة آمرة :

— مزيدا من السرعة ، مزيدا من السرعة ! أرنى الطريق يا ألكسى ايشانوفتشس .. خذنا الى أقرب صراف .. أهو بعيد ؟

— على مسافة خطوتين يا جدة .

ولكن ، عند المنعطف ، حين اجتزنا الساحة وسلكنا طريق
أشجار الكستناء ، صادفنا جماعتنا كلها : الجنرال ودى جريو
ومدموازيل بلانش وأمها ، ولم تكن پاولين ألسكندروفنا معهم ،
ولا مستر آستلى .

— هيا بنا ، هيا بنا . لن نتوقف . ما ذا تريدون ؟ ليس فى وقتى
متسع لكم !
كذلك صاحت الجدة .

وكنـت أسير فى الخلف ، فـلحق بى دى جريو ، فقلت له بصوت
خافت على عجل :

— خسرت كل ما ربحته فى الصباح ، واثنى عشر ألفا زيادة .
ونحن ذاهبون بـدل سندات فائدتها خمسة فى المائة . فضرب
دى جريو الأرض برجله ، وهـرع ينبىء الجنرال بالخبر . وكنا
ما نزال ندفع كرسى الجدة .

فتمتم الجنرال يقول لى وقد جن جنونه غضبا :
— امنعها ، امنعها .

فأجبتـه :

— حاول ذلك أنت !

فقال الجنرال وهو يقترب :

— يا عمتى ، يا عمتى الطيبة .. نحن ذاهبون .. نحن ذاهبون
(كان صوته يرتجف ثم تكسر) نستأجر جيادا لنقوم بجولة فى البرية ..
منظر رائع .. القمة .. كنا آتينـا لندعوك أن تصحبينا .

فقلت الجدة بحركة من نفد صبره لتدفعه عنها :
— اذهب أنت وقمّتك الى الشيطان !
فاستأنف الجنرال يقول وقد فقد الأمل في هذه المرة :
— يوجد هنالك قرية .. نحتسى فيها الشاي ..
وأضاف دى جريو بلهجة تنم عن عداوة كاسرة :
— وسنشرب لبنا على العشب الطرى الأخضر .
لبن ، عشب طرى أخضر ، ذلك أقصى ما يتخيله
باريسى من متعة شعرية ؛ ذلك هو ، كما تعرفون ، كل قص
والحقيقة .
قالت الجدة :
— لا يهمنى لبنك . اذهب فاشرب منه وحدك . أ،
يؤذى معدتى . لماذا تلح ؟ قلت ان وقتى لا يتسع ا
صحت أقول للجدة :
— وصلنا يا جدة !
ودفعنا كرسيها نحو المكان الذى يوجد فيه مكتب
ومضيت أنا أتولى تبديل السندات ، ولبتت الجدة تنتظرنى
وظل دى جريو والجنرال وبلائش بعيدين لا يعرفون
صانعين . ورشقتهم الجدة بنظرة غضبى ، فساروا في
الكازينو .
عرض على الصراف سعرا بخسا جدا ، فترددت وء
الجدة ما تأمر به .

فصاحت الجدة وهى تصفق يدا بيد :

— آ .. يا لهم من لصوص ! ولكن اقبل مع ذلك .

ثم قالت لى متداركة :

— انتظر . ادع لى صاحب المصرف .

— بل أحد الموظفين يا جدة !

— سيان . أدع أحد الموظفين . آه .. يا للصوص !

ورضى الموظف أن يخرج حين علم أن التى تستدعيه كوتيسة عجوز ، ضعيفة عاجزة . فألقت عليه العجوز خطابا طويلا ، وصفته فيه بأنه نشال ، وبأنه مختلس ، وبأنه .. وكان خطابها مزيجا من روسية وانجليزية وألمانية ، فكنت مضطرا أن أترجمه له . فكان الموظف ، القاسى الوجه ، ينظر إلينا كلينا هازا رأسه دون أن ينبس بكلمة ؛ حتى لقد كان يتفرس فى الجدة باستطلاع ملحاح يقارب قلة الأدب . ثم أخذ يتسم .

صرخت الجدة تقول :

— طيب طيب .. هيا .. ان شاء الله يخنقك مالى . بدل عنده

يا ألكسى ايقانوقتش ، ليس لدينا متسع من الوقت ، فان لم نبدل عنده كان علينا أن نمضى الى غيره ..

— هو يدعى أن غيره يعطى سعرا أبخس من سعره .

لا أتذكر الآن كم كانت « العمولة » على وجه الضبط ، ولكنها

كانت رزية . قبضت اثنى عشر ألف فلورين ، دنانير ذهبية وأوراقا نقدية ، وأخذت فاتورة الحساب ، ومضيت بها الى الجدة .

قالت الجدة وهى تحرك يدها :

— طيب طيب . لا داعى الى العد . أسرع . أسرع .

حتى اذا صرنا قرب الكازينو دمدمت قائلة :

— لن أخط شيئا بعد الآن قط لا على الصفر المنحوس

ولا على الأحمر .

وحاولت فى هذه المرة ، بكل ما أوتيت من قوة ، أن أقنعها بأد
لا نخط الا مبالغ ضئيلة فى أول الأمر ، حتى اذا رأينا الحظ يواتينا
أخذنا نخط مبالغ ضخمة . ولكنها كانت نافذة الصبر ، فرغم أن
استجابات لحججى فى البداية ، لم تستطع أن تسلك زمام نفسها أننا
اللعب . وما ان أخذت تربح عشر فردريكات أو عشرين حتى راح
تلكزنى بكوعها قائلة :

— أرايت ؟ أرايت ؟ لقد ربحنا ، فلو قد حططنا أربعة آلاف

فلورين بدلا من عشر ، اذن لربحنا أربعة آلاف . أما الآن .. ان الذنب
فى ذلك كله ذنبك .

فقررت أخيرا أن أصمت وأن أعدل عن اسداء النصح لها بتاتا
رغم ما كنت أشعر به من غيظ حين أراها تقامر بهذه الطريقة .

وها هو ذا دى جريو ينبجس على حين فجأة . لقد كانوا هـ
الثلاثة فى أطراف القاعة . لاحظت أن مدموازيل بلانش كانت منتح
جانبا مع أمها فى صحبة الأمير القصير تلافقه وتتودد اليه . وكان واضح
أن الجنرال منبوذ ، حتى ليكاد يكون منفي . ان مدموازيل بلانش
ترفض حتى أن تنظر اليه ، رغم تقربه منها واحتفاله بها . مسك

هذا الجنرال ! لقد كان يصفر ويحمر ويرتعش ، منصرفا حتى عن مراقبة مقامرات الجدة . وخرجت بلائش أخيرا مع الأمير ، فهرع الجنرال يعدو في اثرهما .

قال دى جريو موشوشا الجدة بصوت متلطف متظرف :

— مدام ، مدام .. هذا اللعب لن يربح .. مستحيل .

قال ذلك بلغة روسية رديئة .

فسألته الجدة :

— فماذا أفعل اذن ؟ قل لى ما ترى أن أفعله !

فأخذ دى جريو يتكلم بالفرنسية متدفقا ، ويسدى النصائح تلو النصائح ، ويقول انه كان عليها أن تنتظر موافاة الحظ ، حتى لقد أخذ يجرى بعض الحسابات . لم تفهم الجدة شيئا . وكان دى جريو يلتفت الىّ فى كل لحظة من أجل أن أترجم . وكان يسدد اصبعه نحو المائدة يظهر الجدة على ما يريد اظهارها عليه ، وتناول آخر الأمر قلما فألقى على الورق بعض الأرقام . فنفد صبر الجدة ، فقالت له :

— امض ، امض ! ما أراك قائلا الا خزعبلات : « مدام ، مدام » .

وأنت لا تفقه شيئا ! هيا اذهب .

فتمتم دى جريو يقول مستأنفا التوضيح والنرح ، وكان جليا أنه كالمسوع :

— ولكن يا مدام ..

فأمرتى الجدة قائلة :

— طيب .. حظ مرة كما يقول : فقد ينجح نصحه .

كان كل ما يريده دى جريو أن يمنعها من حظ مبالغ ضخمة :
فاقترح عليها أن تحط على الأرقام منفصلة متسلسلة . فاتبعت رأيه ،
فحطت فردريكا على سلسلة من الأعداد الشفعية فى الاثنى عشر الأولى،
وحطت خمسة فردريكات على مجموعات من الأرقام من اثنى عشر
الى ثمانية عشر ومن ثمانية عشر الى أربع وعشرين : وبذلك حططنا
مبلغا مقداره ستة عشر فردريكا . وأخذت الدائرة تدور .

— صفر .

بهذا صاح القيّم . فخرنا كل ما حطناه .

هتفت الجدة ملتفتة نحو دى جريو تقول :

— ما هذا القوق الذى جاءنا ! ما هذا الفرنسى السخيف ! انظر
الى هذا الطرّح يسدى الينا بنصائحه ! هيا امض ، امض . لا يفقه
شيئا ثم يحشر أنفه فى كل شىء !

فاستاء دى جريو استياء فظيلا ، فرفع كتفيه استخفافا ، وألقى
على الجدة نظرة احتقار ، ثم انسحب . لقد شعر بالعار من تدخله فى
شأنها وتعريض نفسه للمهانة منها ، ولكنه لم يطق أن يمنع نفسه
عن ذلك .

وما انقضت ساعة واحدة ، الا وقد خسرنا كل شىء ، رغم جميع
الجهود المستميتة .

صرخت الجدة قائلة :

— لنعد الى المنزل .

فخرجنا . ولم تنبس الجدة بكلمة واحدة طوال مسيرتنا حتى بلغنا طريق أشجار الكستناء . وهناك ، في هذا الطريق ، حين أوشكنا أن نصل الى الفندق ، أفلتت من لسانها عبارات كهذه :

— يا لى من بلهاء ! يا لى من حمقاء ! ما أنا الا عجوز غبية ..

حتى اذا صرنا فى مسكنها صاحت تقول :

— الىّ بشىء من الشاى . ولنتهيأ للسفر رأسا بعد ذلك .
سوف نسافر .

قالت مارتا مجازفة :

— الى أين تريدان أن تذهبا يا سيدتى الطيبة ؟

فأجابتها الجدة :

— أهذا شأنك ؟ اهتفى بأمورك أنت . يا پوتاپتش ، هبىء جميع الأمتعة . نحن عائدون الى موسكو . لقد خسرت خمسة عشر ألف روبل فضة .

— خمسة عشر ألفا ، يا سيدتى العزيزة ؟ رباه رباه !

هكذا صاح پوتاپتش ، وهو يضرب كفا بكف ، مظهرا الاشفاق والحزن ، لاغنتاده أن هذا يرضى سيده .

— هيا هيا أيها الغبى ! ها هو ذا قد أخذ يتباكى ! أسكت .

وامض هبىء السفر . وليأتونى بفاتورة الحساب بأقصى سرعة .

قلت من أجل أن أهديء روعها :

— يسافر القطار التالى فى الساعة التاسعة والنصف ، يا جدة .

— وكم الساعة الآن ؟

— الساعة والنصف .

— شيء مضجر ! لا بأس ! ألكسى ايثانوقتش ، لم يبق معى قرش واحد . اليك بهاتين الورقتين النقديتين ، فأسرع الى هناك لتبديلهما ، والا لم يكن معى ما أسافر به .

فخرجت ممتثلا لأمرها . حتى اذا رجعت بعد نصف ساعة وجدت جميع أصدقائنا عند الجدة . كانوا كمن أذهلهم نبأ رحيلها المفاجيء الى موسكو ، أكثر مما أذهلهم نبأ الخسارة التى منيت بها فى الروليت . ما عسى أن يصير اليه الجنرال بعد رحيلها ، مع التسليم بأن رحيلها هذا ينقذ ثروتها من الضياع ؟ من ذا الذى سيرد الى دى جريو ديونه ؟ ان مدموازيل بلانش لن تنتظر موت الجدة ، ولا شك أنها ستنتسل مع الأمير الصغير أو مع شخص آخر . لقد كانوا جميعا هنالك ، أمام الجدة ، يحاولون أن يواسوها وأن يردوها الى الصواب . وكانت ياولين غائبة فى هذه المرة أيضا . وكانت الجدة تصليهم نارا من السب المقذع والشتم القاسى .

— ابعدوا عن طريقى أيها الجن ! لماذا تتدخلون فى شئونى ؟ فيم تأتى لحية التيس هذا فتتحكك بى ؟ (بهذا كانت الجدة تصيح فى وجه دى جريو) . وأنت يا ببغاء ، ماذا تريدن ؟ (بهذا قذفت مدموازيل بلانش) مالك تنهزين ؟ .

كانت عينا مدموازيل بلانش تقدح شررا من شدة الغضب ، فما لبثت أن دمدمت تقول :

— يا للشيطان ! ..

ولكنها انفجرت تفهقه على حين فجأة ، ثم مضت تخرج من الغرفة.
حتى اذا صارت على الباب صرخت تقول للجنرال :
— لسوف تعيش مائة عام .

فصاحت الجدة بصوت حاد تقول للجنرال :

— اذن فأنت تعوّل على موتى ! هيا أغرب عن وجهى . يا ألكسى
ايقانوقتش ، اطردهم جميعا ! ما شأنكم أتم ؟ لقد خسرت مالى أنا
لا مالكم أتم !

فرفع الجنرال كتفيه ، وحنى ظهره ، وخرج . وتبعه دى جريو .
قالت الجدة تأمر مارتا :

— ناد براسكوڤيا .

فما هى الا خمس دقائق حتى عادت مارتا مصطحبة پاولين . لقد
ظلت پاولين طوال تلك الفترة فى غرفتها مع الأطفال (لا شك أنها قررت
عامدة أن لا تخرج فى ذلك النهار) . وكان وجهها ينم عن حزن وهم .
بادرتها الجدة بقولها :

— أصحيح يا پراسكوڤيا ما علمته منذ قليل على نحو غير مباشر
من أن زوج أمك يريد أن يتزوج تلك المرأة المذبذبة ، تلك «الفرنسية»
التي لا أدرى أهى ممثلة أم هى شر من ذلك أيضا ؟ قولى أصحيح هذا؟
فأجابت پاولين :

— لا أعلم شيئا علم اليقين يا جدة ، ولكننى أستنتج من أقوال

مدموازيل بلائش التى لا ترى أن من المفيد أن تخفى الأمر ،
أستنتج أن ..

فقاطعتها الجدة قائلة بلهجة قوية :

— كفى . فهمت كل شيء ! ولقد كنت دائما أقدر أنه سينتهى الى
هذه النهاية ، وكنت دائما أعده أفرغ رجل وأطيش رجل على وجه
الأرض . انه يتباهى برتبة الجنرال التى يحملها (وقد أخذها حين أحيل
على التقاعد وهو فى رتبة كولونيل) ، ويتخذ أوضاع الأبهة والعظمة .
ولكننى أعرف كل شيء يا عزيزتى ؛ أعرف أنكم أرسلتم البرقية تلو
البرقية الى موسكو تسألون : « هل ماتت الجدة العجوز ؟ هل هى
مشرفة على الموت ؟ » . هذا هو معنى تلك البرقيات . كنتم تنتظرون
أن ترثوني . ولولا هذا المال لما كان لهذه المخلوقة (ما اسمها ؟
دى كومنج فيما أظن !) أن ترضاه خادما لها بأسانه المصنوعة هذه !
يقال انها تملك مالا كثيرا ، وانها تقرض بالربا ، وانها كوّنت لنفسها
كنزا خيئاً . لست أتهمك يا پراسكوفيا ، فما أنت التى أرسلت
البرقيات ، ولا أريد أن أعود الى الماضى . أنا أعلم أن لك طبعاً سيئاً..
أنا أعلم أنك .. زنبور .. اذا لسع أوجع وأورم ! ولكننى أشعر بالشفقة
عليك ، لأننى كنت أحب والدتك المرحومة كاترين . فاسمعى ما سأقوله
لك : دعى كل هذا ، وتعالى معى . ليس هناك مكان تذهين اليه ،
وليس يليق بك أن تبقى معهم الآن . انتظرى ، (قالت الجدة ذلك
لپاولين حين همت پاولين أن تجيبها) لم أنتم كلامى بعد . لن أطلب
منك شيئاً . أنت تعرفين منزلى بموسكو : انه قصر . لسوف تختلين

طابقا بأسره اذا شئت ، وفي وسعك أن تسكنى أساييع بكاملها دون أن
تجئى الىّ اذا كان طبعى لا يرضيك . أتقبلين أم لا ؟

— اسمحى لى أن ألقى عليك أولا هذا السؤال : أنت تنوين
حقا أن ترحلى على الفور ؟

— هل يظهر فى وجهى أننى أمزح ، يا صغيرتى ؟ قلت انتى سأسافر،
فسأسافر . خسرت اليوم خمسة عشر ألف روبل فضة . فى هذه
الروليت المنحوسة الملعونة .

لقد نذرت منذ خمس سنين أن أعيد بناء الكنيسة المبنية بخشب،
والموجودة فى أراضىّ حوالى موسكو ، نذرت أن أعيد بناءها بحجر ،
فبدلا من أن أحقق النذر ، رحت أدمر نفسى اليوم فى القمار . وانى
أسافر الآن يا عزيزتى لأنفذ النذر فأعيد بناء كنيستى .

— والمياه المعدنية يا جدتى ؟ لقد جئت الى هنا للاستشفاء بالمياه
المعدنية .

— دعينى من مياهك المعدنية ! لا تفضيينى يا پراسكوفيا ! أنت
تفعلين هذا عامدة ؟ قولى : أتجئين معى أم لا تجئين ؟

فبادرت پاولين تقول بانفعال وتأثر :

— أنا يا جدتى ممتنة أشد الامتنان لما تعرضينه علىّ من ايوائى فى
منزلك . لقد حزرت بعض الوضع الذى أنا فيه . فأنا أشكر لك ذلك
أجزل الشكر ، بل أبلغ من هذا الشعور بالجميل الذى تقدمينه لى
أننى قد ألحق بك قريبا ، صدقينى . أما الآن فهناك أسباب .. هامة ..

فلا أستطيع أن أعزم أمرى وأتخذ قرارى على الفور . ولكن اذا مكثت هنا ولو خمسة عشر يوما ..

— اذن أنت لا تريدین ؟

— لا أستطيع . يضاف الى ذلك أننى لا أقدر على ترك أخى وأختى .. اذ يمكن أن يبقيا وحيدین .. فاذا كنت توافقین على ضم الطفلین يا جدتى ، فلا شك عندئذ فى أنتى سأجىء اليك ؛ وثقى أنتى سأكون جديرة بهذا (أضافت پاولین هذه العبارة الأخيرة بحرارة وحماسة) . أما بدون الأطفال ، فلا أستطيع يا جدتى ..

— طيب طيب .. دعيك من التباكى (والحق أن پاولین لم يخطر ببالها أن تتباكى ، ثم انها لم تذرف فى حياتها دمعة) سنجد مكانا للأفراخ : العش واسع سعة كافية . ثم انه قد آن للطفلین أن يذهبا الى المدرسة . اذن لن تسافرى الآن . حذار يا پراسكوڤيا ! اننى أريد لك الخير ، وأعلم لماذا لا تريدین أن تسافرى .. انتى أعرف كل شيء يا پراسكوڤيا ! لا تتوقعى خيرا من هذا الفرنسى الصغير الحقير .

احمرت پاولین احمرارا شديدا . وارتعشت أنا (كانوا جميعا يعلمون .. وكنت أنا الجاهل الوحيد) .

— لا أريد أن أفيض فى هذا الموضوع . ولكن حذار أن تقع كارثة .. هل تفهمین ما أريد أن أقول ؟ أنت فتاة ذكية ، ولسوف يحز فى نفسى أن يصيبك سوء . حسبى هذا الآن . ولا ترينى وجهك بعد اليوم ! هيا اذهبى . وداعا .

قالت پاولین :

— سأصحبك يا جدتي ..

— لا فائدة ، لسوف تزعجيني .. وقد غمرتموني بالمزعجات حتى
قمة الرأس .

قبلت پاولين يد الجدة ، ولكن الجدة سحبت يدها وقبلت الفتاة
على خدها .

وحين مرت پاولين أمامي ألفت على نظرة سريعة ، ثم أشاحت
ببصرها عني على الفور .

— أودعك أنت أيضا يا ألكسى ايفانوڤتش ! لم يبق لسفر القطار
الا ساعة واحدة . وما أحسب الا أنك قد تعبت منى . خذ هذه
الخمسين فردريك .
قلت :

— أشكر لك هذا أجزل الشكر يا جدة ولكننى لا أجرؤ أن ..
فصاحت الجدة تقول بصوت بلغ من العنف والتهديد أنتى لم
أتجاسر أن أرفض ، فتناولت المال .
وأضافت قولها :

— اذا وجدت يوما فى موسكو بغير وظيفة ، فتعال الى
لأوصى بك . والآن هيا انصرف ..

مضيت الى غرفتى وتمددت على سريرى . لبثت مستلقيا على
ظهرى ، طاويا ذراعى تحت رأسى ، قراية نصف ساعة . لقد انفجرت
الكارثة ، وثمة ما يوجب التفكير . وقررت أن أحدث پاولين فى
الغداة جادا . هه ! الفرنسى الصغير . الأمر اذن صحيح ! ولكن

ما الذى عساه حدث ؟ ياولين ودى جريو ؟ يارب يارب ! أى تقارب هذا التقارب ؟ .

حقا ان هذا أمر لا يصدقه العقل . ورأيتنى أنهض فجأة وقد خرجت عن طورى ، لأمضى باحثا عن مستر آستلى على الفور ، ولأحمله على الكلام مهما كلف الأمر . لا شك عندى فى أنه يعرف عن هذا الأمر أكثر مما أعرف . مستر آستلى ؟ ألا انه للغز هو أيضا ! .

ولكننى ما لبثت أن سمعت طرقا على باب غرفتى ، ففتحت لأرى من عسى يكون الطارق ، فوجدتنى أمام پوتاپتش .
— يا سيدى الطيب ألكسى ايفانوفتش ، ان سيدتى تطلب أن تجيء اليها .

— ماذا جرى ؟ هل عدلت عن الرحيل ؟ لم يبق لسفر القطار الا عشرون دقيقة ؟ .

— انها مضطربة أشد الاضطراب يا عزيزى ، لا تكاد تستطيع الاستقرار فى مكانها . « أسرع ، أسرع ! » انها تطلبك أنت . ناشدتك الله لا تتأخر ! .

فنزلت حالا . فوجدت العجوز قد نقلت الى الدهليز ، وفى يدها محفظة نقودها . فما ان رأتنى حتى قالت :

— ألكسى ايفانوفتش ، سر أماننا ، اننا ذاهبون الى هناك .

— الى أين يا جدة ؟ .

— لسوف أسترد مالى ولو كان على أن أهلك ! هيا ، امش .
لا تلق على أى سؤال . اللعب يستمر الى منتصف الليل ، أليس
كذلك ؟ .

جمدت فى مكانى مطرقا أفكر . ولكننى ما لبثت أن اتخذت
قرارا .

— لك ما تشائين يا أنطونين فاسيلينا . ولكننى لن أصحبك .
— لماذا ؟ ما الذى جرى ؟ أية ذبابة لسعتكم جميعا ؟ .

— لك ما تشائين يا جدة . ولكننى لا أريد أن أندم فى المستقبل ،
لا أريد . لن أكون لا شاهدا ولا مشاركا . اعفينى من هذا
يا أنطونين فاسيلينا ! اليك الخمسين فردريكا التى اعطيتنيها ،
والوداع ! .

قلت هذا ووضعت لفة الدنانير الذهبية على منضدة صغيرة
كانت موجودة الى جانب كرسى الجدة ، ثم حيت وانصرفت .
صاحت الجدة تقول :

— ما هذه البلاهة ! طيب ، لا تجيء ، سأعرف الطريق بنفسى .
تعال معى يا پوتاپتش . هيا جرونى ! .

لم أعثر على مستر آستلى ، فعدت الى الفندق . وفى وقت
متأخر من الليل ، فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، عرفت من
پوتاپتش كيف انتهى يوم الجدة . لقد خسرت كل ما كنت قد بدلت
لها ، أى عشرة آلاف روبل أخرى . ان البولونى الذى سبق أن أهدت
اليه دينارين ، قد تعلق بأذيالها ، ووجهه لعبها طوال الوقت . اعتمدت

فى أول الأمر على پوتايتش ، ولكنها لم تلبث أن طردته . وفى تلك اللحظة انما ظهر البولونى . ومن المصادفات التى تشبه أن تكون مقصودة أن هذا البولونى كان يفهم اللغة الروسية ، وكان يرطن بعض الرطن بخليط من ثلاث لغات ، فأمكن أن يتفاهما . وكانت الجدة تقسو عليه قسوة شديدة وتغلظ له القول رغم أنه « يزحف بين قدميها زحفا » .

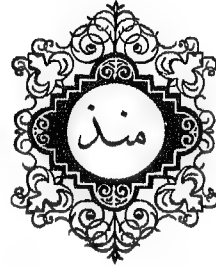
وأضاف پوتايتش يحكى القصة قائلا :

— لا وجه للمقارنة بينك وبينه يا ألكسى ايثانوفتش . لقد كانت تعاملك أنت معاملتها سيذا من السادة . أما الآخر (رأيته بأى عينى ، وليصعقنى الله صعقا ان كنت كاذبا) فقد كان يسرق مالها على مرأى منها ؛ حتى لقد ضبطته متلبسا بالجرم مرة أو مرتين ، فشتمته ، ووصفته بجميع الأوصاف ، بل لقد شدت شعره . صحيح . لست أكذب . وقد ضحك الناس من ذلك . خسرت كل شىء يا سيدى الطيب : خسرت كل ما كان معها ، كل ما بدلت له لها . ورجعنا بها الى هنا ، السيدة العزيزة . فما زادت على أن طلبت كأسا من ماء ، ثم رسمت اشارة الصليب ، ومضت الى فراشها على الفور . أسأل الله أن يبعث اليها بأحلام ملائكية ! .

وختم پوتايتش قصته قائلا :

— آه آه من البلاد الأجنبية ! لقد قلت ان هذه الرحلة الى الخارج لن تأتى بخير . فلنعد بسرعة الى مدينتنا العزيزة موسكو . ماذا كان ينقصنا هنالك ؟ .. حديقة جميلة ، وأزهار لا نرى لها هنا مثيلا ، وهواء نقى ، وأشجار غضة ، ومكان فسيح .. لا .. يجب أن نساغر الى الخارج . آه آه ..

الفصل الثالث عشر



شهر تقريبا لم ألس هذه المذكرات التي بدأت كتابتها وأنا نهب مشاعر مضطربة مشوشة لكنها قوية عنيفة . ان الكارثة التي كنت أحس اقترابها قد وقعت ، ولكنها جاءت أقوى وأسرع مما كنت أتصور ، مائة مرة . كان كل شيء عجيبي فاضحا ، بل فاجعا ، فيما يتصل بى أنا على الأقل . لقد وقعت لى أمور تشبه أن تكون معجزات ؛ أو هذا ما أراه فيها حتى الآن ، رغم أنها لا تكاد تستحق أن توصف الا بأنها استثنائية بعض الشيء ، اذا نحن نظرنا اليها من زاوية أخرى . ولكن المعجزة ، بالنسبة الىّ ، هى ذلك السلوك الذى سلكته وسط تلك الأحداث .. انتى مازلت عاجزا عن الفهم ! ولقد وقع ذلك كله كأنه حلم .. وحتى هيامى ياولين يصدق عليه هذا الوصف . ولقد كان حبي قويا صادقا مخلصا مع ذلك . ولكن ماذا أصبح الآن ؟ انه ليخطر ببالى هذا السؤال فجأة فى بعض الأحيان : « ترى ألم أكن مجنونا حينذاك ؟ ألم أقض ذلك الوقت كله فى مستشفى من مستشفيات المجانين ؟ ألا يمكن أن أكون فى

مستشفى من مستشفيات المجانين حتى الآن ؟ ألا يمكن أن يكون كل ما وقع أشباحا ظهرت لى وما تزال ؟.. » .

ومن يدري ؟ لعلنى ما جمعت هذه المذكرات وأعدت قراءتها الا لأقتنع بأننى لم أكتبها فى مستشفى من مستشفيات المجانين ! أنا الآن وحيد فى هذا العالم . لقد جاء الخريف ، واصفرت أوراق الأشجار . اننى أقيم فى هذه البلدة الصغيرة الكالحة (آه ما أشد ما يمكن أن تكون المدن الألمانية الصغيرة حزينة كئيبة ا) ؛ وبدلا من أن أفكر فى المستقبل ، أراى أحياء تحت تأثير ذكريات حديثة ، تحت تأثير كل تلك العاصفة التى ما تزال قريبة ، تلك العاصفة التى حملتنى زوبعتها زمانا ثم ألقتنى على الأرض . ومازلت أحس فى بعض اللحظات أن الزوبعة ستأخذ بى ، أن الساعة ستنتطق ، فيطبق جناحها على أثناء عبورها ، وأنتى وقد فقدت التوازن وطاش صوابى ، سأخذ أدور ، وأدور ، وأدور ..

على أننى قد أثبت وأكف عن الدوران ، اذا أنا أوجزت كل ما وقع خلال هذا النهر ايجازا دقيقا صحيحا . ان بى حاجة الى الامساك بالقلم من جديد . ثم اننى فى بعض الأحيان لا أجد ما أعمله اطلاقا اذا جاء المساء . ومن عجب أننى ، من أجل أن أشغل نفسى ، أستعير من القاعة الحظيرة المخصصة للمطالعة فى هذه البلدة روايات للمؤلف پول دو كوك (مترجمة الى الألمانية) ، وهى روايات لا تطاق ولا تختمل ، ولكننى أقرأها ، واستغرب أنا نفسى لماذا أقرأها : لكأننى أخشى اذا أنا قرأت كتب ذات شأن أو شغلت نفسى بأمر ذى بال ، أن أنفصل عن عالم السحر والافتتان الذى تبدد منذ حين ؛ لكأن هذا الحلم المضطرب

المشوش الذى عشت فيه وجميع تلك المشاعر التى خلفها فى نفسى ،
عزيزة عندى الى حد أخشى معه كل اتصال جديد ، مخافة أن تتبدد
دخاننا ! أفأكون اذن حريصا على هذا كله هذا الحرص الشديد كله ؟
نعم ، لا شك فى ذلك . ولعلنى سأظل أتذكره أربعين سنة ..
هاأنا ذا أمسك بالقلم اذن . وعلى كل حال فان جميع الأمور
يكمن أن تسرد الآن سردا موجزا سريعا : ذلك أن أحاسيسى ليست
الآن كما كانت من قبل .

ولنبداً أولاً بالكلام على الجدة فنفرغ منها . لقد خسرت فى
الغداة كل شيء . وكان لابد أن يحدث ذلك : فان من يسير مثلها فى
هذه الطريق ينحدر بسرعة ما تنفك تزداد ، كأنه يتدحرج على زلاقة
من قمة جبل تغطيه الثلوج . لقد ظلت تقامر طوال النهار حتى الساعة
الثامنة من المساء . ولم أشهد أنا ذلك ، وانما روى لى .
كان پوتاپتش يصحبها خفيرا لها فى الكازينو من أول النهار
الى آخره . والپولونيان اللذان كانا يوجهانها قد حل كل منهما محل
الآخر عدة مرات . لقد بدأت بطرد البولونى الذى وجهها فى الليلة
البارحة والذى شدت شعره ؛ طردته وأحلت محله پولونيا آخر .
ولكن البولونى الثانى كان أسوأ من صاحبه ، فما لبثت أن طردته ،
واستعادت الأول الذى لم يبارح المكان ، بل ظل يحوم وراء كرسيها
بعد فقدانه حظوتها ، ماداً رأسه فى كل لحظة من فوق كتفها . وأصبحت
الجدة آخر الأمر فى حالة انهيار كامل . والپولونى الثانى لم يشأ
هو أيضا أن يغادر المكان : فاستقر أحد الرجلين على يمين الجدة ،
واستقر الثانى على يسارها . وكانا لا ينفكان يتشاجران ويتشاثمان

لاختلافهما فى الرأى حول المبالغ التى يجب حطها والمواضع التى يجب حطها فيها ، وحول مجرى اللعب على وجه الاجمال ، فهما يتراشقان السباب ، وينعت كل منهما صاحبه بأنه وغد حقير ، ويصفه بصفات جميلة أخرى مما تجرى به ألسنة البولونيين ؛ ثم يتصالحان ، ويرميان المال ذات اليمين وذات الشمال على كل حال . وكانا اذا اختصما حط كل واحد منهما مبلغا فى موضع ، فهذا يحط على الأحمر مثلا ، وذلك يحط على الأسود . وقد بلغا من اخسار الجدة أنها توسلت الى قيّم عجوز ، والدموع تكاد تترقرق فى عينيها ، أن يحميها من هذين الرجلين فيطردهما . وذلك ما تم فورا ، رغم صراخهما ورغم احتجاجهما ، فقد أخذوا كلاهما يرغيان ويزبدان معاً مدعين أن الجدة مدينة لهما بمال ، وأنها خدعتهما وغشتهما ، وأنها لم تعاملهما معاملة شريفة . قص على بوتاپتش هذا كله فى ذلك المساء نفسه وهو يبكى بدموع غزار ، قائلا انها قد ملئا جيوبهما ، وانه رآهما بعينه يختلسان المال جهارا بغير حياء فيحشوان به جيوبهما . وكان من أعمالهما مثلا أن يطلب أحدهما من الجدة خمسة فردريكات أجرا له ، ثم يحط هذا المبلغ مع المبلغ الذى يحطه للجدة على موضع ما من المائدة ، فاذا ربحت الحطة صاح يقول انه هو الذى ربح ، وانها هى التى خسرت . فلما ضاقت ذرعا بهما فتم طردهما تدخل بوتاپتش قائلا ان جيوبهما ملأى ذهباً . فأسرعت الجدة تطلب الى القيّم أن يتخذ الاجراءات اللازمة ، وما هى الا لحظة اذا بالشرطة تظهر ، فتفرغ جيوبهما على الفور رغم عياطهما وشياطهما ، وترد المال الى الجدة . ان الجدة تتمتع بمهابة واحترام لدى القيّمين ولدى ادارة الكازينو ، مابقى

معها مال . وقد ذاع صيتها في المدينة كلها شيئا بعد شيء . وصار الناس الذين يستحمون في المياه المعدنية من جميع البلاد ، أبسطهم وأشهرهم على السواء ، يهرعون الى الكازينو ليروا « تلك الكونتيسة الروسية العجوز التي تفهقرت الى الطفولة » ، وخسرت على مائدة الروليت « عدة ملايين » .

ولكن الجدة لم يجدها تخلصها من البولونيين الا قليلا جدا جدا . فما ان طرد البولونيان حتى ظهر ثالث يعرض عليها خدماته . وكان هذا الثالث يجيد الكلام باللغة الروسية اجادة تامة ، ويرتدى من الملابس ما يرتديه سراق القوم ، رغم أنه أشبه بخادم . كان هو أيضا يقبّل « آثار خطوات » السيدة « ويزحف على قدميها » ، ولكنه يعامل سائر من حوله في غطرسة ، ويأمر كما يأمر طاغية مستبد ؛ أى كان يصطنع لا وضع الخادم للجدة بل وضع الوصى عليها . وكان يلتفت اليها ، عند كل ضربة ، فيحلف لها بأغلظ الايمان أنه « سيد » محترم وأنه لن يأخذ منها قرشا واحدا . وبلغ من تكرار هذه الايمان أن الجدة أصبحت تخشاه حقا . ولكن لما كان هذا « السيد » قد بدا في أول الأمر أنه يصحح اللعب ، ولما كان قد أخذ يربح ، فان الجدة نفسها لم تعزم أمرها على التخلص منه . وبعد ساعة واحدة عاد البولونيان اللذان طردا من الكازينو ، فظهرا وراء كرسى الجدة ، يعرضان عليها خدماتهما من جديد ، بل ويعرضان عليها أن يشتريا لها ما تريد شراءه . وقد حلف لى پوتاپتش أن هذا « السيد المحترم » قد تبادل معهما غمزات ، بل وأنه أعطاها بعض المال خلسة . واذا كانت الجدة جائعة لم تتناول عشاءها ولم تكذب تبارح كرسيا ، فقد استطاع أحد

البولونيين أن يفيدها فعلا . فيها هو ذا يهرع الى « بوفيه » الكازينو
 فيأتيها بفنجان من المرق أولا ، وبشيء من الشاي بعد ذلك . والحق
 أن البولونيين كليهما كانا يسعيان في هذا . ولكن في آخر النهار ،
 حين استطاع الناس أن يدركوا أنها تخسر آخر ورقة مالية تملكها ،
 كان ستة بولونيين يقفون وراء كرسيها ، لم يسبق أن رأهم أحد
 قبل ذلك قط . فلما خسرت الجدة آخر تقودها أصبحوا لا يصغون
 اليها ، بل أصبحوا لا ينتبهون اليها البتة ، فهم يميلون على مائدة القمار
 من فوق كتفيها ، يلمون المال ، ويصدرون الأوامر ، ويحطون المبالغ ،
 ويتشاجرون ، ويخاطبون « السيد المحترم » بلا كلفة . أما هذا
 « السيد المحترم » فقد نسي حتى وجود الجدة . وحين أفلست الجدة
 افلاسا كاملا ، فأعيدت الى الفندق في نحو الساعة الثامنة من المساء ،
 كان هناك ثلاثة أو أربعة بولونيين لم يستطيعوا أن يقرروا تركها ،
 فهم يتراكمون حول كرسيها صائحين منادين ، يرددون جهارا أن
 الجدة قد خدعتهم ، وأنها مدينة لهم بمال . على هذا النحو وصلت
 الجدة الى الفندق ، وهناك في الفندق طرد البولونيون ركلا بالأرجل .
 لقد خسرت الجدة في ذلك اليوم ، اذا صدقت حسابات پوتاپتش،
 حوالى ستة وثمانين ألف روبل ، عدا ما خسرت في الليلة البارحة .
 لقد أبدلت جميع ما كانت تملكه من سندات على الدولة بفائدة خمسة
 في المائة ، وباعت كل ما كان معها من أسهم واحدا بعد آخر .
 أدهشنى أن الجدة استطاعت أن تنظر خلال هذه الساعات السبع
 أو الثماني ، قابعة في كرسيها لا تكاد تترك مائدة القمار لحظة ، ولكن
 پوتاپتش روى لى أنها قد أخذت فعلا ، خلال مرتين أو ثلاث مرات ،

تجننى أرباحا ضخمة ، فقوى ذلك عزيمتها وشجذ آمالها ، فلم تملك أن تنصرف . على أن المقامرين يعرفون أن فى امكان المقامر أن يمكث فى مكانه أربعا وعشرين ساعة ، حاملا أوراق اللعب بيديه ، لا يلتفت ببصره يسرة ولا يمنة .

وفى أثناء ذلك اليوم ، كانت تقع أحداث حاسمة فى فندقنا . ففى الصباح ، قبل الساعة الحادية عشرة ، بينما كانت الجدة ما تزال فى مسكنها ، اتفقت كلمة أصحابنا على أن يقوموا بمسعى أخير يحسم الأمر (ذلك كان رأى الجنرال ودى جريو) . لقد علموا أن الجدة عدلت عن السفر ، وعادت الى الكازينو ، فجاءوا اليها جماعة (باستثناء پاولين) يحدثونها فى الأمر حديثا جازما بل و « مخلصا صادقا » . وكان الجنرال يرتجف وينهار حين يتصور العواقب الرهيبة التى ستصيبه هو من جراء سلوك الجدة هذا ، فلم يملك أن يمتنع عن أن يعنف لها القول : فبعد أن ظل مدة نصف ساعة يقدم لها الرجاء تلو الرجاء ، والضراعة تلو الضراعة ، بل وبعد أن اعترف لها بهيامه بمدموازيل بلانش (كان قد طاش صوابه تماما) لم يلبث أن اتخذ لهجة التهديد والوعيد على حين فجأة ، بل طفق يصيح ويصرخ ويضرب الأرض بقدمه ، ويصيح قائلا ان الجدة تلتطخ شرف الأسرة كلها ، وانها أصبحت فضيحة فى المدينة بأسرها ، ثم انها أخيرا .. « توسخ اسم الروس » . وهتف يقول خاتما كلامه « با سيدتى ، ان لهذا الأمر شرطة تمنعه » . فما كان من الجدة الا أن رفعت عصاها فضربت بها الجنرال تطرده من عندها طردا .

وقد تابحت الجنرال ودى جريو مرة أخرى أو مرتين أخريين

فى ذلك الضحى نفسه ، فكنا يتساءلان خاصة : ألا يستطيعان أن يستنجدا بالشرطة فعلا ؛ ألا يستطيعان أن يقولوا للشرطة ان هناك امرأة مسكينة ، لكنها سيدة عجوز محترمة ، قد تقهقرت الى الطفولة ، فهى بسبيل تبديد ثروتها فى القمار ، الخ ، فهلا يمكن أن تردع أو أن تمنع بطريقة من الطرق ؟ ولكن دى جريو لم يلبث أن رفع كفيه هازئا ، وانفجر ضاحكا أمام أنف الجنرال ، فأخذ الجنرال وقد نفدت حججه وأسقط فى يده ، يذرع حجراته جيئة وذهابا . وأخيرا حرك دى جريو يده بحركة احتقار ، ثم لم يظهر بعد ذلك قط . وعلم فى المساء أنه قد غادر الفندق الى غير رجعة بعد حديث حاسم سرى جرى بينه وبين مدموازيل بلانش . أما مدموازيل بلانش فقد اتخذت اجراءات قاطعة منذ الصباح : فطردت الجنرال طردة أخيرة ، وأصبحت لا تطبق حتى أن يوجد حيث توجد عرضا . وحين جرى الجنرال وراءها الى الكازينو ، فصادفها متأبطة ذراع الأمير الصغير ، لم تعرفه لا هى ولا السيدة أرملة دى كومنج ؛ ولا حيثاه الأمير القصير . رفضت مدموازيل بلانش النهار . كله تسبر غور الأمير وتجنس نبضه وتداوره بشتى الوسائل بغية أن يصرّح لها آخر الأمر بشئ جازم ! ولكن حساباتها كانت خاطئة خطأ صاعقا وأسفاه ! وقد وقعت هذه الكارثة الصغيرة عند المساء ، حين اكتشف فجأة أن الأمير فقير فقر أيوب ، حتى أنه كان يعوّل على أن يقترض منها مبلغا آخر ليقامر فى الروليت . فطرده بلانش مستاءة حائرة ، وحبست نفسها فى غرفتها لا تبارحها .

وفى صباح ذلك اليوم نفسه ذهبت الى مستر آستلى ، أو قل

اننى ظلمت أبحث عنه طول الصباح دون أن أعثر له على أثر . لم يكن فى منزله ، ولا فى الكازينو ، ولا فى الحديقة . ولا تناول طعام الغداء فى الفندق هذه المرة . وفى الساعة الخامسة بعد الظهر لمحته على حين فجأة عائدا من محطة القطار الى فندق انجلترا . وكان يحث الخطى ويبدو مهموما ، رغم أن من الصعب على المرء أن يرى فى وجهه شيئا مما يشغل باله أو أى نوع من الاضطراب . مدء الى يده مصافحا فى مودة ، مطلقا صيحته المألوفة « ها ! » ، ولكنه لم يتوقف بل تابع سيره بخطى سريعة . فلحقت به ، ولكنه عرف كيف يجيبني بما لا يدع مجالا لأى سؤال ألقيه عليه . يضاف الى ذلك أننى كنت أشعر بحرج رهيب من أن أدير الحديث على پاولين ؛ ولم يهتم هو بهذا الأمر كذلك . حكيت له ما وقع للجدة ، فكان يصغى الى كلامى فى جد وانتباه ، ثم لم يلبث أن هز كتفيه .

قلت :

— ستخسر كل شيء .

فأجاب :

— أوه ، طبعاً . حين سافرتُ أنا كانت قد ذهبت الى الكازينو لتقامر ، وكنت على يقين من أنها ستخسر . ولسوف أمضى الى الكازينو اذا اتسع وقتي ، لأرى الأمور بنفسى ، فان هذا لطيف شائق ..

— الى أين سافرت ؟

كذلك هتفت مدهوشا من أننى لما أطرح عليه ذلك السؤال بعد . فقال :

— الى فرانكفورت .

— الأعمال ؟

— نعم .

عمّ كنت أستطيع أن أسأله زيادة على ذلك ؟ ثم اننى كنت أحاذيه فى السير ، فاذا هو يتجه فجأة نحو فندق « الفصول الأربعة » الذى كان فى الطريق ، فحيانى مودعا بحركة من رأسه ، واختفى . وفيما كنت عائدا الى مسكنى وصلت شيئا فشيئا الى يقين كامل بأننى لو لبثت أكلمه ساعتين لما استطعت أن أعرف منه شيئا البتة . لأننى لم أكن أملك سؤالاً ألقيه عليه ! نعم ، كذلك كان الأمر حتما . فأننى ما كنت لأستطيع أن أصوغ سؤالى .

وقد ظلت باولين تنتزه فى الحديقة طول النهار مع الأطفال والخادمة ، أو تمكث فى منزلها وحيدة . كانت قد أخذت منذ فترة طويلة تتهرب من لقاء الجنرال ، ولا تكاد تكلمه ، أو لا تكاد تكلمه فى أمور جدية على أقل تقدير . كنت قد لاحظت ذلك منذ مدة .

لكننى ، وقد عرفت كيف كان وضع الجنرال فى ذلك اليوم ، قدرت أنه لم يستطع الا أن يلقي الفتاة ، أى لابد أن يكون قد قام بينهما حديث تناول أمورا عائلية هامة . ومع ذلك فأننى حين عدت الى الفندق بعد المحادثة التى جرت بينى وبين مستر آستلى ، قد التقيت باولين والأطفال ، فرأيت فى وجهها معانى الهدوء ورباطة الجأش ، كأن تلك الزواجع العائلية كلها لم توفر أحدا سواها . حتى اذا حييتها ردت التحية بحركة من رأسها . وصعدت الى غرفتى مهتجا أشد الاحتياج .

كنت أتحاشى أن أكلّمها طبعاً ، ولم ألتق بها مرة واحدة منذ حادثتى مع ثورمرهلم . كنت أعد القضية قضية شرف . ولكن الحق كان يزداد غليانا فى نفسى بمرور الزمن : هبها لا تحبنى البتة ، ان هذا لا يجوز لها أن تدوس عواطفى على هذا النحو ، ولا أن تقابل اعترافاتى بمثل هذا الاحتقار . لقد كانت تعلم أنى أحبها حقاً ، وتسامحت فأذنت لى أن أكلّمها على هذه الصورة . صحيح أن الأمر بدأ بيننا بداية غريبة ، كنت قد لاحظت منذ زمن (زمن أصبح منذ الآن بعيداً ، فقد انقضى عليه شهران) أنها تريد أن تتخذنى صديقاً ، وأن تجعلنى نجيباً وموضع سرها . حتى لقد قامت بمحاولات فى هذا السبيل . ولكن الأمر لم ينجح ، فاحتفظنا بهذه الصلات الغريبة العجيبة . وبسبب هذا انما بدأت أكلّمها على هذه الصورة ولكن اذا كان حبنى قد ساءها ، فلماذا لم تمنعنى من أن أكلّمها فيه منعا باتاً ؟

انها لم تفعل شيئاً من ذلك ، حتى لقد كانت فى بعض الأحيان تحضنى على الكلام .. لتسخر منى طبعاً . أنا واثق من هذا . لقد شعرت به : كان يتمتعها ويحلوا لها ، بعد أن تصغى الىّ وتستشيرنى الى حد العذاب ، أن تبلبلنى فجأة بعلامة صارخة تنبئ عن احتقار أو تدل على قلة الاكتراث وعدم المبالاة . وهى تعلم مع ذلك أننى لا أستطيع أن أحيا بدونها . ها قد انقضت اذن أيام ثلاثة على حادثتى مع البارون ، وها أنا ذا أصبحت منذ الآن لا أستطيع احتمال « فراقنا » . وحين صادفتها منذ هنيهة قرب الكازينو ، بلغ قلبى من شدة الخفقان أن وجهى امتنع لونه . وهى أيضاً لا تستطيع أن

تعيش بدونى ! انها فى حاجة الىّ .. فهل يمكن أن تكون حاجتها الىّ
كحاجتها الى مهرج مثل بالاكيريف فحسب * ؟

ان لها سرا .. هذا واضح . ان حديثها مع الجدة قد طعن
قلبى طعنا . ذلك أننى طلبت اليها ألف مرة أن تكون صريحة صادقة
معى ، وهى تعلم أننى مستعد فعلا لأن أضحى بحياتى فى سبيلها .
ولكنها أبعدتنى دائما باحتقار وازدراء ، أو طلبت الىّ ، بدلا من
التضحية بحياتى فى سبيلها ، أن أقوم بأعمال شاذة ، كما فعلت ذلك
يوم سألتنى أن أتحرش بالبارون . أليس هذا أمرا مثيرا ؟ هل يمكن
أن يكون ذلك الفرنسى كل شيء عندها ؟ ومستر آستلى ؟ هنا
تستعصى القضية على الفهم ، ما فى ذلك ريب .. ومع ذلك فما أشد
ما كنت أقاسى من عذاب يا رب !

حين وصلت الى غرفتى رأيتنى وقد استبد بى الحق والغيظ أمسك
بالقلم وأخط لها هذه الأسطر :

« پاولين ألكسندروثنا ! اننى أرى اقتراب الخاتمة . وواضح أنها
ستتناولك أنت أيضا . لذلك أعود فأكرر لك مرة أخرى هذا
السؤال : أنت فى حاجة الى حياتى ؟ اذا كان فى وسعى أن أكون
مفيداً لك فى أى أمر من الأمور ، فتصرفى بى كما تشائين . أنا الآن
فى غرفتى ، أمكث فيها أكثر الأوقات على الأقل ، ولا أبارحها الى
أى مكان . فاذا احتجت الىّ ، فاكتبى لى أو استدعينى » .

غلفت الرسالة ، وأمرت خادم الطابق أن يمضى بها الى پاولين ،
فيسلمها اياها يدا بيد . ولم أكن أتوقع جوابا ، ولكن الخادم جاءنى
بعد ثلاث دقائق يقول انها تبعث الىّ بتحياتها .

وفي نحو الساعة السابعة من المساء ، استدعاني الجنرال .

كان الجنرال في حجرته مرتديا ملابسه كمن يتهيأ للخروج . وكانت قبعته وعصاه على الديوان . فلما دخلت عليه بدا لي واقفا في وسط الغرفة مابعدا ما بين ساقيه ، خافضا رأسه ، يكلم نفسه . فما ان رأني حتى ارتنى نحوى وهو يوشك أن يصرخ ، فاذا أنا أترجع خطوة الى وراء ، على غير ارادة مني ، وأهم أن أولى هاربا ، ولكنه أمسكني بكلتا يديه ، وجذبني نحو الديوان ، فقعده عليه وأقعدي على كرسى أمامه ، وراح يقول لي بصوت متوسل متضرع ، دون أن تطلق يداه سراحي ، وقد أخذت شفتاه ترتجفان ، بينما الدموع تتلألأ في عينيه :

— ألكسى ايثانوفتش ، انقذني ، انقذني ، ارحمني .

لبثت برهة طويلة لا أستطيع أن أفهم شيئا . كان يتكلم بلا توقف ، ويكرر في كل لحظة قوله : « ارحمني ، ارحمني » . وقدرت أخيرا أنه يطلب مني شيئا يشبه أن يكون نصحا ، أو قل انه وقد هجره الجميع وداهمه الغم واستبد به اليأس ، تذكرني فاستدعاني لا لشيء الا أن يتكلم ، ويتكلم ، ويتكلم ..

ولكنه كان قد فقد عقله ، أو طاش صوابه تماما في أقل تقدير .
فها هو ذا يضم يديه احديهما الى الأخرى متضرعا ، ويوشك أن يرتدى على ركبتى راجيا (هل في وسعكم أن تحجزروا ما عسى أن يكون رجاؤه ؟) أن أمضى فورا الى مدموازيل بلانش ، فأبتهل اليها وأحضرها على أن تعود اليه فتتزوجه .

هتفت أقول :

— اسمح لى يا جنرال ! لعل مدموازيل بلانش لما تلاحظ وجودى بعد . فماذا أستطيع أن أفعل ؟

كان عبثا أن أحتج وأن أتعلى . فانه لم يكن يفهم شيئا مما يقال له . وطفق يفيض فى الكلام على الجدة أيضا ، فيقول عبارات مفككة غير منسجمة ، ولا يعدل عن فكرة اللجوء الى الشرطة .

أخذ يقول وهو يغلى حنقا على حين فجأة :
— فى بلادنا .. فى بلادنا .. أقصد .. فى بلادنا .. فى دولة منظمة لها سلطات مسئولة ، توضع أمثال هذه العجائز تحت الوصاية على الفور .

وأضاف بغتة بلهجة فخمة وهو ينهض من مكانه على حين فجأة ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويخاطب شخصا خياليا فى ركن من الأركان :
— نعم أيها السيد العزيز .. انك لم تكن تعرف هذا .. فاعلم اذن أن الأمر كذلك .. نعم .. فى بلادنا يحجر على العجائز اللواتى من هذا النوع ، يحجر عليهن . نعم أيها السيد . آه .. يا لشقائى ..

وارتمى على الديوان من جديد ، وبعد لحظة ، أخذ يقص على مسرعا لاهثا يكاد يختنق ، وكأنه فى حلم ، كيف أن مدموازيل بلانش لا تريد أن تتزوجه لأن الجدة هى التى وصلت بدلا من البرقية ، ولأنه أصبح واضحا الآن أنه لن يرث . كان الجنرال يظن أننى لما أطلع على شىء من ذلك بعد . فأردت أن أتكلم عن دى جريو ، ولكنه أوقفنى عن الكلام بإشارة منه قائلا :

— سافر ! وقد رهننت جميع أملاكى لديه ، فأنا الآن عريان عرى دودة . ان ذلك المال الذى جئتنى به .. ذلك المال .. ولا أدرى كم كان

المبلغ على كل حال ..أظن أنه كان سبعمائة فرنك .. هو كل ما بقى لى ،
كل ما بقى لى . والآن لا أدرى ، لا أدرى ..

صحت مذعورا :

— ومن أين ستدفع أجور الفندق ؟ ثم .. بعد ذلك ؟

فنظر الى نظرة شاردة ، ولكن كان واضحا أنه لم يفهم شيئا ، بل
ولا سمع شيئا . وحاولت أن أجعل الكلام حول پاولين ألكسندروفنا
وحول الصغار ، فأسرع يقول « نعم نعم » ، ولكنه لم يلبث أن طفق
يتحدث عن الأمير الذى سيسافر مع مدموازيل بلانش .. وعندئذ ..
عندئذ ..

قال وهو يلتفت فجأة نحوى :

— وعندئذ ما الذى سأصير اليه يا ألكسى ايثانوفتش ؟ ما الذى
سأصير اليه ؟ يا رب يا رب .. قل لى يا ألكسى ايثانوفتش : هذا عقوق ،
هذا عقوق ؟ ألا ترى أن هذا عقوق ؟

وظفق يبكى آخر الأمر بدموع سخينة .

لم يكن ثمة ما يصنعه المرء لرجل فى مثل حاله . ثم ان تركه وحيدا
لا يخلو من خطر كذلك : فقد يقع له شيء ما . وعلى كل حال فقد
تخلصت منه بطريقة من الطرق ، لكننى قلت للخادمة أن تجيء اليه من
حين الى حين لترى كيف حاله . وكلمت خادم الطابق عدا ذلك ، وهو
فتى ذكى جدا ، فوعدنى أن يكون يقظا هو أيضا .

ما كدت أترك الجنرال حتى جاءنى پوتاپتش يرجونى أن أوافي
الجدة . كانت الساعة قد بلغت الثامنة ، وكانت الجدة قد عادت من

الكازينو منذ برهة قصيرة ، بعد أن خسرت فيه آخر قرش . نزلت الى الجدة . كانت السيدة العجوز قاعدة في كرسيها مهددة القوى مرهقة ، وكان واضحا أنها مريضة . ناولتها مارتا قدحا من الشاي حملتها على احتسائه بما يشبه القسر . وكان صوت الجدة وكانت لهجتها قد تغيرا تغيرا واضحا .

قالت لى ببطء وهى تحنى رأسها بجذ ووقار :

— نعمت يوما يا ألكسى ايفانوفتش ، يا عزيزى . اغفر لى ازعاجى اياك مرة أخرى ، وما أحسب الا أنك مسامح امرأة عجوزا تقدمت بها السن . لقد خلقت كل شىء هنالك يا صديقى ، لقد خسرت قرابة مائة ألف روبل . كنت على حق حين رفضت أن تصحبنى أمس . والآن ليس معى شىء البتة ، ليس معى قرش . ولا أحب أن ألبث هنا لحظة واحدة . يجب أن أسافر فى الساعة التاسعة والنصف . لذلك استدعيت صاحبك الانجليزى : اسمه مستر آستلى فيما أظن . أريد أن أقترض منه ثلاثة آلاف فرنك أردھا اليه بعد ثمانية أيام . فقل له أن لا يظن بى سوءا ، وأن لا يرفض اقراضى هذا المبلغ . ما زلت حتى الآن على جانب من الغنى يا عزيزى . اننى أملك ثلاث قرى ودارين ، وما يزال عندى مال ، فانتى لم أحمل الى هنا كل ما أملك من مال . أقول لك ذلك حتى يطمئن صاحبك ولا يقلق .. ها .. ها هو ذا قد وصل . واضح أنه رجل شهم .

لقد هرع مستر آستلى يلبى نداء الجدة . ولم يلبث أن تقدها ثلاثة آلاف فرنك بغير تردد وبغير كلام نافل ؛ ووقعت له الجدة سندا بالمبلغ فأخذه . ثم حيا وانصرف .

— والآن دعنى يا ألكسى ايثانوقتش . لم يبق لى من الوقت
الا ساعة وبعض ساعة . سأستلقى على فراشى لحظة ، فان عظامى
تؤلمنى . لا تؤاخذنى ، فما أنا الا عجوز بلهاء . لن أتهم الشبان بعد
اليوم بالخفة . بل اننى لأتخرج الآن من لوم صاحبك الجنرال المسكين .
ولكنى لن أعطيه شيئا من مال . وما ينبغى أن يسوءه هذا ، فهو فى
رأى حيوان كبير .. أما أنا فدجاجة عجوز لا أملك من الذكاء أكثر
مما يملك هو . ان الله يقتص من المفترين عاجلا أو آجلا . هيا ، وداعا .
انهضينى يا مارتا .

وكنت أنوى أن أصحب الجدة . غير أننى كنت فى الوقت نفسه
أتوقع حدوث شىء ما . كان يخيلى الى أن هناك أمرا سيقع بين لحظة
وأخرى . لم أستطع أن أمكث فى غرفتى . فخرجت الى الدهليز أريد
أن أمضى الى طريق أشجار الكستناء منتزها بعض الوقت . لقد كانت
رسالتى الى پاولين واضحة قاطعة ، وكانت الكارثة الراهنة حاسمة من
غير شك . لقد سمعت فى الفندق أن دى جريو سافر . الخلاصة : اذا
كانت پاولين ترفضنى صديقا ، فقد تقبلنى خادما ، لأنها فى حاجة الىّ ،
ولو لأشترى لها ما تريد شراءه . نعم هى فى حاجة الىّ ، ذلك واضح !
حين أزفت لحظة رحيل الجدة هرعت الى المحطة ، فأركبتها القطار،
وكانوا جميعهم قد اتخذوا أماكنهم فى حجرة محبوزة .

قالت لى الجدة وهى تودعنى :

— أشكر لك مساييرتك البريئة المنزهة عن الغرض يا صديقى ؛
كرر لپراسكوڤيا ما قلته لها أمس . لسوف أنتظرها .

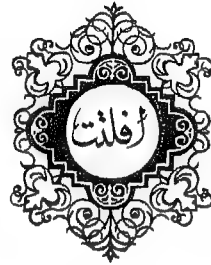
وعدت أدراجى قاصدا غرفتى . فلما مررت قرب شقة الجنرال التقيت بالخادمة ، فسألته عن حال سيدها . فأجابتنى حزينة :
— لا بأس يا سيدى الطبيب .

ودخلت مع ذلك . ولكننى لم ألبث أن تسمرت عند باب حجرته مذهولا . كان الجنرال ومدموزيل بلانش يضحكان مقهقهين . وكانت السيدة أرملة دى كومنج موجودة معهما ، جالسة على الأريكة . كان واضحا أن الجنرال قد جن عقله فرحا ، فهو يتدفق فى الكلام سخافات وترهات من كل نوع ، وهو يصاب بنوبات من المرح العصبى والضحك المتواصل تخذد وجهه بغضون صغيرة ، وتخفى عينيه .

علمت ، فيما بعد ، أن مدموازيل بلانش نفسها ، بعد أن طردت الأمير وعلمت بما آلت اليه حالة الجنرال من حزن وقنوط ، أرادت أن تعزیه فجاءت تزوره زيارة قصيرة . ولكن الجنرال المسكين كان يجهل الى تلك اللحظة أن مصيره قد تقرر ، وأن مدموازيل بلانش كانت قد أخذت تعد حقائبها وتحزم أمتعتها ، لتسافر فى الغداة الى باريس على قطار الصباح الأول .

لبثت لحظة عند عتبة حجرة الجنرال ، ثم عدلت عن الدخول ، فانصرفت منسلا لم يلحقنى أحد . وصعدت الى غرفتى . فلما فتحت الباب لمحت فى ظلمة الغرفة قامة جالسة على كرسى فى ركن قرب النافذة، فما ان رأتنى داخلا حتى نهضت ، فأسرعت أقترب ، ونظرت .. فانقطعت أنفاسى : انها پاولين .

الفصل الرابع عشر



منى صرخة .

فسألتني بصوت غريب :

— ما بك ؟ ماذا دهاك ؟

وكانت شاحبة اللون ، وكانت تبدو

قائمة المزاج .

— ما بي ؟ ماذا دهانى ؟ أأنت .. أأنت .. هنا .. عندي ؟

— أنا اذا جئت جئت كللى . تلك عادتي . ولسوف ترى ذلك تورا .

أشعل شمعة .

امثلتُ فنهضتُ واقتربت من المنضدة تضع أمامي رسالة

مفوضة ، وتأمرني أن أقرأها :

— اقرأ .

صت وأنا أتناول الرسالة :

— هذا خط دى جريو .

كانت يداى ترتجنان ، وكانت الأسطر تتراقص أمام عيني . لقد

نسيت الآن نصّ الرسالة ، ولكن ها هي ذى الرسالة معنى معنى
ان لم تكن كلمة كلمة :

» آنستى ، ان ظروفًا مؤلمة تضطرنى الى السفر بغير ابطاء .
ولقد لاحظت ، ولا شك ، أُننى تحاشيت عامدا أن تتصارع تصارحا
حاسما قبل أن يتضح كل شيء . ان وصول السيدة العجوز بدلا من
وصول البرقية ، وكذلك سلوكها الأحمق قد أنهيا كل تردد . ان
اضطراب شئونى الخاصة يمنعنى قطعاً من الاستمرار فى عقد تلك
الآمال العذبة الحلوة التى أذنت لنفسى أن أمنى بها نفسى زمنا . انبى
أسف لما وقع ، ولكننى أرجو أن لا تجدى فى سلوكى ما يشين رجلا
راقيا أو انسانا شريفا . اننى وقد أضعت مالى كله سدادا لديون زوج
أمك ، أجدنى مضطرا الى الحفاظ على ما بقى لى تصريفا لشئونى .
وقد أبلغت أصدقائى ببطرسبرج أن يبادروا دون ابطاء الى بيع الأملاك
المرهونة لدى . لكننى لعلمى بأن زوج أمك قد أتلّف ثروتك كلها ،
قررت أن أعفيه من خمسين ألف فرنك ، فرددت اليه ما يساوى هذا
المبلغ جزءا من صكوك الرهن . وبذلك يكون فى وسعك أن تستردى
كل ما فقدت باللجوء الى القضاء الذى سيحكم برد أملاكك اليك .
أرجو ، يا آنستى ، أن تكون هذه البادرة منى مفيدة لك فى الظروف
التى تلابس أحوالك الآن ؛ كما أرجو أن أكون بهذه البادرة قد قمت
بالواجبات التى تجب على رجل شريف . وثقى أن ذكراك ستظل
منقوشة فى قلبى الى الأبد » .

قلت ملتفتا نحو پاولين :

— الأمر واضح .

ثم أردفت أقول حاققا مغتظا :

— أكنت تتوقعين غير هذا حقا ؟

فأجابتنى بهدوء ظاهر ، على نوع من الارتجاف فى صوتها :

— لم أكن أتوقع شيئا . لقد رأيت فيه رأى منذ زمن طويل :

كنت أقرأ أفكاره . ظن أنتى أسعى الى .. ظن اننى قد ألح على ..

قالت ذلك ثم توقفت فعضت على شفتها فى وسط الجملة وصمتت.

وتابعت بعد لحظة تقول :

— لقد تعددت أن أضعف احتقارى نحوه . وكنت أنتظر ما عساه

يفعل . ولو قد وصلت البرقية ، اذن لقدفته على رأسه بالمال الذى يدين

له به هذا الأبله (زوج أمى) ، ولطرده بعدئذ شر طردة . لقد

أصبحت منذ زمن طويل لا أطيق أن أراه ! آه .. كان من قبل رجلا

آخر ، رجلا آخر تماما .. أما الآن فما أشد ما سأشعر به من فرح

عظيم لو أتيح لى أن أرمى له هذه الخمسين ألف فرنك ، وأن أبصق

فى وجهه .

— ولكن هذا الصك الذى يرد الخمسين ألفا هو الآن بين يدى

الجنرال ، فما عليك الا أن تأخذه وأن ترديه الى دى جريو !

— أوه .. ليس الأمران سواء ! ليس الأمران سواء !

قلت :

— صحيح صحيح . وما حال الجنرال الآن ؟ لأى شىء يصلح

هو الآن ؟

ثم رأيتنى أهتف على حين فجأة :

— والجدة ؟

ف نظرت الى پاولين ذاهلة نافدة الصبر . ثم قالت معتكرة المزاج :

— لماذا تسألنى عن الجدة ؟ اننى لا أستطيع أن أذهب اليها ..

ثم أضافت بصوت يفيض حنقا :

— ولن أطلب من أحد غفرانا .

هتفت أقول :

— وما العمل ؟ ولكن قولى لى : كيف ، كيف أممكنك أن تحبى

دى جريو ؟ هذا وغد حقير ، هذا وغد حقير . هل تريدن أن أقتله
بمبارزة ؟ أين هو الآن ؟

— فى فرانكفورت ، وسيمكث هنالك ثلاثة أيام .

قلت متحمسا تحمسا أهوج :

— قولى كلمة واحدة فاذهب اليه غدا على أول قطار .

فأخذت تضحك ثم قالت :

— لعله سيقول لك : « ردوا الى الخمسين ألفا أولا ! » ولماذا

تراه يرضى أن يبارز ؟ ما هذا الغباء ! ..

فكررت أقول وأنا أصر بأسنانى ، كأن من الممكن فجأة أن نلم

هذا المبلغ من الأرض :

— ولكن من أين اذن نأخذ هذه الخمسين ألف فرنك ،

من أين ؟

وراودتنى فكرة غريبة فأردفت أسألها :

— اسمعى ! ومستر آستلى ؟

فأخذت عيناها تلتمعان ، ثم قالت وهى تحديق الى نظرة ثابتة
مع ابتسامة مرة :

— أتريد اذن أن أتركك أنت من أجل هذا الانجليزى ؟

وكانت هذه أول مرة تخاطبنى فيها بصيغة المفرد .

ولا شك أن دوارا ألم بها فى تلك اللحظة ، من شدة الانفعال :
فانها لم تلبث أن تهالكت على الديوان ، وكان واضحا أنها مهدودة
القوى منهكة .

وشعرت أنا بعشاوة تعينى كأن برقاً بهر بصرى . فتسمرت فى
مكاني واقفا ، لا أصدق عينى ولا أصدق أذنى . هى اذن تجبنى .
لقد جاءت الى أنا ، ولم تذهب الى مستر آستلى ! هى الفتاة العذراء
تجىء الى غرفتى بالفندق وحيدة على رأى من جميع الناس ! ولبثت
متسمرا فى مكاني أمامها لا أفهم ..!

ولمعت فى خاطرى فكرة مجنونة !

قلت :

— پاولين ، امهلىنى ساعة واحدة ! انتظرى هنا ساعة واحدة
فقط .. أعود بعدها اليك . لا بد من هذا .. لا بد منه . لسوف
ترين . امكثى هنا ، امكثى هنا !

وخرجت من الغرفة راكضا دون أن أجيب على نظرتها المستفهمة.
وصاحت تقول لى شيئا ، ولكنى لم أرجع .

نعم ، رب خاطر هو أقرب الخواطر الى الجنون ، وأدناها الى الاستحالة ، يبلغ من قوة رسوخه في الفكر أن المرء يخاله ممكن التحقيق ، حتى اذا كان هذا الخاطر مرتبطا برغبة قوية ملتتهبة جامعة اعتقد المرء أخيرا أنه أمر حتمي ، ضروري ، فرضه القدر منذ الأزل ، أمر لا يمكن الا أن يكون ، ولا يمكن الا أن يحدث ! وربما كان ههنا شيء أكثر من ذلك : ربما كان ههنا مزيج من نبوءات يحسها المرء ، ومن جهد خارق تبذله الارادة ، ومن خيال سمم المرء به نفسه بنفسه ، ومن أشياء أخرى أيضا .. لست أدري .. ولكنني في ذلك المساء (في ذلك المساء الذي لن أنساه ما حييت) وقعت لى مغامرة معجزة . ولئن كانت المعجزة تفسر بالحساب ، فانها تظل في نظري معجزة . ولماذا ، لماذا كان هذا اليقين قد بلغ ذلك المبلغ من العمق والرسوخ في نفسى ، منذ أمد طويل ؟ لقد كنت أفكر فيه (أعود فأكرر ذلك) لا تفكيرى في احتمال جائز (ومن ثم غير مؤكد) ، بل كنت أفكر فيه تفكيرى في شيء لا يمكن الا أن يحدث .

كانت الساعة هى العاشرة الا ربعا . دخلت الى الكازينو ممثلا بأمل قوى ، وطافعا بانفعال قوى لا عهد لى بمثله من قبل . كان لا يزال فى قاعات القمار ناس ، وان يكن عددهم نصف عددهم فى الصباح .

وليس يبقى حول الموائد فى الساعة الحادية عشرة الا المقامرون حقا ، المقامرون المدمنون الذين لا يوجد فى مدن المياه المعدنية فى نظرهم الا الروليت . انهم لم يجيئوا الا من أجلها ، ولا يكادون يلاحظون شيئا مما يجرى حولهم ، ولا يعنون بشيء غيرها طوال الفصل . ليس لهم عمل الا أن يقامروا من الصباح الى المساء ، ولا شك

أنهم مستعدون لأن يستمروا في المقامرة الليل كله حتى مطلع الفجر لو كان ذلك في الامكان . وهم لا يتفرقون الا على مضض وحسرة ، حين يقفل الكازينو أبوابه عند منتصف الليل . فاذا صاح أعرق القيمين يعلن ، قبيل اغلاق الكازينو ، أى قبيل منتصف الليل ، أنه « لم يبق الا ثلاث ضربات أيها السادة » ، رأيتهم مستعدين في بعض الأحيان أن يحطوا في هذه الضربات الثلاث الأخيرة كل ما في جيوبهم؛ وفي تلك الساعة انما تقع أضخم الخسارات في الواقع . اتجهت نحو تلك المائدة نفسها التي كانت تقامر عليها الجدة . ولم يكن الزحام شديدا ، فسرعان ما استطعت أن أشغل مكانا قرب المائدة واقفا . وأمامي تماما ، على المائدة الخضراء ، كانت مكتوبة كلمة : « پاس » .

ان پاس هذه هي سلسلة من الأرقام تمضى من ١٩ الى ٣٦ ؛ أما السلسلة الأولى فهي من ١ الى ١٨ ، وتسمى «مانك» . ولكن هل يهمنى هذا كله في شيء ؟ اننى لم أكن أحسب ، ولا سمعت الرقم الأخير الذى ظهر . ولا سألت عنه حين بدأت اللعب ، كما يفعل أى لاعب مهما يكن قليل الاحتياط والحذر . أخرجت العشرين فردريكا ورميته على پاس .

صاح القيم :

— اثنان وعشرون .

لقد ربحت . وغمرت مرة أخرى بالمجموع أى بما حططته في المرة الأولى مضافا اليه الربح .

نادى القيم :

— واحد وثلاثون .

ربحت أيضا . أصبح معى اذن ثمانون فردريكا . حططت المبلغ كله على الأرقام الاثنى عشر التى فى الوسط (الربح هنا ثلاث لا مثنى ، ولكن الاحتمالات المعاكسة ثلاثة أيضا لا اثنان) . وأخذت الدائرة تدور ، فخرج الرقم ٢٤ ؛ فتقدت ثلاث لفات من ذات الخمسين فردريكا ، وعشر دنابير ذهبية . أصبحت أملك الآن مائتى فردريك .

اعترانى نوع من الحمى فدفعت بهذه الكدسة كلها من المال أحطها على الأحمر .. وثبت الى رشدى فجأة . كانت تلك هى المرة الأولى أثناء ذلك المساء كله ، التى جمعدنى فيها الخوف حتى صرت كالثلج ، فيداى وقدمائى ترتجفان . لقد أدركت مذعورا هلعا فى ومضة من شعور ، ماذا كان يعنى الخسران عندى فى هذه اللحظة !

لقد قامرت بحياتى كلها !

صاح القيّم :

— أحمر .

فرُدّت الىّ روحى ، وأحسست كأن نملا محرقا يجرى على جسمى كله . أعطيت أوراقا مالية . كان المبلغ فى هذه المرة أربعة آلاف فلورين وثمانين فردريكا (كنت ما أزال أستطيع أن أحسب) .

وبعد ذلك ، أذكر أثنى حططت ألفى فلورين على الاثنى عشر رقما التى فى الوسط ، فخسرت ، ثم حططت ما كان معى من ذهب بالاضافة

الى الثمانين فردريكا فخرت أيضا . استبد بى غيظ شديد : فتناولت
الألفى فلورين التى بقيت لى فحططتها على الاثنى عشر رقما الأولى ..
حططتها هكذا .. على غير هدى ، على عماوة ، دون حساب .. فكان
ثمة لحظة انتظار ، وكان ثمة انفعال لعله يشبه الانفعال الذى شعرت به
مدام بلانشار حين هوت فى باريز من منطادها على الأرض * .

هتف القيّم :

— أربعة .

أصبح معى ستة آلاف فلورين من جديد . أصبحت منذ الآن اتخذ
أوضاع الظافرين ، لا أهاب شيئا . رميت أربعة آلاف فلورين على
الأسود . فسارع نحو من عشرة أشخاص يحطون مثلى على الأسود ..
وتبادل القيّمون النظرات وتكلموا فيما بينهم . ومن حولى كان
الناس يتكلمون وينتظرون .

وظهر الأسود ، أصبحت منذ تلك اللحظة لا أتذكر المبلغ ولا تعاقب
الضربات . كل ما أتذكره أتنى كنت قد ربحت حوالى ستة عشر ألف
فلورين ، وأنا فيما يشبه الحلم ؛ ثم اذا بثلاث ضربات شقية تخسرني
من ذلك المبلغ اثنى عشر ألفا . فرأيتنى أضع الآلاف الأربعة الأخيرة على
الپاس (ولكننى لم أشعر بشيء تقريبا فى تلك اللحظة ، وانما كنت
أنتظر انتظارا آليا دون أن أفكر فى شيء) . فربحت من جديد ، ثم ربحت
أيضا فى أربع ضربات متتالية . كل ما أذكره اثنى كنت ألم الفلورينات
آلافا آلافا . وأذكر أيضا أن أرقام الوسط التى تشبثت بها هى التى

كانت تظهر في أغلب الأحيان . كانت تظهر ، على نحو مطرد ، ثلاث مرات متتالية أو أربعا ثم تغيب دورتين لتعود الى الظهور بعد ذلك في ثلاث ضربات متتالية أو أربع . ان هذا الاطراد الذى يبعث على الدهشة والاستغراب يحدث في فترات ، وذلك ما يبلبل المقارنين المحترفين الذين يحملون أقلاما ويجرون حسابات . أية سخريات رهيبة لا يظهرها الحظ هنا ؟ .

أظن أنه لم يكن قد انقضى على وصولي أكثر من نصف ساعة ، حين أعلن لى القيم فجأة أن أرباحي بلغت ثلاثين ألف فلورين ، وأن الخزنة ليست مسئولة عن أكثر من ذلك في جلسة واحدة ، فلذلك ستغلق الروليت الى صباح الغد . أخذت ذهبي كله ، فحشوت به جيوبى ، ثم لممت جميع أوراقى النقدية وذهبت الى قاعة أخرى كان فيها روليت ثانية . فهرع الجمهور يلحق بى ، وسرعان ما أفسح لى هنالك مكان ، فاستأنفت أقامر خبط عشواء بغير حساب . لست أدري ما الذى أنقذنى ! على أن فكرة الحساب كانت تراودنى من حين الى حين . كنت أتعلق ببعض الأرقام ، ببعض الاحتمالات ، ثم ما ألبث أن أهجرها ، وأعود ألعب على غير شعور . لا شك أننى كنت فى حالة ذهول شديد . أذكر أن القيمين قد صححوا لعبى عدة مرات . فلقد كنت ارتكب أخطاء جسيمة . وهرع پولونيون يعرضون علىّ خدماتهم ، ولكننى لم أصغ الى أحد . وكان الحظ حليفى لا يفارقنى . وفجأة دوت من حولى صيحات وقهقهات . وأخذ الناس يهتفون « مرحى ، مرحى ! » ، حتى أن بعضهم أخذ يصفق . لقد بلغت أرباحي ثلاثين ألف فلورين مرة أخرى ، وأغلقت الخزنة حتى صباح الغد .

— اذهب ، انصرف .

كذلك دمدم يقول لى رجل كان على يمينى . انه يهودى من
فرنكفورت ، كان قد ظل الى جانبى طول الوقت ، وأظن أنه أعانى مرة
أو مرتين .

ووشوشنى صوت آخر فى أذنى اليسرى قائلا :
— ناشدتك الله أن تذهب .

فألقيت نظرة سريعة على من وشوشنى : انها سيدة فى نحو الثلاثين
من العمر ، ترتدى ملابس متواضعة لكنها لائقة ، ويبدو فى وجهها
التعب وشحوب المرض ، ولكن الناظر اليها يدرك أنها كانت على جانب
عظيم من جمال أخاذ . وكنت فى تلك اللحظة أحشو جيوبى بالأوراق
النقدية مجعدا اياها ، وألم ما قد بقى على المائدة من ذهب ، فتناولت
آخر لفة من ذات الخمسين فردريكا ، واستطعت ، دون أن يلاحظنى
أحد ، أن أدسها فى يد السيدة الشاحبة اعترافا بجميلها ، ولم يستغرق
هذا كله الا ثانية واحدة .

حتى اذا فرغت من لسم كل شىء ، أسرعت أذهب الى مائدة
« الثلاثين والأربعين » .

ان مائدة « الثلاثين والأربعين » يرتادها جمهور أرستقراطى . انها
غير الروليت . انها من ألعاب الورق . والخزنة هنالك تتحمل مائة ألف
تالير . وأكبر حطة هى أربعة آلاف فلورين أيضا . كنت أجهل مجرى
اللعب جهلا تاما ، ولا أكاد أعرف كيف أحط ، اللهم الا على الأحمر
والأسود ، الموجودين فيها أيضا . لذلك تعلقت بهما . وتحلق الكازينو

كله حولى . لا أذكر أن باولين خطرت ببالى مرة واحدة فى تلك السهرة . كنت ، وأنا أمسك بالأوراق المالية التى تتكدس أمامى ثم أردتها ، أشعر بلذة لا سبيل الى مقاومتها .

لكأن القدر كان يدفعنى حقا . وفى هذه المرة ، طراً ظرف غريب ، كأنما على عمد ، وان يكن يطرأ فى القمار أحيانا كثيرة . كان يشبث الحظ بالأحمر مثلاً فما يتركه الا بعد عشر دورات أو خمس عشرة دورة . حتى لقد كنت سمعت أول البارحة أن الأحمر ظهر فى الأسبوع الماضى اثنتين وعشرين مرة على التوالى . وذلك أمر لا يتذكر أحد أنه وقع فى الروليت مرة واحدة ، فكان الناس يتحدثون عنه مدهوشين . ومن الطبيعى أن اللاعبين ما يلبثون أن يتركوا الأحمر ، فما من أحد يجرؤ أن يحط عليه بعد أن يظهر عشر مرات متتالية مثلاً . ولكن ما من مقامر خبير يحط عندئذ على الأسود ، نقيضه . فان المقامر المجرب يعرف ماذا تعنى « نزوة الصدفة » ؛ فاذا ظهر الأحمر ست عشرة مرة مثلاً اعتقد اللاعبون أن الضربة السابعة عشرة ستقع على الأسود حتما ؛ فاذا باللعبين الأغرار يترامون على الأسود ، مضاعفين المبالغ مثنى وثلاث ، فيتكبدون من ذلك خسائر فادحة .

أما أنا فقد بدا لى ، بنزوة غريبة ، بعد أن ظهر الأحمر سبع مرات متتالية ، أن أعلق به وأثبت عليه . اننى مقتنع بأن لحب الظهور دخلا فى هذه النزوة ، فلقد كنت أحب أن أبعث الدهشة فى نفوس المشاهدين بمجازفة هوجاء طائشة (ألا انه لاحساس غريب !) ؛ ولكنى ما زلت أذكر بوضوح أن ظمأ الى المجازفة قد تملكنى على حين فجأة دون أن يحضنى على ذلك شىء من حب الظهور . لعل نفس الانسان ، بعد أن

تعانى مثل هذا العدد الكبير من الاحساسات ، لا تنتهى الى الشبع منها ، بل تهتاج وتطلب المزيد من احساسات جديدة ما تنفك تعنف ثم تعنف، الى أن تصل الى درجة الانهاك . ولست أكذب حين أقول اننى كنت مستعدا للمجازفة بخمسين ألف فلورين حطة واحدة لو كانت الأنظمة تسمح بذلك . وكان الناس من حولى يصيحون قائلين ان هذا جنون ، فقد ظهر الأحمر أربع عشرة مرة متتالية !

قال رجل كان بجانبى :

— ربح السيد حتى الآن مائة ألف فلورين .

فلما سمعت كلامه صحت فجأة . كيف ؟ أربحت فى هذه السهرة مائة ألف فلورين ؟ ولكننى لست فى حاجة الى أكثر من ذلك ! وما لبثت أن تناولت الأوراق المالية بسرعة فدهستها فى جيبي فوضى على غير ترتيب ، ومن غير عد ، ثم لممت الدنانير الذهبية لفات لفات ، وأسرت أخرج من الكازينو . كان جميع الناس يضحكون وهم يرونى أجتاز القاعات منتفخ الجيوب مترنح الخطى من ثقل الذهب . أعتقد أن وزن الذهب الذى كنت أحمله يربو على نصف « پاود » * . وامتدت الى بعض الأيدى ، فوزعت المال قبضات قبضات ، على قدر ما كانت تسع منه يدى . وأوقفنى يهوديان عند الباب ، فقالا لى :

— أنت متهور ، متهور جدا ! فسافر غدا ، غدا فى الصباح ،

فى أبكر ساعة من الصباح ، والا فلسوف تخسر كل شىء ..

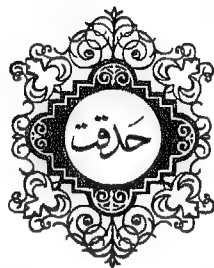
لم أصغ اليهما . وكانت الظلمة فى طريق أشجار الكستناء من الشدة بحيث لم أكن أستطيع أن أميز يدى . والمسافة بينى وبين الفندق

نصف فرسخ تقريبا . وأنا امرؤ ما خفت من اللصوص ولا من قطاع الطرق يوما ، منذ أن كنت طفلا . فكذلك لم أقلق في تلك اللحظة أيضا . ثم اننى لا أتذكر الآن فيم كنت أفكر أثناء الطريق . كان رأسى خاليا . ولكننى كنت أشعر بلذة عنيفة قوية ، هى لذة النجاح ، والانتصار ، والقوة . لا أدري كيف أعبر لكم عما كان يختلج فى نفسى آنذاك . كان خيال پاولين يخطر أمام عينى ، ولم يغب عن بالى أننى كنت ذاهبا إليها .. ولكننى كنت لا أكاد أتذكر ما قالته لى منذ قليل ، ولا السبب الذى حملنى على الذهاب الى الكازينو ؛ ان جميع تلك الأحاسيس الحديثة التى امتلأت بها نفسى منذ ما لا يزيد عن ساعة ونصف ساعة ، أصبحت تبدو لى الآن متمية الى ماض قد انقضى وزال ، حتى لقد لا نلمع اليه الماعا ، لأن كل شئ سيبداً بداية جديدة .

وفى نهاية طريق أشجار الكستناء تقريبا انما استولى على الخوف . قلت فى نفسى : « ماذا لو قتلت الآن وسرق مالى ؟ » . وأخذ ذعرى يشتد خطوة بعد خطوة . فكنت أسير سيرا هو بالركض أشبه . وفجأة ، عند نهاية طريق ، تلالأت واجهة فندقنا على حين بغتة ، ساطعة بألف ضوء . الحمد لله . لقد وصلت .

صعدت درجات السلم أربعاً أربعاً حتى وصلت الى غرفتى ، ففتحت الباب فجأة ؛ فاذا پاولين ما تزال هنالك ، جالسة على ديوانى ، أمام شمعة مشتعلة ، ضامة يديها احديهما الى الأخرى . نظرت الى فى دھول ، فلا شك أن وجهى كان فى تلك اللحظة غريبا . وقفت أمامها ، ورميت بالمال كله على المنضدة .

الفصل الخامس عشر



پاولین الی ، دون أن تتحرك ، بل دون
أن تغير وضعها . هتفت أقول لها وأنا أخرج من
جیوبی آخر لفة :
— ربحت مائتي ألف فرنك * .

ان كومة كبيرة من الأوراق المالية والنقود الذهبية تغطي المنضدة
كلها . كنت لا أستطيع أن أحول نظري عنها ؛ حتى لقد كنت في بعض
اللحظات أنسى وجود پاولین . فأنا تارة آخذ أرتب الأوراق المالية
كدسات كدسات ؛ وتارة أجمع الدناير الذهبية على حدة ؛ وتارة
أبعثر كل شيء وأطلق أذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطى سريعة غارقا في
أحلامي أو أعود الى المنضدة فجأة أعد مالي . واني لفي ذلك ، اذا أنا
أعود الى رشدي على حين بغته ، فأمضي الى الباب أقفله بالمفتاح دورتين،
ثم أقف أمام حقيبتی الصغيرة حائرا مترددا .

سألت پاولین وأنا ألتفت اليها فجأة متذكرا وجودها :

— هل يجب أن أضع المال في الحقيبة الى الغد ؟

وكانت پاولين ما تزال جالسة في مكانها نفسه لم تتحرك ، ولكنها كانت لا تحول عنى بصرها . كان في وجهها تعبير غريب ساءنى أن أراه . ما أحسبني مخطئا اذا قلت انه كان تعبيرا عن الكره والبغض .

فاقتربت منها مسرعا أقول :

— پاولين ، اليك خمسة وعشرين ألف فلورين . انها تساوى خمسين ألف فرنك وتزيد . فخذوها وارميها في وجهه غدا . فلم تجب .

— اذا شئت حملتها اليه أنا في صباح الغد . هل تريدن ؟ . فأخذت تضحك مقهقهة على حين فجأة . وظلت تقهقه على هذه الحال برهة طويلة .

فكنت أنظر اليها بدهشة موجعة أليمة . ان هذا الضحك يشبه كل الشبه ذلك الضحك الساخر الهازىء الذى كانت تستقبل به في كثير من الأحيان (وفي أوان حديث أيضا) ما كنت أعلنه لها من عواطف حبي اللاهب الجامح . وحبست ضحكها أخيرا ، وقطبت ما بين حاجبيها ، ونظرت الى نظرة قاسية من أدنى ، وقالت لى باحتقار :

— لن آخذ شيئا من مالك ؟

فصحت أقول :

— كيف هذا ؟ ماذا هنالك ؟ لم هذا يا پاولين ؟

— لن أقبل آخذ شيء من مال دون ما سبب ! .

— ولكننى أقدمه لك تقدمة الصديق للصديق ؛ اننى مستعد لأن
أقدم لك حياتى كلها .

ف نظرت الى نظرة طويلة فاحصة ، كأنها تريد أن تنفذ الى نفسى .
قالت وهى تضحك ضحكة صغيرة :

— أنت رجل كريم سخى . ان خلية دى جريو لا تستحق خمسين
ألف فرنك .

فهتفت أقول بلهجة العتب :

— پاولين ، كيف تستطيعين أن تكلمينى هكذا ؟ أنا لست
دى جريو !

فصرخت تقول وقد أخذت عينها تقدحان شررا :

— أنا أكرهك ! نعم .. نعم .. أنا لا أحبك أكثر مما أحب
دى جريو .

قالت ذلك وأخفت وجهها فى يديها واعترتها نوبة عصبية ،
فارتميت نحوها .

أدركت أن شيئاً قد وقع لها أثناء غيابى ولا شك ، فانها لم تكن
مالكة رشدها .

وانفجرت تقول من خلال النجيب والتشنج :

— هيا اشترنى ! هل تريد ؟ اشترنى بخمسين ألف فرنك ، مثل
دى جريو !

ضممتها بذراعى ، وقبلت يديها ، وقدميها ، وركعت أمامها على ركبتي .

وانقضت النوبة . فوضعت يديها على كنفى ، وأخذت تنفّس في وجهى . لكانها تريد أن تقرأ شيئا في هذا الوجه . وكانت تصغى الى ولكن كان واضحا أنها لا تسمع ما كنت أقوله لها . وظهر على قسّمت وجهها ما ينبىء عن هم ، ويدل على أنها في حلم . قلقّت . أحسست أنها بسبيل أن تجن . ها هي ذى تشدنى إليها برفق ، وقد طافت على شفيتها بسمة ثقة واطمئنان ؛ ثم ها هي ذى تدفعنى عنها على حين فجأة ، وتعود تنفّسنى وقد أظلم وجهها .

وها هي ذى تمسك ذراعى بغتة وتأخذ تقول :

— أنت تجبنى ، أليس كذلك ؟ ما دمت .. ما دمت قد أردت أن تقاتل البارون من أجلى !

وانفجرت تفهقه قهقهة من خطرت بباله ذكرى مضحكة مسلية . كانت تضحك وتبكي في آن واحد .

ماذا كان في وسعى أن أفعل ؟ لقد كنت أنا نفسى محموما . أذكر أنها أخذت تكلمنى .. ولكننى لم أستطع أن أفهم شيئا تقريبا . كان كلامها ضربا من هذيان . انها تنتمى متممة كما لو كانت تريد أن تقص على شيئا من الأشياء بسرعة . وكان يقطع هذا الهذيان من حين الى حين ضحك فرح ينفجر انفجارا فيأخذ يخيفنى .

كانت تردد :

— لا ، لا ، أنت لطيف ، لطيف . أنت مخلص لى .

وتعود تضع يديها على كنفى ، وتعود تتأملنى وتكرر :

— أنت تحبنى ، أنت تحبنى .. وسوف تحبنى ؟

لم أحول بصرى عنها . ما كنت قد رأيتها قبل ذلك قط فى مثل هذه الحالة من الرقة والحنان والحب . صحيح أن ذلك كان هديانا ، وها هى ذى تلاحظ نظرتى الولهى ، فتبتسم ابتسامة خيثة مأكرة على حين فجأة . ثم ها هى ذى تأخذ تتكلم عن مستر آستلى بغتة .

على أنها كانت تدير الحديث على مستر آستلى بغير انقطاع (ولا سيما منذ قليل ، حين حاولت أن تقص على " شيئا ما) ، غير أننى لم أستطع أن أفهم ماذا كان يعنى هذا على وجه الدقة . بل اننى لأعتقد أنها كانت تسخر منه . وأخذت تردد فى كل لحظة أنه ينتظر ، وأننى ربما كنت أجهل أنه ينتظر تحت نافذة غرفتى .

— نعم ، نعم ، تحت النافذة . افتح النافذة وأنظر . انه هناك ! قالت ذلك ودفعتنى نحو النافذة . فما ان هممت أن أمضى الى النافذة حتى استبد بها ضحك مجنون ، فبقيت قربها ، فاذا هى ترمنى على وتحضنى بذراعيها .

— سنسافر ؟ غدا نسافر ؟

لقد وافتها هذه الفكرة على حين فجأة ، وأضفت تقول شاردة اللب ساهمة الفكر :

— وسندرك الجدة ، ما رأيك ؟ أغلب ظنى أننا نستطيع أن ندرکہا بيرلين . ما عساها قائلة ، فى رأيك ، حين نلحق بها فترانا ؟ ومستر آستلى ؟ .. ان مستر آستلى هذا لن يرمى نفسه من أعلى جبل

شلانجبرج ، أليس كذلك ؟ (قالت هذا وانفجرت تفهقه) . اسمع : هل تعلم الى أين يريد أن يذهب في الصيف المقبل ؟ انه يريد أن يذهب الى القطب الشمالى ليقوم بدراسات علمية ، وقد دعانى الى مشاركته في هذه الرحلة . ها ! ها ! ها ! يقول اننا معشر الروس ما كنا لتتعلم شيئاً لولا الأوريون ، واننا لا نصلح لشيء . لكنه رجل طيب هو أيضاً . هل تعلم ؟ انه يعذر الجنرال : يقول ان بلانش .. ان الهوى .. لا أدرى لا أدرى ماذا يقول .. (رددت ذلك مشوشة كأننا أعوزها التعبير) . مساكين ! لشد ما أرثى لحالهم ؛ ولشد ما أرثى لحال الجدة أيضاً ! اسمع ، اسمع ، كيف يكون في امكانك أن تقتل دى جريو ؟ ولكنك لن تستطيع أن تقتل حتى البارون (أضافت ذلك وقد أخذت تضحك) . لشد ما كنت مضحكا في ذلك اليوم ، مع البارون ! كنت أنظر اليكما كليكما من على مقعدى .. ولشد ما ضايقت أن تذهب اليه حين أرسلتكم ! لكم ضحكت يومئذ ، لكم ضحكت ! (قالت ذلك وهى تضحك محاولة أن تحبس قهقهتها) .

وفجأة عادت تقبلنى ، وتضمنى الى صدرها ، وتشدد وجهى الى وجهها بخنان قوى وعاطفة مشبوبة . أصبحت لا أفكر فى شيء ، ولا أسمع شيئاً . لقد أخذ رأسى يدور ..

أظن أن الساعة كانت بلغت السابعة من الصباح حين ثبت الى رشدى . كانت الشمس تضىء الغرفة . وكانت پاولين جالسة الى جانبى تجيل بصرها على ما حولها غريبة النظرة ، كأنها تخرج من الظلمة وتجمع شتات ذكرياتها . كانت قد اسنيقتت هى أيضا منذ قليل ،

وأخذت تنظر محدقة الى المنضدة والمال . ان رأسى ثقيل مومع .
وأردت أن أتناول يد پاولين ، فصدتنى ، ونهضت عن الديوان فجأة .
كان النهار الذى بدأ يطلع قاتما . لقد أمطرت السماء قبيل الفجر .
اقتربت پاولين من النافذة ففتحتها ، ثم مالت عليها بنصف جسمها متكئة
على مسندها ، ولبثت على هذه الحال بضع دقائق لا تلتفت نحوى
ولا تصغى الى ما أقول لها . وراودتنى فكرة مرعبة : ما عسى يحدث
الآن ، وكيف عسى ينتهى الأمر ؟ وفجأة تركت پاولين النافذة وجاءت
الى المنضدة ، وقالت لى وقد فاض وجهها بكروه لا حد له ، وارتعشت
شفقتها من شدة الحنق :

— هات الآن الخمسين ألف فرنك التى لى !

قلت :

— ماذا دهالك يا پاولين ؟ أتستأنفين القصة ؟

— اللهم الا أن تكون قد غيرت رأيك ! ها ها ها . لعلك ندمت .

كانت الخمسة والعشرون ألف فلورين التى عددها فى الليلة
البارحة ما تزال على المنضدة : فتناولتها ومددتها اليها .

سألتنى وهى تمسك المال وتلقى على نظرة ساخطة :

— هى الآن لى ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

قلت :

— لقد كانت لك منذ البدء .

— طيب .. اذن خذها الآن ، ألوفاك الخمسين !

قالت ذلك ورفعت يدها فرمت الحزمة في وجهي ، فلطمته لطما ،
وتبعثرت الأوراق على الأرض ، ثم خرجت پاولين من الغرفة راكضة .
كنت أعرف أنها لم تكن في تلك اللحظة مالكة عقلها ، رغم أنني
لم أفهم هذا الجنون العابر . صحيح أنها ما تزال مريضة ، وأنها مريضة
منذ شهر . ولكن ما سبب هذه الحالة ، وما سبب هذا الانفجار
خاصة ؟ هل أهينت كبرياؤها ؟ أهو الحزن الشديد من أنها جاءت الى ؟
تري هل ظهر علىّ أنني مثدلّ بسعادتى ، وأنتى أريد ، مثل دى جريو ،
أن أتخلص منها باعطائها خمسين ألف فرنك ؟ ولكن ليس ثمة شئ من
هذا .. وما أظن الا أن الذنب ذنب غرورها . ان غرورها هو الذى
دفعها الى أن تمنع عنى ثقتهأ وأن تهيننى ، وان لم يكن ذلك كله واضحا
فى ذهنها بل مبهما كل الابهام فى أغلب الظن . فاذا كان الأمر كذلك ،
فقد عاقبتنى بما كان يجب أن يعاقب به دى جريو ، ولعلها عدتنى مذنبا
دون أن يكون لى فى الأمر كبير ذنب . صحيح أن هذا كله لم يكن
الا هديانا . وصحيح أيضا أنني كنت أعرف أنها تهذى .. وأنتى لم
أول هذا الظرف ابتباها . أتراها لا تستطيع أن تغفر لى ذلك الآن ؟
ولكن اذا صح هذا بالنسبة الىّ الآن ، فماذا بالنسبة الىّ أمس ، ماذا
بالنسبة الىّ أمس ؟ ان هديانها ومرضها لم يكونا من القوة بحيث
ينسيانها ماذا كانت تفعل حين جاءت الىّ حاملة رسالة دى جريو ! كانت
تعلم اذن ما تفعل .

وأسرعت أدس جميع نقودى وذهبى فى السرير كيفما اتفق ، وأسدل
عليها الغطاء ، وأخرج من الغرفة بعد خروج پاولين بعشر دقائق تقريبا .
كنت واثقا أنها هربت الى مسكنها ، فأردت أن أتسلل الى شقتهم دون

خوضاء ، أسأل الخادمة في المدخل عن صحة سيدتها . فما كان أشد دهشتي حين لقيتني الخادمة على السلم فقالت لى ان ياولين لم تعد حتى الآن ، وانها — أى الخادمة — كانت آتية الىّ تبحث عنها .

قلت للخادمة :

— لقد خرجت من عندى منذ هنيهة قصيرة ، منذ عشر دقائق تقريبا . الى أين تراها ذهبت ؟

فألقت علىّ الخادمة نظره عتاب

وفى أثناء ذلك كانت القصة تطوف فى أرجاء الفندق . فالنزلاء يهمس بعضهم لبعض ، عند حجرة البواب وعند مدير الخدم ، أن « الآنسة » قد خرجت راکضة فى الساعة السادسة من الصباح ، تحت وابل المطر ، منجهة نحو فندق انجلترا . فهت من أحاديثهم وتلميحاتهم أنهم كانوا يعرفون أنها قضت الليلة كلها فى غرفتى . ثم أنهم كانوا قد أخذوا يفصون حكايات عن أسرة الجنرال . أنهم يعلمون أنه قد فقد صوابه فى الليلة البارحة فأخذ يبكى منتحبا حتى سمع نحيبه كل من فى الفندق . وقالوا فى هذه المناسبة ان الجدة هى أمه ، وانها قد جاءت من روسيا خصيصا لتسنع ابنها من الزواج بدموازيل دى كومنج ، فاذا لم يطعها حرمتها من ميراثها . أما وأنه رفض الامتنال لأوامرها ، فقد ذهبت تبدد ثروتها فى الروليت أمام عينيه عامدة متعمدة ، حتى لا تترك له شيئا . فكان مدير الخدم يكرر قوله مستاء مستنكرا وهو يهز رأسه : « يا لهؤلاء الروس ! * » ؛ وكان الآخرون يضحكون ؛ ان مدير الخدم يهيم الفانورة . وكان قد علم أننى ربحت فى الليلة البارحة:

ان كارل خادم الطابق الذى أسكن فيه ، هو أول من هنأنى . ولكن
عقلى مشغولا بشئ آخر . فهرعت الى فندق انجلترا .

ما نزال فى ساعة مبكرة من الصباح ، ومستر آستلى لا يستقبل .
ولكنه حين عرف أن القادم هو أنا خرج يلقانى فى الدهليز ، وظل
متسما أمامى يحدق الىّ بنظرته الكايبة ، منتظرا ما سأقوله .
وسرعان ما سألته عن أبناء پاولين ، فأجاب وهو ما يزال يسدد بصره
الى عينى :

— انها مريضة .

— أهى اذن عندك ؟

— نعم هى هنا .

— وهل .. هل تنوى أن تبقىها عندك ؟

— نعم .

— يا مستر آستلى ، سيكون هذا فضيحة . ذلك أمر مستحيل .

ثم انها مريضة تماما .. ألعلك لم تلاحظ ذلك ؟ .

— بلى ! وقد سبق أن قلت لك انها مريضة . ولو لم تكن مريضة

لما قضت ليلتها عندك .

— أأنت تعرف هذا أيضا ؟

— نعم ، كان يجب أن تأتى الىّ ، ولو قد أتت اذن لنقلتها الى

منزل احدى قريباتى ، ولكنها كانت مريضة ، فلذلك ضلت سبيلها
فذهبت اليك .

— أهنتك اذن يا مستر آستلى ! بالمناسبة ، لقد ذكرتني الآن
بشيء . ألم نمكث طوال الليلة البارحة تحت نافذتي ؟ كانت مس پاولين
تطلب منى فى كل لحظة أن أفتح النافذة لأرى ألسـت تنظر تحتها : وكان
ذلك يضحكها كثيرا .

— أهذا ممكن ؟ لا لم أكن تحت النافذة ، غير أننى انتظرت فى
الدهليز ، وطفقت أذهب وأجىء على مقربة .

— يجب معالجتها يا مستر آستلى .

— نعم ، وقد أرسلت أستاذعى طبييا ؛ فإذا ماتت فلسوف أعرف
كيف أقتص منك .

ذهلت .

— هلا تكرمت يا مستر آستلى فقلت لى ماذا تعنى ؟

— هل صحيح أنك ربحت البارحة مائتى ألف تالير ؟

— بل مائة ألف فلورين فقط .

— هكذا .. وستسافر بعد قليل الى باريس .

— لماذا ؟

— لأن جميع الروس يذهبون الى باريس متى كان معهم مال ..

كذلك قال مستر آستلى متدفقا فى الكلام كأنه يقرأ فى كتاب .

— وما عساي أصنع بباريس الآن ، فى الصيف ؟ اننى أحبها

يا مستر آستلى ! أنت تعرف ذلك .

— حقا ؟ أما أنا فأعتقد بعكس ذلك . ثم انك اذا بقيت هنا ستخسر

حتما كل ما تملكه ، ولن يبقى معك ما قد يوصلك الى باريس . هيا ، وداعا ، اننى على يقين مطلق من أنك مسافر فى هذا اليوم نفسه .

— طيب . وداعا . ولكننى لن أسافر . فكر يا مستر آستلى فيما سيحدث ! .. ان الجنرال .. ثم ان قصة پاولين هذه ستنتشر فى المدينة كلها .

— نعم فى المدينة كلها . وأعتقد أن الجنرال لا يكاد يفطن الى هذا الموضوع أصلا ، فان هناك أشياء أخرى تشغل باله وتستأثر بتفكيره . ثم ان من حق مس پاولين أن تقيم حيث تحلو لها الإقامة . أما أسرتها فلا نعدو الواقع اذا قلنا انها لم يبق لها وجود .

كنت بعد أن انصرفت من عند مستر آستلى أضحك عجبا من هذه الثقة الغريبة التى تبدو فى كلامه حين أكد أننى مسافر الى باريس . قلت فى نفسى : وهو مع ذلك يريد أن يقتلنى فى مبارزة اذا مانت پاولين .. شئ لطيف ! .. يمينا لقد كنت أشفق على پاولين .. غير أن هناك شيئا غريبا هو أننى منذ اللحظة التى دنوت فيها من مائدة القمار وأخذت ألم الأوراق النقدية أكداسا أكداسا ، أصبح حبى فى المنزل الثانية ان صح التعبير . وأنا أقول ذلك الآن . أما وقتئذ فلم يكن شعورى به واضحا كل الوضوح . أأنا اذن مقامر ؟ أكان حبى پاولين .. غريبا اذن هذه الغرابة ؟ لا .. اننى ما أزال أحبها ، شهد الله .. وحين خرجت من عند مستر آستلى كنت أتألم ألما صادقا مخلصا ، وكنت ألوم نفسى لوما شديدا حين كنت عائدا الى غرفتى .. غير أن .. مغامرة من أعجب المغامرات وأشدّها حماقة وبلاهة قد وقعت لى عندئذ .

كنت ذاهبا الى الجنرال مستعجل الخطى ، فاذا بباب يفتح على
حين غرة ، غير بعيد عن مسكنهم ، واذا بصوت يناديني : انها السيدة
أرملة دى كومنج تناديني بأمر من مدموازيل بلانش . دخلت شقة
المرأة الشابة .

انهما يقيمان فى شقة صغيرة من غرفتين . وكان ضحك مدموازيل
بلانش وانطلاق صوتها يسمعان صادريين من حجرة نومها . كانت
مدموازيل بلانش بسبيل النهوض من فراشها :

— ها .. أهذا هو ؟ تعال تعال يا أبه ! أصحيح أنك ربحت جبلا
من ذهب وفضة ؟ انتى أوثر الذهب على كل حال .
فقلت ضاحكا :

— نعم ربحت .

— كم ؟

— مائة ألف فلورين .

— ما أبلهك ! أدخل أدخل ! انتى لا أسع شيئا . لسوف نطلق
لأنفسنا العنان ، أليس كذلك ؟

ودخلت . كانت مضطجعة تحت غطاء من حرير وردى يكشف
عن كتفيها السمراوين المدورين الرائعين : كنفين لا يرى المرء مثلهما
فى المنام ، قد غطاهما ، على اهمال ، قميص من نسيج قطنى خفيف
يزينه شريط مخرم مطرز ناصع البياض يبرز جمال جلدها البرونزى
كما يبرز الضد ضده .

صاحت تقول وهى ترانى :

— ألك قلب يا بنى ؟ * .

وكانت لا تزال تضحك ضحكا مرحا جدا ، بل ضحكا صريحا في بعض الأحيان .

قلت موسعا جملة كورنى :

— شىء آخر ..

فأخذت تثرثر قائلة :

— أرايت ، أرايت ؟ هات لى أولا جوربىّ فألبسنيهما ؛ ثم ، اذا لم تكن أبله جدا ، أخذتك معى الى باريس . أنت تعلم أننى مسافرة توا .

— توا ؟

— بعد نصف ساعة .

وكان كل شىء قد حزم فعلا . وكانت الحقائق مهيأة . وقد شربت القهوة منذ زمن .

— فاذا شئت ، رأيت باريس ! قل لى : ما معنى كلمة « مربى » ؟ لشد ما كنت أبله ، حين كنت مربيا ! أين جورباى ؟ مالك لا تلبسنى جوربى ؟

قالت ذلك وأظهرت قدما صغيرة أخاذة الجمال حقا : قدما سمراء دقيقة ، ليس فيها شىء من ذلك التشوه الذى تراه تقريبا فى جميع تلك الأقدام الصغيرة التى تبدو جميلة ذلك الجمال كله وهى فى أحذيتها . أخذت أضحك ومددت الجورب الحريرى على ساقها . فكانت أثناء ذلك ما تنفك تثرثر قاعدة على سريرها .

— هيه ! ما عسالك فاعلا اذا أخذتك معى ؟ أولا أريد خمسين ألف فرنك . ستعطينى هذا المبلغ فى فرنكفورت . ثم نذهب الى باريس . وهناك سنعيش معا ، وسأريك النجوم فى وضوح النهار . لسوف ترى هنالك نساء ما رأيت مثلهن فى حياتك . اسمع ..

— انتظرى ! اذا أعطيتك خمسين ألف فرنك فماذا يبقى لى ؟

— هل نسيت المائة والخمسين ألف فرنك ؟ ثم اننى أرضى أن أعيش معك شهرا ، أو شهرين ، هل أدرى ؟ وطبعا سننق فى شهرين هذه المائة والخمسين ألف فرنك . رأيت ؟ اننى طفلة طيبة ، أنبئك بما سيقع منذ الآن . ولكنك سترى نجوما !

— كيف هذا ؟ أنتفق كل شىء فى شهرين ؟

— أيفزعك هذا ؟ يا لك من عبد سيىء ! ألا تعلم أن شهرا واحدا تعيشه على هذا النحو خير من حياتك كلها ؟ شهر واحد .. وبعده الطوفان ! ولكنك لا تستطيع أن تفهم ! هيا امض فى سبيلك . هيا هيا .. انك لا تستحق هذا وما أنت جدير به . آى ، ماذا تفعل ؟

كنت بسبيل الباسها جوربها الثانى ، ولكننى لم أطق أن أقاوم ، فاذا أنا أقبل قدمها ، فسحبته وأخذت تلطم وجهى بطرف القدم ، ثم طردتنى ..

— هيه .. أيها المربى .. سأنتظرك اذا شئت ..

أنا مسافرة بعد ربع ساعة .

كذلك صاحت تخطبىنى .

فلما عدت الى غرفتى كنت كمن اغتراه دوار ..

قلت لنفسى : ليس ذنبى أن مدموازيل پاولين رمت كدسة الأموال
فى وجهى ، وآثرت علىّ مستر آستلى منذ ذلك المساء ! وكان ما يزال
على الأرض بعض الأوراق النقدية ، فلمحتها . وفى تلك اللحظة فتح
الباب ، ودخل مدير خدم الفندق (الذى كان قبل ذلك لا يجب حتى
أن ينظر الىّ) ، ودعانى أن أسكن تحت ، فى الشقة الرائعة التى
شغلها الكونت لك .. منذ فترة قصيرة .

فلبث لحظة أفكر ، ثم هتفت أقول له :
— هات لى فاتورة الحساب . أنا مسافر الى باريس بعد
عشر دقائق .

ذلك أتنى قلت لنفسى : اذهب الى باريس يا هذا .

لا شك أن ذلك كان مقدرًا علىّ مكنوبًا لى .

وما انقضى ربع ساعة حتى كنا جالسين فعلا فى حجرة عائلية
بالقطار : أنا ومدموازيل بلانش ، والسيدة أرملة دى كومنج . كانت
مدموازيل بلانش تضحك ، وهى تنظر الىّ ، ضحكا شديدا تتساقط له
من عينيها الدموع . وكانت السيدة أرملة دى كومنج تجاريها فى
الضحك . لن أقول اننى كنت مرحا حينذاك . لقد كانت حياتى تنشط
شطين . غير أتنى ألفت منذ الليلة البارحة أن أقامر على ورقة . قد
يكون صحيحا أتنى كنت لا أحتمل المال ، وأتنى قد فقدت رشدى .
قد يكون هذا صحيحا ، ولكننى كنت لا أنشد أحسن من ذلك !
وكان يتراءى لى خلال لحظة ، خلال لحظة واحدة ، فحسب ، أن الاطار
قد تغير « ولكننى سأعود بعد شهر .. وستقع الواقعة يومئذ بيننا ..

أنا ومستر آستلى « .. نعم ، اذا صدقت ذاكرتى ، فلقد كنت أشعر
بحزن رهيب وأنا أضحك ملء حنجرتى مع الغيبة بلانش ..

صاحت بلانش تقول لى مقرعة مؤنبة وقد توقفت عن الضحك :
— ولكن ماذا تريد ؟ ألا انك لأحقق .. ألا ما أشد حماقتك !
نعم نعم ، سننق المائتى ألف فرنك ، ولكنك ستكون سعيدا كملك
صغير . سأعقد لك بنفسى ربطات عنقك ، وسأقدمك الى هورتنس .
حتى اذا بددنا كل ما معنا من مال ، عدت أنت الى هنا فدمرت الخزانة
من جديد . ماذا قال لك اليهوديان ؟ الجرأة والتهور هما الأصل ،
وأنت امرؤ جرىء متهور ، وستأينى الى باريس مرارا تحبل الى مالا .
أما أنا فأريد دخلا مقداره خمسون ألف فرنك ، وعندئذ ..

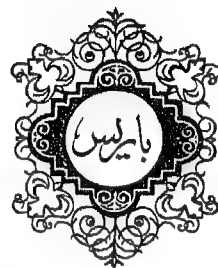
سألتهما مقاطعا :

— والجنرال ؟

— الجنرال ؟ أنت تعلم أنه يذهب فى مثل هذه الساعة من كل صباح
يشتري لى باقة من الأزهار . وقد طلبت منه فى هذه المرة ، عامدة ، أن
يجيئنى بأزهار ينذر العثور عليها . فمتى عاد ، المسكين ، يكون الطير
قد طار . ولسوف يجرى وراءنا . سترى . ها ها ها .. سيسرنى هذا
كثيرا . سينفعنى كثيرا هنالك . وسيدفع مستر آستلى عنه هنا ..

هكذا سافرت الى باريس .

الفصل السادس عشر



ماذا أقول عن باريس ؟

كان ذلك كله هذيانا وشذوذا ، ما فى ذلك ريب . لم أمكث فى باريس الا ثلاثة أسابيع ، وفى نهاية هذه الأسابيع الثلاثة ، كنت محملا بمائة ألف فرنك . أقول مائة ألف فرنك فقط . أما المائة ألف الأخرى فقد أعطيتها مدموازيل بلانش عدا ونقدا : خمسين ألفا فى فرنكفورت ، وخمسين ألفا فى باريس ، بعد ثلاثة أيام ، سندات لأمرها ما لبثت أن أبدلتها بعد أسبوع .

— والمائة ألف الباقية لنا ، ستأكلها معى يا عزيزى « المربى » .
(كذلك كانت تسميني دائما « المربى ») .

يصعب على المرء أن يتخيل وجود انسان يبلغ من الشك والحذر ، ويبلغ من البخل والشح ، ما يبلغه هذا النوع من البشر الذى تنتمى اليه مدموازيل بلانش فيما يتصل بالمال الذى لهم . أما المائة ألف فرنك التى بقيت لى فقد صرحت لى بعد ذلك ، بكل بساطة ، أنها فى حاجة اليها لتستقر بباريز . وأضافت تقول :

— هأنذا وقفت أخيرا على قدمي في موضع لائق ، ولن ينزلى أحد من هذا الموضع ، الى أمد طويل . لقد اتخذت الاجراءات الضرورية ، على الأقل .

ثم اننى لم أكد أرى بعيني لون تلك الآلاف المائة من الفرنكات : فلقد كانت مدموازيل بلائش هى التى تتولى الاتفاق ، ولم تضم محفظة نقودها التى كانت تنفقها كل يوم ، لم تضم أكثر من مائة فرنك في لحظة من اللحظات ، بل لم تضم الا أقل من ذلك في أكثر الأحيان .

كانت تقول لى أحيانا وقد ظهرت في وجهها سلامة النية وحسن الطوية :

— ما حاجتك أنت الى المال ؟

فكنت لا أجادلها ولا أناقشها .

وفي مقابل ذلك ، أعدت بهذا المال ، منزلا جميلا جدا ، فلما أخذتنى الى منزلها الجديد ، قالت لى وهى تطوف بى فى أرجائه :

— انظر ماذا يستطيع التوفير والذوق أن يعملأ بأيسر الأثمان ، وأضعف الموارد .

ومع ذلك فان هذه الأثمان قد كلفت خمسين ألف فرنك . أما الخمسون ألف فرنك الأخرى فقد اشترت بها عربة وخيلا . ثم أقامت حفلتين راقصتين ، أعنى سهرتين ، حضرتهما « هورتس » و « ليزيت » و « كليوباتره » ، وهن نساء متميزات من عدة وجوه ، وهن فوق ذلك بغايا طيبات . وقد اضطررت أثناء هاتين السهرتين أن أمثل دور رب

المنزل ، فاستقبل وأحدث زوجات تجار حدبني العهد بالغنى ، نساء على جانب عظيم من قلة العقل وضحالة الفكر ، كما أستقبل وأحدث ضباطا صغارا لا يطاقون ولا يحتملون من شدة جهلهم وغلظتهم وفظاظتهم ، وأناسا من أدياء الكتابة المخربشين ، وصحفيين تافهين يجيئون مرتدبن أحدث زى ، مدلين بأنفسهم مزهوين ، على غرور و صلف و غطرسة لا نستطيع تصورها نحن في بطرسبرج ، وليس هذا بالقليل .. حتى لقد بدا لهم أن يسخروا منى وأن يستهزئوا بى ، ولكننى كنت أفبل على الشمبانيا فما أزال أشرب الى أن أسكر ، فأمضى أناام فى الغرفة المجاورة .

وكانت مدموازيل بلانش تقول :

— انه « مرب » . وقد ربح مائتى ألف فرنك ، فلولاى ما عرف كيف ينفقها . وسيعود بعد ذلك الى مهنته . ألم يسمع أحد منكم عن وظيفة يعين لها ؟ ان علينا أن نعمل شيئا من أجله .

وكنت ألجأ الى الشمبانيا فى أغلب الأحيان ، لأننى حزين دائما ، ضجر ضجرا رهيبا . كنت أعيش فى بيئة هى أكثر البيئات بورجوازية وتجارية ، بيئة يحسب فيها كل قرش ويعد . وقد ظلت بلانش لا تطيقنى خلال الأيام الخمسة عشر الأولى : لاحظت ذلك . صحيح أنها كانت تعنى بأناقة هندامى ، وكانت تتولى بنفسها عقد ربطة عنقى كل يوم ، ولكنها كانت فى حقيقة الأمر تحتقرنى احتقارا وديا . ولم أكن أولى ذلك أى انتباه . وبدأت أخرج من المنزل من فرط ما كنت أشعر به من حزن وكآبة ؛ فكنيت فى أكثر الأحيان أمضى الى « قصر الأزهار » ؛ فأظلل أسكر كل مساء بغير انقطاع ، وأتعلم رقصة الكانكان (التى

يرقصونها هنالك على نحو خال من أى احتشام على الإطلاق) ، حتى
لقد صرت مشهورا بهذا النوع من الرقص . وفهمت بلانش أخيرا طبيعة
هذا الرجل الذى تعامله : كانت قد تخيلت أول الأمر أننى ، طول مدة
العلاقة التى بيننا ، سأتبعها ممسكا بقلم وورقة ، أحصى ما تنفقه ،
وأعد ما تسرقه ، وما قد تنفقه وما قد تسرقه أيضا ، وكانت مقتنعة
بأن عليها أن تنتزع منى بصراع مرير كل قطعة من قطع النقود ذات
العشرة فرنكات . فكانت تعد جوابا حاضرا لكل هجوم تقترض أننى
قد أتناولها به ، فلما لاحظت أننى لا أبادر الى الهجوم ، أرادت أن
تسببنى اليه لتمنعنى منه . فكانت تشرع فى ذلك أحيانا ، فتطلق لسانها
العنان ، ولكنها وقد رأت أننى أصمت لا أنبس بكلمة ، بل أظل
مستلقيا على الكرسي الطويل محدقا الى السقف ، أخذت تستغرب
وتدهش ؛ فاعتقدت أول الأمر أننى امرؤ مغفل لا أكثر من ذلك
ولا أقل ، أننى « مرب » وكفى ، فتكف عن الكلام قائلة لنفسها من غير
شك « انسان مغفل » ، فلا فائدة من استشارته ان لم يفهم من تلقاء
نفسه . وكانت فى بعض الأحيان تخرج من المنزل ثم تعود بعد عشر
دقائق (كان هذا يحدث حين تنفق مبالغ ضخمة جنونية ، مبالغ
لا تسمح لنا وسائلنا بانفاقها ؛ مثلما فعلت يوم أبدلت فرسيها بفرسين
آخرين دفعت ثمنهما ستة عشر ألف فرنك) .

قالت لى يومئذ وهى تدنو منى :

— أألس غاضبا يا عزيزى ؟

فقلت وأنا أبعدها عنى بيدي :

— لا .. وانما أنت ت .. ض .. جرينى !

ولكن هذا الجواب بدا لها غريبا كل الغرابة فجلست الى جانبى وقالت :

— اسمع . لقد قررت أن أدفع ثمن الفرسين باهظا الى هذا الحد ، لأنها فرصة .. فان فى وسعى أن أعود فأبيعهما بعشرين ألف فرنك .

— أصدقك ، أصدقك ، فهما فرسان جميلتان ، وقد أصبح لك الآن مركبة فخمة رائعة ، وهذا سيعود عليك بفائدة ، فلا تتكلمن فى هذا الموضوع بعد الآن .

— اذن لست غاضبا ؟

— ولماذا أغضب ؟ لقد كنت على حق اذ اشتريت ما لا بد من شرائه . فهذا كله سيعود عليك بنفع فى المستقبل . اننى لأدرك أنك فى حاجة حقا الى أن تقفى على قدم راسخة وطيدة ، والا لم تحصلى على المليون . ان المائة ألف فرنك التى نملكها ليست هنا الا بداية ، ليست الا قطرة من بحر محيط .

قلت ذلك فاذا ببلائش التى كانت تتوقع كل شىء ، وتنتظر صياحا ولوما وعتابا لا أفكارا من هذا النوع ، اذا بها تبدو كمن يهبط من السحاب . قالت :

— اذن أنت كذلك ؟ ان لك فكرا يفهم والحالة هذه ! هل تعلم يا بنى ؟ انك على كونك « مرييا » قد خلقت أميرا ولا شك . أأنت اذن غير آسف على أن مالنا يهرب بهذه السرعة ؟

— لا .. لست آسفا .. فليذهب المال الى الشيطان .. ليهرب
بأقصى سرعة !

— ولكن .. هل تعلم .. ولكن قل لى : أيمكن أن تصبح غنيا ؟
ولكن .. ولكنك تحنقر المال وتسرف في احتقاره . ما عساك فاعلا
بعد ؟ قل لى ..

— أذهب الى هومبورج* ، فأربح هنالك مائة ألف فرنك أخرى .
— نعم نعم .. هذا ما يجب أن تفعله ! رائع ! وأنا واثقة من أنك
ستربح ؛ وستجئنى بالمال الى هنا . قل لى : لسوف تبلغ من حسن
التصرف على هذا النحو ، أنتى سأحبك آخر الأمر . سأحبك طول
هذا الوقت ، ولن أخونك مرة واحدة . هل ترى ؟ لقد كنت فى هذه
الآونة الأخيرة لا أحبك ، لأنتى كنت أعتقد أنك « مرب » وكفى
(أى خادم تقريبا ، أليس كذلك ؟) . ومع ذلك أخلصت لك ولم
أخنك ، لأنتى فتاة طيبة الخلق .

— دعيك من هذا الكلام ! ألم تخونينى مع أليبر ، الضابط الصغير
الأسمر ؟ أنتظنين أنتى لم ألاحظ فى المرة الأخيرة ؟
— أوه .. أوه .. ولكنك ..

— أنت تكذبين ، أنت تكذبين ، ولكن لا تتخيلى أن هذا يفضبنى .
انك لن تطرديه على كل حال ، فانه أقدم منى ، وأنت تحبينه ؛ ولكن
اياك أن تعطيه مالا ، هل تسمعين ؟

— أنت اذن غير غاضب حتى من هذا ؟ ألا انك لفيلسوف حقا ،
هل تعلم ؟ فيلسوف حقا ..

كذلك صاحبت تقول متحمسة ، ثم أضافت :

— لسوف أحبك ، لسوف أحبك . سترى . ستكون راضيا !

ومنذ ذلك اليوم تعلقت بى بعض التعلق فعلا ، بل أظهرت لى شيئا من الصداقة . فكذلك انقضت أيامنا العشرة الأخيرة . ولئن لم أر النجوم التى وعدتنى بها ، فلقد برت بوعدها من بعض الوجوه . ثم انها عرفتني بهورتنس ، وهى امرأة فذة فى نوعها ، كانوا يطلقون عليها فى حلقتنا اسم تيريز الفيلسوفة * .

على أنه لا مجال للفاضة فى هذا الآن ؛ فهو يصلح أن يكون موضوع قصة على حدة ، قصة ذات لون خاص لا أريد أن أصبغ به روايتي هذه . والحق أتنى كنت أتنى بكل ما أوتيت من قوة أن ينتهى هذا كله بأقصى سرعة . ولكن المائة ألف فرنك التى كنا نملكها قد دامت قرابة شهر ، فأدهشنى ذلك حقا . ان بلانش قد اشترت أشياء مختلفة بثمانين ألف فرنك على الأقل ؛ فلم تنفق اذن الا عشرين ألف فرنك .. وكان هذا كافيا . وقد اعترفت لى بلانش ، التى أصبحت صريحة معى فى آخر الأمر (أو قل على الأقل انها أصبحت لا تكذب على فى كل شيء) اعترفت لى بأننى لست مسئولا ، على كل حال ، عن الديون التى اضطرت اليها . قالت لى :

— هناك فواتير وسندات لم أحملك على مهرها بتوقيعك ، لأننى أشققت عليك . ان امرأة غيرى كانت ستفعل ذلك حتما ، فترسلك الى السجن . فهأت ذا ترى كم أحبيتك وكم كنت طيبة القلب ! ان هذا الزواج التيس وحده سيكلفنى مبالغ طائلة جنونية .

ذلك أن هناك زواجا قد تم فعلا ؛ وذلك في آخر الشهر الذي قضيناه معا ، ويجب أن نفترض أن الفتاتان الأخيرة من المائة ألف فرنك قد أنفقت فيه ؛ وبهذا الزواج انتهت القصة ، أعنى انتهى الشهر الذي عشنا فيه حياة مشتركة . وبعد ذلك « أحلت الى المعاش » رسميا .

واليك كيف حدثت الأمور : بعد اقامتنا بباريس ثمانية أيام وصل الجنرال فجاء الى بلانش رأسا ، وكاد يبقى معنا منذ أول زيارة ..

الحق أنه كان له شقة صغيرة في مكان ما . وقد استقبلته بلانش فرحة ، وتلقته بصيحات دهشة وقهقهات ضحك ، حتى لقد ارتمت على عنقه ؛ ودارت الأمور على نحو نستطيع أن نقول معه انها هي التي تثبتت به . كان عليه أن يصحبها الى كل مكان : فصحبها متجولة في الشوارع الكبرى ، وصحبها في نزحاتها ، وصحبها الى المسرح ، وصحبها في زياراتها لأصدقائها . ان الجنرال ما يزال في مستوى هذه المهمة . انه رجل مهيب المظهر ، رفيع المنزلة ، فارع القامة ، زاهى الشاربين واللحية (كان الجنرال قد خدم في سلاح الفرسان) ، وسيم المحيا ، وان يكن وجهه قد ذبل بعض الذبول ؛ وهو يحسن التصرف ، ويجيد الآداب الاجتماعية اجادة فذة ، ويعرف كيف يرتدى الملابس الرسمية في يسر وسهولة . وقد أخرج في باريس ما كان يملكه من أوسمة ونياشين . حتى ليتمكن القول ان التنزه في الشوارع الكبرى في صحبة رجل مثله ليس ممكنا فحسب ، بل هو مستحسن مرغوب فيه أيضا .

كان الجنرال الشهم الغبى مفتتنا منتشيا بالغا أوج السعادة . فانه

لم يكن يتوقع هذا كله حين جاء الى بيتنا عند وصوله باريس . كان يرتجف من الخوف ، ظانا أن بلانش سوف تستقبله بصراخ وزعيق ، وسوف تأمر بطرده على الفور ؛ فاذا الأحداث تجرى مجرى آخر ، فسحره ذلك ، وقضى الشهر كله وهو في حالة من النشوة والوجد لا توصف . وقد كان على هذه الحال نفسها حين تركته . وهنا انما عرفت أنه بعد سفرنا المبالغت من رولتبرج ، قد وافته في صباح ذلك اليوم نفسه نوبة مخيفة ، فقد أغمى اليه ، وظل أسبوعا بكامله شبه مجنون ، يقول كلاما لا يربطه رابط ، كلاما لا معنى له ولا انسجام فيه . وقد أخذوا يعالجونه ، ولكنه لم يلبث أن ترك كل شيء هنالك ، فركب القطار موليا وجهه شطر باريس . ومن نافل القول أن نذكر أن لقيا بلانش كانت له خير علاج . ولكن أعراض مرضه لبثت تلازمه زمنا طويلا ، رغم كل ما شعر به من غبطة ورضى وابتهاج . أصبح منذ ذلك الحين عاجزا عن التفكير ، بل حتى عن متابعة حديث يتصف بشيء من الجد ، فهو في مثل هذه الحالة لا يزيد على أن يتبع كل كلمة بقوله « هيم » ، أو يهز رأسه موافقا . فبذلك كان يدبر الأمر ويحل المشكلة . وكان يضحك في كثير من الأحيان ، ولكن ضحكه مضطرب عصبي مريض . وكان في بعض الأحيان يبقى ساعات برمتها قاتما مظلما كالليل ، عابسا مقطباً حاجبيه الكثيفين . هناك أمور كثيرة كان قد نسيها نسيانا تاما ، وأصبح شديد الذهول وتعود أن يكلم نفسه وحيدا . كانت بلانش تستطيع أن تردده الى الحياة . وما كانت نوبات الحزن والكتابة التي توافيه حين ينطو في ركن من الأركان الا دليلا على أنه لم ير بلانش منذ زمن طويل ، أو على أن بلانش قد خرجت دون أن تصطحبه ،

أو أنها نسيّت أن تلاحظه قبل أن تخرج . فلو سألته في مثل هذه الأحوال ما الذى يريده ، لما استطاع أن يجيبك بشيء ، فلقد كان يجهل هو نفسه أنه مكتئب المزاج حزين النفس . حتى اذا ظل ساكنا على هذه الحال ساعة أو ساعتين (لاحظت ذلك مرارا حين تكون بلانش قد غابت عن المنزل طول النهار ، ساعة الى ألبير في أغلب الظن) ، أخذ ينظر حواليه على حين فجأة ، وأخذ يتلملح ويتحرك ويضطرب ، ينظر تارة الى هذه الجهة وتارة الى تلك ، كأنه يريد أن يتذكر شيئا أو أن يرى أحدا . ولكنه ، اذا لا يرى أحدا ولا يتذكر ما كان يريد أن يتذكره ، يرتد الى خدره ، ويظل على هذه الحال من الخدر الى أن تعود بلانش فرحة مريحة في أبهى حلة وأجمل زينة ، ضاحكة مقهقهة ، فتخف اليه تصفعه بل وتقبله ، وتلك نعمة قلما كانت تجود بها عليه . وفي ذات مرة بلغ الجنرال من شدة الشعور بالسعادة والفرح أن أغرورقت عيناه دموعا . فأدهشنى ذلك .

ومنذ وصول الجنرال أخذت بلانش تدافع عن نفسها أمامى حتى لقد استرسلت في كلام كثير وخطب طويلة ، فذكرتنى بأنها انما خدعته بسببى ، وأنها كانت خطيئته تقريبا ، وأنها قطعت له على نفسها عهد الشرف ، وأنه في سبيلها انما ترك أسرته ، وأنتى في خدمته ، فعلى أن أفهم .. اذا كنت على شيء من ضمير . فكنت لا أجيها بكلمة واحدة أثناء تدفقها في الكلام . ولكننى انفجرت ضاحكا مقهقهة في النهاية ، ووقفت الأمور عند هذا الحد ، ومعنى ذلك كله أنها كانت تعدنى في أول الأمر امرأة أبله ، ثم استقر في ذهنها ورسخ في عقلها أنتى فتى شهيم أوتيت طبعا رضىا وخلقا رفيعا . والخلاصة أنتى قد سعدت في

النهاية بأن أستحق رضى هذه الفتاة المحترمة (حقا لقد كانت بلانش فتاة ممتازة .. فى نوعها طبعاً ! ولم أكن قد وفيتها حقها من التقدير فى أول الأمر !) .

قالت لى قبيل النهاية :

— أنت امرؤ ذكى طيب .. وانها لخسارة حقا أن تكون بهيمة الى هذه الدرجة ! لن تجنى شيئاً ما حييت ، لا لن تجنى شيئاً ! ألا انك لروسى حقا !

وقد أوفدتنى مرارا أنزه الجنرال ، كما كان يمكن أن توفد خادما ينزه كلبها فى الهواء الطلق . فأخذته الى المسرح ، ومضيت به الى « مرقص ماييل » ، وقصدت معه عددا من المطاعم . وكانت بلانش تنقدنى بعض المال لأنفق منه فى هذه النزوات ، رغم أن الجنرال كان معه مال ، ورغم أنه كان يجب أن يخرج محفظة نقوده من جيبه على مرأى من الناس . ولقد كدت ألجأ الى القوة فى ذات مرة لأصده عن شراء حلية سعرها سبعمائة فرنك كانت بلانش قد أظهرت إعجابها بها فى شارع بورويال ، فكان الجنرال مصرا أشد الإصرار على شرائها من أجل أن يهديها الى بلانش . ما قيمة حلية سعرها سبعمائة فرنك فى نظر بلانش ؟ ولقد كان كل ما يملكه الجنرال ألف فرنك ، لم أستطع أن أعرف يوما من أين جاء بها ، وأغلب الظن عندى أنه أخذها من مستر آستلى ، لا سيما وأن مستر آستلى قد دفع عنهم نفقات الفندق .

أما عن اهتمام الجنرال بى طول هذه المدة ، والتفاتة الىّ ، فأغلب الظن أنه لم يخطر بباله أن يكون بينى وبين بلانش ما كان بينى وبينها

فعلا من علاقات . كان قد سمع أنتى ربحت فى القمار ثروة ، ولكنه كان يفترض أنتى كنت عند بلانش بمثابة سكرتير خاص ، بل ربما بمثابة خادم أيضا . وقد استمر يخاطبني من عل على كل حال ، ويكلمني بلهجة الأمر ، حتى لقد كان يأذن لنفسه بأن يوبخني أحيانا . وفى ذات صباح ، بينما كنا نحتسى القهوة سلك سلوكا أضحكنا كثيرا أنا وبلانش . انه لم يكن سريع التأذى فى العادة . ولكن لا أدري لم ساءه وجودى فجأة فى ذلك الصباح ، (وما زلت أجهل هذا الى الآن ، ومن المحقق أنه كان هو نفسه لا يدري ذلك) ، فاذا هو يشرع فى خطاب لا ذيل له ولا رأس ، لا أول له ولا آخر ، خطاب يخطب خبط عشواء ؛ قال انتى صبى غر ، وانه سيعلمنى كيف أعيش ، وكيف أفهم .. الخ الخ .. ولكن ما من أحد استطاع أن يفهم عنه شيئا . وكانت بلانش تكاد يغشى عليها من شدة الضحك . واستطعنا أخيرا أن نهديء روعه على نحو من الأنحاء ، وصحبناه فى جولة قمنا بها معا . لاحظت عدة مرات أن نوبات من الحزن كانت تعتريه من حين الى حين ، فهو يأسف على شيء ما ، أو على أحد ما ، هو يشعر أن أحدا ما يعوزه ، رغم وجود بلانش . وقد كنت نجيا له مرتين أو ثلاثا ، فأراد أن يفضى الىّ بمكنون نفسه ، ولكننى لم أستطع أن أستخرج من كلامه أى شيء واضح : كان يتكلم عن خدمته العسكرية ، وعن المرحومة زوجه ، وعن أراضيه ، وعن ثروته . فاذا وقع على كلمة تحلو له ، أخذ يرددها مائة مرة فى اليوم الواحد ، رغم أنها لا تفصح لا عن عواطفه ولا عن خواطره . وحاولت أن أدير الحديث على الأولاد ، ولكنه أخذ يتدفق فى الكلام كما كان يفعل آنفا ، وينتقل الى موضوع آخر .

مرة واحدة رق قلبه وظهر حنانه فيما كنا ذاهبين الى المسرح ،
فقال :

— نعم ، نعم ، الأولاد .. أنت على حق .. الأولاد ..
ثم انطلق فجأة يضيف :

— انهم أولاد تعساء ، نعم نعم يا عزيزي ، انهم أولاد تعساء .
وردد هذه العبارة مرارا في تلك السهرة : « انهم أولاد تعساء » .
ولما أردت أن أكلمه في أمر ياولين ثار حنقه وصاح يقول :
— انها بنت عقوق ! بنت شريرة وعقوق ! لقد لطخت شرف الأسرة !
ولو كان هنالك قوانين اذن لروضتها وأدبتها . نعم نعم ! ..
أما دى جريو فقد كان الجنرال لا يطيق أن يذكر له اسمه ؛
فكان يقول :

— لقد دمرني .. جردني من كل شيء .. ذبحني ذبحا .. كان
كابوسى الرهيب سنتين كاملتين ، كان يجثم على صدرى فى أحلامى
أشهرًا برمتها .. انه .. انه .. دعنا منه ! .. ولا تكلمنى عنه بعد
الآن قط !

ولاحظت أن ثمة اتفاقا كان يتم بينهما ، ولكننى صمت على عادتى
لا أقول شيئا . ثم أطلعتنى بلانش على ما تم اتفاقهما عليه ، وكان ذلك
قبل رحيلى بثمانية أيام على وجه التحديد . قالت تفضى الى بسرها :

— ان للجنرال أملا فى ميراث الجدة ، فهى الآن مريضة حقا تنتظر
منيتها من لحظة الى أخرى . لقد أرسل الينا مستر آستلى بريقة بهذا

المعنى . والجنرال هو وريثها طبعاً . وهبه لم يرثها ، فانه لن يرثها
 فى شىء . فهو أولاً يملك معاشه التقاعدى ، وهو ثانياً سيقوم فى الحجرة
 التى تقع فى آخر المنزل سعيداً بذلك كل السعادة ؛ وسيكون اسمه
 أنا « مدام الجنرال » ، فأدخل المجتمع الراقى (كان ذلك حلم بلانش) ،
 وسأصبح عدا ذلك من الروس أصحاب الأطنان ، لى قصر ، لى
 فلاحون (موجيك) ، ثم يكون لى مليونى الذى أريده !
 قلت :

— فماذا عسالك تفعلين اذا أصبح غيوراً ، فأصبح يقتضيك ..
 الله أعلم ماذا ؟ هل تفهمين ما أعنى ؟

— أوه .. لا .. لا .. هذا لن يكون .. انه لن يجرو ! وقد اتخذت
 احتياطاتى ، فلا تقلق من هذه الناحية ! لقد حملته على أن يمهر بتوقيعه
 عدة سندات باسم ألبير .. فما ان يخطر له أى خاطر من هذا القيل ..
 حتى يعاقب فوراً .. لا .. لا .. لن يجرو !
 — اذن تزوجيه .

وتمّ الزواج فعلاً بلا أبهة خاصة ، تمّ بسيطاً فى جو عائلى ، لم يدع
 الى الاحتفال به الا ألبير وعدد من الأصدقاء الحميمين . واستبعدت
 هورتنس وكليوباتره والآخرين استبعاداً مقصوداً حاسماً . واتخذ
 الخطيب وضع الجد . وتولت بلانش عقد ربطة عنقه بنفسها ، ودهنته
 بالعطر ، وظهر بردائه الرسمى وصدرته البيضاء رجلاً لائقاً مهيباً .

قالت لى بلانش وهى تخرج من غرفة الجنرال ، وكأن هذه الفكرة
 قد فاجأتها :

— انه لائق جدا مع ذلك .

واذ أتى لم أدخل في التفاصيل ولم أشارك في هذا كله الا مشاهداً غير مكترث ولا مبال ، فقد نسيت الآن شطرا كبيرا مما حدث حينذاك . ولكننى أتذكر أنه قد اكتشف أن بلانش لم يكن اسمها دوكونج (لا ولا كان اسم أمها مدام أرملة دوكونج) ، بل كان اسمها دوپلاسيه . أما لماذا اختارتا كلتاهما هذا الاسم حتى ذلك اليوم .. فهذا أمر أجهله . غير أن الجنرال قد سحره ذلك سحرا ، حتى أن اسم دوپلاسيه رافه أكثر مما رافه اسم دوكونج . وفي صبيحة يوم الزواج كان قد ارتدى ملابسه كاملة ، وأخذ يذرع الصالون جيئة وذهابا ويردد بغير توقف قائلا وقد لاح في وجهه الجد كل الجد : « مدموازيل بلانش دوپلاسيه ! مدموزيلا بلانكا ديو پلاسيئا ! .. » ، كان يردد ذلك وقد التمتعت في محياة معانى الرضا والاكتفاء والارتياح . أما فى الكنيسة ، وفى مقر المحافظة ، وفى البيت أثناء تناول طعام العشاء ، فلم يكن وجهه يفصح عن السعادة فحسب ، بل كان يعبر عن العجب والزهو أيضا . ولقد حصل لهما كليهما شيء ما ، فان مدموازيل بلانش قد أصبحت تصطنع هيئة الوقار والرصانة .

قالت لى وقد لاحت فى وجهها كل معانى الجد :

— يجب أن أتصرف بعد اليوم تصرفا آخر .. ولكن هل ترى ؟ هنالك أمر مزعج جدا لم يخطر لى على بال . تصور أننى لا أتوصل الى تذكر اسمى العائلى ! زاجوريانسكى ، زاجوريانسكى ، مدام الجنرال دى ساجو .. ساجو .. تبا لهذه الأسماء الروسية ! على كل حال .. سيكون اسمى مدام الجنرال .. أربعة عشر حرفا ! شيء لذيذ ، أليس كذلك ؟

وافترقنا أخيرا ، فاذا ببلانش ، هذه الحمقاء بلانش ، تذرف بعض الدموع حين تودعنى . قالت لى متباكية :

— لقد كنت ولدا طيبا .. ظننتك بهيمة ، وكان يبدو عليك ذلك ، على أن هذا يناسبك .

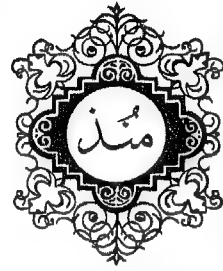
وبعد أن صافحتنى مرة أخيرة ، صاحت فجأة تقول : « انتظر ! » وأسرعت الى مخدعها ثم عادت بعد لحظة تحمل ورقتين ماليتين من ذات الألف فرنك . ما كان لى أن أظن أنها ستفعل ذلك !

قالت :

— خذ هذا ، فسيفيدك . قد تكون مثقفا جدا من حيث أنت « مرب » ، ولكنك بليد من حيث أنت رجل . ولن أعطيك أكثر من هذا ، لأنك ستخسر كل شيء ، كيف دار الحال . هيا ! وداعا ! سنظل دائما صديقين . فاذا ربحت مرة أخرى ، فلا يفوتك أن تأتى الىّ ، وستكون سعيدا !

كان لا يزال معى خمسمائة فرنك . ثم اننى أملك ساعة جميلة يساوى ثمنها ألف فرنك ، وأملك أزرار أكمام من الماس . فأستطيع اذن أن أعيش بهذا زمنا طويلا دون هموم . لقد أقمت فى هذه المدينة الصغيرة المضجرة ، لأستجمع أفكارى ؛ وأنا أتنظر مستر آستلى خاصة . فلقد سمعت من مصدر يوثق به أنه لا بد أن يمر بهذه المدينة ، وأن يمكث فيها أربعا وعشرين ساعة لقضاء بعض الأعمال . لسوف أعلم اذن كل شيء .. وبعده .. بعدئذ .. أذهب رأسا الى هومبورج . ولن أعود الى رولتنبرج ، قبل السنة القادمة على الأقل . يقال انه ليس من الخير أن يجرب المرء حظه مرتين على مائدة قمار واحدة . ثم ان اللعب قائم فى هومبورج أيضا .

الفصل السابع عشر



عشرين شهرا لم أنظر في هذه المذكرات ؛ ولم يخطر ببالي أن أعيد قراءتها الا في هذا اليوم ، عسى أن تسينى قلقي وتخفف من حزني وشجني . لقد وصلت من حديثي السابق الى اليوم الذي قصدت فيه هومبورج . رباه ! ما كان أشد طيشي وأخف عقلي حين كتبت تلك الأسطر الأخيرة ؛ فان لم يكن الأمر أمر طيش شديد وعقل خفيف ، فلا أقل من أن يوصف بأنه ثقة بالنفس ، وأمل لا يتزعزع ! هل كنت أشك في نفسي أى شك ؟ وها قد انفضى على ذلك الآن ثمانية عشر شهرا ، فاذا أنا أعيش في وضع خير منه وضع أى شحاذ متسول في رأيي ! بل أين أنا من أى شحاذ متسول ؟ أنا امرؤ ضاع وكفى ! ان وضعي لا يمكن أن يشبه بأى وضع البتة . ولن أتحدث الآن حديث الواعظ الناصح ، فلا شيء أسخف من النصيح والوعظ في لحظة كاللحظة التي أعيشها الآن ! آه من أولئك الراضين عن أنفسهم ! آه من ذلك الزهو المغرور الذي يصاحب كلام أولئك الثرثارين حين يأخذون يطلقون نصائحهم ومواعظهم وعباراتهم المأثورة !

لو علموا مدى شعورى بما تتصف به حالتى الراهنة من ترد وسوء ،
 لأصبحوا عاجزين عن العثور على كلمات يستعملونها فى اسداء النصح
 وازجاء الموعدة والقاء الدرس . وهل فى وسعهم أن يقولوا لى أى
 شىء جديد لا أعرفه من قبل ؟ نعم ، ان الأمر لكذلك . والشىء المحقق
 الذى لا ريب فيه .. هو أن دوران العجلة دورة واحدة يمكن أن يبدل
 كل شىء ، فاذا بهؤلاء الواعظين أنفسهم يأتون الى أول الآتين (أنا
 متأكد من ذلك) ليهنئونى بممازحين كما يمازح الصديق صديقه ؛
 واذا هم لا يتحولون عنى مشيحين كما يفعلون الآن . ولكنى أبصق
 فى وجوه هؤلاء الناس ! ما أنا الآن ؟ صفر ! ماذا أستطيع أن أكون
 غدا ؟ أستطيع أن أحيى موتى فأستأنف الحياة . أستطيع أن أكتشف
 فى نفسى الانسان قبل أن يضيع .

سافرت فعلا الى هومبورج . ولكنى .. ذهبت بعد ذلك الى
 رولتنبرج ، والى سبا ، والى بادن أيضا ، أرافق مرافقة الخادم سيده ،
 المستشار هنزى ، الوغد الذى صار هنا سيدى ومولاى . نعم ، لقد
 لبثت خادما خلال خمسة أشهر . وقد حدث ذلك بعد خروجى من
 السجن توا (ذلك أننى أودعت السجن بسبب ديون لم أردھا ، ثم
 سددها عنى شخص مجهول ، لا أدرى أهو مستر آستلى ، أم هو
 پاولين ، أم هو انسان آخر ؛ ولكن الديون قد سددت ، وكان مجموعها
 مائتى تالير ، فأفرج عنى وأطلق سراحى) . الى أين كان يمكننى أن
 أذهب ؟ وفى ذلك الوقت انما دخلت فى خدمة ذلك الرجل الذى اسمه
 هنزى . هو شاب طائش مولع بالكسل ، وأنا أجيد الكلام والكتابة
 بثلاث لغات ؛ فاتخذنى فى أول الأمر سكرنيرا أو ما يشبه السكرتير ،

بأجر شهري مقداره ثلاثون فلورين ؛ ولكننى أصبحت آخر الأمر خادمه حقا : ذلك أن مواردہ قد قلت ، فأصبح لا يستطيع أن يكون له سكرتير ، فأنتقص أجرى ، وكنت لا أعرف مكانا أقصد اليه ، فبقيت عنده ، وبذلك أحلت نفسى بنفسى الى خادم . وكنت لا أنال فى خدمته حظا كافيا من الطعام والشراب ، ولكننى استطعت أن أدخر سبعين فلورين فى مدى خمسة أشهر . وفى ذات مساء ، وكنا أيامئذ فى بادن ، أعلنت له أنتى أريد أن أتركه ، وذهبت فى ذلك المساء نفسه الى الروليت ! لشد ما كان قلبى يخفق ! وما كان المال هو ما أحرص عليه ! لا .. وانما كنت أريد أن أرى جميع هؤلاء الذين يسمون هنزى ، وجميع مديرى الخدمة فى الفندق ، وجميع هاتيك السيدات الحسنات فى بادن ، كنت أريد أن أرى جميع هؤلاء ، منذ الغداة ، يتحدثون عنى ويروون قصتى ، ويعجبون بى ، ويزحفون الى المديح والاطراء ، وينحنون أمامى اجلالا لما أصبت من حظ جديد فى اللعب . ولقد كان ذلك كله أحلاما ومشاعل من أحلام الأطفال ومشاعلهم .. ولكن .. من يدري ؟ فلعلنى ألقى أيضا پاولين ، فأقص عليها مغامراتى ، وأبرهن لها على أنتى فوق جميع ضربات الحظ السخيفة تلك ! نعم لم يكن المال هو ما أحرص عليه ! وانى لعلى يقين من أنتى لو قد جنيت ربعا كبيرا لأعطيته مرة أخرى لامرأة ما مثل بلانش ، ولظهرت أعرض نفسى مرة أخرى ثلاثة أسابيع بباريس ، يجر عربتى فرسان ثنهما ستة عشر ألف فرنك . أنا أعرف أنتى لست بالبخیل .. بل انتى لأعتقد أنتى مبذر متلاف . ومع ذلك فما كان أشد انفعالى ، وما كان أشد انقباض صدرى ، حين كنت أسمع القیّم يعلن : واحد وثلاثون ، أحمر ، وتر ،

پاس ؛ أو : أربعة ، أسود ، شفع ، مانك ! وما كان أشد شراحتى ونهمى حين كنت أنظر الى مائدة القمار فأرى الدنانير الذهبية والفردريكات والتاليرات مبعثرة هنا وهناك ، وأرى كدسات الذهب تدرجها مجرفة القيمم أكواما متقلبة الألوان كالجمر ، أو أرى نقود الفضة ملفوفة اسطوانات تحيط بالدائرة من كل جانب . كنت حتى قبل أن أصل الى قاعة اللعب أوشك أن أنهار حين أسمع رنين النقود ذهابا وفضة .

كانت تلك الأمسية التي حملت فيها الى مائدة القمار فلوريناتي السبعين أمسية رائعة . لقد بدأت بعشر فلورينات حططتها على पास . كان قد استقر في وهمى شيء من الايثار للباس . فخسرت . فبقى معى ستون فلورينا ، نقودا من فضة . ففكرت .. ثم وقع اختيارى على الصفر . فحططت خمسة فلورينات دفعة واحدة على الصفر . فاذا بالصفر يظهر في الدورة الثالثة . تصورت أننى سأموت فرحا وأنا أتلقي مائة وخمسة وسبعين فلورينا . لم أشعر بمثل هذه السعادة يوم ربحت مائة ألف فلورين . وما لبثت أن حططت مائة فلورين على الأحمر .. فربحت ؛ ثم حططت مائتين على الأحمر .. فربحت .. ثم حططت أربعمائة على الأسود .. فربحت .. ثم حططت ثمانمائة على पास فربحت أيضا . بلغ ما أملكه ألفا وسبعمائة ألف فلورين .. وقد تم ذلك كله في أقل من خمس دقائق ! ان المرء ينسى في مثل هذه الأحوال جميع الاخفاقات الماضية ! لقد حصلت على ذلك مجازفا بأكثر من حياتى .. لقد تجرأت أن أجازف .. فاذا أنا أجد نفسى في عداد الرجال من جديد !

استأجرت غرفة في فندق ، فحبست نفسى فيها مغلقا بابها بالمفتاح ، ولبت ثلاث ساعات أعد ما آل الىّ من مال . حتى اذا استيقظت ، كنت قد أصبحت رجلا حرا لا خادما ذليلا . وقررت أن أسافر في ذلك اليوم نفسه الى هومبورج . فأننى لم أكن هنالك خادما ، ولا أودعت هنالك سجنا . ولكننى قبل موعد سفر القطار بنصف ساعة ذهبت الى الروليت لأقامر مرتين لا أكثر ، فخسرت ألفا وخمسمائة فلورين . ومع ذلك سافرت الى هومبورج التى انقضى على وجودى فيها شهران حتى الآن .

اننى أعيش الآن هنا فى قلق متصل . فاذا مضيت أقامر لم أقامر الا قليلا فى جلسة واحدة ، فأنا أتنظر مترثيا ، وأجرى حسابات طويلة ، وقد ألبث أياما برمتها قرب مائدة القمار أراقب مراقبة ، وأحلم باللعب حلما .. ومع ذلك فانه يبدو لى أننى قد تبلدت ، وأننى قد غطست فى الوحل . اننى أستنتج هذا من الشعور الذى شعرت به حين التقيت بمستر آستلى . لم تكن قد التقينا قبل ذلك ، ثم التقينا فى هذه المرة مصادفة . واليك كيف وقع ذلك : كنت سائرا فى الحديقة العامة أجرى حساباتى فأرى أننى أصبحت خالى الوفاض تقريبا ، لم يبق معى الا خمسون فلورينا ، بعد أن دفعت أول أمس فاتورة الفندق الذى أشغل فيه غرفة صغيرة . لم يبق فى وسعى اذن أن أقامر على الروليت الا مرة واحدة ، فاذا ربحت ، ولو مبلغا ضئيلا ، استطعت أن أواصل اللعب ، أما اذا خسرت .. فسيكون علىّ أن أعمل خادما من جديد ، الا أن أجد على الفور أسرة روسية تحتاج الى « مرب » .. كانت هذه الفكرة هى التى تشغل بالى ، فمضيت أقوم بنزهتى اليومية فى الحديقة

العامة وفي الغابة التي تقع في ضاحية مجاورة . كنت أظل أمشي على هذه الحال أربع ساعات أحيانا ثم أعود الى هومبورج متعبا جائعا . واني لأدخل في الحديقة ، اذا أنا ألحح مستر آستلي على حين فجأة ، جالسا على أحد المقاعد . انه هو الذي رأي فناداني . فجلست الى جانبه . واذا لاحظت في وجهه الجهد والرصانة ، سارعت أطمئن فرحي وأهديء انفعالي . فلقد سرنى حقا أن أراه .

قال مستر آستلي :

— أنت اذن هنا ؟ لقد توقعت أن ألتقي بك . لا تتعب نفسك في أن تقص علىّ شيئا ، فانتى على علم بكل شيء ، بكل شيء . أعرف كل ما جرى لك خلال هذه الأشهر العشرين .

قلت أجيبه :

— ها .. اذن أنت ترصد أصدقاءك القدامى . ألا ان هذا ليشرفك . فلست بمن ينسى أصحابه . ولكن قل لى : لقد خطر ببالي الآن شيء : ألسنت أنت الذى أخرجتنى من سجن رولتنبورج الذى أودعته بسبب دين مقداره مائتا فلورين ؟ ان شخصا مجهولا قد سدد عني هذا المبلغ . — لا ، لا ، لا ، ما أنا .. ولكننى أعلم أنك سجت بسبب ديون في

رولتنبورج .

— هل تعرف اذن من الذى سدد عني الدين فأطلق سراحى ؟

— لا ، لا أستطيع أن أقول اننى أعرف .

— غريب ! .. اننى لا أعرف أحدا من الروس هنا ، وما كان لأحد منهم أن يسدد عني ديناً على كل حال . وانما هناك ، في بلادنا ،

في روسيا ، يفترى الأرثوذكس اخوتهم على هذا النحو . لذلك قدرت
أن الذى سدد عنى الدين لابد أن يكون انجليزيا عجيبا ما ، فعل ذلك
من قبيل التفرد والشذوذ .

كان مستر آستلى يصغى الى مندهشا بعض الاندهاش ، فلا شك
أنه كان يتوقع أن يرانى حزينا منهارا .

قال وقد لاح في وجهه شيء من العبوس :

— مهما يكن من أمر ، فانه لما يأخذ بلبى أن أراك على عهدى بك
من استقلال فى الفكر ، بل ومن مرح فى المزاج .
فقلت له ضاحكا :

— أى أنك فى قرارة نفسك يحزنك أن لا ترانى منك النفس
مذل الكرامة .

فلم يدرك معنى ما قلته أول الأمر ، لكنه حين فهم أخذ يتسم .
— تعجبني ملاحظتك . اننى أرى فى كلماتك هذه صديقتى القديم،
الشديذ الحماسة ، المتوقد الذكاء ، الساخر الهازىء المستخف فى الوقت
نفسه . الروس وحدهم قادرون على أن يجمعوا فى أنفسهم كل هذه
الأضداد . صحيح أن الانسان يجب أن يرى خير صديق من أصدقائه
مذلا أمامه : فعلى الاذلال انما تقوم الصداقة أكثر الأحيان . تلك
حقيقة قديمة يعرفها جميع الأذكيا من الناس . ولكننى أؤكد لك أننى
حين رأيتك على حالتك هذه متماسكا غير منك ، قد سعدت صادقا
مخلصا . قل لى : أليس فى نيتك أن تترك القمار ؟

— هه .. فليذهب القمار الى جهنم ! .. لسوف أتركه متى ..

— متى استرددت مالك ، أليس كذلك ؟ هذا ما كنت أتوقعه ..
 فلا تكمل .. أنا أعرف .. ولقد أفلت منك هذا الكلام دون تفكير ..
 اذن فقد قلت الحقيقة ، ولكن قل لى : هل تعمل الآن فى شيء ،
 عدا القمار ؟
 — لا ..

فأخذ يمتحنى . كنت لا أعرف شيئاً ، كنت لا أكاد ألقى نظرة
 على الصحف ، لا ولا أمسكت بكتاب طوال ذلك الوقت .
 قال مستر آستلى :

— لقد تبلدت وتخدرت : لم تنصرف عن الحياة فحسب ، لم تدع
 اهتماماتك الشخصية ، واهتمامات المجتمع وواجباتك انسانا ومواطنا
 فحسب ، ولم تهجر أصدقاءك فحسب (ولقد كان لك أصدقاء) ؛ ولم
 تنسح بوجهك عن كل هدف عدا الربح فحسب ، بل تحولت حتى عن
 ذكرياتك .. اننى أنذكر كيف كنت فى فترة جامحة عنيفة من حياتك ،
 ولكننى على يقين من أنك نسيت جميع ما عانيته أثناء تلك الفترة من
 أحسن المشاعر : نسيت أحلامك كلها ، وأصبحت رغباتك اليومية كلها
 لا تمضى الى أبعد من التفكير فى الشفع والوتر والأحمر والأسود ،
 والأرقام الاثنى عشر الوسطى ، الخ الخ . أنا على يقين من ذلك .
 هتفت أقول متبرما بل غاضبا بعض الغضب :

— كفى ، كفى يا مستر آستلى ، أرجوك ، أرجوك أن لا تذكر لى
 الماضى . واعلم أننى لم أنس شيئاً . ولكننى طردت ذلك كله من ذهنى
 الى حين ، حتى ذكرياتى .. بانتظار أن أسترده وضعى كاملا .. وعندئذ،
 عندئذ .. لسوف ترى كيف أحيى موتى !

قال مستر آستلى :

— لسوف تلبث هنا عشر سنين . أراهن على أننى سأذكرك بهذا الكلام ، فوق هذا المقعد نفسه ، اذا بقيت حيا .

قاطعته أقول نافذ الصبر :

— طيب طيب .. كفى ! ومن أجل أن أبرهن لك على أننى لست بمن ينسى ، فهلا أذنت لى أن أسألك أين هى مس پاولين الآن ؟ فلئن لم تكن أنت من سدد عنى ديونى ، فأطلق سراحى من السجن ، فلا بد أن تكون هى من فعل ذلك . لم أسمع شيئا عن أخبارها أبدا .

فقال بلهجة حازمة بل وغاضبة :

— لا .. لا .. لا أظن أنها هى التى دفعت ديونك ! وهى الآن بسويسرا ، ولسوف تسرنى كثيرا اذا أنت لم تلق على أسئلة عن مس پاولين .

قلت وأنا أضحك رغم ارادتى :

— اذن فقد جرحتك أنت أيضا جرحا عميقا بالغا ؟

— ان مس پاولين خير من خير مخلوق يستحق الاحترام على وجه الأرض ، ولكننى أعود فأقول لك انك تسرنى كثيرا اذا كففت عن القاء أسئلة تتعلق بها . أنت لم تعرفها يوما ، وعندى أن تحرك فمك بذكر اسمها اساءة الى حسنى الأخلاقى .

— حقا ؟ ولكنك مخطيء على كل حال . فيم عساي أكلمك ان لم أكلمك عن مس پاولين ؟ هلا فكرت قليلا ؟ ان جميع ذكرياتنا متصلة بها . وما عليك أن تخشى شيئا ، فما بى حاجة قط الى معرفة حكاياتكما

الحميمة ! وانما يعينى ، ان صح التعبير ، أن أعرف ما يحيط بمس
 ياولين الآن من ظروف خارجية . أريد أن أعرف شيئا عن وضعها
 الخارجى لا أكثر من ذلك . وهذا يمكن أن يقال بكلمتين .

— لك ما تريد . ولكن على شرط أن نبقى فى حدود هاتين الكلمتين
 لا تتعداهما . ظلت مس ياولين مريضة زمنا طويلا ، وما تزال مريضة
 الى الآن . سكنت بعض الوقت عند أمى وأختى فى شمال انجلترا .
 ومنذ ستة أشهر ماتت جدتها (تذكر تلك المرأة المجنونة تماما) ، تاركة
 لها ، لها شخصا ، سبعة آلاف دينار . وهى — أى مس ياولين —
 تقوم الآن برحلة مع أسرة أختى التى تزوجت . وقد كفلت وصية
 الجدة أيضا مصير أخيها الصغير وأختها الصغيرة ، فهما يتعلمان الآن
 بلندن . أما الجنرال ، زوج أمها ، فقد مات منذ شهر فى باريس من
 نزيف فى الدماغ . وقد غيبته به مدموازيل بلانش ، ولكنها استطاعت
 أن تسجل على اسمها كل ما ورثته عن الجدة . هذا كل شىء فيما أظن .

— ودى جريو ؟ ألا يقوم برحلة فى سويسرا هو أيضا ؟

— لا .. ان دى جريو لا يقوم برحلة فى سويسرا ، ولا أعرف أين
 هو الآن . على أئنى أنصحك مرة أخيرة أن تجتنب هذا النوع من
 الغمز ، وأن تحاذر هذا النوع من التقريب بين الأمور تقريبا ليس فى
 محله ، والا كان لى معك شأن ! ..

— ماذا ؟ أرغم صداقتنا القديمة ؟

— نعم ..

— أستغفرك ألف مرة يا مستر آستلى ، وأسألك الصفح ! ولكن

اسمح لى أن أقول لك ان الأمر ليس فيه شيء من اساءة ولا هو يضع
أمورا فى غير موضعها . اننى لا أتهم مس ياولين بشيء البتة . وعدا
ذلك .. فان التقارب بين رجل فرنسى وآنسة روسية هو ، على وجه
العسوم ، أمر لا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نوضحه ايضا كما لا أو أن
نفهمه فهما تماما .

— لو لم تقرن اسم دى جريو باسم آخر لطالبتك أن تشرح لى
ما تعنيه بقولك « فرنسى صغير » و « آنسة روسية » ! فما هذا
« التقارب » الذى تعنيه ؟ ولماذا تخصص فتقول : فرنسى وآنسة
روسية ؟

— هل رأيت ؟ ان الأمر يعينيك . ولكنها حكاية طويلة يا مستر
آستلى . ان هناك أشياء كثيرة يجب أن تعرف أولا . ثم انها مسألة
هامة ، تبلغ من الهزل أن الأمر كله يبدو من أول نظرة . الفرنسى يا مستر
آستلى شكل كامل رشيق أنيق . قد لا ترى أنت هذا الرأى من حيث
أنك بريطانى ؛ ولست أرى أنا هذا الرأى من حيث آتى روسى ،
ولو من باب الغيرة على الأقل . ولكن لعل آنسائنا ينظرون نظرة أخرى .
لقد تعد « راسين » متصنعاً ، متكلفاً ، مزوّقا ، حتى لقد تأبى أن تقرأه
حتما . وانى لأعده أنا أيضا متصنعاً متكلفاً مزوّقا بل باعثا على الضحك
منه جديرا بالسخرية به من بعض النواحي . ولكنه فائن يا مستر
آستلى ، وهو شاعر كبير بخاصة ، شئنا أم أبينا . ان الشكل القومى
للفرنسى ، أعنى للباريسى ، قد انصب فى قالب أنيق حين كنا ما نزال
نحن دبة . لقد ورثت الثورة النبالة . فأنت ترى الآن أنه الفرنسين
صاحب حركات رشيقة ، وأوضاع أنيقة ، وتعبيرات جميلة ، بل وأفكار

تلبس شكلا رشيقا كل الرشاقة ، دون أن يكون في ذلك كله شيء من مباديته أو روحه أو قلبه . لقد انتقل اليه هذا كله وراثه . فقد يكونون في ذاتهم أكثر المخلوقات فراغا وسوءا . ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فانه ليس في الدنيا كلها (أقول لك هذا الآن يا مستر آستلى) انسان أكبر ثقة وأكثر انفتاحا من فتاة روسية طيبة ذكية غير مسرفة في التكلف والتصنع . لذلك يستطيع رجل مثل دى جريو ، أيا كان الدور الذى يمثله زورا وبهتانا ، وأيا كان القناع الذى يخفى به وجهه ، أن يغزو قلبها بسهولة لا يصدقها العقل . ذلك أن له شكلا رشيقا أنيقا يا مستر آستلى ، والفتاة تحسب أن شكله هذا هو روحه ، تحسب أن هذا الشكل هو الصورة الطبيعية لروحه وقلبه ، ولا تحسبه لباسا انتقل اليه وراثه . يجب أن أعترف لك يا مستر آستلى ، وهذا سيئوئك ، أن الانجليز في أغلب الأحيان مسرفون في النظام محرومون من الأناقة أو الرشاقة . والروس أناس مفطورون على تمييز الجمال ، مولعون له ، ظامئون اليه . ولكن تمييز جمال الروح وأصالة الشخصية يحتاج الى قدر من استقلال الرأى وحرية النفس فوق ما يملك منهما نساؤنا ، فما بالك بالفتيات ! ان مس پاولين (لا تؤاخذنى ، فقد نسيت اسم الأسرة) ، ستقضى وقتا طويلا قبل أن تعزم أمرها فتؤثرلك على وغد مثل دى جريو . انها تقدرلك وتحترمك . وستكون صديقة لك ، وستفتح لك قلبها كله . ولكن ذلك الوغد الكريه ، ذلك المرابى الحقيقير التافه الذى يسمى دى جريو سيكون هو سيد ذلك القلب . وسيستمر هذا الأمر ، ولو عنادا أو كبرياء ان صح التعبير ، لأن دى جريو نفسه قد ظهر لها ذات يوم تحت هالة مركزيز رشيق

أنيق ، متحرر الفكر متخلص من الأوهام ، دمر نفسه لأنه أراد أن يساعد أسرتها وأن يساعد ذلك الجنرال الطائش . صحيح أن ألاميه كلها قد افتضحت بعدئذ . ولكن ليس لهذا كبير شأن : ردوا اليها دى جريو القديم : فذلكم ما تريده . وكلما ازداد الاحتقار الذى تشعر به نحو دى جريو الجديد ، ازداد أسفها وازدادت حسرتها على دى جريو القديم ، رغم أن القديم لم يوجد الا فى خيالها . أنت صاحب مصنع يا مستر آستلى ، أليس كذلك ؟

— بلى ! أنا شريك فى المصفاة الكبيرة ، لوول وشركاه .

— أرايت اذن يا مستر مستلى ؟ هناك صاحب مصفاة فى جهة ، وهناك فى الجهة الأخرى آبولون بلقيدير .. لا يستقيم الأمران معا . أما أنا فلست حتى صاحب مصفاة : ما أنا الا مقامر صغير فى الروليت . بل لقد كنت فى الخدمة ، وهذا ما تعرفه مس ياولين حتما ، لأن لها عيونا تحسن تزويدها بالأخبار .

قال مستر آستلى ببرود ، بعد أن فكر بضع لحظات :

— أنت حائق ، ولهذا انما تقول هذه السخافات والترهات . ثم ان أقوالك خالية من الأصالة .

— صحيح . والشئ الرهيب ، أيها الصديق النبيل ، هو أن جميع اتهاماتى ، بالغة ما بلغت من بلى وتفاهة وسخافة ، صادقة مع ذلك . ثم اننا لم نقل شيئا على كل حال ، لا أنت ولا أنا !

صاح مستر آستلى وقد ارتعش صوته والتمعت عيناه :

— هذا الكلام فحش وحماقة .. ألا فاعلم اذن أيها الانسان

العاق ، أيها الانسان القبيح التعيس الشقي ، أنتى انما جئت الى
هومبورج بأمر منها ، لأراك ، وأتحدث معك طويلا ، بقلب مفتوح
وصراحة تامة ، ثم أقلل اليها كل شيء .. عواطفك ، وأفكارك ،
وآمالك و .. ذكرياتك !

هتفت أقول وقد انبجست من عيني دموع غزيرة :

— أهذا ممكن ؟ أهذا ممكن ؟

لم أستطع أن أحبس دموعى عن الهطول ، وأظن أنها أول مرة
فى حياتى .

قال مستر آستلى :

— نعم أيها الشقى . لقد كانت تحبك . أستطيع أن أكشف لك عن
ذلك ، لأنك انسان ضاع وانتهى أمره ؛ فلو قلت لك انها ما تزال
تحبك .. لبقيت .. لبقيت هنا رغم ذلك ! نعم . لقد ضيعت نفسك .
كان لك بعض المواهب ، وكان لك طبع يتدفق حياة ، ولم تكن خبيث
القلب أو سييء النفس ؛ حتى لقد كان فى وسعك أن تنفع بلادك التى
هى فى ميسيس الحاجة الى رجال .. ولكنك سوف تبقى هنا ، وقد
انتهت حياتك . لست أتهمك . وفى رأى أن الروس جميعا مثلك ،
أو أنهم مهياون لأن يكونوا مثلك . فان لم يقفوا فريسة الروليت وقعوا
فريسة شيء يشبهها . وما أندر الذين يمكن استثناءهم من ذلك ! لست
أول من يتنكر للعمل ، فانما خلقت الروليت للروس . لقد كنت الى
الآن رجلا شريفا ، فأثرت أن تكون خادما على أن تسرق .. ولكننى
أرتعد حين أتصور ما قد يحدث لك فى المستقبل . حسبنا هذا الآن .

أنت في حاجة الى بعض المال طبعاً ؟ اليك عشرة ريالات ذهبية .
 لن أعطيك أكثر من ذلك ، لأنك ستخسر كل ما قد أعطيك على كل
 حال . خذ هذا ، ووداعاً . مالك لا تأخذ المال ؟
 قلت :

— لا يا مستر آستلى ، أبعد كل ما قلناه ..

فصرخ مستر آستلى :

— خذ !. انتى مقتنع بأنك ما تزال نبيلاً ، وإذا أعطيتك هذا
 المال ، فكما يعطى صديق صديقاً حميماً . ولو كنت على يقين من
 أن فى الامكان أن تهجر القمار رأساً وأن تترك هومبورج عائداً الى
 بلادك ، اذن لكنت مستعداً أن أعطيك ألف دينار فوراً من أجل
 أن تبدأ حياة جديدة . ولئن لم أعطك الا عشرة ريالات بدلاً من
 ألف دينار ، فلأن المبلغين يستويان عندك : ستخسرهما لا محالة .
 خذ . ووداعاً .

— آخذها اذا رضيت أن أقبلك .

— أرضى مسروراً .

تعاقنا عناقاً ودياً ، وانصرف مستر آستلى .

لا .. لا .. انه مخطئ ! لئن كنت أنا قاسيا وغيباً فى حكمى على
 مسألة پاولين ودى جريو ، فلقد كان هو قاسيا وغيباً فى حكمه على
 الروس . لست أدافع عن نفسى أنا . على كل حال .. على كل حال ..
 ليس هذا هو الأمر الهام الآن : فتلك كلها أقوال ، والحاجة الآن الى
 أفعال . الأمر الهام الآن هو السفر الى سويسرا ! سأسافر غداً ..
 آه .. ليتنى أستطيع أن أسافر على الفور : أن أبعث بعثاً جديداً ،
 أن أحيا حياة جديدة . يجب أن أبرهن لهم على .. يجب أن تعلم پاولين

أنتى مازلت أستطيع أن أكون رجلا . يكفى أن .. لقد فات أوان
السفر اليوم على كل حال .. ولكن غدا .. آه .. اننى أوجس شيئا ..
ولابد أن يحدث ما أوجسه ! معى الآن خمسة عشر ريالاً ذهبياً ،
وقد بدأت بخمسة عشر فلورنيا ! فإذا تصرفت بتعقل وروية .. أيمكن
أن أكون طفلاً صغيراً الى هذه الدرجة ؟ ألم أفهم أنتى انسان ضائع ؟
نعم ، يكفى أن أكون متعقلاً صبوراً ، مرة واحدة فى حياتى .. هذا
كل ما أنا فى حاجة اليه ! يكفى أن أكون قوى الارادة مرة واحدة
حتى أغير مضيرى فى ساعة . ان قوة الارادة هى الأمر الهام .
ليس علىّ الا أن أنذكر ما حدث لى منذ سبعة أشهر فى رولتنبرج
قبل دمارى النهائى . كان ذلك مثلاً رائعاً على التصميم : كنت قد خسرت
كل شيء .. كل شيء وخرجت من الكازينو ، ونظرت .. ان هناك
فلورينا ما يزال يتجول فى جيب صدرتى . قلت لنفسى : « معى
ما يكفينى لتناول عشاءى » . ولكننى بعد أن سرت مائة خطوة
عدلت عن رأيى ، وقفلت راجعاً . حططت الفلورين على المائك
(على المائك ، فى تلك المرة) . حقاً ان المرء ليشعر باحساس غريب
فريد حين يجازف ، وهو وحيد ، فى بلد أجنبى ، بعيد عن وطنه
وعن أصدقائه ، لا يدرى هل يأكل فى يومه ، أقول حين يجازف ،
وتلك حاله ، بآخر فلورين يملكه ، بآخر فلورين . وربحت ،
وما هى الا عشرون دقيقة حتى كنت أخرج من الكازينو بمائة وسبعين
فلورينا فى جيبى . هذا ما يمكن أن يكون لآخر فلورين من شأن !
فلو قد استسلمت للانهيـار ، لو لم أملك الشجاعة اللازمة لاتخاذ
قرار ..

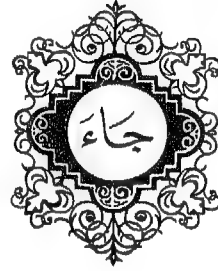
غدا ، غدا ينتهى كل شيء ! ..

الزَّوْجُ الْإِبْدِيُّ

١٨٧.

« الزوج الأبدى » (Vetchom mouje) ، نشرت هذه الرواية في
عددي كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير) من مجلة « الفجر »
سنة ١٨٧٠

فلتشانينوف



الصيف ، وبقى فلتشانينوف ببطرسبرج ،
على خلاف كل ما كان يتوقع . فالرحلة التي
كان يزعم القيام بها الى جنوب روسيا
لم تتحقق ، والدعوى التي يلاحقها لا تثرى
لها نهاية . ان هذه الدعوى ، وموضوعها خلاف على أرض ، قد تغير
مجراها تغيرا سيئا . منذ ثلاثة أشهر كانت تبدو بسيطة ، وكان كسبها
أمرا لا يجادل فيه . ولكن كل شيء فسد على حين فجأة . « الأمور
تسير من سيء الى أسوأ » . هذه هي العبارة التي أصبح فلتشانينوف
يردها في كثير من الأحيان . كان له محام بارع ، باهظ الأجر ،
ذائع الصيت ، وكان فلتشانينوف لا يبالى النفقات . الا أن نفاق
صبره ، ونوعا من الشك القلق ، كانا يحدوانه الى التدخل في
القضية بنفسه : فكان يحرق مذكرات يلقيها المحامي كلها في السلة ،
وكان يسعى بين الإدارات هنا وهناك ، ولا ينفك يستطلع الأنباء ،

ولعل هذا كله كان لا يزيد على أن يعرقل الأمور ويؤخرها ، وكان المحامى يتذمر من ذلك ، ويلج عليه أن يسافر الى الريف ، ولكن صاحبنا لا يستطيع أن يعزم أمره على السفر ، ولو الى ضواحي المدينة . الغبار ، الحر الخاق ، الليالى البيضاء التى تثير الأعصاب ، ذلك ما كان يستمتع به فى بطرسبرج . ولم يكن حظه من مسكنه الذى استأجره منذ قليل قرب « المسرح الكبير » بالحظ الحسن : « ما من شئ يوفق فيه » . فكان مزاجه السوداوى يتفاقم يوما بعد يوم ، والحق أنه كان يجنح الى هذا المزاج السوداوى منذ زمن طويل .

هذا رجل قد عاش حياة مليئة واسعة . وقد تجاوز الآن ريعان الشباب ، فهو فى الثامنة والثلاثين أو فى التاسعة والثلاثين من عمره ، وقد ظهرت « شيخوخته » هذه « فجأة » على حد تعبيره . ولكنه كان يدرك هو نفسه أن هرمه لا يرجع الى عدد السنين التى عاشها ، بل الى نوع هذه السنين ، وأن السبب فى جميع ما يعانى انما هو سبب نفسى . كان ما يزال يبدو رجلا قوى البنية : فهو شاب فارغ القامة ، صلب العود ، ليس فى شعره الكثيف الأشقر ، ولا فى لحيته الطويلة التى تكاد تتدلى الى نصف صدره ، خيط أبيض واحد . اذا نظرت اليه نظرة أولى خيل اليك أنه أخرق ثقيل ، ولكنك ما ان تنعم النظر حتى ترى فيه السيد المهذب الذى يجيد التصرف والذى نشأ فى مجتمع راق . كانت حركات فلتشانيوف ما تزال سهلة هينة ، رصينة وقورة ، بل جميلة رشيقة أيضا ، رغم ما طرأ عليه من ميل الى التذمر والاهمال . وما زال الى الآن يتصف برزانة لا تتزعزع،

وبثقة أرسقراطية تبلغ حد الوقاحة ، ولعله كان هو نفسه لا يقدر مدى هذه الثقة ، رغم أنه ليس رجلا ذكيا فحسب ، بل مرهفا في بعض الأحيان ، وعلى حظ من الثقافة ، وعلى جانب من الموهبة ولا شك . وكان وجهه الصريح الزاهى الذى كان يتميز فى الماضى بنعومة ورقة ، يجذب اليه النساء ، حتى لقد يهنف المرء الى الآن حين يراه : « ما أجل هذا الفتى القوى ! ألا انه من دمٍ ولبن ! * » . ومع ذلك فان هذا « الفتى القوى » مصاب بمزاج سوداوى قاس . ولقد كان فى عينيه أيضا ، منذ عشر سنين ، شئ يأسر النفس : عيان زرقاوان واسعتان ، صافيتان ، مرحتان ، فيها ، فوق ذلك ، من الحركة ما يجذب كل من يقع عليهم بصره ، شاءوا أم أبوا . أما الآن ، وهو يشارف على الأربعين ، فان الوضوح والطيبة قد زالتا تماما من هاتين العينين اللتين أصبحت تحف بهما غضون خفيفة ، حتى لقد صارتا تعبران عن استهتار رجل متعب ليس على جانب كبير من الأخلاق ، وعن المكر ، وعن الهزء فى أكثر الأحيان ، وعن شئ جديد لم يكن فيهما من قبل هو لون خفيف من حزن ، حزن خفى لا موضوع له ان صح التعبير ، لكنه حزن عميق . وكان هذا الحزن يظهر خاصة حين يكون صاحبنا وحده . والغريب أن هذا الرجل الذى كان، منذ سنتين لا أكثر ، انساقا كثير الصخب ، شديد المرح ، يجيد رواية النكت المضحكة ، أصبح الآن لا يجب شيئا حبه للوحدة التامة . لقد هجر من تلقاء نفسه عددا من العلاقات التى كان يمكنه أن لا يهجرها رغم ما آلت اليه ثروته من حال سيئة . صحيح أن غروره قد ساعد على ذلك أيضا : ان ما يعانيه من حذر قلق ،

وما يتصف به من غرور ، قد جعل من المستحيل عليه أن يتردد الى أصدقائه القدامى . ولكن الغرور نفسه قد تبدل في الوحدة شيئا فشيئا . ان هذا الغرور لم يضعف ، ولكنه اتخذ صورة أخرى ، خاصة جدا : ان الأمور التي تجرحه الآن تختلف كل الاختلاف عن الأمور التي كانت تزعجه في الماضي : انها الآن بواعث لا يتنبأ بها ، بواعث « أعلى » من تلك التي كان لها عليه سلطان الى الآن ، « اذا صح التعبير ، اذا صح أن ثمة بواعث عليا وبواعث دنيا » . هذا كلام كان يضيفه هو نفسه ..

نعم ، لقد وصل به الأمر الى هنا : انه الآن يصارع أسبابا عليا لا يدري أحد كنهها ، أسبابا ما كانت لتخطر بباله قبل ذلك . وكان ، في ذهنه ، في شعوره ، يسمى باسم « الأسباب العليا » جميع تلك التي كان (على دهشة منه) لا يستطيع أن يهزأ بها وأن يضحك منها في ذات نفسه . أما بين الناس فالأمر يختلف عن هذا كل الاختلاف . كان يعلم حق العلم أنه يستطيع بين الناس ، في أول مناسبة ، منذ الغد ، أن يعدل كل العدول عن جميع هذه « الأسباب العليا » رغم ما في ضميره من أمور خفية تقية ، وأن يكون أول الهازئين بها الضاحكين منها ، مع الحرص على عدم الاعتراف بذلك طبعاً . وكانت الأمور تجري على هذا النحو فعلاً ، رغم ما ظفر بالوصول اليه أخيراً من وضوح استقلال الرأي في « الأسباب الدنيا » التي كانت تسيطر عليه قبل ذلك . وكم من مرة ، مع هذا ، نهض من فراشه عند الصباح ، وهو يشعر بالخجل من الأفكار والعواطف التي ساورته أثناء الأرق (يجب أن نذكر أنه يعاني من

الأرق دائما في هذه الآونة الأخيرة) ، حتى لقد لاحظ منذ مدة طويلة أنه أصبح يزداد استسلاما للوساوس والشك ، سواء في الشئون الخطيرة وفي الأمور التافهة ، فقرر أن لا يصدق نفسه كثيرا . ولكن كانت تقع له أحداث يستحيل حقا انكار أنها واقعة . ان أفكاره واحساساته العادية أصبحت ، في هذه الأوقات الأخيرة ، تتبدل أثناء الليل تبديلا يشبه أن يكون تاما ، فما تشبه الأفكار والاحساسات التي تساوره أول النهار . وقد أذهله هذا ، حتى لقد مضى يستشير طبيبا مشهورا كان بينه وبينه معرفة شخصية ، فقص عليه الأمر مازحا بطبيعة الحال ، فعرف أن تبدل الأفكار والاحساسات ، بل وازدواجها ، أثناء الأرق ، وخلال الليل عامة ، ظاهرة كثيرة الشيعوع بين أولئك الذين « يفكرون ويحسون بعنف » ، وأن الاعتقادات التي رسخت في المرء خلال حياته كلها يمكن أن تتبدل فجأة بما يحدثه الليل والأرق في نفسه من هبوط وخور ، حتى لقد يتخذ الانسان في مثل هذه الأحوال ، وعلى حين فجأة ، قرارات حاسمة في حياته ، وأن لكل شيء حدا بطبيعة الحال ، فاذا شعر المريض بهذا الازدواج شعورا قويا حتى تألم منه ، كان ذلك دليلا قاطعا على وجود مرض حقيقي ، وينبغي للمريض في هذه الحالة أن يبادر الى علاج نفسه ، وخير ما يعمل به هو أن يغير طراز حياته تغييرا جذريا ، وأن يبدل نظام معيشته ، بل وأن يقوم برحلة . ومن المفيد حتما في هذه الحالة أن يتناول أيضا « شربة » .

انقطع فلتشانيوف عن سماع مزيد من هذا الكلام : انه اذن

مريض .

« كل هذا اذن مرض ، كل تلك الأسباب » العليا « ليست اذن الا نتيجة المرض ، ليست اذن شيئا آخر ! » بهذا كان يهتف ساخرا . انه لم يدعن حقا للتسليم بذلك .

وما هو الا وقت قصير ، اذا بالأشياء التي كان لا يحسها الا نادرا ، في الليل ، أصبحت تقع له عند الصباح ، وأصبحت أحد حدة وأمر مرارة ، وأخذ عذاب الضمير يحل محل الغضب ، وأخذ التأثير يحل محل السخر . ان حوادث من حياته الماضية ، من حياته الماضية البعيدة في بعض الأحيان ، تنبثق الآن في ذاكرته انبثاقا عجيبا ، تنبثق « على حين فجأة » ، لا يعلم الا الله لماذا . وازدادت هذه الظاهرة حدوثا . كان قلتشائينوف ، منذ مدة طويلة ، يشكو من أن ذاكرته تضعف : كان ينسى وجوه أشخاص يعرفهم ، فيزعجهم ذلك منه حين يلقاهم . وكان في بعض الأحيان ينسى كل ذكرى عن كتاب قرأه منذ ستة أشهر مثلا . ومع ذلك ، رغم هذا الضعف الواضح الذي يصيب ذاكرته يوما بعد يوم (وكان من هذا في حالة هم وخوف) ، فان كل ما يتصل بماضيه البعيد من حوادث نسيها نسيانا تاما منذ عشر سنين أو منذ خمس عشرة سنة ، يستيقظ الآن في ذاكرته على حين فجأة ، واضح التفاصيل ، قوى التأثير ، كأنه يعيشه مرة أخرى . وكان بعض هذه الحوادث قد بلغ من اغراقه في غياهب النسيان أن مجرد القدرة على تذكره كان يبدو له معجزة من المعجزات . على أن هذا لم يكن كل شيء : ما من أحد عاش حياة مليئة واسعة الا وتبقى له ذكريات من هذا النوع . وانما الأمر الهام هو أن ذلك الماضى الذى يستيقظ الآن يظهر له بوجه جديد غير

متوقع ، يظهر له بوجه ما كان يمكن أن يخطر له قبل ذلك ببال .
لماذا تتخذ بعض ذكرياته في نظره الآن مظهر جرائم حقيقية ؟ ثم ان
هذه الذكريات لا تبدو له في هذه الصورة برأى يراه عقله فحسب ،
والا لما صدق عقله المظلم الوحيد المريض ، بل كان الرجل يصل من
ذلك الى أن يعلن نفسه ، بل كان يوشك أن يبكي ، ان لم يكن
بدموع ظاهرة ، فبنشيج داخلي . لو قال له أحد منذ سنتين انه سيبكي،
لما صدقه بحال من الأحوال . ثم ان ذكرياته كانت في أول الأمر
ذكريات مرة أكثر مما كانت ذكريات عاطفية . كان يتذكر بعض ما ناله
في حياة المجتمع الراقى من اخفاق ، وبعض ما لحق به من مهانة
أحيانا : تذكر مثلا « الوشايات » التي روجها عنه رجل دساس ،
فأصبح أحد البيوت لا يستقبله وتذكر كيف أهين قبل ذلك اهانة
واضحة على ملاء من الناس فلم يحاول أن يسترد شرفه بطلب النزال .
وتذكر كيف وُخز مرة بكلمة لاذعة أمام جمع من جميلات النساء ،
فلم يعرف كيف يرد الوخز بمثله . بل لقد تذكر كيف تخلف عن دفع
بعض الديون التي كانت تافهة في ذاتها ، ولكن التخلف عن دفعها
اخلال بالشرف ، وهى لأناس أصبح الآن لا يراهم ، بل يقول
فيهم هاجر القول . وكان يتذكر على ألم أيضا (ولكن في أسوأ
حالاته فحسب) الثروتين الضخمتين اللتين بددهما بعباوة . ولكن
ذكرياته ما لبثت أن أصبحت تتناول أمورا « أرفع » من تلك .

من ذلك أنه تذكر فجأة ، بلا أى سبب ، بعد نسيان طويل ،
أنه في ذات يوم ، منذ مدة طويلة ، أهان على ملاء من الناس ، ظلما
وعدوانا ، موظفا صغيرا عجوزا طيبا ، لا لشيء الا ليقول قولة جميلة

جاءت له ببعض الشهرة وصارت مضرب المثل . ان هذه الحادثة كانت قد دفنت في ذاكرته دفنا عميقا ، حتى أنه كان لا يستطيع أن يتذكر اسم العجوز القصير ، رغم أن جميع ظروف القصة انبجست في ذاكرته الآن ، على حين فجأة ، بوضوح ما بعده وضوح . تذكر أن العجوز أراد أن يدافع عن ابنته التي تقدمت في السن ولم تتزوج بل ظلت تقسيم مع أبيها ، فأخذوا يروجون عنها الشائعات ، فحاول العجوز أن يدافع عنها وأن يغضب ، ثم اذا به ، على حين فجأة ، ينفجر منتحبا أمام الناس ، فترق له قلوبهم قليلا ، ثم يسكرونه بالشمبانيا على سبيل المزاح ، ويضحكون ما شاء لهم أن يضحكوا . فلما تذكر قتلشائينوف العجوز الصغير ، بلا سبب ، فراه وهو ينتحب ويخفى رأسه بيديه ، كطفل ، أحس فجأة أنه لم ينقطع يوما عن تذكر هذه الحادثة . والغريب أن ذلك كله كان يبدو له مضحكا، أما الآن فهو لا يبدو له كذلك ، وخاصة بعض التفاصيل ، ودفن الوجه باليدين خاصة .

وتذكر أيضا كيف أنه شهّر ، لا لشيء غير المزاح ، بتلك المرأة الجميلة ، زوجة معلم المدرسة ، حتى وصلت الاشاعات التي روجها الى الزوج . ان قتلشائينوف ، وقد ترك تلك المدينة الصغيرة بعد ذلك بمدة قصيرة ، لم يعرف أبدا العواقب التي نجمت عن عمله . ولكن ها هو ذا الآن ، فجأة ، يأخذ يتصورها ، ولا يعلم الا الله الى أين كان يمكن أن يؤدي به خياله ، لولا أن انبجست فيه ، فجأة ؛ ذكرى أقرب من تلك ، ذكرى فتاة بسيطة ، ما كانت تغريه ، ولا كانت تعجبه ، حتى لقد كان يحمر خجلا من علاقته بها ، ولكنه مع ذلك

أنجب منها طفلا ، دون أن يخطر له هذا ببال . فهجر الأم والطفل ، حتى أنه لم يودعهما (والحق أن وقته لم يتسع للوداع) حين سافر من بطرسبرج . وقد حاول بعد ذلك ، خلال سنة بكاملها ، أن يعثر على تلك الفتاة ، فلم يظفر بطائل . على أن ذاكرته كانت تمتلىء بمئات من الذكريات التي من هذا القبيل ، وكأن كل واحدة منها كانت تجر وراءها عشرات . وشيئا فشيئا أخذ غروره يصاب أيضا .

سبق أن قلنا ان غروره قد اتخذ شكلا خاصا جدا ، والواقع أن الرجل كانت تمر به لحظات (وان تكن نادرة) يبلغ فيها من قلة الاكتراث أنه لا يستحي أن لا تكون له عربة خاصة به ، وأن ينتقل من ادارة الى أخرى على قدميه ، وأن يهمل هندامه . ولو صادفه أحد من معارفه القدماء في الشارع فنظر اليه نظرة ساخرة أو تظاهر بأنه لا يعرفه ، لكان له من كبريائه ما يكفي لأن لا يشعر من ذلك بأى حنق ، لا ظاهرا فحسب ، بل في قرارة نفسه أيضا . بديهي أن هذه الحالة نادرة . وما كانت الا لحظات قصارا من نسيان النفس والاهتياج . ولكن غروره قد تحول شيئا فشيئا عن الأمور التي كانت قبل ذلك تؤثر فيه ، وأصبح منصبا على شيء واحد يشغل الآن فكره بغير انقطاع .

كان يقول لنفسه بلهجة ساخرة (يجب أن نذكر أنه كان اذا فكّر في نفسه اصطنع لهجة السخر في جميع الأحيان تقريبا) : اذن هناك من يهنم بحالتى النفسية فيرسل الى هذه الذكريات المنحوسة و « دموع الندامة » ، ولكن ذلك لن يفيد فى شيء ! انه تسديد الى فراغ .

ألست متأكدا من أنتى ، على هذه الندامات الدامعة وعلى قسوتى فى الحكم على نفسى ، لا أملك شيئا من الحرية ، رغم السنين الأربعين الغيبة ! انه ليكفى أن يتكرر الاغراء غدا ، وأن تعرض تلك الظروف ذاتها : « يكفى متلا أن أجنى بعض الفائدة من التنهير بزوجة المعلم ومن الافتراء عليها بقولى انها تقبل هداياى ، حتى أشهر بها من غير تردد ، وسيكون عملى عندئذ شرا مما كان فى المرة الأولى لأنه الآن مرة ثانية . ويكفى أن يهيننى ذلك الأمير الصغير ، وحيد أمه ، الذى كسرت له ساقه برصاصة مسدس ، منذ أحد عشر عاما ، يكفى أن يهيننى مرة أخرى حتى أهدى اليه ساقا ثانية من خشب .. فما فائدة هذه الذكريات اذن ؟ أليست تسديدا الى فراغ ؟ ما جدواها ؟ فيم هذه الذكريات ، ما دمت لا أصل الى التحرر من نفسى قليلا أو كثيرا ! » .

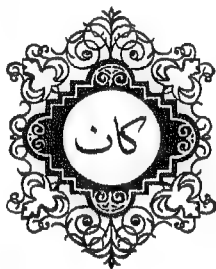
ورغم أن قصة زوجة معلم المدرسة لم تتكرر ، ورغم أنه لم يهد الى أحد ساقا من خشب مرة ثانية ، فان مجرد تفكيره فى أنه يفعل ذلك حتما اذا واثت الظروف .. كان يقتله تقريبا .. فى بعض الأحيان . الحق أن المرء يستحيل أن يظل فريسة ذكريات مؤلمة ، فيحسن أن يستريح وأن يتنزه من حين الى حين .

وذلك ما كان يفعله فلتشانينوف : كان مستعدا لأن يتنزه من حين الى حين ، ولكن حياته فى بطرسبرج كانت تثقل وطأتها عليه يوما بعد يوم . كان شهر تموز (يوليو) يقترب . وكان فى بعض الأحيان يقرر فجأة أن يترك كل شيء ، حتى الدعوى ، وأن يسافر فورا الى أى مكان ، الى القرم مثلا ، وأن ينقطع عن التفكير فى أى أمر من

الأمر . ولكنه ما يلبث ، بعد ساعة من الزمان ، أن يحتقر هذه الفكرة ، وأن يهزأ بها : « ما من رحلة يمكن أن تشفينى من هذه الأفكار المؤلة بعد أن انبجست ، واذا كنت على شئ من الشرف ، فيجب أن لا أهرب من هذه الأفكار .. وفيهم أهرب منها ؟ » .

« نعم ، فيهم أهرب منها ؟ (هكذا كان يواصل تفلسفه بمرارة) . ان الجو هنا كثير الغبار خائق ؛ وان البيت هنا قدر كل ما فيه ؛ وان الادارات التى أضيع فيها وقتى بين رجال الأعمال فيها كثير من الحركة التى لا طائل تحتها ، وكثير من الاحتمالات السخيفة ؛ وان الناس الذين بقوا هنا والذين نراهم من الصباح الى المساء هم على قدر عظيم من الأنانية الساذجة الصريحة ، والغفلة البسيطة ، يظهرون كل ما فى نفوسهم الصغيرة من ندالة ، وكل ما فى قلوبهم الوضيعة من جبانة .. فها هنا اذن الجنة الحقيقية لمن كان سوداوى المزاج . كل شئ هنا صريح واضح ، لا يفكر أحد فى اخفاء أى أمر من الأمور ، كما تفعل سيداتنا فى المصايف ، وفى مناطق المياه المعدنية ، وفى الخارج . كل شئ هنا أدعى اذن الى التقدير والاحترام ، لا لسبب آخر غير هذه الصراحة وهذه البساطة . لن أسافر ! أموت هنا ، ولكننى لن أذهب الى أى مكان ! » .

صاحب القبة، ذرات الشرط الأسود



ذلك في الثالث من شهر تموز (يوليو) . ان الحر خائق لا يطاق . وقد قاسى فلتشانيوف ألوانا من المتاعب في ذلك اليوم . ظل النهار كله ، يسعى من مكان الى مكان ، تارة على قدميه ، وتارة في عربة ، وكان عليه أن يذهب في المساء الى شخص خطير الشأن يستطيع أن يفيدته كثيرا : انه رجل من رجال الأعمال ، ومستشار دولة ، كان يريد فلتشانيوف أن يفاجئه في منزله الذي يقع غير بعيد من « النهر الأسود * » . وفي الساعة السادسة دخل فلتشانيوف أخيرا الى مطعم من المطاعم (مطعم سيىء المظهر رغم أنه فرنسى) يقع على مقربة من جسر « البوليس » في شارع نقسكى . فجلس في ركن من أركان المطعم ، الى المائدة التي اعتاد الجلوس اليها ، وطلب الغداء الذي كان يكلفه روبلا واحدا ؛ ولما كان ثمن الخمر لا يدخل في وجبة الطعام ، فان فلتشانيوف كان لا يشرب الخمر الا نادرا ،

وكان يعد امتناعه ذلك تضحية توجبها الحكمة ، لأن أعماله تسير سيرا سيئا . وكان يلتهم الطعام بشراهة حتى القنات ، كأنه لم يأكل شيئا منذ ثلاثة أيام . وكان هو نفسه يستغرب كيف يمكن أن يأكل طعاما سيئا كهذا الطعام . « هذا من المرض » ذلك ما كان يدمدم به حين يلاحظ شدة رغبته في الأكل . ولكنه في هذه المرة جلس الى مائدته معكر المزاج ، فرمى قبعته على ركن منها حائقا ، وتوكأ على كوعيه ، وراح يفكر .. كان يكفى أن يحدث جاره الجالس الى المائدة القريبة ضجة ما ، أو أن لا يفهمه الخادم الذى يحصل اليه الطعام ، من أول كلمة ، حتى يحدث عياطا وزياطا ، كضابط صغير ، وحتى يؤدي ذلك الى فضيحة صاخبة ، نعم .. كان يمكن أن يصدر هذا عنه ، هو الذى كان يعرف كيف يكون لطيفا مهذبا ، هو الذى كان يعرف كيف يحتفظ بهدوئه وتعاليه حين يجب ذلك .

وقدم اليه الحساء ، فتناول المعلقة ، ولكنه ما لبث أن رماها فجأة على المائدة ، وكاد يشب عن كرسیه : ان فكرة غير متوقعة قد أشرقت في ذهنه على حين غرة : لقد أدرك في هذه اللحظة (لا يدرى الا الله كيف !) سبب قلقه هذا القلق الغريب ، الفريد ، الذى يعذبه منذ بضعة أيام ، (لا يدرى الا الله من أين أتاه !) والذى ما انفك يخنقه (لا يدرى الا الله لماذا) . الآن ، في هذه اللحظة ، ينكشف له كل شيء واضحا بسيطا ، كأصابع اليد الخمس .

دمدم يقول كمن أشرقت الحقيقة في نفسه اشراقا « انها القبة .

لا شيء الا تلك القبعة اللعينة ذات الشريط الأسود الكريه .
انها سبب كل شيء ا » .

وأخذ يفكر ، فكان كلما أغرق في التفكير ، ازدادت نفسه
حزنا ، وازداد « الحادث » في نظره غرابة ..

وحاول أن يعترض ، لأنه لا يريد أن يصدق نفسه فتساءل :
« ولكن هل هذا حادث حقا ؟ هل في هذا ما يشبه أن يكون
حادثا ؟ » ..

اليكم ما جرى : منذ اسبوعين تقريبا (انه لا يتذكر على وجه
الدقة ، ولكنه يقدر أن المدة أسبوعان) ، صادف ، أول مرة ، في
الشارع ، عند ملتقى بودياتشسكايا ومستشانسكايا ، رجلا كان على
قبعته شريط أسود . كان هذا الرجل كغيره من الناس ، لا يمتاز
بأى شيء خاص . مرة بسرعة ، ولكنه ألقى على فلتشانينوف نظرة
متفرسة ، فلفت نظر فلتشانينوف فورا . ومهما يكن من أمر ،
فقد تراءى لفلتشانينوف أنه يعرف هذا الوجه ، فلا شك أنه التقى
به قبل الآن في مكان ما . « ولكن ألم ألق في حياتي ألوف الوجوه !
ان المرء لا يستطيع أن يتذكر جميع الوجوه التي رآها » . وما ان
مشى عشرين خطوة ، حتى كان كمن نسى هذا اللقاء ، رغم حدة
الشعور الأول . ولكن هذا الشعور الأول ظل قائما في نفسه طوال
النهار هياجا لا موضوع له ، هياجا من نوع خاص . والآن ، بعد
أسبوعين ، يتذكر فلتشانينوف كل ذلك واضحا جدا ، ويتذكر
أيضا أنه لم يفهم يومئذ سبب ذلك الهياج ، حتى أنه لم يربط
بين انزعاجه خلال تلك السهرة وبين لقائه ذلك الرجل في الصباح .

ولكن الرجل أسرع فذكره بنفسه مرة أخرى ، ذلك أن فلتشائينوف التقى به في غد عند شارع نيفسكى ، ونظر اليه الرجل نظرة غريبة مرة ثانية . فبصق فلتشائينوف حنقا ، ولكنه لم يلبث أن استغرب هذه الحركة التي بدرت منه . ان ثمة وجوها اذا رآها المرء أنارت فيه اشمئزازا ليس له تعليل ، اشمئزازا ليس له موضوع . وبعد انقضاء نصف ساعة على هذا اللقاء الثانى ، كان فلتشائينوف يدمدم مطرقا حالما ، يقوله : « لقد رأيته حقا في مكان ما » . ومرة أخرى وجد فلتشائينوف نفسه معكر المزاج خلال المساء ، حتى لقد رأى في الليل حلما مزعجا ، ولكن لم يدر في خلده أن هذا الكدر الجديد الغريب ليس له من سبب الا هذا الرجل الذى يحيط بقبعته شريط أسود ، علامة الحداد ، رغم أنه فكر فيه كثيرا خلال تلك السهرة . حتى لقد أحزنه أن تحتل مثل هذه الأمور التافهة ذاكرته زمنا طويلا هذا الطول كله . أما أن يعد ذلك الرجل مسئولا عن كدر مزاجه ، فهذه فكرة لو خطرت بباله لشعر بمذلة كبيرة . وبعد يومين التقيا مرة ثالثة بين الجمهور الذى كان ينزل من باخرة تطوف في نهر نيكا . وأحس فلتشائينوف في هذه المرة الثالثة أن هذا الرجل الذى يلبس الحداد كان كأنه يعرفه ، وكأنه اندفع نحوه ، محاولا التملص من الجمهور الذى يزحمه . حتى لقد خيل اليه أن الرجل « تجرأ » فمد اليه يده ، ولعله أيضا هتف به ، وناداه باسمه .. ان فلتشائينوف لم يميز هذا كله بوضوح ، ولكنه قال لنفسه حاققا ، وهو يركب عربة للذهاب الى دير سمولنى : « من عسى يكون هذا الوجد ، ولماذا لا يأتى الى » اذا كان يعرفنى حقا ، واذا كان يريد

أن يقترب مني ؟ » . وبعد نصف ساعة قامت بينه وبين محاميه مناقشة عاصفة . أما في المساء وفي الليل فقد أحس بقلق مر رهيب يخنقه خنقا . فتساءل متحيرا وهو ينظر الى نفسه في المرآة : « أأكون هذا من فرط افراز الصفراء ؟ » .

كان ذلك هو اللقاء الثالث . وانقضت أيام خمسة لم ير خلالها « أحدا » ، ولا ظهر « للوغد » أثر . ومع ذلك كانت ذكرى صاحب القبعة ذات الشريط الأسود تراوده من حين الى حين ، فكان يستغرب ذلك ويتساءل : « أأكون اذن راغبا في رؤيته ؟ هم .. لعل له ، هو أيضا ، أعمالا كثيرة في بطرسبرج .. ثرى لمن يلبس السواد .. حزنا على من ؟ واضح أنه عرفني ، ولكنني ، أنا ، لم أعرفه .. لماذا يضع هؤلاء الناس شريطا أسود ؟ انه لا يناسبهم .. يخيل الى أنني سأعرفه اذا رأيته من قرب .. » .

وكأن شيئا كان يريد أن يفتح في ذاكرته .. كما يقع للمرء حين يحاول أن يتذكر اسما يعرفه ، ولكن نسيه فجأة : ان المرء يعرف الاسم تماما ، ويعرف أنه يعرفه ، ويعرف معناه ، ويحوم حوله ، ولكن الاسم يأبى أن يسلس له ! ..

« كان ذلك .. منذ مدة طويلة .. في .. كان هناك .. كان هناك .. أوه ! سحقا لهذا كله .. أيستحق ذلك كله أن ألطخ نفسي على هذا النحو ! أيستحق هذا الوغد أن أذل نفسي هذا الاذلال ! » .

غضب قلتشائينوف غضبا رهيبا . ولكنه حين تذكر في المساء ، فجأة ، هذا الغضب « الرهيب » كله ، أزعجه ذلك : كان كمن ضُبط متلبسا بالجريمة ، وشعر باضطراب وحيرة ، ودهش .

« لابد أن يكون لهذا الغضب الشديد سبب .. لماذا أثور هذه الثورة كلها ، لمجرد تذكر .. » .
ولم يتم فلتشائينوف تفكيره ..

وثار في صباح الغد ثورة أعنف ، وغضب غضبا أشد ، ولكن بدا له في هذه المرة أن لحنقه ما يبرره ، وأنه على حق تماما . « هذه وقاحة لا متيل لها » . لقد تم لقاء رابع . ان صاحب القبعة ذات الشريط الأسود قد ظهر له فجأة ، كأنما خرج من تحت الأرض . كان فلتشائينوف قد التقى منذ لحظة ، في الشارع ، بمستشار الدولة الذي كان في أشد الحاجة اليه ، وكان يحاول أن يعثر عليه منذ مدة طويلة ، ويلاحقه حتى في منزله . وكان هذا الموظف الذي لا يعرفه فلتشائينوف الا قليلا ، يتحاشاه بكل الوسائل ، ولا يتيح له أن يفاجئه ، ويختبئ عنه صراحة . فلما صادفه فلتشائينوف أخيرا في الشارع ، سعد بذلك كثيرا ، فأخذ يسير الى جانبه . وفيما هو يسرع الخطى معه ، وينظر في عينيه ، محاولا بكل قواه أن يجره الى الموضوع الذي يعنيه عسى أن ييوح بما بنفسه ، عسى أن تفلت منه بعض الكلمات الهامة التي ينتظرها منذ مدة طويلة (ولكن العجوز الماكر كانت له فكرته الخاصة ، فكان يبتسم صامتا) ، اذا ببصره ، في هذه اللحظة الحرجة ، يقع فجأة على صاحب القبعة ذات الشريط الأسود ، واقفا على الرصيف الآخر يحدث في الرجلين كليهما . كان واضحا أنه يتبعهما ، بل يبدو أنه يسخر منهما .

« لعنة الله عليه .. أهو يتجسس على ؟ واضح أنه يتبعني ، فهل استأجره أحد لهذا الغرض ؟ و .. و .. وكان يضحك ساخرا ! يمينا لأضربه ضربا مبرحا .. من المؤسف أن ليس معي عصا ! سأشتري

عصا ! لن أدع الأمور هكذا . من هو هذا الوجد ؟ أريد أن أعرف
حتما من هو ! » .

وأخيرا ، بعد انقضاء ثلاثة أيام تماما على هذا اللقاء (الرابع) ،
ها نحن أولاء نجد فلتشانيوف في مطعمه ، على الحالة التي وصفناها ،
مضطربا حقا ، بل طائش اللبّ بعض الشيء . انه بعد أن درس جميع
الظروف ، اضطر الى التسليم بأن السبب الوحيد في كدر مزاجه ،
وفي هذا القلق الخاص الذي يعاينه ، وفي جميع هذه الانفعالات التي
تضطرم في نفسه منذ أسبوعين ليس الا ذلك الرجل المتشح بإشارة
الحداد ، « رغم تفاهته التامة » .

كان فلتشانيوف يفكر قائلا لنفسه : « صحيح أنني امرؤ سوداوى
المزاج ، وأنتى تبعا لذلك أجعل من الذبابة فيلا ، ومن الحبة قبة ،
ولكن هل يعزىنى أن أعلم أن كل ذلك ربما كان مجرد خيال ؟ اذا كان
يجوز لأول وغد عابر أن يشوش انسانا كل هذا التشويش ،
ف .. ف .. » .

والحق أن الفيل كان يشبه الذبابة في هذا اليوم كل الشبه
(اللقاء الخامس) : لقد مرّ الرجل بخطى سريعة على عاداته ، ولكنه لم
ينظر الى فلتشانيوف في هذه المرة ، بل كان مطرقا الى الأرض ،
كأنه يتحاشى أن يعرف . فالتفت اليه فلتشانيوف ، وصاح به ملء
صوته :

« أنت ! هناك ! يا صاحب الشريط الأسود ! لماذا تختبئ ؟ قف !
من أنت ؟ » .

كان كلا السؤال والصراخ سخيًا لا يليق . ولكن فلتشائينوف لم يدرك ذلك الا بعد أن صرخ .

التفت الرجل المنادى ، ووقف لحظة ، واضطرب وابتسم ، وحاول أن يقول شيئًا ، حاول أن يقوم بحركة ، وتردد ترددًا كبيرًا ما في ذلك شك ، ثم استدار فجأة ، وهرب لا يلوى على شيء ، ولا يلقى نظرة واحدة الى وراء .

دُهِش فلتشائينوف أشد الدهشة ، وتابعه بنظره .. قال في نفسه « ربما كنت ألاحقه ولا يلاحقنى .. ربما كان هذا كل ما في الأمر .. » . وبعد أن انتهى من تناول غدائه ، ركب عربة وذهب الى منزل الموظف . ولكنه لم يستطع أن يلقاه . قيل له « انه لم يعد الى البيت منذ الصباح ، ولا يُستَظَر أن يعود قبل الساعة الثالثة أو الرابعة من الصباح ، لأنه سيبقى في المدينة للاحتفال بعيد ميلاد صديق له » ، فشعر فلتشائينوف من ذلك « بمهانة » كبيرة ، حتى أنه قرر وهو في ثورة الغضب ، أن يذهب الى صاحب العيد ، وأمر الحوذي بالاتجاه نحو بيته ، ولكنه أدرك في منتصف الطريق أن في ذلك شيئًا من المبالغة ، فنقد السائق أجره ، ثم جرّ نفسه على قدميه الى بيته عند المسرح الكبير . كان يشعر بالحاجة الى المشى . انه من أجل أن يهدئ أعصابه المهتاجة يجب أن ينام هذه الليلة مهما كلف الأمر ، ومن أجل أن يحارب الأرق لابد أن يتعب نفسه على الأقل . ووصل الى بيته في الساعة العاشرة والنصف ، لأن الطريق طويل ، وأخذ منه التعب كل مأخذ .

ان الشقة التى استأجرها فى شهر آذار (مارس) ، والتى كان ينتقدها ويشكو منها مرّ الشكوى ، معتذرا عن نفسه مرددا « أنها ليست أكثر من خيمة مؤقتة » وأن الذنب فى ذلك كله هو ذنب هذه الدعوى اللعينة التى تحجزه فى بطرسبرج « الى حين » ، ان هذه الشقة لم تكن مزعجة الى ذلك الحد ، ولا كان مظهرها سيئا الى الدرجة التى يدعيها . صحيح أن مدخل العمارة مظلم « وسخ » بعض الشيء ، ولكن الشقة نفسها ، وهى تقع فى الدور الثانى ، كانت تتألف من غرفتين واسعتين نيرتين عال سقفيهما ، تفصل بينهما حجرة مظلمة قليلا . كانت احدى الغرفتين تطل على الشارع ، وكانت الحجرة الأخرى تطل على الفناء ، وتتصل بحجرة هيئت لتكون حجرة نوم ، ولكن فلتشائينوف بعثر فيها كتبه وأوراقه فوضى ، فكان ينام فى الغرفة التى تطل على الشارع من الغرفتين الكبيرتين ، متخذاً من أحد « الدواوين » سريرا له . وكان أثاث البيت جميلا ، على أنه بلى قليلا .. وكان فى البيت أيضا أشياء ثمينة هى بقايا ترف قديم : أوان من الخزف والبرونز ، وسجاد من بخارى ، بل ولوحتان جيدتان . ولكن الغبار كان يغطى كل شيء ، وكانت الفوضى عامة ، فما تجد شيئا فى مكانه ، منذ سافرت پيلاجيا الشابة الى أهلها بنوفجورود وتركته وحده ، بعد أن كانت تتولى خدمة البيت . كان هذا الوضع الغريب ، أعنى وجود فتاة فى بيت رجل عازب من أبناء المجتمع الراقى ، يريد أن يحافظ على قواعد اللياقة ، كان هذا الوضع يثير الخجل فى فلتشائينوف ، رغم أنه راض كل الرضى عن پيلاجيا هذه . لقد دخلت فى خدمته حين استأجر هذه الشقة فى الربيع ، لأن الأسرة التى

كانت تعمل عندها سافرت الى الخارج . وما لبثت پيلاجيا أن رتبت البيت بعض الترتيب . حتى اذا سافرت لم يشأ فلتشائينوف أن يكون خادمه امرأة . أما الخدم من الرجال فكان فلتشائينوف لا يحبهم . على كل حال ، لا تستحق هذه المدة القصيرة التي سيقضيها هنا أن يستأجر خادما . لذلك كانت مافرا ، أخت البوابة ، هي التي تتولى خدمة البيت في الصباح ، فكان يعطيها مفتاحه حين يخرج ، ولكنها كانت لا تعمل شيئا على الاطلاق ، وكانت تتقاضى أجرها بغير تخلف، ولعلها كانت تسرقه أيضا . ولكنه كان لا يحفل بشيء ، وكان يسعده على كل حال أن يجد نفسه وحيدا في البيت . على أن لكل شيء حدودا يقف عندها ، فكانت أعصابه ، حين ازدياد الصغراء ، تأبى في بعض الأحيان أن تحتل هذه « القذارة » أكثر مما احتملت ، فكان يشعر بنوع من التفرز اذ يعود الى بيته .

ولكنه ، في هذه المرة ، ما كاد يخلع ثيابه حتى ارتدى على سريره ، مغضبا حائقا ، وحاول أن لا يفكر في شيء ، وأن ينام فورا مهما كلف الأمر . والغريب أنه ما ان لامس رأسه الوسادة حتى نام . وذلك ما لم يقع له مرة منذ شهر .

نام ما يقرب من ثلاث ساعات ، ولكن نومه كان مضطربا . رأى أحلاما غريبة ، كتلك التي يراها النائم المحموم . رأى أنه كان قد اقترف جريمة وأخفاها ، فاذا الناس الآن يأتون اليه ويدخلون عليه ، من كل فج عميق ، ويأخذون يتهمونهم جميعا بصوت واحد . وكثر عددهم ولكنهم ما زالوا يتوافدون ، والباب مفتوح على مصراعيه . الا أن الاهتمام كله كان ينصب على شخص غريب أمره ، شخص

سبق أن عرفه معرفة وثيقة ، وقد مات ، ثم اذا هو يدخل الآن على حين غرة . وقد شق على فلتشائينوف أكثر من أى شىء آخر أنه لم يعرف من هو هذا الشخص : لقد نسى اسمه ، وأصبح لا يستطيع أن يتذكره . ولكنه يعرف أنه قد أحبه فى الماضى كثيرا . وكان يبدو أن هذا الشخص هو الذى ينتظر منه الجمهور كله القولَ الفصل الذى يدين فلتشائينوف أو يبرئه . وكان نفاذ الصبر عاماً شاملاً . ولكن هذا الشخص ظل جالسا ساكنا ، يرفض أن يتكلم . وكانت الجلبة لا تنقطع ، وكان الهياج يزداد . وفجأة ، قام فلتشائينوف ، وقد فار غضبه ، فضرب هذا الرجل لأنه يصر على السكوت ، فلما ضربه شعر بلذة غريبة . ان فظاعة هذا العمل ، والألم الذى شعر به قد خنقا قلبه خنقا ، ولكن هذا نفسه كان هو قوام تلك اللذة الغريبة . واثارت ثأثرته ، فضربه مرة ثانية ، فثالثة ، وسكر من الحنق والذعر وأصابه ما يشبه الجنون الممتلىء هو أيضا بلذة لا نهاية لها ، فأخذ يضرب ويضرب بغير توقف لا يعد الضربات . كان يريد أن يحطم هذا ، كان يريد أن يحطم كل هذا . غير أن شيئا جديدا قد حدث على حين بغتة : أخذ جميع الناس يصرخون ، ثم التفتوا نحو الباب كأنهم ينتظرون . وفى تلك اللحظة رن الجرس ثلاث مرات ، ولكن رنينه كان قويا جدا ، حتى لكأن الذى قرعه كان يريد أن يقتلعه اقتلاعاً . فاستيقظ فلتشائينوف ، وأفاء فجأة الى نفسه ، وقفز من سريره وأسرع نحو الباب . كان على يقين من أن رنين الجرس لم يكن وهما ، وأن أحدا قد قرعه فعلا . « ليس طبعيا أن يكون صوت واضح هذا الوضوح وهما لا أكثر » .

ولكنه وجد ، على دهشة منه ، أن رنين الجرس لم يكن الا استمرار لحلمه فقد شق الباب وخرج الى سطح الدرج ، ونظر في السلم ، فلم ير أحدا . ورأى الجرس يتدلى ساكنا . فعاد الى غرفته ، دهشا ولكن على رضى . وفيما هو يشعل شمعة ، تذكر أنه قد رده الباب ردا ، ولم يقفله بالمفتاح ، ولا شد المغلاق . كان يتفق له في كثير من الأحيان ، حين يعود الى بيته ، أن ينسى اقفال الباب بالمفتاح ، وكان لا يولى ذلك كبير اهتمام . وقد لامته پيلاجيا على هذا مرارا . فعاد الى حجرة المدخل ليقفل الباب ، ففتحه مرة أخرى ، ونظر الى الخارج ، ثم دفع المزلاج ، وأهمل مع ذلك أن يدير المفتاح . ودقت الساعة الثانية والنصف . لقد نام اذن ثلاث ساعات .

وقد هزّه الحلم الذى رآه هذا عنيفا فلم يشأ أن يعود الى النوم فورا ، وقرر أن يتجول فى الغرفة نصف ساعة ، « وهو الوقت الذى يستغرقه تدخين سيجار » . واقترب من النافذة بعد أن ارتدى بعض ملابسه ، فأزاح الستارة ، ثم أزاح الغلالة البيضاء . كان النهار قد طلع .

ان ليالى الصيف المضيئة ببطرسبرج كانت تثير أعصابه دائما ، وكانت أيضا تفاقم أرقه فى هذه الأوقات الأخيرة . لذلك كان قد وضع على نوافذه ستائر ثقيلة تمنع تسرب النور حين يحكم اسدالها . فلما أزاح الستائر ، نسي الشمعة التى أشعلها على المائدة ، وأخذ يمشى فى الغرفة ، وقد استبد به احساس ثقيل مؤلم . ان الشعور الذى أحدثه فيه الحلم لم يتبدد بعد . كان مجرد تفكيره فى أنه رفع يده على ذلك الرجل وضربه ، يؤلمه ألما شديدا .

« ولكن ذلك الرجل لا وجود له ، انه لم يوجد يوما . هذا حلم لا أكثر ، ففيم الألم والأين ؟ » .

وطاش صوابه ، فقال في نفسه ، وكأن همومها كلها تلتقي الآن في هذه النقطة : « اننى مريض ، اننى انسان مريض ! » .

كان يشق عليه دائما أن يعترف لنفسه بأنه يضعف ويشيخ ، ولكنه كان في لحظاته السيئة يبالغ في تصور آلامه عن مكر عامدا ، لكي يعذب نفسه .

دمدم يقول وهو يمشی في غرفته : « انها الشيخوخة . لقد هرمت تماما . اننى أفقد ذاكرتى ، وأرى أشباحا ، وأحلم أحلاما ، وترن الأجراس .. تبا للشيطان .. اننى أعرف بالتجربة أن مثل هذه الأحلام هي عندي دائما علامة الحمى .. أنا موقن أن « قصة » الشريط الأسود قد لا تكون كلها الا حلما . ألم أر أمس أننى أنا الذى ألاحقه ، وانه ليس هو الذى يلاحقنى . اننى أتخيل بصدده أسطورة كاملة ، ثم يستبد بى الذعر فأركض أختبئ تحت المائدة . ولماذا أعده وغدا ؟ قد يكون رجلا طيبا كريما . صحيح أن وجهه منفر جدا ، ولكن ليس فيه شيء قبيح قبحا خاصا ، وملابسه كملايس سائر الناس .. غير أن فى نظرتة شيئا .. هو . هأنذا أعود فأفكر فيه . مالى ولنظرتة ؟ ألا أستطيع أن أعيش دون أن أفكر فى « مقصوف الرقبة » هذا ؟

ومن بين الأفكار التى كانت تنبجس فى خياله ، كانت هناك فكرة بعينها جرحته جرحا مؤلما : لقد بدا له فجأة أنه على يقين من

أن هذا الرجل ذا الشريط الأسود قد عرفه في الماضي معرفة وثيقة ، وأنه الآن يهزأ به حين يلقاه ، لأنه واقف على سر من أسرار ماضيه الهامة ، ثم هو يراه الآن قد سقط من منزلته وصار في الحضيض . اقترب من النافذة على غير وعى ، ليفتحها ويستنشق هواء الليل .. و .. و .. فجأة ارتعش : بدا له أن شيئا عجيبا رهيبا يحدث .

لم يتسع الوقت لفتح النافذة ، ذلك أنه ما ان اقترب منها حتى عاد فاخترأ عند طرفها : لقد ملح فجأة صاحب القبة ذات الشريط الأسود ، واقفا على الرصيف المقابل أمام البيت تماما . كان الرجل يصبو نظره الى نوافذ البيت . لا شك أنه لم يره ، كان واضحا أنه يفحص البيت مستطلعا وهو يفكر . وكان يبدو أنه متردد متحيّر : لقد رفع يده ، ولمس جبينه بأصبعه . وعزم أمره أخيرا ، فألقى نظرة سريعة على ما حوله ، ثم تقاصر واجتاز الشارع على رءوس أصابعه .. نعم .. انه في الدهليز ، تحت الباب الصغير (الذي كان يترك مفتوحا حتى الساعة الثالثة من الصباح في بعض الأحيان) . فقال فلتشائينوف لنفسه فوراً « انه آت الى » ، فهرع الى حجرة المدخل على رءوس أصابعه أيضا ، ووقف أمام الباب ينتظر متوترا واضعا يده المرتعشة على المزلاج الذي دفعه قبل ذلك ، مصيخا بسمعه الى خشخشة الخطوات على السلم .

كان قلبه يخفق خفوقا شديدا ، حتى لقد خشى أن لا يستطيع سماع خطوات الرجل المجهول الذي يسير على رءوس أصابعه . كان لا يعرف ما الذي يجري ، ولكنه كان يحس كل شيء بقوة مضاعفة . كان فلتشائينوف شجاعا بطبيعته ، حتى لقد كان يمضى في احتقار

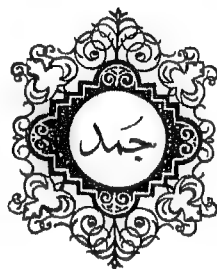
الخطر الى حد التهور في بعض الأحيان ، حتى حين لا يراه أحد ، وذلك لذته الخاصة وحدها . الا أن ثمة شيئاً آخر الآن : ان الانسان الذى كان منذ لحظة سوداوى المزاج ، قلقاً ، شاكياً ، باكياً ، قد تبدل في هذه اللحظة تبدلاً تاماً . انه غير الانسان الذى كان منذ هنيهة . ان ضحكة عصبية صامتة تجلجل في صدره . وكان يدرك ، من خلال الباب الموصد ، كل حركة من حركات القادم الغريب .

« ها .. ها هو ذا يصعد . انه وصل . انه ينحن مصيحاً بسمعه .. انه لا يكاد يتنفس . هو ذا يتسلل . ها .. لقد أمسك بقبضة الباب . هو ذا يشدها . انه يعالج الباب . كأنه يأمل أن لا يجده مغلقاً . انه يعرف اذن أنني أنسى اغلاق الباب أحياناً . ها هو يشد قبضة الباب مرة أخرى . أيقظ أن المزلاج سينكسر ؟ خسارة أن يرجع مخففاً أليس كذلك ؟ » .

نعم ، لا شك أن كل شيء جرى على نحو ما كان يتصور . ان أحداً قد وقف وراء الباب ، وعالج القفل ، يرفق ، دون ضجة ، وشد القبضة . « بديهي أن له غاية يسعى اليها » . ولكن فلتشائينوف كان قد هياً حل المسألة . انه ينتظر اللحظة المناسبة بنوع من الحماسة : كان يتهاى ، ويجمع قواه : كانت به رغبة جامحة في رفع المزلاج فجأة ، وفتح الباب على مصراعيه بغتة ، ومواجهة الرجل على حين غرة : — « ماذا تعمل هنا أيها السيد العزيز ؟ » .

وذلك ما حدث فعلاً : اختار فلتشائينوف اللحظة المناسبة ، وفرع المزلاج فجأة ، ودفع الباب ، فكاد يصدم الرجل صاحب القبة ذات الشريط الأسود .

بافل بافلوفتش تروسوتسكي



الرجل . ووقف كل منهما أمام الآخر
ينظر في عينيه . وانتفضت على ذلك لحظات ،
فاذا فلتشائينوف يعرف زائره بغتة .

وفي هذه اللحظة نفسها أدرك الزائر أن
فلتشائينوف عرفه ، لقد لمع هذا في عينيه ، ثم اذا بوجهه كله يسترخي
في ابتسامة لطيفة متوددة . وقال بصوت عذب منغم يتنافى تنافيا
مضحكا مع ظروف اللحظة :

— أظن أنني أتشرف بمخاطبة الكسى ايفانوفتش ، أليس كذلك ؟

فأجابه فلتشائينوف ، مشدوها ، بعد فترة من صمت :

— أأنت بافل بافلوفتش تروسوتسكي ؟

— لقد تعارفنا منذ تسع سنوات في ت .. واذا تفضلت فسمحت
لى بأن أذكرك ، قلت ان صلاتنا كانت صلات صداقة حميمة .

— نعم .. هذا جائز .. ولكن .. الساعة الآن هي الثالثة من الصباح ، وقد ظللت عشر دقائق تحاول فتح بابي ..
فصاح الرجل وهو يخرج ساعته من جيبه ، وتلوح عليه علائم دهشة مؤلمة :

— الساعة الآن الثالثة ؟ ها .. حقا انها الثالثة . عفوك يا الكسى ايفانوفتش . كان ينبغي أن أفكر في هذا قبل أن أدخل . أنا آسف كل الأسف . سأجىء مرة أخرى لأبسط لك الأمر ، والآن ..
— لا ، لا ، اذا كنت تريد أن تبسط أمرا ، فأنا أرجوك أن تفعل ذلك حالا .

هذا ما قاله له فلتشائينوف ، وقد أفاء الى نفسه ثم أضاف :
— ادخل ، أرجوك . دع العتبة .. اليك الغرف . لا شك انك كنت تريد أن تدخل ، وما أظن أنك جئت هنا لتجرب الأقفال فحسب ..

كان مضطربا ، وكان في الوقت نفسه متحيرا بعض التحير . كان يحس أنه لا يستطيع أن يجمع شتات أفكاره ، حتى لقد شعر من ذلك بالعار : ما من سر ، ولا من خطر . ولم يبق من جميع تلك التهاويل الا هذا الوجه الغبى ، وجه رجل اسمه بافل بافلوفتش . ومع ذلك لم يكن واثقا كل الوثوق أن الأمر بسيط هذه البساطة : كان يحس احساسا غامضا قلقا بشىء غريب .

وبعد أن أجلس ضيفه على أحد المقاعد ، جلس هو فوق سريره ، على مسافة متر من المقعد ، وانحنى الى الأمام ، ووضع راحتي يديه

على ركبتيه ، وانتظر على مثل حر الجمر أن يتحدث الرجل . كان يتفرس فيه ويجمع شتات ذكرياته . ولكن الشيء الغريب أن الرجل لبث صامتا كأنه لا يدرك أبدا أن عليه أن يتكلم « فورا » . حتى لقد كان ينظر الى صاحب البيت نظرة سائلة كأنه ينتظر شيئا . ربما كان سبب ذلك أنه خائف لا أكثر من ذلك ، فما يشعر بشيء من الارتياح في أول لحظة ، مثله كمثل فأرة وقعت في مصيدة . ولكن فلتشائينوف ثارت ثائرتة ، فصاح قائلا :

— هيه .. أظن أنك لست حلما ولا شبعا . هل جئت تلعب هنا لعبة الموتى ؟ هيا ابسط أمرك يا عم !
فاضطرب الزائر ، وابتسم ، وابتدأ يقول في كثير من الحكمة والحدس :

— ان الأمر الذى يدهشك خاصة هو أننى جئت فى مثل هذه الساعة ، و .. فى ظروف كهذه الظروف .. اننى اذ أتذكر ما قد جرى بيننا وكيف افترقنا ، أستغرب أن .. على أننى لم أكن أفكر فى الدخول ، واذا جرت الأمور هذا المجرى ، فقد حدث ذلك مصادفة ..
— مصادفة ؟ ولكننى رأيتك من النافذة تجتاز الشارع على رءوس الأصابع !

— ها .. رأيتنى ! اذن فى هذه الحالة ، قد تعرف من هذه الأمور أكثر مما أعرف .. ولكننى ألاحظ أننى أثير حنقك .. اليك الموضوع :
اننى هنا منذ ثلاثة أسابيع لأمر يهمنى .. أنا بافل بافلوفتش تروسوتسكى . لقد عرفتنى . اننى أقوم بساع لتغيير عملى ، والانتقال الى ادارة

أخرى ، الى وظيفة أعلى . على أن هذا ليس هو ما أريد أن أقوله ..
المهم ، اذا شئت ، أنتى أضيع وقتى هنا منذ ثلاثة أسابيع ، وأنتى أؤخر
بنفسى قضية تعيينى ، فيما يتراءى لى .. والحق أنتى ، حتى ولو تم
الأمر ، سأنسى ، فيما أظن ، أن الأمر تم ، ولن أستطيع أن أترك
بطرسبرج وأنا فيما أنا فيه من حالة نفسية . انتى أذهب وأجىء هنا
وهناك ، كأنتى ضللت هدفى ، ويكاد يسعدنى أنتى ضللت هدفى . ففى
الحالة النفسية التى أنا فيها ..

فقاطعه فلتشانينوف يسأله وقد نفذ صبره :

— أى حالة نفسية ؟

فرفع الرجل عينيه اليه ، وتناول قبعته ، وأشار الى الشريط
الأسود ، بحركة وقورة هذه المرة .

— نعم هذه هى حالتى النفسية !

كان فلتشانينوف ينقل نظرتة البلهاء بين الشريط الأسود ووجهه
ضيفه . ثم اصطبغ وجهه فجأة بحمرة شديدة ، واضطرب ، وقال :

— من ؟ ناتاليا فاسيليفنا ؟

— نعم . ناتاليا فاسيليفنا . فى شهر مارس (آذار) الماضى ..
بالسل .. وبسرعة ... شهرين . ثلاثة أشهر . وهأنذا كما ترانى ! .

قال الضيف ذلك مضطربا أشد الاضطراب ، وباعد ما بين ذراعيه
اللتين تحمل يسراهما قبعته ذات الشريط الأسود ، وخفض رأسه
الأصلع ، وظل على هذه الحال عشر ثوان فى أقل تقدير .

وكأن هذا المنظر وهذه الحركة أنعشتا فلتشائينوف فجأة ، فتسللت الى شفتيه ابتسامة ساخرة ، وربما متحدية ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة : ان نبأ موت تلك المرأة (التي عرفها منذ مدة طويلة جدا ونسيها نسيانا تاما) قد هز نفسه الآن هزا مباغتا . ودمدم ينطق بأول كلام خطر بباله :

— هل هذا ممكن ؟ ولكن لماذا لا تجيء الىّ ببساطة ، لنقص على النبأ ؟

— أشكر لك عاطفتك التي أراها وأحسها ، فرغم ..

— رغم ماذا ؟

— رغم أننا لم نلتق منذ عدد من السنين ، أظهرت لى من العاطفة الطيبة في مشاركتي مصابي ما أعجز عن شكره .. هذا كل ما كنت أريد أن أقوله . وليس معنى ذلك أنني أشك في أصدقائي الآخرين ، اننى أستطيع أن أجدها أصدقاء مخلصين جدا (ستيفان ميخائيلوفتش باجاوتوف مثلا) ، غير أن علاقاتنا ، يا الكسى ايفانوفتش (وأستطيع أن أقول صداقتنا ، لأننى ما زلت أذكر هذه الصداقة شاكرا) قد انقطعت منذ تسع سنين . انك لم تعد الينا منذ ذلك الحين ، ولا نحن تبادلنا الرسائل ..

كان الزائر يتكلم كمن يلقي درسا حفظه ، ولكن بينما كانت كلماته تتدفق ، كان نظره مثبتا على الأرض ، رغم أنه يرى كل ما يجري ، ما في ذلك شك . وأثناء ذلك كان فلتشائينوف يفيء الى نفسه .

كان يصغى الى بافل بافلوفتش ويتفرس فيه ، وفي نفسه عاطفة

غريبة ما تنفك تشتد ، حتى اذا توقف صاحبه عن الكلام اجتاحت
ذهنه ، فجأة ، أفكار مشتتة غير متوقعة .

وصاح يقول منتعشا :

— ولكن لماذا لم أعرف حتى الآن أنك أنت ؟ لقد التقينا خمس
مرات وجها لوجه ، أنفا لأنف ..

— أتذكر ذلك . كنت توجد دائما في طريقى ، مرتين ، وربما
ثلاث مرات ..

— بل كنت أنت توجد دائما في طريقى !

ونهض فلتشائينوف ، واتفجر فجأة يضحك ضحكة غير منتظرة .
وظل باقل بافلوفتش متحيرا مشوشا خلال لحظة ، ونظر الى صاحبه
نظرة منتبهة ، ثم ما لبث أن استأنف يقول :

— أما أنك لم تعرفنى فذلك أمر طبيعى . انك قد نسيته . زد
على ذلك هذا الجدر الخفيف الذى قرصنى بعد فراقنا ، وخلف فى
وجهى بعض الآثار .

— جدر ؟ حقا ان فى وجهك آثار جدر ! ولكن كيف ؟

— كيف قرصنى ؟ ان هذا يحدث يا ألكسى ايفانوفتش !
لا يتوقعه المرء ، ثم يقرصه فجأة ..

— عجب مع ذلك .. طيب ، أكمل كلامك ، أكمل كلامك أيها
الصديق العزيز !

— رغم أننى صادفتك ..

- قف ! لماذا قلت « قرصنى ؟ » .. طيب ، أكمل ، أكمل ؟
- وأخذ المرح يتسرب الى الزائر شيئا فشيئا ، لا يدرى الا الله لماذا !
ان الهياج الذى هز نفسه منذ لحظة قد حلت محله الآن عاطفة أخرى
مختلفة عنه كل الاختلاف .
- كان يقطع الغرفة طولا وعرضا بخطى سريعة .
- رغم أننى صادفتك ، ورغم أننى كنت أعتقد أننى سألقاك حين
أجىء الى بطرسبرج ، فأننى ، أعود فأقول لك ذلك ، أعانى حالة
نفسية بلغت من .. نعم اننى بلغت من فرط التحطم النفسى ، منذ
شهر مارس (آذار) أن ..
- ها .. نعم . أنت محطم النفس منذ شهر مارس (آذار) .
انتظر . ألا تدخن ؟
- أثناء حياة ناتاليا فاسيليفنا ، أنت تعلم ..
- نعم نعم ، أعلم ، ولكنك منذ شهر مارس (آذار) ..
- ربما أدخن سيجارة صغيرة .
- هذه سيجارة . أشعلها ، وأكمل كلامك . أكمل كلامك ، لقد
أحدثت فى نفسى من ..
- وأشعل فلتشائينوف سيجارا كبيرا ، ثم جلس فجأة على سريره .
وتوقف بائل بافلوفتش .
- ما أشد اضطرابك ؟ هل تشكو من شىء فى صحتك ؟
- دع صحتى للشيطان .. أكمل كلامك .

ولكن الضيف ، رغم اضطراب رب البيت ، كانت تزداد في وجهه
علائم الرضى وامارات الثقة بالنفس . قال :

— وماذا أقول ؟ تخيل أولا يا ألكسى ايفانوفتش ، رجلا مقتولا ،
مقتولا تماما ان صح التعبير . تخيل رجلا عاش مع زوجته عشرين عاما ،
ثم تغيرت حياته تغيرا تاما ، فأصبح يتسكع في الشوارع الغبراء ، كأنه
يسير في الصحراء ، ليس له من هدف واضح ، ولا يكاد يعي نفسه ..
ثم يستمد من غياب الوعي هذا لذة .. من الطبيعى في مثل هذه
اللحظات ، اذا أنا التقيت مصادفة بشخص أعرفه أو بصديق ، أن
أتحاشاه عامدا ، فما أقترب منه . ولكن ، في لحظات أخرى ، تبلغ
قوة الذكريات ، ويبلغ الظمأ الى رؤية شاهد من شهود هذا الماضى
القريب الذى ذهب ولن يعود ، وتبلغ شدة خفقان القلب لهذه الذكرى ،
أن المرء يركض فيرتدى على عنق صديقه ، سواء أكان ذلك في الليل
أم في النهار ، ولو تعرض لايقاطه في الساعة الثالثة من الصباح . لقد
أخطأت في تقدير الساعة فحسب ، ولكنى لم أخطئ في تقدير الصديق ،
لأننى كوفئت في هذه اللحظة أحسن مكافأة . أما عن الساعة ، فقد
كنت أظن حقا أنها منتصف الليل ، لأننى لم أشعر بحاجة الى النوم . ان
المرء يشرب حزنه ، ويسكر به . وليس الحزن هو الذى يقضىنى
الآن ، بل شيء آخر .

فقال له فلتشائينوف ، وقد أربد وجهه ، وظهرت عليه أقصى علائم
الجد فجة :
— انك تعبر عن نفسك تعبيرا غريبا .

— نعم ، أعبر عن نفسى تعبيراً غريباً .

— أأست تمزح ؟

فصاح بافل بافلوفتش ، وقد استبدت به دهشة مؤلمة :

— أمزح ؟ وفى اللحظة التى أخبر فيها ..

— أسكت عن هذا ، أرجوك .

قال فلتشائينوف ذلك ، ونهض ، ثم أخذ يسير فى الغرفة .

وانقضت على هذا ثلاث دقائق . وقام الضيف بحركة لينهض أيضاً ،

ولكن فلتشائينوف صرخ يقول له : « لا تقم ، لا تقم » .

— ولكن ما أكثر ما تغيرت ! لقد تغيرت تعبيراً رهيباً ! لكأنك

إنسان آخر .

هذا ما أضافه فلتشائينوف وهو يقف أمامه فجأة ، كأن هذه الفكرة

قد شدهته على حين غرة .

— لا غرابة فى هذا .. انقضت تسع سنين !

— لا لا لا . لا شأن للسن بهذا . ليس مظهرك هو الذى تغير ،

بل شئ آخر .

— نعم ، هذا ممكن : تسع سنين !

— أم منذ شهر مارس (آذار) ؟

فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة مأكرة ، وقال :

— ها ها .. فكرة لطيفة . ولكن هل أجرو أن أسألك ما هو

ذلك التعبير ؟

— بصراحة .. كان باقل بافلوفتش قبل ذلك رجلا محترما ،
لأننا ، بسيطا .. أما الآن فهو رجل تافه

لقد بلغ به الغضب والحقد تلك الدرجة التي تندب فيها عن أحسن
الناس كلمات زائدة .

— تافه ؟ هذا رأيك ؟ ولم أعد « بسيطا » ؟ لم أعد « بسيطا »
البتة ؟

قال باقل بافلوفتش ذلك ، وهو يطلق ضحكة رضى صغيرة .
— لم تعد « عاقلا » البتة ! وربما كنت الآن مسرفا في الذكاء .
وقال فلتشائينوف بينه وبين نفسه « اتنى وقح ، وهذا الوغد
أوقح منى . ولكن .. ما هى غايته ؟ » .

صاح الضيف وقد ثارت نفسه فجأة واضطرب في مقعده :
— أوه .. يا صديقى العزيز ، يا صديقى الحبيب الكسى ايفانوفتش .
ما لنا ولهذا ؟ لسنا الآن فى المجتمع الراقى ، لسنا فى المجتمع الراقى
الأنيق ! انما نحن الآن صديقان قديمان ، اجتماعا على صدق وإخلاص ،
وتذكرا تلك الرابطة الغالية جدا التى كانت المرحومة أجمل حلقة فيها .
وبلغت عواطفه من الغليان ، فيما بدا ، أنه خفض رأسه مرة أخرى
كما فعل منذ قليل ، وأخفى وجهه فى قبعته . فكان فلتشائينوف يفحصه
مشمئزا قلقلًا .

وقال لنفسه فجأة : « من يدري ؟ قد لا يكون الا مهرجا .. ولكن
لا لا ! لا أظن أنه سكران . قد يكون سكران مع ذلك : ان وجهه

أحمر . وهبه سكران .. لا فرق .. ماذا يدبر ؟ ماذا يبست ؟ ماذا يريد هذا الوجد ؟ » .

صاح باقل بافلوفتش وهو يزيح قبعته شيئا فشيئا ، ويبسو مسترسلا في ذكرياته :

— هل تتذكر ؟ هل تتذكر ؟ هل تتذكر جولانا في الحقول ، وسهراتنا ، واجتماعاتنا الراقصة ، وألعابنا الصغيرة في منزل صاحب المعالي سيميون سيميونوفتش الجواد الكريم ؟ وهل تتذكر قراءتنا نحن الثلاثة في المساء ؟ ولقاءنا الأول حين جئتي ذات صباح تسألني معلومات تتصل بعمل من الأعمال ؟ لقد غضبت يومئذ في أول الأمر ، ولكن ظهرت فجأة ناتاليا فاسيليفنا ، فما هي الا عشر دقائق حتى أصبحت الصديق الحميم للأسرة . ودام ذلك سنة بكاملها ، كما في مسرحية تورجينيف « الريفية » * ؟

كان فلتشائينوف يتجول في الغرفة ببطء مطرقا الى الأرض . كان يصغى الى ضيفه نافد الصبر ، مشمزا ، ولكنه كان يصغى اليه بانتباه . فقاطعه يقول مرتبكا بعض الارتباك :

— لم تخطر « الريفية » ببالى يوما .. ولم تتحدث أنت يوما بصوت حاد كهذا ، وبهذه اللهجة التى ليست لهجتك . لماذا ذلك ؟ فاستأنف باقل بافلوفتش يقول بحرارة :

— حقا .. كنت قبل الآن أصمت فى أكثر الأحيان .. أعنى أننى كنت أكثر صمتا . ذلك أننى كنت أفضل الاستماع حين كانت المرحومة تتكلم . ألا تتذكر كيف كانت تتكلم بكاء ؟ أما عن « الريفية »

وعن ستوبنديف خاصة ، فأنت على حق أيضا .. اننا لم نقارن ، أنا والمرحومة الغالية ، بين لقائنا الأول وبين مسرحية تورجينييف ، الا فيما بعد ، أعنى بعد سفرك ، حين كنا نتذكرك .. وكانت المقارنة تتناول ستوبنديف ..

— أى ستوبنديف ، سحقا لك !

هكذا صاح فلتشائينوف وهو يضرب الأرض برجله ، ويضطرب اضطرابا شديدا من هذا الاسم الذى يوقظ فيه ذكرى بعيدة .

فأجابه باقل بافلوفتش ، بصوت عذب منغم :

— ستوبنديف ؟ هو احدى شخصيات الملهاة . هو « الزوج » فى مسرحية « الريفية » . الا أن هذا يتصل بسلسلة أخرى من ذكرياتنا الجميلة الغالية ، تمت بعد سفرك ، حين شرفنا ستيفان ميخائيلوفتش باجاوتوف بصداقته ، مثلك تماما ، ولكن خلال خمس سنوات بكاملها .

فتسمر فلتشائينوف فى مكانه ، سائلا :

— ماذا ؟ باجاوتوف ؟ أى باجاوتوف ؟

— باجاوتوف ، ستيفان ميخائيلوفتش ، الذى شرفنا بصداقته ، بعد سفرك بسنة تماما ، ومثلك تماما ..

فهتف فلتشائينوف يقول وقد فهم الأمر :

— ها .. نعم . باجاوتوف .. لقد كان موظفا فى مدينتنا ..

فصاح باقل بافلوفتش بحماسة شديدة يقول :

— نعم نعم ، كان ملحقا بالحاكم . شاب من المجتمع الراقى بيطرسبرج ، لم أر لأناقته مثيلا .

— نعم ، نعم . فيم كنت أفكر ؟ نعم .. هو أيضا اذن ؟ ..
فأجاب باقل بافلوفتش بتلك الحماسة نفسها ، ملتقطا تلك الكلمة
الطائشة التي ندت عن محدثه :

— هو أيضا ، هو أيضا . وعندئذ انما مثلنا « الريفية » على
مسرح هواة ، في منزل صاحب المعالي سيميون سيميونوفتش ، الجواد
الكريم . لقد مثل ستيفان ميخائيلوفتش دور الكونت ، ومثلت أنا
دور الزوج ، ومثلت المرحومة دور « الريفية » ، ولكنهم سحبا
منى دور الزوج ، بالحاح من المرحومة . فلم أمثل اذن دور « الزوج » .
كانوا يقولون اننى لا أحسن تمثيل هذا الدور ..

— ولكن أى شيطان يدعى أنك ستوبنديف ؟ انك باقل بافلوفتش
تروسوتسكى ، ولست أبدا ستوبنديف ..

هكذا صرخ فلتشائينوف بفضافة دون تخرج . انه يكاد يرتعش
حنقا وغيفا . ثم أضاف يقول :

— ثم اسمح لى .. ان باجاوتوف هذا هو الآن هنا ، ببطرسبرج ،
رأيته بنفسى فى الربيع . فلماذا لا تذهب اليه أيضا ؟

— اننى أذهب اليه كل يوم ، منذ ثلاثة أسابيع . ولكنهم يرفضون
أن أدخل عليه . انه مريض ، لا يستطيع أن يستقبلنى . وتصور أننى
علمت من مصدر موثوق أنه كان حقا مريضا مرضا خطيرا . صديق
قديم . آه يا ألكسى ايفانوفتش ، لقد قلت لك وأكرر قولى اننى ،
فى الحالة التى أنا فيها ، أشتهى أحيانا أن أغيب حقا تحت الأرض .
وفى لحظات أخرى أحس أننى مستعد لأن أرتدى بين ذراعى واحد

من أولئك الذين شهدوا حياتى الماضية ، واحد من أولئك الذين شاركوا
فى حياتى الزاهية ، لا لشيء الا لنبكى معا .. نعم لا لشيء الا لأبكى ..
أقول ذلك صادقا ..

قال فلتشانينوف بخشونة :

— هيا .. يكفىك اليوم هذا ..

— يكفى ويزيد ، يكفى ويزيد . ان الساعة الآن هى الرابعة ،
وقد أزعجتك ازعاجا فيه كثير من الأناية ..

قال بافل بافلوفتش ذلك ، ونهض فجأة :

— اسمع . سأجىء اليك حتما . وآمل عندئذ .. قل لى بصراحة :
ألست اليوم سكران ؟

— سكران ؟ أبدا .

— ألم تشرب قبل أن تجىء الى هنا ، أو قبل ذلك أيضا ؟

— ان حرارتك مرتفعة حقا يا ألكسى ايفانوفتش .

— سأجىء اليك غدا قبل الساعة الواحدة .

— انتى ألاحظ منذ برهة أنك تبدو فى حالة هذيان تقريبا .

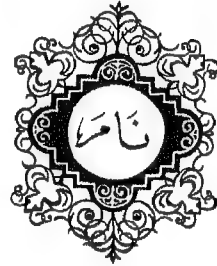
قال بافل بافلوفتش ذلك ملحا على هذا الموضوع ، وهو يشعر
بنوع من الرضى . ثم أردف :

— يؤسفنى حقا أن خرافتى .. أنا ذاهب ، أنا ذاهب . أما أنت
فاستلق على فراشك وحاول أن تنام .

صاح به فلتشانينوف يقول وقد ثاب الى نفسه :

— ولكنك لم تقل لى أين تسكن .
— ألم أقل لك ذلك ؟ اننى أسكن فى فندق بوكروفسكى ؟
— ما هذا الفندق أيضا ؟
— قريب جدا من كنيسة بوكروف . فى شارع صغير ، نسيت اسم الشارع ، ونسيت الرقم . ولكن الفندق الى جانب الكنيسة ..
— سأهتدى اليه .
— أهلا وسهلا بالضيف العزيز .
قال بافل بافلوفتش ذلك ، وكان قد أصبح على السلم . فصاح به فلتشانينوف مرة أخرى قائلا :
— قف . ألن ترحل عن هذا الفندق ؟
كان بافل بافلوفتش قد هبط ثلاث درجات على السلم ، فالتفت محملا ، على ابتسامة فى شفتيه ، وقال :
— كيف « أرحل » ؟
فكان كل جواب فلتشانينوف على ذلك أن صفق الباب بقوة ، ثم أدار المفتاح برفق ، ودفع المزلاج . فلما عاد الى غرفته بصق مشمئزأ كمن اتسخ .
وظل واقفا ، ساكنا ، فى وسط الغرفة ، خلال خمس دقائق ، ثم ارتمى على سريره دون أن يخلع ملابسه ، فما لبث أن نام . والشمعة التى نسى أن يطفئها ذابت على المنضدة حتى آخرها .

الزواج والزوجة والعسيرة



نوما عميقا ، واستيقظ في الساعة التاسعة والنصف تماما ، فنهض فورا ، وجلس على سريريه ، وأخذ يفكر في موت « تلك المرأة » . ان « الهزة » التي شعر بها أمس حين علم بموت تلك المرأة قد تركت فيه نوعا من الاضطراب وشيئا من الألم ، خنقتهما ، الى حين ، فكرة " خاصة نشأت عن رؤية بافل بافلوفتش . أما اليوم ، حين استيقظ ، فان كل ما حدث قبل تسع سنين يطوف الآن في ذهنه واضحا الى أقصى حدود الوضوح .

ان هذه المرأة ، المرحومة ناتاليا فاسيلييفنا ، زوجة « تروسوتسكى هذا » ، قد أحبها فلتشانينوف ، وكان عشيقها ، أثناء اقامته في ت . . سنة كاملة ، لعمل من الأعمال (كان هذا العمل دعوى خلاف على ارث أيضا) . وكان ذلك العمل لا يقتضى اقامة طويلة كل ذلك الطول ، في واقع الأمر ، وانما كانت تلك العلاقة هي السبب الحقيقي لهذه

الاقامة الطويلة . وقد استبدت تلك العلاقة واستبد ذلك الحب بنفسه استبدادا قويا ، حتى أصبح عبدا لئاتاليا فاسيلينا ان صح التعبير . كان يمكن أن لا يتردد لحظة واحدة عن القيام بأشد الأعمال شذوذا وجنونا ، اذا شاءت له ذلك نزوة من نزوات تلك المرأة . ولم يقع شيء يشبه هذا ، لا قبل ذلك ولا بعده . وفي نهاية السنة ، حين أصبح الفراق أمرا لا بد منه ولا محيص عنه ، بلغ الحزن واليأس بفلتشانينوف أنه اقترح على ناتاليا فاسيلينا ، عند اقتراب الموعد المتشوم ، رغم أن هذا الفراق فراق الى حين لن يطول ، اقترح عليها أن تهرب معه ، أن تترك زوجها ، أن تهجر كل شيء ، وأن يسافرا الى الخارج الى الأبد . ولم يصده عن هذا المشروع ، ولا أكرهه على السفر وحده الا سخریات هذه السيدة وصلابتها (يجب أن نذكر أنها كانت في أول الأمر تجبذ الفكرة تحبيذا كاملا ، ربما على سبيل المزاح ، أو على سبيل التسلية) . ولكن ما انقضى على ذلك الفراق شهران ، حتى كان يطرح على نفسه بيطرسبرج هذا السؤال : أحقا أحب تلك المرأة أم أن ذلك لم يكن الا نوعا من « السحر » ؟ ولم يطرح فلتشانينوف على نفسه ذلك السؤال عن خفة وطيش ، ولا بتأثير هوى جديد اشتعلت فاره في نفسه : لقد كان خلال هذين الشهرين في بطرسبرج ، خارجا عن طوره حقا ، ولعله كان لا يولى النساء أى التفات ، رغم أنه جدد علاقاته القديمة فورا وأتيح له أن يرى مئات النساء . ثم انه كان يعلم كل العلم ، رغم جميع الشكوك التي قامت في نفسه ، أنه لو عاد الى ت . . لاستعبده ، مرة أخرى ، فتنة تلك المرأة التي تستبد بالنفس . حتى لقد ظل مقتنعا بذلك بعد خمس سنين . غير أنه كان

عندئذ لا يعترف لنفسه بهذا الا ويغضب ، وكان لا يستطيع أن يتذكر « تلك المرأة » الا ويشعر نحوها بالكراهة والبغض . كان يخجل من هذه السنة التي قضاها في ت . . ولا يستطيع أن يتصور كيف أمكن أن يستبعد فلتشانيوف هوى « غبى » كهذا الهوى . كان يعدّ جميع الذكريات التي تتصل بهذا الهوى مخلة بالكرامة موجبة للخجل ، فكان اذا تذكرها يحمر وجهه احمرارا شديدا ، حتى ليكاد يبكى ، وكان يفرق نفسه بألوان من اللوم الموجه والتقريع المؤلم . ولكنه شعر بعد بضع سنين بشيء من الهدوء ، فلقد حاول أن ينسى كل شيء ، وظفر بذلك تقريبا . وها هو كل شيء ينبعث الآن فجأة ، بعد تسع سنين ، انبعاثا غريبا ، حين علم بموت ناتاليا فاسيليفنا .

جلس على سريره ، وغزته أفكار مشوشة كانت تتسارع في ذهنه مزدحمة ، فكان لا يحس احساسا واضحا ولا يفهم فهما واضحا الا شيئا واحدا ، هو أن موت هذه المرأة ، رغم ما أحدثته فيه النبا من « اضطراب » ، لم يؤثر فيه ، ولا أحزنه فكان يتساءل : « أنا لا أشعر اذن حتى بشيء من الأسف لموتها » . الحق أنه أصبح يستطيع الآن ، بعد أن مضى كرهه لها وحقده عليها ، أن يقضى في أمرها برأى أقرب الى الحياد والانصاف . كان رأيه الذي قام في ذهنه منذ مدة طويلة خلال هذه السنين التسع من الفراق ، هو أن ناتاليا فاسيليفنا واحدة من سيدات الريف العاديات جدا ، واحدة من سيدات المجتمع « الراقى » في الريف : « من يدرى ، قد تكون كذلك حقا ، وقد أكون أنا الشخص الوحيد الذي صنع

لنفسه عنها أفكارا خيالية » . وكان يقدر دائما مع ذلك أن رأيه هذا قد يشتمل على بعض الخطأ . وهو يحس ذلك الآن . ثم ان الوقائع جاءت تكذب ذلك الرأى : لقد قامت بينها وبين باجاوتوف هذا علاقة أخرى دامت بضع سنين . لقد « فتن » باجاوتوف هذا أيضا بها . وباجاوتوف ينتمى فى الواقع الى أعلى طبقة بطرسبرجية . ولما كان « شخصا تافها تماما » (هكذا كان يقول عنه فلتشانينوف) فانه كان لا يستطيع أن يعيش حياة ناجحة الا فى بطرسبرج ، ومع ذلك ازدرى بطرسبرج هذه التى تعده بكثير من المزايا والمنافع ، وعاش فى ت .. خمس سنين من حياته ، فى سبيل هذه المرأة وحدها .. ولعله لم يعد الى بطرسبرج ، الا بعد أن رُمى ، كما « يرمى حذاء أصبح من البلى بحيث لا يصلح أن ينتعل » . فلا بد اذن أن يكون فى هذه المرأة شئ خارق ، هو القدرة على الاجتذاب والاختضاع والسيطرة .

ومع ذلك كان يلوح أنها لا تملك ما به تجذب وتستعبد : انها لم تكن على حظ كبير من الجمال ، ولعلها لم تكن على أى حظ من الجمال . كانت فى الثانية والعشرين من عمرها حين رآها فلتشانينوف . كان فى وجهها حين ينتعش ويتحرك نوع من الفتنة . على أنه لا يمتاز بحسن كثير . الا أن عينيها كانتا منفرتين : كان فى نظرتها قسوة مفرطة . وكانت نحيلة جدا . وكان نموها العقلى ضعيفا . كان لها فكر نافذ ولا شك ، ولكنه فكر متعصب ضيق فى أكثر الأحيان . وكان سلوكها سلوك امرأة ريفية راقية ، ولكنها تمتاز ، الى ذلك ، بكثير من الرهافة ، واللباقة ، والحق يقال .

وكان لها ذوق لطيف . ولكن هذا الذوق اللطيف لا يظهر الا في ملابسها ، فلقد كانت تعرف كيف تلبس .. وكان طبعها يتصف بالجزم والسيطرة : انك لا تستطيع أن تتفاهم معها في أى أمر من الأمور نصف تفاهم : « اما كل شيء ، واما لا شيء » . وكانت كريمة كرما كبيرا . ولكنها كانت الى ذلك ظالمة ظلما شديدا : يستحيل عليك أن تتناقش مع هذه السيدة : ان 2×2 لا معنى لها عندها . لم يتفق لها يوما أن عدت نفسها على خطأ ، حتى لكأنها معصومة من الزلل . كانت خياناتها المستمرة الكثيرة لزوجها لا تثقل على ضميرها . كان فلتشائينوف يشبهها هو نفسه بتلك « العذراوات » ، عذراوات « الخلستيس » * اللواتى يعتقدن مخلصات أنهن « أمهات الرب » . كانت وفية لعشاقها ، الى أن تشبع منهم . وكان يلذ لها أن تعذبهم ، ثم سرعان ما تكافئهم . ان طبيعتها جامحة قاسية شهوانية . كانت تكره الفجور ، وتستنكره استنكارا شديدا ، ولكنها كانت فاجرة . وما من شيء كان يمكن أن يحملها على التسليم بأنها فاجرة . « من المحقق أنها تجهل ذلك ، صادقة كل الصدق » . هذا ما كان يقوله فلتشائينوف لنفسه حين كان لا يزال فى ت .. (ويجب أن نذكر ، عابرين ، أنه كان يقول ذلك لنفسه حين يشارك فى فجورها) . وكان يقول لنفسه أيضا « هذه امرأة من أولئك النساء اللواتى كأنما خلقن ليخضع أزواجهن . ان أولئك النساء لا تنزل بهن القدم ما دمن بنات لم يتزوجن بعد . ان طبيعتهن تقضى بأن لا يقع لهن هذا الا حين يتزوجن . ان زوج احدهن هو أول من يعاشرها ، ولكن بعد الزواج ، لا قبله . وما من فتاة

تتزوج مثلما يتزوجن ببراءة وسهولة . والزوج هو المسئول عن العشيقة الأول . ويجرى كل شيء بصدق وإخلاص ، فهن لا يرين انهن تنكبن طريق الواجب ، أو أن ما يعملنه ليس من حقهن .. وهن يعددن أنفسهن بريئات كل البراءة ، بطبيعة الحال .. » ..

كان فلتشائينوف مقتنعا بوجود هذا النموذج من النساء حقا ، ولكنه كان موقنا أيضا بوجود نموذج من الأزواج يقابل هذا النوع من النساء ، نموذج من الأزواج ليس لوجوده من مبرر غير الانطباق على هذا النموذج من النساء . وكان من رأيه أن الصفة الأساسية في هؤلاء الرجال هي أن أحدهم « زوج أبدي » ان صح التعبير ، أو قل انه ليس في الحياة الا زوجا . « ان رجلا من هذا النموذج لا يولد ولا ينمو الا ليتزوج وليصبح تنمة لزوجته ، ولو كان يملك طبعاً خاصاً لا مشاحة فيه . ان العلامة التي تميز زوجاً مثله هي زينة» ما في رأسه . فيستحيل عليه أن لا يكون له قرنان ، كما يستحيل على الشمس أن لا تضيء . وهو لا يجهل ذلك دائماً فحسب ، بل لا بد أن يجهله ، بحكم قوانين طبيعته » . كان فلتشائينوف يؤمن ايماناً جازماً بوجود هذين النموذجين ، وبأن بافل بافلوفتش تروسوتسكى كان في ت .. يمثل أحدهما . غير أن بافل بافلوفتش الذى جاءه أمس ، يختلف اختلافاً واضحاً عن بافل الذى عرفه في ت .. لقد رأى فلتشائينوف أن الرجل تبدل تبديلاً هائلاً ، ولكنه يعرف أن هذا التبدل أمر كان لا بد أن يقع ، وأنه طبعى تماماً : ان السيد تروسوتسكى لا يمكن أن يكون الآن ما كان أثناء حياة

زوجته . انه لا يمثل الآن الا جزءا من كل ، جزءا تترك في العالم شيئا غريبا لا يشبهه شيء .

أما باقل بافلوفتش الذي كان في ت .. فاليكم الصورة التي احتفظ بها فلتشائينوف عنه ، وأخذ يتذكرها الآن :

في ت .. لم يكن باقل بافلوفتش الا زوجا ، ولا شيء غير ذلك ولئن كان عدا هذا موظفا ، مثلا ، فما ذلك الا لأن أعماله جزء من واجباته زوجا . لقد دخل الوظيفة لأنه نظر بعين الاعتبار الى مركز زوجته في مجتمع ت .. رغم أنه كان ، بحسب ذاته ، موظفا نشيطا شديد الحماسة لعمله . كان عمره حينذاك خمسة وثلاثين عاما ، وكان يملك بعض الثراء ، بل كانت ثروته ضخمة بعض الشيء . لم تكن له كفءات بارزة ، ولكنه لم يكن عاجزا عاجزا بارزا كذلك . وكانت له صلات بالمجتمع الراقى ، وكان يعيش حياة عريضة . وكان الناس في ت .. يقدرون ناتاليا فاسيليفنا كثيرا ، ولكنها كانت لا تحفل بهذا كبير احتفال ، وتعد اعتبار الناس لها حقا من حقوقها . كانت تحسن الاستقبال ، وقد روضت باقل بافلوفتش حتى أكسبته كثيرا من اللباقة ، فصار يجيد استقبال أضخم قبعات ت .. اذا اقتضى الأمر ذلك . ولعله كان ذكيا أيضا (هكذا كان يقول فلتشائينوف لنفسه) ، ولكن ناتاليا فاسيليفنا كانت لا تحرص على أن يتكلم زوجها كثيرا ، فكان الناس لا يلاحظون ذكاه . ولعله كان نعم بعدد من المزايا الطبيعية ، كما كان يتصف ببعض العيوب ، أما المزايا فكانت مغطاة بدثار ان صح التعبير ، وأما العرائز السيئة فقد خُنت خنقا كاملا على وجه التقريب . يتذكر فلتشائينوف ، مثلا أن

السيد تروسوسكى كان يحاول فى بعض الأحيان أن يهزأ بجاره ، ولكن ذلك كان محظرا عليه بقسوة . وكان يجب فى بعض الأحيان أن يروى قصصا ، ولكن ذلك كان مراقبا أيضا : كان لا يسمح له بأن يقص الا حكايات ليس لها دلالة . وكان يجب أن يجتمع ببعض الرفاق خارج البيت ، بل كان يميل الى الشرب مع هؤلاء الرفاق ، ولكن هذه الميول قد اجتثت من جذورها . ومع ذلك ، اذا نظر المرء الى المظاهر وحدها ، لم يدر فى خلده أن الرجل تحت حذاء زوجته . كانت ناتاليا فاسيليفنا تبدو زوجة مطيعة ، ولعلها كانت تعتقد هى بذلك اعتقادا صادقا . ولعل بافل بافلوفتش كان يحب زوجته حبا يبلغ حد الجنون ، ولكن لم يكن فى وسع أحد أن يلاحظ ذلك : كان يستحيل أن يعرف أحد شيئا عن هذا ، ربما بفضل الاجراءات التى تتخذها ناتاليا فاسيليفنا بهذا الصدد . لقد تساءل فلتشيانينوف مرات كثيرة ، أثناء اقامته فى ت . هل يشبه الزوج بعض الاشتباه فى علاقاته بزوجته . حتى لقد طرح هذا السؤال غير مرة على ناتاليا فاسيليفنا بكثير من الجد ، فكانت تضيق ذرعا بالسؤال وتجيبه بأن زوجها لا يعرف شيئا ولا يمكن أن يعرف شيئا ، وأن هذا كله « لا يعنيه أبدا على أية حال من الأحوال » . وثمة شيء آخر طريف ، هو أنها كانت لا تسخر أبدا من بافل بافلوفتش ، ولا تجد فيه أى شيء يثير الضحك أو يبعث على النفور ، ولو تجرأ أحد فنال منه أو لم يتأدب معه لدافعت عنه دفاعا حارا . ولم يكن لها أولاد ، لذلك أصبحت سيدة من سيدات « الصالونات » فحسب . ولكنها كانت تحرص على حياتها المنزلية

أيضا . ان ملذات الصالونات لم تكن تستغرقها كل الاستغراق ، وكانت تحب أن تعنى بمنزلها وبأعمال السيدات . لقد ذكر بافل بافلوفتش أمس قراءاتهم العائلية عند المساء في ت .. وهذا صحيح : لقد كان فلتشائينوف هو الذى يتولى القراءة في بعض الأحيان ، وكان بافل بافلوفتش يتولاهما في أحيان أخرى : كان بافل بافلوفتش يقرأ فيجيد القراءة ، وكان فلتشائينوف يعجب من ذلك أشد العجب . أما ناتاليا فاسيليفنا فكانت تتابع القراءة بهدوء وانتباه مع استمرارها على التطريز في أكثر الأحوال . كانوا يقرأون روايات لديكنز ، ومجلات روسية ، وكانوا يقرأون في بعض الأحيان أشياء « جدية » . وكانت ناتاليا فاسيليفنا تقدر ثقافة فلتشائينوف كثيرا ، ولكنها لا تتحدث في ذلك . كان ذلك أمرا مقررًا ، مسلما به ، لا داعى الى الكلام فيه . كانت ناتاليا فاسيليفنا قليلة الاحتفال بكل ما هو علم وكتب ، كأن هذه الأمور لا تعنيها ، رغم ما قد يكون لها من فائدة . أما بافل بافلوفتش فقد كان يحبها حب هوى في بعض الأحيان .

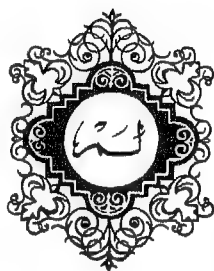
وقد انتهت هذه العلاقة فجأة ، حين بلغ حب فلتشائينوف أقصى درجاته ، حتى كاد يصير الى جنون . طُرد بغتة ، ببسالة ، رغم أن كل شيء قد رتب ترتيبا من شأنه أن يجعله يسافر دون أن يعرف انه « رُمى كما يرمى حذاء أصبح من البلى بحيث لا يصلح أن يستعمل » . لقد ظهر في ت .. قبل سفره بشهر ونصف شهر ضابط من ضباط المدفعية أنهى دراساته في مدرسة الفتيان منذ برهة وجيزة . وأخذ هذا الضابط يتردد الى بيت تروسوتسكى ، فأصبح

العدد الآن أربعة لا ثلاثة . وكانت ناتاليا فاسيليفنا تستقبل الفتى بترحيب وحفاوة ، ولكنها كانت تعامله كما يعامل الأطفال ، فلم يشك فلتشائينوف في شيء . ثم ان ثمة شيئا آخر كان يشغل باله ، ذلك أنه أبلغ فجأة أن الفراق أصبح أمرا لا بد منه . وقد أوردت ناتاليا فاسيليفنا مئات من الحجج للتدليل على أن سفر فلتشائينوف يجب أن يتم بسرعة ، وكانت احدى تلك الحجج أنها حبلى : كانت تعتقد أنها حبلى ، فلا بد اذن أن يغيب فوراً ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر على الأقل ، وذلك حتى لا يراود الزوج بعد تسعة أشهر أى شك اذا حاول أحد أن يشى بها . وكانت الحجة ضعيفة . وقد اقترح فلتشائينوف عليها أن تهرب معه الى باريز أو الى أميركا ، بتأثير ما كان يتأجج في نفسه من حب عنيف . ولكنه سافر بعد ذلك وحده الى بطرسبرج ، شريطة أن لا يغيب الا « مدة قصيرة جدا » أى ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر في أكثر تقدير ، والا لما سافر قط ، رغم جميع الحجج والأدلة التى يمكن ابدائها . وبعد شهرين تماما تلقى في بطرسبرج رسالة من ناتاليا فاسيليفنا ترجوه فيها أن لا يعود أبدا الى ت . . لأنها تحب الآن شخصا آخر . أما عن حملها ، فقد قالت فى الرسالة انها كانت على خطأ . ولم يكن فلتشائينوف فى حاجة الى هذا الشرح . ان كل شيء غدا واضحا : لقد تذكر الضابط الصغير . انتهى الأمر الى الأبد . وقد علم فلتشائينوف بعد بضع سنين أن باجوتوف الذى كان فى ت . . قد مكث فيها خمس سنين . وعلل طول مدة هذه العلاقة بأن ناتاليا فاسيليفنا كانت بسبب تقدمها فى السن تزاد تعلقا بعشيقها حتما .

ظل فلتشائينوف جالسا على سريره قرابة ساعة . فلما ثاب الى نفسه ، قرع الجرس لماقرا ، فجاءته بقهوته ، فاحتساها بسرعة ، وارتدى ملابسه وخرج فى الساعة الحادية عشرة تماما ، ليمضى باحثا عن فندق بوكروفسكى . لقد راودته فى هذا الصباح فكرة جديدة حول هذا الموضوع . ثم انه كان خجلا بعض الخجل من طريقته فى استقبال بافل بافلوفتش ، الليلة البارحة . فيجب اخراج هذا كله الى النور .

كان يقول لنفسه الآن ان قصة القفل كلها ، هذه القصة العجيبة ، لم تكن الا بنت الصدفة ، لم تكن الا ثمرة سكر بافل بافلوفتش ، وثمره شىء آخر أيضا . ولكنه على وجه الاجمال لا يتصور تصورا واضحا الغاية التى يهدف اليها من مضيئه الى تجديد علاقاته بالزوج السابق ، رغم أن كل ما بينهما قد انتهى نهاية طبيعية جدا . كان ثمة شىء يجره الى ذلك جرا . لقد شعر شعورا خاصا ، وكان هذا الشعور بعينه علة ذلك الاندفاع .

ليذا



يخطر ببال بافل بافلوفتش أن « يرحل »
 عن الفندق . ولا يعلم الا الله لماذا طرح عليه
 فلتشائينوف هذا السؤال أمس . حقا لقد كان
 مضطرب الفكر . وفي دكان صغير ، قرب ميدان
 بوكروف ، دلوه على فندق بوكروفسكى الذى يقع على بعد بضعة
 خطوات ، فى شارع صغير . وقيل له فى الفندق ان السيد
 تروسوتسكى ينزل فى غرفة مؤثثة عند امرأة يقال لها ماريا سيسويفنا ،
 بملحق يقع فى آخر الفناء . فبينما هو يصعد الى الدور الثانى
 الذى فيه الغرف المؤثثة ، على سلم حجرى ، ضيق ، قذر ، تغطيه
 الأوساخ ، سمع فجأة صوت بكاء . انه بكاء طفلة فى السابعة
 أو الثامنة من عمرها . وكان البكاء أليما . كان نشيجا مخنوقا ،
 ينفجر فجأة ، ويختلط به صراخ حائق ، حاد ، أجش ، ينطلق من
 رجل ، كما تختلط به دبدبات أقدام على الأرض . يلوح للمرء أن

الرجل يحاول أن يسكت الطفلة ، ولا يريد أن يسمع أحد " بكاءها ، ولكنه يحدث من الصخب أكثر مما تحدث ، مع محاولته ضبط نفسه . كانت الصرخات وحشية ، وكان يبدو أن الطفلة تتوسل الى الرجل أن يصفح عنها . فلما دخل فلتشائينوف في رواق ضيق على جانبيه بابان مفتوحان ، صادف امرأة طويلة بدينة مكشوفة الصدر ، فسألها عن بافل بافلوفتش ، فأشارت باصبعها الى الباب الذي كان يسمع من ورائه البكاء . ان هذه المرأة تبلغ الأربعين من العمر ، كان وجهها الكشيف المحمر يعبر عن شيء من الاستياء والاستنكار . قالت بصوت خفيض وهى تهبط السلم :

— أنظروا كيف يتسلى !

همّ فلتشائينوف أن يطرق الباب ، ولكنه عدل عن ذلك ، وفتحته على حين فجأة . فرأى بافل بافلوفتش واقفا في وسط غرفة صغيرة ، مزدحمة بأثاث ملون بألوان فظة غليظة . لم يكن بافل بافلوفتش مرتديا ملابسه كاملة : كان بلا صدرية وبلا سترة . وكان وجهه أحمر يشيع فيه الغضب والحقن . كان يصرخ ويحرك يديه ، حتى لكأنه يشد قبضتيه ليضرب بهما ، (هذا ما بدا لفلتشائينوف) محاولا أن يسكت طفلة صغيرة في نحو الثامنة من العمر . وكانت الطفلة ترتدى ثوبا فقيرا ، ولكنه ثوب آنسة مع ذلك ، ثوب قصير من الصوف الأسود . كان يبدو أنها في نوبة عصبية ، كانت تمد يديها نحو بافل بافلوفتش ناشجة منتجة ، كأنها تريد أن تشده اليها ، وأن تعانقه متضرعة . وما هى الا طرفة عين حتى تبدل هذا كله : فما ان رأت البنية شخصا غريبا حتى

صرخت ، ومقرت كالسهم الى غرفة مجاورة . أما بافل بافلوفتش فقد ذهل عن نفسه لحظة ، ثم ما لبث أن انبسط وجهه بابتسامة عذبة كأمس تماما ، حين فتح فلتشائينوف باب السلم فجأة عليه .

صاح دهشنا :

— ألكسى ايفانوفتش . حقا لم أكن أتوقع أن تجيء الآن ..
اجلس هنا . هنا على هذا « الديوان » أو على ذلك المقعد ، وأنا ..
قال ذلك وأسرع يرتدى سترته ، ناسيا أن يلبس الصدرية ..

— لا داعى الى الرسميات ! ابق كما أنت !

قال فلتشائينوف ذلك وجلس على كرسى .

— لا ، لا . اسمح لى ببعض الرسميات . هأنذا الآن على ما يفتضى الأدب . ولكن لماذا جلست بعيدا فى ذلك الركن ؟ اجلس على هذا المقعد قرب المائدة .. نعم .. حقا لم أكن أنتظر أن تجيء ..

— لماذا لم تكن تتوقع أن أجىء ؟ لقد قلت لك أمس اننى سأجىء اليوم ، فى هذه الساعة بعينها .

— قدرت أنك لن تجيء ، وحين أدركت عند يقظتى فى هذا الصباح كل ما جرى أمس ، فقدت كل أمل فى رؤيتك بعد ذلك أبدا ..

كان فلتشائينوف يلاحظ الغرفة أثناء ذلك . كانت الغرفة فى فوضى شاملة ، فالسرير لم يرتب ، وفى كل مكان ملابس ألقيت على غير هدى . والمائدة حافلة بكؤوس وثقالات قهوة ، وفتات خبز ،

وزجاجة شمبانيا مفتوحة ، فارغ نصفها ، والى جانبها قدح . وألقى
فلتشانينوف نظرة على الغريفة المجاورة ، ولكن كل شيء كان فيها
ساكنا ، فقد صمتت الطفلة .

— هل كنت تشرب ؟

قال فلتشانينوف ذلك وهو يشير الى زجاجة الشمبانيا .
فاضطرب بافل بافلوفتش ، وقال :

— هذه بقايا ..

— ما أكثر ما تغيرت !

— عادات سيئة .. اعتدتها فجأة . منذ ذلك . لا أكذب .
يستحيل على أن أمنع نفسي . لا تخف يا ألكسى ايفانوفتش . لا ،
لست الآن سكران ، ولن أقول كلاما سخيفا كالذى قلته أمس في
بيتك . ولكننى أقول لك الحقيقة يا ألكسى ايفانوفتش : لقد بدأت
هذه العادة منذ ذلك . ولو قد قال لى أحد ، قبل ستة أشهر
فحسب ، أننى سأنززع هذا التزعزع كله ، لو أرانى أحد وجهى
فى المرأة ، لما صدقته !..

— اذن كنت أمس سكران .

قال بافل بافلوفتش يعترف بصوت منخفض ، وهو يفض طرفه
خجلا :

— نعم ! ولكننى لم أكن سكران تماما ، لأننى شربت قبل أن
أجىء اليك بوضع ساعات . أقول لك ذلك ، لأن الحالة عندى
تزداد سوءا بعد السكر : فمتى ذهب السكر أصبحت شريرا

قاسيا ، وصرت كالمجنون . وعندئذ يتفاقم حزنى . ولعل هذا الحزن هو الذى يحملنى على الشرب . اننى أصبح قادرا على ارتكاب أسوأ الحماقات ، وأسعى الى المشاجرات . ألم أبد لك غريبا أمس ؟

— ألا تتذكر ؟

— كيف لا ؟ اننى أتذكر كل شىء .

قال فلتشانينوف بلهجة لطيفة مصالحة :

— ها .. هذا ما قدرته ، وهذا ما فسرت به الأمور يا بافل بافلوفتش . ولقد كنت أنا أيضا مهتاجا بعض الاهتياج أمس وكنت نافذ الصبر .. أسلم لك بذلك . اننى أشعر فى بعض الأحيان بانقباض شديد ، ثم ان زيارتك فى الليل ، على غير توقع .. فهز بافل بافلوفتش رأسه كأنه يدهش من نفسه وكأنه يلوم نفسه :

— نعم ، فى الليل ! وما الذى دفعنى الى هذا ؟ على أننى ما كان يمكن أن أدخل عليك بحال من الأحوال ، لولا أنك أنت فتحت الباب .. كنت سأمضى ما فى ذلك شك . وقد سبق أن جئت قبل ذلك يا ألكسى ايفانوفتش ، منذ أسبوع تقريبا ، فما وجدتك . ولكن كان يمكن أن لا أعود أبدا . ان لى كبريائى يا ألكسى ايفانوفتش ، رغم أننى فى الحالة التى أنا فيها . لقد التقينا فى الشارع ، ولكننى قلت لنفسى : « واذا لم يعرفنى .. اذا أشاح بوجهه عنى .. ذلك أنها تسع سنين .. مدة ! » فلم أعزم أمرى على

التعرض لك . أما أمس فقد كنت راجعا من الضاحية ، وكنت قد فقدت احساسى بالزمن تماما . والمسئول عن ذلك هو هذه (أشار الى الزجاجة) وعواطفى . انها لغاوة ! انها لغاوة شديدة ! ولو فعلت ذلك مع غيرك ، لفقدت كل أمل فى تجديد التعارف . أما أنت فقد تذكرت الماضى فجئت الى ، رغم كل ما حدث أمس . كان فلتشائينوف يصغى الى كلامه بانتباه . وكان يبدو أن الرجل يعبر عن شعوره تعبيرا صادقا ، حتى لقد كان فى كلامه شىء من الرصانة والوقار . ولكن فلتشائينوف كان لا يصدق حرفا مما يقول ، منذ دخل عليه .

— قل لى يا بافل بافلوفتش ، ألسنت اذن وحدك هنا ؟ لمن هذه البنت التى رأيتها عندك منذ برهة ؟

فدهش بافل بافلوفتش كثيرا ، ورفع حاجبيه ، وألقى على فلتشائينوف نظرة صافية بشوشا :

— لمن هذه الطفلة ؟ انها ليزا .. ليزا ..

قال ذلك وهو يتسم ابتسامة لطيفة .

فدمدم فلتشائينوف يقول وقد شعر بشىء يهتز فى نفسه :

— أى ليزا ؟

كان شعورا مباغتاً . انه حين دخل منذ لحظة ، فرأى ليزا ، دهش بعض الدهشة ، ولكن لم يساوره أى شعور خاص ، لم تراوده أية فكرة خاصة . فكرر بافل بافلوفتش يقول ، وهو لا يزال يتسم :

— ولكنها ليزا ، بنتنا ليزا !

— بنتك ؟ ولكن هل .. هل أنجبت ناتاليا فاسيليفنا ؟

سأل فلتشائينوف هذا السؤال خجلا مترددا ، بصوت مختنق بعض الاختناق .

— كيف ؟ ها .. نعم . الحق معك . وكيف كان يمكن أن تعرف ذلك ؟ نعم ، بعد سفرك انما من علينا الله بها .

وارتجف بافل بافلوفتش على كرسیه ، كأن انفعالا قويا هز نفسه ، ولكنه انفعال ممتع .

قال فلتشائينوف :

— لم أكن اعرف ذلك .

وامتقع وجهه .

قال بافل بافلوفتش بصوت رقيق عذب :

— صحيح ، صحيح . من ذا الذى كان يمكن أن ينبك بذلك ! أنت تذكر أننا ، أنا والمرحومة ، كنا قد فقدنا كل أمل ، ولكن الله أنعم علينا . آه .. لا يدرك الا الله ما شعرت به عندئذ من عواطف ! كان ذلك بعد سفرك بسنة تماما ، لا بل بعد سفرك بأقل من سنة . أظن ، اذا لم تخدعنى ذاكرتى ، أنك تركتنا فى شهر تشرين الأول (أكتوبر) .. أم فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ؟

— سافرت من دت .. فى أوائل ايلول ، فى ١٢ ايلول (سبتمبر) . أتذكر ذلك جيدا ..

— فى ايلول ؟ صحيح ؟ كنت أظن . .

قال ذلك بافل بافلوفتش دهشا كل الدهشة ، وأردف :

— اذا صح ذلك .. اذن أنت سافرت فى ١٢ ايلول ، وليزا ولدت فى ٨ أيار (مايو) .. معنى ذلك : ايلول ، تشرين الأول ، تشرين الثانى ، كانون الأول ، كان الثانى ، شباط ، آذار ، نيسان .. ثمانية أشهر وبضعة أيام . نعم ، هذا هو . ليتك تعلم كم كانت المرحومة.. — أرنىها . اثنتى بها .

قال فلتشائينوف ذلك بصوت منقطع .

فاضطرب بافلوفتش ، وقطع عبارته فجأة ، كأنها لا قيمة لها ، قائلا :

— طبعاً سأتيك بها حالا ، سأقدمها اليك فوراً .

ثم مضى بخفة وحرارة الى غرفة ليزا .

وانقضت ثلاث دقائق أو أربع . كان فى الغرفة الصغيرة همس سريع خافت . وكان صوت ليزا لا يكاد يسمع . قال فلتشائينوف لنفسه : « انها تتوسل اليه أن لا يخرجها » . وظهرا أخيراً .

قال بافل بافلوفتش :

— هى ذى ! انها لا تزال خجلى . أن بها حياة .. وهى صورة المرحومة تماماً ! .

كانت ليزا قد انقطعت عن البكاء . كانت عيناها مطرقتين ، وكان أبوها يجرها من يدها . انها بنية فارعة الطول ، نحيلة القوام ،

بارعة الجمال . رفعت عينيها الواسعتين الزرقاوين نحو فلتشائينوف بسرعة ، ولكنها ما لبثت أن خفضتهما ، بعد أن نظرت اليه نظرة مستطلعة قاتمة . كان في نظرتها ما يلاحظ من جدٍ في الأطفال الذين اذا بقوا وحدهم مع غريب لا يعرفونه جلسوا في ركن من الأركان ، وأخذوا من هنالك يلاحظون ، برصانة وحذر ، الضيف الذى لم يروه من قبل . ولكن لعل نظرتها كانت تشتمل أيضا على شيء آخر ، على فكرة ليست من الطفولة في شيء . فهذا ما بدا لفلتشانينوف الذى جاء بها أبوها اليه .

— عمك هذا قد عرف أمك من قبل . كان صديقنا . فلا تخافى، مدّى يدك اليه .

فانحنت البنت انحناءة يسيرة ، ومدت يدها خجلى .

— لم تشأ نأتاليا فاسيليفنا أن تعلمها كيف تنشى ساقها الى الوراء عند التحية احتراما . كان ينبغى لها ، على الطريقة الانجليزية ، أن تحنى رأسها قليلا وأن تمد يدها .

ذلك ما قاله بافل بافلوفتش لفلتشانينوف وهو يلاحظه يقظا ..

كان فلتشانينوف يعرف أن صاحبه يلاحظه ويراقبه ، ولكن لم يخطر له ببال أن يخفى انفعاله . كان جامدا على كرسيه ، ممسكا يد ليزا بيده ، ينظر الى الطفلة بانتباه شديد . ولكن ليزا تبدو مشغولة الفكر . لقد تركت يدها في يد الرجل الغريب ، ولكنها كانت لا ترفع نظرها عن أبيها ، وكانت تصغى الى كلامه خائفة وجلة. تعرف فلتشانينوف عينيها الواسعتين الزرقاوين على الفور ، ولكن

ما لفت نظره أكثر من أى شىء آخر هو البياض الناصع والنعومة العجيبة فى بشرتها ، وكذلك لون شعرها . ان هذه الصفات ذات دلالة . أما استدارة وجهها وشكل شفيتها فقد ذكره بناتاليا فاسيلينا . كان بافل بافلوفتش لا يزال أثناء ذلك يتكلم منذ مدة طويلة ، ويظهر أنه كان يتكلم بحرارة وعاطفة . ولكن فلتشانينوف كان لا يسمع شيئا ، ولم يدرك الا العبارة الأخيرة :

— لا تستطيع أن تتصور يا ألكسى ايفانوفتش الفرح العظيم الذى شعرنا به حين أنعم الله علينا بهذه الابنة . لقد أصبحت ، منذ ولادتها ، كل شىء عندى . فكنت أقول لنفسى : اذا شاءت ارادة الله أن تذهب عنى سعادتى الهائلة ، فسوفبقى لى ليزا . كنت واثقا من هذا على الأقل !

فسأله فلتشانينوف بقوله :

— وناتاليا فاسيلينا ؟

فانقبض وجه بافل بافلوفتش قليلا ، ثم أجاب :

— ناتاليا فاسيلينا ؟ أنت تعرفها حق المعرفة ، لا شك أنك تتذكر أنها كانت لا تحب أن تظهر عواطفها كثيرا . ولكن ما كان أروع وداعها لها ، وهى على فراش الموت !.. لقد عبرت عندئذ عن كل شىء .. قلت لك « على فراش الموت » .. ولكنها قبل موتها بيوم واحد ، أخذت تضطرب فجأة وتغضب .. قالت اننا نريد أن نقتلها بهذه الأدوية الكثيرة ، وان كل ما بها حمى بسيطة ، وان طبيينا لا يفقهان شيئا ، وانها ستنهض من فراشها بعد أسبوعين ،

متى عاد كوخ (هل تتذكره ؟ طيبينا العسكري ، العجوز القصير ؟) .
وأكثر من ذلك أيضا أنها قبل أن تحتضر بخمس ساعات تذكرت أن
عليها بعد ثلاثة أسابيع أن تزور حتما عمها ، اشبينة ليزا ، بمناسبة
عيد ميلادها ..

نهض فلتشانينوف فجأة دون أن يترك يد ليزا . لقد بدا له أن
في النظرة المحسومة التي تسدها الى أيها شيئا من اللوم .
قال بصوت موجز ، غريب :
— أليست مريضة ؟

فأجاب بافل بافلوفتش ، وقد بدا في وجهه الحزن والهم :
— لا أظن . ولكن شئونا تجرى مجرى .. انها طفلة غريبة
الاطوار ، عصبية منذ الآن . لقد مرضت على أثر موت أمها
اسبوعين .. انها ابنة هستيرية . ومنذ لحظة ، حين دخلت علينا ،
كانت تبكي بكاء عجيبا . هل تسمعين يا ليزا ، هل تسمعين ؟
ولماذا كانت تبكي ؟ لأننى أخرج وأتركها وحدها ، ومعنى هذا ،
فيما تظن ، أننى لا أحبها كما كنت أحبها أثناء حياة أمها . هذا
ما تتهمنى به . أنظر الى هذه الأخيلة التي تنشق في ذهن بنية ينبغي
أن لا تهتم الا بألعابها وعرائسها . ولكن ليس هنا أحد يمكن أن
تلعب معه .

— ولكن كيف تعمل أنت ؟ .. أأنتما وحيدان هنا تماما ؟
— نعم ، وحيدان . ان الخادمة لا تأتي الا لخدمة البيت ،
مرة في اليوم .

— وحين تخرج أنت ، هل تتركها وحدها ؟

— وهل أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟ حين خرجت أمس ، أقفلت عليها هذه الغريفة : ولهذا السبب انما بكينا اليوم . ولكن ما العمل ؟ أحكم في الأمر بنفسك : منذ ثلاثة أيام ، نزلت الى الفناء وحدها من دوني ، فرماها صبي بحجر على رأسها . وفي مرة أخرى ، أخذت تبكي ، وتتوسل الى جميع الناس أن يقولوا لها أين ذهبت . وهذا غير لائق طبعا . أما أنا فأنعم بى .. أخرج لساعة ، ثم لا أعود الا في صباح غد ، كما فعلت أمس . ومن حسن الحظ أن صاحبة البيت استطاعت أن تخرجها أثناء غيابي . استقدمت قفالا فتح الباب . انه لعار ! اننى لأشعر أنا نفسى بأن هذه الأعمال أعمال شيطان لا انسان . وكل ذلك لأن رأسى مضطرب ، نعم ، لأن رأسى مضطرب .

قالت الصغيرة خائفة قلقة :

— بابا .

— عدنا ؟ عدنا ؟ ماذا قلت لك منذ لحظة ؟

قالت ليزا وقد تملكها الذعر ، ومدت يديها نحوه بسرعة :

— لن أفعل ذلك بعد الآن ، لن أفعل ذلك بعد الآن .

عندئذ تدخل فلتشائينوف فى الأمر ، وقد عيل صبره ، فقال بلهجة السيد :

— لا يمكن أن تستمر الحال على هذا المنوال . انك رجل

غنى ، فكيف تعيش هذه المعيشة ، فى هذا الجناح ، ضمن هذه الظروف ؟

— فى هذا الجناح ؟ ولكننا قد نسافر بعد أسبوع ، وقد أنفقنا الى الآن مالا كثيرا ، وهبنى غنيا ..
— كفى كفى !

هكذا قاطعه فلتشانينوف ، وقد ازداد نفاد صبره ، وكأنا أراد أن يفهمه ما يلى : « لا حاجة الى هذا الكلام . اننى أعرف كل ما تريد أن تقوله ، وأعرف الهدف الذى تقصد اليه من قوله » . وأردف :

— اسمع ، سأقترح عليك هذا الاقتراح : لقد قلت الآن انك ستبقى هنا أسبوعا ، وربما أسبوعين . اننى أعرف هنا بيتا هو بيت أسرة كأنها أسرتى ، أعرفها منذ عشرين عاما . رب الأسرة رجل يقال له بوجورلتسييف ، هو مستشار سرى يمكن أن ينفعك فى قضيتك . والرجل وذووه هم الآن فى الريف ، حيث يملكون فيلا رائعة . ان كلافديا بتروفنا بوجورلتسييفهى لى بمثابة أم ، بمثابة أخت . وللأسرة ثمانية أطفال . فدعنى آخذ ليزا اليهم . ذلك حتى لا نضيع الوقت . سيستقبلونها فرحين ، وسيعاملونها كأنها ابنتهم ، خلال هذه المدة كلها ، نعم كأنها ابنتهم .

قال بافل بافلوفتش متكلفا وهو ينظر الى عيني فلتشانينوف نظرة مأكرة ، فيما خيل اليه :

— هذا حقا مستحيل .

— لماذا ؟ لماذا مستحيل ؟

— كيف لماذا ؟ أن أترك الطفلة هكذا ، فجأة ، مع صديق
مثلك ، فهذا ... أوافق عليه ... طبعاً .. أما أن ادعها لأسرة
لا أعرفها ، أسرة من الطبقة الراقية .. فهذا ما أتساءل كيف يمكن
أن يقبل ؟

صاح فلتشائينوف شبه حائق :

— ولكنني ذكرت لك أنني كنت عند هؤلاء الناس كأنتي في
أسرتي . سيسعد كلافديا بتروفنا أن تستقبلها في بيتها ، بكلمة مني ،
كانها ابنتها . تبا لك . انك لتعلم حق العلم أنك لا تقول هذا الكلام
الا ثرثرة . هذا واضح ..

قال ذلك وضرب الأرض بقدمه .

— بل قلت ذلك لأنني أخشى أن يبدو الأمر غريباً . سيكون
على أن أذهب لرؤيتها مرة أو مرتين . فما عساهم يقولون حين
لا يرون الأب . هأها .. وفي بيت ثرى هذا الثراء ..

صرخ فلتشائينوف يقول :

— انها أسرة بسيطة ، وليست « ثرية » .. وقد قلت لك ان
لهم تمانية أولاد . ستتئش البنية .. هذا هو السبب .. سأقدمك
اليهم منذ غد اذا شئت . وسيكون من واجبك أن تذهب اليهم
للشكر . وسنذهب اليهم كل يوم معا اذا أحببت ..

— مع ذلك ..

— كفى سخافة ! أنت تعرف أن هذا سخافة . اسمع : تعال

الىّ هذا المساء ، فنقضى الليلة عندي ، ثم نساfer في ساعة مبكرة من الصباح حتى نصل اليهم ظهرا .

قال بافل بافلوفتش :

— يا لك من رجل لطيف ! نقضى الليلة عندك ؟ هذا لطف
حقا ..

ثم سأل وهو يظهر كثيرا من الرقة والتأثر :

— أين تقع الفيلا ؟

— في ليسنوى * .

— وملابسها ؟ أعند أسرة غنية .. وفي المصيف أيضا ؟ أنت
تعرف .. قلب الأب !

— وما حاجتها الى ملابس أخرى ؟ انها تلبس الآن السواد .
هل تستطيع أن تلبس غير هذه الملابس ؟ ان ثيابها مناسبة . كل
ما تحتاجه بعض البياض ووشاح صغير (الحق أن بياضها ووشاحها
في غاية الوساخة) .

أسرع بافل بافلوفتش يقول :

— حالا . ستغير ملابسها فورا . وسأهيء لها بياضا للتبديل .
انه في الغسيل ، عند ماريا سيسويفنا .

قاطعه فلتشانينوف يقول :

— يجب اذن أن نستدعى عربة . بأقصى سرعة ان أمكن
ذلك .

الا أن عقبة ظهرت . لقد اعترضت ليزا على الفكرة . كانت تتابع الحديث مذعورة . ولو اتيح لفلتشانينوف أن ينظر الى وجهها أثناء محاولته اقناع بافل بافلوفتش ، اذن لرأى الحزن الشديد الذى كان يعبر عنه هذا الوجه الصغير .

قالت بصوت ضعيف ولكنه جازم :

— لن أذهب .

— هل ترى ؟ هل ترى ؟ انها صورة أمها .

— لا ، لست صورة أمى ، لست صورة أمى !

هكذا صرخت ليزا ، وقد بلغت غاية الحزن والغم ، وهى تعض يديها الصغيرتين ، كأنها تحتج أمام أبيها احتجاجا قويا على هذا الاتهام الفظيع بأنها تشبه أمها . ثم أضافت :

— اذا تركتنى يا أبت ..

وهرعت فجأة نحو فلتشانينوف الذى أصيب بذعر شديد .

— اذا أخذتنى ، فسوف ..

ولكنها لم تستطع أن تكمل كلامها ، فقد أمسك بافل بافلوفتش يدها ، وجرها الى الغريفة المجاورة دون أن يخفى حنقه وغيظه وهناك قام مرة أخرى همس وبكاء مخنوق . وهم فلتشانينوف أذ يدخل عليهما ، فاذا ببافل بافلوفتش يخرج ، ويقول له بابتساما مكشرة ان الصغيرة ستأتى حالا . فحاول فلتشانينوف أن لا ينظر اليه ، وحول بصره عنه .

دخلت ماريا سيسوينفا ، وهى تلك المرأة نفسها التى لقيها
داخلا الى الرواق . فوضعت فى حقيبة صغيرة جميلة البياض
الذى جاءت به الى ليزا . وسألت فلتشائينوف :

— أأنت الذى تأخذ الطفلة يا عم ؟ هل لك أسرة ؟ انك تحسن
صنعا أيها العم . انها ابنة دمتة لطيفة . وانك لتتقدها من جسيم .
فتمتم بافل بافلوفتش يقول ملجلا :

— ماذا تقولين يا ماريا سيسوينفا ؟

— نعم ، ماذا ؟ ماريا سيسوينفا ! كل الناس يعلمون أن هذا
اسمى . أليس ججيما بيتك ؟ هل يليق أن تشهد طفلة تفهم كل شيء ،
هل يليق أن تشهد مثل هذه الفضائح ؟ لقد استدعينا لك عربة يا عم .
هل السفر الى ليسنوى ؟

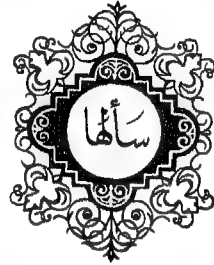
— نعم نعم .

— أتمنى لك سفرا سعيدا .

وظهرت ليزا شاحبة اللون ، خافضة الطرف ، فتناولت حقيبتها
الصغيرة ، دون أن تنظر الى فلتشائينوف . وكبحت نفسها ،
فلم تسرع الى أيها لتعاقبه ، كما فعلت منذ قليل ، حتى وهى تودعه.
كانت لا تريد أن تنظر اليه . فقبلها بافل بافلوفتش على جبينها
باحترام ، ولعب شعرها . فانمطت شفتا الطفلة لهذه الحركة ،
واختلجت ذقتها ، ولكنها مع ذلك لم ترفع عينيه . كان بافل
بافلوفتش شاحبا بعض الشيء ، وكانت يدها ترتعشان . ولاحظ
فلتشائينوف ذلك رغم أنه بذل كل ما يملك من جهد حتى لا ينظر

اليه . كان لا يريد الا شيئا واحدا ، هو أن يسافر بأقصى سرعة .
وكان يقول لنفسه « لست آثما ، لقد وقع ما كان لابد أن يقع ا » .
ونزلوا . تعانقت ماريا سيسويفنا وليزا ، ولم ترفع ليزا بصرها
الى أبيها بعد أن ركبت العربة . وفجأة ، ضمت يديها ، وانطلقت
منها صرخة . ولو لبثت الخيل ثانية واحدة ، لو ثبتت ليزا من العربة
تسرع نحو أبيها ، ولكن الخيل سارت .

الندوة الجديدة



فلتسائنينوف مذعورا :

— أأنت مريضة ؟ أتريدين أن أستوقف العرب ،

فأطلب لك ماء ؟

فرمته بنظرة عنيفة حارة تفيض لوما وتقريرا .

ثم سألته بصوت لاذع متقطع :

— الى أين تأخذنى ؟

— الى أسرة لطيفة يا ليزا ، تسكن فى فيلا جميلة جدا . وهناك

أطفال كثيرون ، سيحبونك أصدق الحب . انهم أناس طيبون جدا .

لا تزعلنى منى يا ليزا . اننى أريد لك الخير ..

ما أشد ما كان يمكن أن يبدو غريبا فى هذه اللحظة لأولئك الذين

يعرفونه ، لو أتيج لهم أن يروه ! ..

— أنت .. أنت .. آه كم أنت شرير !

هذا ما قالته ليزا وهى تخنق نשיجها وتحقق اليه بعينيها الجميلتين
المتقدتين غضبا .

— ليزا ، أنا ..

— أنت رجل شرير ، شرير ، شرير .

طاش عقل فلتشانينوف .

— ليزا ، حبيبتى ، لو علمت كيف تحزنينى أشد الحزن .

— هل صحيح أنه سيأتى غدا ؟ هل هذا صحيح ؟

قالت ذلك بلهجة جازمة ، فأجابها :

— نعم صحيح ، صحيح . سأتى به أنا نفسى . سأذهب اليه
لأتى به .

فتنمت ليزا وهى تخفض بصرها :

— سيخدعنا !

— أهو لا يحبك يا ليزا ؟

— لا يحبنى .

— هل كان يسىء اليك ؟ هل كان يؤذيك ؟

فنظرت اليه ليزا نظرة قاتمة مظلمة ، وسكنت . وأشاحت بوجهها
مرة أخرى ، وخفضت رأسها باصرار وعناد . وحاول فلتشانينوف أن
يقنعها ، فكان يكلمها بحرارة ، وقد استبد به هو نفسه نوع من الحمى .
كانت ليزا تصغى اليه اصغاء شك وحذر وعداوة . ولكنها كانت تصغى
اليه . وقد سره اتباعها كثيرا . حتى لقد أخذ يشرح لها ما هو الرجل
السكرير . وقال لها انه يحبها ، وانه سيسهر على أبيضها . رفعت ليزا

عينها أخيراً ، ونظرت إليه بائباًه . قصّ عليها كيف عرف أمها ، فلاحظ انها تهتم كثيراً بما يقول . وشيئاً فشيئاً ، أخذت نجيب عن أسئلته ، ولكن اجاباتها كانت حذرة ، بكلمات قليلة ، وبنوع من العناد . أما الأسئلة الهامة فكانت لا تجيب عنها أبداً : كانت تصر على الصمت في كل ما يتصل بعلاقاتها بأبيها . وقد تناول فلتشانيوف يدها بيده أثناء الحديث ، ثم لم يتركها ، فلم تسحبها ليزاً . ثم ان الطفلة لم تبقي صامتة طوال الوقت ، بل أسمعته أخيراً عبارات غير واضحة أنها كانت في أول الأمر تحب أباهما أكثر مما تحب أمها ، لأن أباهما كان في أول الأمر يحبها أكثر مما تحبها أمها ، غير أن أمها ، أثناء موتها ، قد عانقتها عناقاً قوياً جداً وهي تبكي ، حين خرج كل من كان في الغرفة فبقيتا وحدهما .. وأنها تحب الآن أمها أكثر مما تحب أى شيء في العالم ، وانها تزداد حبا لها كل ليلة . غير أن الطفلة كانت في الواقع ذات كبرياء : فلما لاحظت أنها تحدثت أكثر مما كان ينبغي أن تتحدث ، عادت تعتصم بالصمت . حتى لقد رشقت فلتشانيوف الذي حملها على الكلام ، بنظرة حاقدة . فلما أشرف السفر على نهايته ، كانت عصبيتها قد هدأت بعض الهدوء ، ولكنها أصبحت حاملة ذاهلة ، تنظر نظرات وحشية ، ويبدو في وجهها الحزن والعناء . كان يبدو أن أخذها الى اناس لا تعرفهم ولا ذهبت اليهم يوماً ، ليس هو الفكرة التي تشغل بالها الآن ، وان شيئاً آخر كان يؤلمها ويعذبها . وقد فهم فلتشانيوف هذا الشيء . أدرك أنها تشعر بالخجل والعار . كان يخجلها أن أباهما تركها بمثل هذه السهولة ، كأنه يريد أن يخلص منها . قال فلتشانيوف لنفسه : « انها مريضة ، وقد تكون مريضة جداً.. »

ويل لك أيها السكير الجبان ! اننى أفهمك الآن » . وحضّ الحوذى على الاسراع . كان يبنى آمالا كبارا على الفائدة التى ستجنيها من الهواء الطلق فى الريف ، ومن الحديقة ، والأولاد ، والحياة الجديدة.. ثم .. أما ما سيحدث بعد ذلك فما كان يشك فيه : ان مستقبلا مشرقا حافلا بالآمال يلوح الآن أمامه . وكان على كل حال ، واثقا من انه لم يشعر يوما بما يشعر به فى هذه اللحظة ، ومن أن الحياة كلها هى هذا فى نظره ! فكان يقول لنفسه بحماسة : « هذا هو الهدف ! هذه هى الحياة ! » .

كانت الأفكار تتراكم مزدحمة فى ذهنه ، ولكنه كان لا يتوقف عليها ، مصرا على تحاشي التفاصيل . كان كل شيء يبدو واضحا قويا ، بدون هذه التفاصيل . وارتسمت خطته العامة من تلقاء نفسها فكان يقول لنفسه : « يجب أن تؤثر فى ذلك الشقى بتوحيد قواني . سيترك ليذا عند أسرة بوجورلتسيف ، لفترة معينة يحددها فى أول الأمر ، ثم يسافر وحده ، وتبقى لى ليذا . هذا كل شيء . وماذا يجب أكثر من ذلك ؟ ثم .. انه يرغب هو نفسه فى هذا .. والا فلماذا يعذبها ؟ .. » .

وصلت العربة أخيرا . كانت فيلا أسرة بوجورلتسيف تقع حقا فى مكان جميل . ظهر قطيع الأطفال الصاحب على الباب ، وهرع اليهما يستقبلهما أحسن استقبال . ان فلتشافينوف لم يأت اليهم منذ مدة طويلة ، ففرح الأطفال بوصوله فرحا شديدا : لقد كانوا يحبونه هنالك . وصرخ كبارهم ، حتى قبل أن ينزل من العربة ، يسألونه :

— الدعوى ؟ ما جرى للدعوى ؟

واستولى الصغار منهم على هذه الجملة ، فأخذوا يرددونها ضاحكين صارخين . كانوا يناكدونه في موضوع دعواه . ولكنهم ما ان رأوا ليزا حتى أحاطوا بها ، وأخذوا يتأملونها ، باستطلاع صامت منتبه هو ذلك الاستطلاع الذى يعرف به الأطفال . ثم جاءت كلافديا بتروفنا يتبعها زوجها ، فكانت أول كلمة قالها هي سؤاله عن الدعوى أيضا .. مع الضحك .

ان كلافديا بتروفنا سيدة في نحو السابعة والثلاثين من العمر ، سمراء ، متلثة ، ولا تزال جميلة . وجهها نضر متورد . أما زوجها فهو في الخامسة والخمسين . رجل ذكى ، واسع الحيلة ، ماهر ، ولكنه طيب قبل كل شيء . كان فلتشانيوف يشعر عندهم أنه « في منزله » حقا ، على حد تعبيره . وكان لهذا سبب خاص : ان كلافديا بتروفنا قد أوشكت ، منذ عشرين عاما ، أن تتزوج فلتشانيوف الذى لم يكن يومئذ الا صبيا ، طالبا . كان الحب الذى نشأ بينهما أول حب لهما كليهما . وكان حبا حارا ، مضحكا ، جميلا . ولكنها في آخر الأمر تزوجت بوجورلتسيف . وبعد خمس سنين التقيا من جديد ، فقامت بينهما صداقة رائعة هادئة . وقد بقى لهما من ذلك الحب مودة كانت تضىء ما بينهما من صلات الصداقة . كان كل شيء تقيا لا غبار عليه ، في ذكريات فلتشانيوف عن ذلك الماضى ، وكان فلتشانيوف يحرص على هذا أشد الحرص ، خاصة لأنه ربما كان الاستثناء الوحيد في حياته .. هنا ، في هذه الأسرة ، كان فلتشانيوف بسيطا ، سادجا ، طيبا . كان يهتم بالأولاد ، وكان موقفه صادقا وصريحا ، دائما . وقد

أقسم لأسرة بوجور لتسيف يوما ليحيئن اليهم عاجلا أو آجلا ، فيسكن معهم ، ويقيم عندهم الى آخر الحياة . وكان يفكر في هذا الأمر تفكيراً جاداً .

قصّ عليهم ، تفصيلاً ، كل ما يجب أن يعرفوه عن ليزا . وكان حسبه ، على كل حال ، أن يبدى رغبة من الرغبات ، دون الدخول في شروح طويلة . فقَبَّلت كلافديا بتروفا « اليتيمة » ، ووعدت أن تعمل كل ما في وسعها أن تعمله . واستولى الأطفال على ليزا ، وقادوها الى الحديقة تلعب معهم . وبعد حديث حار ، دام نصف ساعة ، نهض فلتشائينوف مستأذناً بالانصراف . كان شديد نفاد الصبر ، فلاحظوا جميعاً ذلك . ودهشوا : لقد طال غيابه عنهم ثلاثة أسابيع ، وها هو ذا يتركهم بعد نصف ساعة من وصوله اليهم . كان يضحك ، ويحلف ليعودن غداً . فذكروا له أن في وجهه علامات انفعال شديد . فأمسك يدي كلافديا بتروفا فجأة ، وادعى أن ثمة أمراً هاماً نسي أن يحدثها عنه ، وسار بها الى الغرفة المجاورة .

— هل تتذكرين ما أفضيت به اليك وحدك ، وما يجهله زوجك نفسه ، عن موضوع السنة التي قضيتها في ت ٩٠٠ .

— أتذكره تماماً ، فلقد كنت تتحدث عنه أحيانا كثيرة .

— لم أكن أتحدث اليك عنه ، وانما كنت أبوح لك به ، لك وحدك . اننى لم أذكر لك اسم تلك المرأة . فاعلمى الآن أن زوجة هذا الرجل ، تروسوتسكى ، هى التى ماتت ، وأن ليزا ابنتها ، أى ابنتى !

— أأنت واثق من ذلك ؟ أأنت مخطئ ؟

هكذا سألته كلافديا بتروفنا ، منفعة . فأجابها فلتشائينوف وهو يفيض حماسة :

— لا ، لا ، لا ، لست مخطئ أبدا .

ثم قص عليها كل شيء ، بالايجاز الذى قدر عليه ، وبسرعة مرتعشة . كانت كلافديا بتروفنا واقفة على كل شيء من قبل ، ولكنها كانت لا تعرف اسم السيد . كان فلتشائينوف يخشى أن يلتقى أحد من معارفه يوما بالسيدة تروسوتسكى ، فيتساءل كيف أمكنه ، هو فلتشائينوف ، أن يحب هذه المرأة ذلك الحب ، فلم يجرؤ أن يكشف عن اسم « هذه المرأة » حتى لصديقه الوحيدة كلافديا بتروفنا .

فلما انتهى من حديثه سألته :

— والأب ، ألا يعرف شيئا ؟

فأجابها بحرارة :

— يعرف .. والشئ الذى يعذبنى هو اننى لم أفهم بعد كل شيء . انه يعرف ، يعرف ، لاحظت ذلك أمس واليوم . ولكن يجب أن أفهم ما الذى يعرفه على وجه الدقة . ومن أجل هذا انما أترككم الآن بسرعة . سيجىء فى هذا المساء . على اننى لا أفهم كيف أمكنه أن يعرف ، أن يعرف كل شيء . انه على علم بكل ما يتصل بياجوتوف . لا شك فى هذا . أما عنى أنا فلا أدري ! انك تعرفين كيف تستطيع النساء ، فى مثل هذه الأحوال ، أن يقنعن

أزواجهن . لو هبط ملاك من السماء ، فلن يصدق الزوج ، بل سيصدق زوجته . لا تهزى رأسك .. لا تدينيني .. لقد حكمت على نفسى بنفسى ، وأدنت نفسى بنفسى ، منذ مدة طويلة ، طويلة جدا ! .. اسمعى : لقد بلغت من قوة الاعتقاد بأنه يعرف كل شيء اننى اتهمت نفسى أمامه واعيا عامدا . صدقنى اذا قلت اننى أشعر بكثير من الخجل والعار ، أشعر بأننى ارتكبت وزرا كبيرا ، حين استقبلته أمس ذلك الاستقبال اللفظ العليظ (سأقص عليك هذا فيما بعد ، تفصيلا) ! لقد جاء الىّ أمس ، تدفعه رغبة تربية خبيثة ، لا تقاوم ، فى أن يفهمنى أنه يعرف الالهانة التى ألحقت به ، ويعرف الشخص الذى ألحقها به . ذلك هو السبب الوحيد لمجيئه الغبى ليلا ، نصف سكران . ولكن هذا شيء طبيعى منه ! لقد جاء الىّ ليربكنى ويخجلنى . فأجريت الأمور بحماسة مفرطة ، أمس واليوم . لقد كنت غبيا قليل التروى ! ففضحت نفسى بنفسى . لماذا ظهر فى لحظة كنت فيها شديد العصبية والنزق ؟ هل تعلمين أنه كان يسوم ليذا سوء العذاب ؟ كان يريد أن يذلها . كان يريد أن يصب غضبه ولو على طفلة ! نعم ، انه الآن هائج . ومهما يكن تافها ، فانه ممتلىء خبثا وشرا . انه مهرج ، ما فى ذلك شك ، مع أنه كان يبدو فى الماضى ، أقسم لك ، انسانا شريفا ، على قدر ما كان يستطيع ذلك . ولكن من الطبيعى أن يرتدى الآن فى أحضان الرذيلة . يجب يا صديقتى العزيزة ، أن ننظر الى هذه الأمور كلها نظرة مسيحية . هل تعلمين يا عزيزتى ؟ اننى أريد أن أغير موقفى منه تغييرا تاما : أريد أن أكون معه دمثا لطيفا ، وسيكون هذا « عملا طيبا » منى ،

فيسا أعنقد . لأنتى ، مهما يكن من أمر ، قد أسأت إليه ، قد أجمرت فى حقّه . اسمعى . سأعترف لك بشيء آخر . ذات مرة ، فى ت .. أحتجت فجأة الى أربعة آلاف روبل : هل تعلين أنه أقرضنى هذا المبلغ فوراً ، دون أن أوقع له أية ورقة ، نعم ، ولقد أسعده كثيراً جداً أنه استطاع أن يخدمنى ! نعم ، لقد اقترضت منه مالا ، قبلت المال من يديه ، هل تصدقين ؟ لقد اقترضت منه مالا كما يقترض صديق من صديقه .

قالت كلافديا بتروفا بشيء من القلق :

— ولكن يجب عليك أن تتروى قليلا . انك الآن شديد الحماسة . وانى لأخاف عليك حقاً . صحيح ان ليزا هى الآن ابتى . ولكن ما يزال هناك أمور كثيرة تحتاج الى توضيح ! عليك بالتروى خاصة ! يجب أن تتصرف بكثير من الحيطة والحذر ، حين تكون سعيداً أو متحمساً ، كما أنت الآن . انك مسرف فى الكرم (أضافت ذلك مبتسمة) .

خرج جميع من فى البيت يشيع فلتشانينوف . وجاء الأولاد بليزا التى كانت تلعب معهم فى الحديقة . كان يبدو أنهم أصبحوا ينظرون اليها بمزيد من الحيرة والارتباك . فلما قبلها فلتشانينوف أمامهم جميعاً ، وهو يودعها ويردد وعده حاراً بأن يأتى مع أبيها فى الغد ، فقدت سيطرتها على نفسها . كانت حتى هذه اللحظة تنظر اليه دون أن تنطق بكلمة . ولكنها أمسكت الآن بكفه فجأة ، وشدته بعيداً ، وهى تتوسل اليه بعينها . كانت تريد أن تقول له شيئاً . فسارت به الى الغرفة المجاورة .

سألها بصوت رقيق مقنع :

— ماذا هنالك ، يا ليزا ؟

فألقت حولها نظرات قلقة ، وجرت الى ركن بعيد . كان يبدو
أنها تريد أن تختفى عن جميع الناس .

— ماذا يا ليزا ؟ ماذا ؟

وظلت ليزا صامتة ، لم تعزم أمرها على الكلام . كانت تحقق
اليه بعينيها الزرقاوين ، وكان وجهها الصغير لا يعبر الا عن ذعر
مجنون .

ثم تمتت كأنها تهذى ، قائلة :

— سوف .. يشنق نفسه ..

— من سوف يشنق نفسه ؟

— هو .. هو .. لقد أراد أن يعقد حول عنقه حبلا هذه
الليلة (قالت ذلك بصوت متعجل ، لاهث) . رأيته بعيني . كان
يريد أن يشنق نفسه . قال لى ذلك ! قال لى ذلك ! انه يريد أن
يفعل ذلك ، دائما .. رأيته فى الليل ..

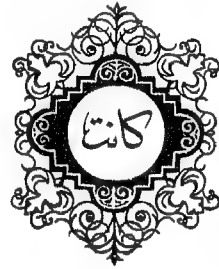
فدمدم فلتشائينوف يقول مضطربا :

— هذا لا يمكن ..

وفجأة أخذت تقبل يديه . كانت تبكى ، وكان الشيع يخنقها
خنقا . وكانت تتوسل اليه ، تتضرع اليه . ولكنه لم يستطع أن يفهم
كلماتها المنتقطة . لقد تذكر دائما ، فيما بعد ، النظرة المذعورة فى

وجه هذه الطفلة المعذبة . وكان عيناها المجنوتتان من الخوف ،
 المحدثتان فيه على أمل عظيم ورجاء كبير ، تلاحقانه حتى في أحلامه .
 كان يتساءل بينه وبين نفسه أثناء عودته الى المدينة ، وقد تملكته
 الغيرة ، واستبد به الحسد ، وتقد صبره ، وضاق ذرعا : « هل يمكن
 أن تحبه كل هذا الحب ؟ لقد قالت هي نفسها منذ قليل انها تحب
 أمها أكثر مما تحبه .. أف يكون هذا اذن بغضا لا حبا ؟ ثم ما قصة
 الانتحار هذه ؟ يشنق نفسه ؟ ما هذا الكلام ؟ أهذا الأبله يشنق
 نفسه ؟ .. يجب توضيح كل هذه الأمور ، يجب توضيحها . يجب
 أن نجد حلا بأقصى سرعة .. حلا حاسما » .

الزواج والعصيان يقبل أحدهما الآخر



تضطرم في نفسه رغبة عنيفة لا تقاوم ، في « معرفة » الأمر . قال في نفسه وهو يتذكر لقاءه الأول مع ليزا : « كنت عندئذ قلقا ، لم يتسع وقتي لأدراك الأمر ، أما الآن فيجب أن أعرف كل شيء » . وأراد أن يستعجل الأمور فقرر ، وقد نفذ صبره ، أن يذهب الى تروسوتسكى رأسا ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا الرأي ، قائلا في نفسه : « بل الأفضل أن يجيء هو الى » ، وبانتظار ذلك سأنهى تلك القضايا اللعينة الكريهة بأقصى سرعة » .

واندفع يعمل محموما ، ولكنه اضطر أن يعترف بأنه في هذه المرة ذاهل مسرف في الذهول ، وأن من المستحيل عليه أن يعمل في هذا اليوم . وفي الساعة الخامسة ، بينما كان ذاهبا الى المطعم للعداء ، تراءت له على حين غرة ، لأول مرة ، فكرة بدت له مضحكة : ترى أليس يعرقل مجرى الدعوى حقا بتدخله ، وكثرة

حركته ، وتنقله بين المحاكم ، ومطاردته المحامى الذى كان واضحا
أنه يتحاشاه ؟

أضحكته هذه الفكرة اضحاكا مرحا . وقال فى نفسه ، وقد ازداد
سرورا : « لو راودتنى هذه الفكرة أمس ، لأحزنتنى حقا » .
ولكنه رغم فرحه ومرحه ، كان يزداد ذهولا ونقاد صبر ، حتى
لقد صار أخيرا الى حالة من التشتت . كان فكره القلق يحاول أن
ينصب على أشياء مختلفة ، ولا يثبت على ما كان يهيمه .

قال لنفسه أخيرا : « اتنى فى حاجة اليه ، اتنى فى حاجة الى هذا
الرجل . يجب أن أحل ألغازه ، وبعدئذ يكون ما يكون . انها لمبارزة
حقيقية » .

فلما عاد الى البيت فى الساعة السابعة لم يجد بافل بافلوفتش ،
فأدهشه ذلك فى أول الأمر ثم أغضبه ، ثم ولد فيه شعورا مزعجا :
لقد خاف . « لا يعلم الا الله كيف تنتهى هذه الأمور » . ذلك ما كان
يردده فى نفسه ، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا تارة ، ويستلقى على
أريكته تارة أخرى ، دون أن يغيب بصره عن الساعة فى الحالين . وكانت
الساعة قد شارفت على التاسعة حين وصل بافل بافلوفتش أخيرا . قال
فلتشانينوف لنفسه : « اذا كان هذا الرجل يمكر ، فلن يجد خيرا من
هذه الوسيلة لاجراجه عن طورى . اتنى مشوش تماما » . ولكنه
ما ان خطرت بباله هذه الفكرة حتى شعر فجأة براحة ومرح شديد .

فلما سأله بلهجة مرحة : « لماذا تأخرت كل هذا التأخر ؟ » ابتسم
ابتسامة متصنعة ، وجلس بشيء من اليسر والسهولة ، على خلاف

أمس ، ثم رمى على أحد الكراسى قبعته ذات الشريط الأسود ، رماها بحركة مهمة . لاحظ فلتشائينوف وضعه هذا فورا ، فاستعد .

تبدد الانفعال الذى كان يضطرم فى نفسه منذ قليل ، فأخذ يحدثه بهدوء ، دون زيادة فى الكلام ، عن سفرته مع ليزا ، فوصف له استقبالهم لها ، وأوضح له أن اقامتها هناك مفيدة لصحتها . وشيئا فشيئا صار لا يتحدث الا عن أسرة بوجورلتسيف ، كأنما هو نسي ليزا : تكلم عن شهادتهم ، عن روابط الصداقة القديمة التى كانت تجمعهم بهم ، عن المركز الخطير الذى يحتله بوجورلتسيف ، عن نفوذه ، عن بشاشته ولطفه ، وعن أشياء أخرى من هذا القبيل . وكان بافل بافلوفتش يصغى اليه ذاهلا ، ويتسم فى بعض الأحيان ابتسامة مكررة مستخفة ، ويرميه بين الفينة والفينة بنظرات متخفية .

قال أخيرا وهو يتسم ابتسامة خبيثة سيئة :

— أنت رجل متحمس .

فقال فلتشائينوف مداعبا :

— وأنت اليوم رجل لا يطاق .

فانفجر بافل بافلوفتش فجأة ، كأنما حركه نابض ، فقال :

— ولماذا لا أكون سيئا على غرار جميع الناس ؟

لكأنه كان لا ينتظر الا فرصة ليثب .

فقال فلتشائينوف وهو يتسم ابتسامة ساخرة :

— لك ما تشاء . وانما ظننت أن شيئا وقع لك .

فصاح بافل بافلوفتش كأنه يعتز :

— نعم ، وقع لى شىء .

— ما هو ؟

فتأخر بافل بافلوفتش عن الاجابة لحظة ، ثم قال :

— أيضا .. صاحبنا ستيفان ميخايلوفتش .. باجاوتوف ، هذا الرجل الأنيق من رجال بطرسبرج ، هذا السيد المهذب من سادة المجتمع الراقى .

— مرة أخرى .. لم يستقبلوك ؟

— بل استقبلوني .. سمحوا لى بالدخول عليه لأول مرة . فاستطعت أن أنظر الى وجهه ، وأن أتأمل قسماته .. ولكن قسماته كانت قسمات متوفى ! ..

— كيف ؟ مات باجاوتوف ؟

سأل فلتشائينوف هذا السؤال دهشا ، رغم أنه ليس ثمة ما يحمل على الدهشة جملة .

— نعم ، صديقنا القديم المخلص ، صديق ست سنين ! لقد مات أمس فى الظهيرة .. لم أكن أعرف عن ذلك شيئا .. ولعلنى فى تلك اللحظة انما ذهبت أسأل عنه . الدفن غدا . هو الآن فى التابوت المزدان بالمخمل الأحمر الموشى بصفائر الذهب .. مات بالحمى الحارة . نعم ، لقد سمحوا لى بأن أدخل عليه ، وأن أتأمل ملامحه . قلت لهم انه يعدنى صديقا حميما ، فقبلوا أن أدخل . ولكن قل لى : ما هذا

« المقلب » الذى دبره لى هذا الصديق العزيز القديم ؟ لعلى لم أقم بهذه الرحلة الى بطرسبرج الا لأراه ، فكيف مات قبل أن أراه ؟

— ليس لك أن تزعل . انه لم يفعل ذلك عمدا .

— أقول هذا لأنتى آسف حزين على الصديق الممتاز .. هل تعرف ماذا كان بالنسبة الى ؟

سأل بافل بافلوفتشس هذا السؤال ، ثم رفع اصبعيه فجأة ، بحركة غير منتظرة ، فنصبهما على جبينه الأصلح ، كأنهما قرنان ، وضحك ضحكة صامتة طويلة . وظل على هذه الحال ، ضاحكا ، بقرنين ، نصف دقيقة ، وهو يسند الى فلتشائينوف نظرة صامدة فيها نوع من الوقاحة المظفرة . فتجمد فلتشائينوف ، كأنه أمام شبح . ولكن انشدايه هذا لم يدم الا لحظة قصيرة ، ثم طافت فى شفتيه ابتسامة ساخرة هادئة تشبه أن تكون وقحة . وسأله دون مبالاة ، وهو يجر الكلام جرا :

— ما معنى هذا ؟

فأجاب بافل بافلوفتشس بخشونة ، وهو ينزل أخيرا اصبعيه :

— هذان قرنان ؟

— قرناك أنت ؟

— نعم قرناى أنا ، حصلت عليهما عن جدارة !

قال بافل بافلوفتشس ذلك ، ثم ابتسم مرة أخرى ابتسامة خبيثة . وصمت الرجلان .

قال فلتشائينوف :

— انك لشجاع .

— لماذا ؟ أأنتى أظهرتك على هذين القرنين ؟ اسمع يا ألكسى
ايفانوفتش ، الأفضل أن تقدم لى شيئا ما .. لقد استقبلتك وأطعمتك
فى ت .. خلال سنة برمتها . اطلب لنا زجاجة . لقد جف حلقى .

— بسرور .. كان ينبغى لك أن تقول هذا منذ مدة . ماذا تريد
أن تشرب ؟

— بل قل ماذا نريد أن نشرب . سنشرب معا ، أليس كذلك ؟
قال بافل بافلوفتش هذا وهو ينظر اليه نظرة تحمل معنى التحدى ،
ولكنها تشتمل أيضا على قلق غريب .
— شمبانيا ؟

— وهل ثمة غيرها ؟ اننا لم نصل بعد الى الكحول .
فنهض فلتشائينوف بلا اسراع ، وقرع الجرس لمافرا ، وألقى اليها
ببعض الأوامر .

قال بافل بافلوفتش يحاول أن يمزح دون أن يظفر بذلك :
— سنشرب نخب لقائنا السعيد بعد فراق تسع سنين . أنت الآن ،
أنت وحدك صديقى الحقيقى . لقد مات ستيفان ميخائيلوفتش
باجاوتوف . وكما يقول الشاعر * :

نعم قد مات « باتروكل » العظيم
ولكن عاش « ترسيت » اللئيم
ذكر اسم « ترسيت » وهو يشير بإصبعه الى نفسه .

قال فلتشائينوف يخاطبه بينه وبين نفسه « هيا ، أيها الحيوان ، هيا اكشف عما فى نفسك . اننى لا أحب التلميح » . كان الغضب يغلى فيه ، حتى لقد أصبح منذ مدة لا يستطيع كظم غيظه . قال :

— ولكن قل لى ، اذا كنت تتهم ستيفان ميخائيلوفتش هذا الاتهام (أصبح لا يسميه الآن باجاوتوف ، بلا كلفة) ، فلا بد أن يسعدك أن يكون من الحق بك الالهانة قد مات . فما الذى يسوءك اذن ؟

— لماذا لا بد أن يسعدنى موته ؟ أى سعادة هذه ؟

— اننى أقضى فى الأمر وفقا لعواطفك .

— ها ها .. انك اذن مخطيء فى معرفة عواطفى . قال أحد الحكماء : « موت عدوك نعمة ، وبقاؤه على قيد الحياة نعمة أكبر » . ها ها ها ..

— ولكنك رأيته حيا خمس سنين ، رأيته كل يوم ، فيما أظن ، فأتيح لك أن تتأمله مليا .

قال فلتشائينوف ذلك بخبث ووقاحة .

فانفجر بافل بافلوفتش فجأة ، كأنما حركه نابض مرة أخرى ، فقال بشيء من الفرح ، كأن السؤال الذى كان ينتظره مدة طويلة قد طرّح عليه أخيرا :

— ولكن هل كنت أيامئذ أعرف الأمر ؟ من تظننى اذن يا ألكسى ايفانوفتش ؟

والتمع فى نظره تعبير جديد ، غير متوقع ، وتبدل وجهه الذى كانت تعقفه الى ذلك الحين كثرة سيئة خبيثة ، تبدل تبديلا تاما .

فقال فلتشائينوف متحيرا وقد بلغ غاية الانشده :

— كيف ؟ هل يُعقل أنك كنت لا تعرف شيئا ؟

— أعرف شيئا ؟ أعرف هذا الأمر ؟ آه منكم أتم يا سلالة جوييترا !
الانسان فى نظر كم كلب لا أكثر . انكم تنظرون الى جميع الناس بمنظار
طبيعتكم الصغيرة المسكينة ! هكذا أتم ..

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وضرب المائدة حائقا . ولكن حركته
هذه ما لبثت أن أخافته ، فاذا هو يلقي نظرة وجلة .

واتنصب فلتشائينوف :

— اسمع يا بافل بافلوفتش ، سيات عندى أن تكون واقفا على
الأمر عندئذ أو غير واقف . وعلى كل حال ، فانه لشرف لك أن لا تكون
عالما بالأمر ، رغم أن .. ولكننى لا أفهم لماذا اخترتني أنا نجيا تفضي
اليه بأسرارك .

تمتم بافل بافلوفتش ، وهو مطرق الى الأرض :

— ما قصدتك أنت .. لا تزعل .. ما قصدتك أنت .

ودخلت ما فرا تحمل الشمبانيا .

فهتف بافل بافلوفتش يقول وقد أسعده هذا التحول عن الموضوع .

— هذه هى الشمبانيا ! هاتى كؤوسا ، يا عمة ، هاتى كؤوسا .
عظيم . لسنا فى حاجة الى شىء آخر ، يا عزيزتى . ها ، والزجاجة مفتوحة
أيضا ! عظيم ، عظيم ، أنت انسانية رائعة . والآن امضى الى سبيلك ! ..

فلما استرد رباطة جأشه ، عاد فنظر الى فلتشانيونوف نظرة وقحة .
ثم قال فجأة بلهجة متضاحكة :

— ولكن عليك أن تعترف بأن هذا كله يهيك كثيرا ، وبأنك لست
تقف منه موقف من لا « يباليه » ولا يحفل به ، كما تفضلت فزعمت .
وأنا على يقين أنك ستستاء اذا أنا نهضت في هذه اللحظة ومضيت دون
أن أشرح لك شيئا .

— حقا ، لن أستاء أبدا .

فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة تقول : « أنت تكذب ! » .
— فلنبدا .

قال ذلك ، وملأ القدين خمرًا ، ثم رفع كأسه وأضاف :
— فلنشرب ، فلنشرب نخب ذلك الصديق المسكين ستيفان
ميخائيلوفتش الذي توفاه الله الى رحمته .
وشرب .

فقال فلتشانيونوف وهو يرجع كأسه الى المائدة :
— لا أقبل نخبًا كهذا . لن أشرب .
— لماذا ؟ انه لنخب لطيف .

— قل لي ، ألكم تكن سكران حين دخلت الى هنا ؟
— كنت قد شربت قليلا في الواقع . ولكن لماذا تسألني هذا
السؤال ؟

— لا لشيء . ولكن خيل الى أمس ، وهذا الصباح خاصة ، أنك
كنت حزينا حزنا صادقا على المرحومة ناتاليا فاسيليفنا .

— ومن قال لك اننى لست حزينا عليها الآن ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك وانتصب فجأة ، كما فى المرة السابقة .

— لا أعنى هذا . ولكن يجب أن نسلم بأن من الممكن أن تكون
مخطئا فى حق ستيفان ميخائيلوفتش ، وهذا أمر خطير كل الخطورة .
فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة مأكرة ، وطرفت عينه :

— ها .. انك تريد أن تعرف كيف استطعت أن أقف على الحقيقة
فيما يتصل بستيافان ميخائيلوفتش !

فاحمر وجه فلتشائينوف ، وقال :

— أكرر أن هذا الأمر لا يعينى .

ثم تساءل بينه وبين نفسه حائقا : « ماذا لو طرده هو وزجاجته ؟ »
وازداد وجهه احمرارا .

قال بافل بافلوفتش ، كأنه يريد أن يشجعه :

— لا بأس ، لا بأس .

ثم صب قدحا آخر ، وأردف يقول :

— سأذكر لك كيف علمت بكل شيء ، فأرضى بذلك أعنف ما فى
نفسك من رغبات حارة .. ذلك أنك رجل عنيف حار ، يا ألكسى
ايفانوفيتش ، عنيف حار الى أقصى حدود العنف والحرارة .. ها ها ..
ولكن اعطنى سيجارة ، لأننى منذ شهر مارس (آذار) ..
— هذه سيجارة .

— لقد انحدرت الى الفجور والانحلال منذ شهر مارس (آذار)

يا ألكسى ايفانوفتش . واليك كيف حدث ذلك . اصغ الىّ قليلا . ان السل ، كما تعلم ، أيها الصديق العزيز جدا (أخذ بافل بافلوفتش يرفع الكلفة شيئا فشيئا) مرض عجيب . انه ليتفق كثيرا للمسلول أن يموت دون أن يدور في خلده ، دون أن يخطر بباله أنه لن يكون غدا على قيد الحياة . قلت لك ان ناتاليا كانت تستعد ، قبل موتها بخمس ساعات ، لزيارة عمتها بعد أسبوعين ، في بلدة تبعد عنا أربعين كيلومترا . ولعلك تعرف من جهة أخرى ، تلك العادة أو ذلك الهوى لدى كثير من السيدات والسادة ، أعنى ذلك الحرص على الاحتفاظ بجميع الأشياء القديمة المتصلة بالمراسلات الغرامية . الأسلم من ذلك طبعاً أن يرمى المرء هذه الأشياء في النار ، ألسنت على حق ؟ ولكنهم لا يفعلون هذا ، بل يحتفظون بكل خرقة ورق في علبهم ، في صناديقهم ، ويعنون بذلك أشد العناية ، حتى لقد يرقمونها على حسب السنة ، والتاريخ ، ويصنفونها . قد يجدون في ذلك شيئا من العزاء والسلوى ، لا أدري . ولكننى أظن أنهم يفعلون ذلك لتجديد ذكريات ممتعة سعيدة . على كل حال ، حين كانت ناتاليا فاسيليفنا ، قبل موتها بخمس ساعات ، تستعد للسفر قريبا الى عمتها ، لم يكن يخطر لها على بال أن نهايتها قريبة ، وذلك حتى آخر لحظة ، بل كانت ما تزال تنتظر عودة الدكتور كوخ . حدث اذن أن ماتت ناتاليا فاسيليفنا ، فبقى صندوقها الصغير المصنوع من خشب أسود ، والمرصع بالفضة والصدف ، بقى في مكتبها . انه صندوق صغير جميل يثقل بمفتاح ، تملكه أسرته منذ مدة طويلة ، وقد انحدر اليها من جدتها . نعم ، الى هذا الصندوق انما يرجع الفضل في اكتشاف كل شيء ، كل شيء ، دون استثناء ،

يوما يوما ، سنة سنة ، منذ عشرين عاما . وبما أن ستيفان ميخائيلوفتش كان يهوى الأدب ، حتى أنه أرسل الى احدى المجلات ذات يوم قصة مؤثرة جدا ، فقد كان الصندوق يضم مائة رسالة من انتاجه ، في أقل تقدير .. اثنان وخمسين سنين . وكان ثمة رسائل عليها تعليقات ناتاليا فاسيليفنا . هل هذا شيء يسرّ الزوج ؟ ما رأيك ؟

استجمع فلتشائينوف ذكرياته بسرعة ، فتذكر أنه لم يكتب الى ناتاليا فاسيليفنا في حياته رسالة ، حتى ولا بطاقة . صحيح انه أرسل رسالتين من بطرسبرج ، ولكنه أرسلهما الى الزوج ، كما اتفق على ذلك . وهو لم يرد على الرسالة الأخيرة التي بعث بها اليه تصرفه عنها الى الأبد .

لما ختم بافل بافلوفتش قصته ، سكت خلال دقيقة كاملة ، وهو يتسهم ابتسامة ملحاحة ، فكأنه ينتظر جوابا . فلما لم يجب فلتشائينوف سألَه بألم ظاهر :

— لماذا لم تجبني على سؤالى الصغير ؟

— أى سؤال ؟

— سؤالى عن المشاعر التى يحسها الزوج حين يكتشف صندوقا من هذا النوع .

— هو .. مالى ولهذا ؟

قال فلتشائينوف ذلك ، وهو يحرك يده متبرما ، ثم نهض وأخذ يمشى فى الغرفة ذهابا وإيابا .

— أراهن على أنك تقول لنفسك الآن : « ما هذا الخنزير الذى

يقص على ما لطح شرفه من عار ؟ « ها ها ها .. انك تظهر الاشمئزاز ، أنت ! ..

— لا يخطر ببالى شيء من هذا . بالعكس ، لقد أحققتك موت الرجل الذى أساء اليك ، ثم انك قد شربت فأسرفت . لست أرى فى هذا كله شيئا عجبا ، واننى لأفهم حق الفهم ما كنت تشعر به من حاجة الى أن يكون باجاوتوف على قيد الحياة . اننى أحترم حقك ، ولكن ..

— ولماذا كنت فى حاجة الى باجاوتوف ، فى رأيك ؟

— هذا شأنك .

— أراهن أن ذهنك قد انصرف الى أننى كنت سأدعوه الى مبارزة؟

هنا صرخ فلتشائينوف وقد ضاق ذرعا ، وأصبح أعجز عن كبح جماح نفسه :

— ما هذا السخف ! كنت أظن أن كل انسان شريف ، لا يسمح لنفسه ، فى مثل هذه الحالات ، بشرثرات مضحكة ، وتكشيرات غبية ، وتلميحات سيئة تزيده تلطخا ، وانما يتصرف تصرفا صريحا ، واضحا ، كما يليق ذلك برجل شريف !

— ها ها ها .. ولكن قد لا أكون رجلا شريفا !

— أعود فأقول : هذا شأنك . ولكن ما عسى أن تكون اذن حاجتك الى رؤية باجاوتوف ؟

— لم أقصد الى رؤية هذا الصديق العزيز ، الا للاعجاب به . كان يمكن أن تفتح زجاجة فنستمع بشربها معا !

— لم يكن ليقتبل أن يشرب معك !

— لماذا ؟ ألما تقتضيه النبالة ؟ . ألم تشرب معى أنت ؟ أهو
خير منك ؟

— لم أشرب .

— من أين جاء هذا الصلف المباغت ؟

أخذ فلتشائينوف يضحك ضحكا عصبيا ، ثم قال :

— تبا لك . انك حقا « انسان ضارٍ » . كنت أحسب أنك لست

الا « زوجا أبديا » ، لا أكثر من ذلك .

قال بافل بافلوفتش وهو يصيخ بسمعه :

— ماذا تعنى بقولك « زوج أبدي » ؟ من هو « الزوج الأبدي » ؟

— نموذج من نماذج الأزواج . هذا أمر يطول شرحه . دعنا من

هذه الأمور ، فذلك خير . ثم لقد آن الأوان ، اننى سئمت منك .

— وماذا تعنى بقولك « ضارٍ » ؟

— قلت انك « انسان ضارٍ » على سبيل المزاح والدعابة .

— من هو « الانسان الضارى » ؟ اشرح لى ذلك يا ألكسى

ايفانوفيتش ، أرجوك ، ناشدتك الله ، ناشدتك يسوع المسيح !

— يكفى هذا ! آن لك أن تذهب . هيا اذهب .

قال فلتشائينوف ذلك بلهجة جازمة غاضبة .

فصاح بافل بافلوفتش ، وهو يشب :

— .. هذا لا يكفى . هبنى أضيائك ، فاننى لم أكتف بعد .

ان علينا أولا أن نشرب معا وأن تتقارع الأقداح . فلنشرب ، ثم
أذهب . أما الآن فهذا لا يكفينى .

— بافل بافلوفتش ، ستذهب ، ستذهب الى الشيطان ، هل فهمت؟

— يمكن أن أذهب الى الشيطان ، ولكن يجب أولا أن نشرب .
لقد قلت لى صراحة انك لا تريد أن تشرب معى ، ولكننى أنا أريد
أن تشرب معى .

أصبح لا يجعّد وجهه ، ولا يسخر . ان شيئا فيه قد تبدل فجأة .
تغير وجهه ، وتغيرت لهجته ، تغيرا كبيرا أذهل فلتشانينوف .

— نعم ، يا ألكسى ايفانوفيتش ، يجب أن نشرب .

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وهو يمسك بيد صاحبه ، وينظر الى
وجهه نظرة غريبة . كان واضحا أن الشىء الذى يهمه ليس هو هذه
القدح من الخمر ..

فتمتم فلتشانينوف متلجلجا يقول :

— نعم .. ممكن .. طيب .. سأشرب .. ولكن ليس هذا بالخمر ..

— لم يبق الا كأسان . صحيح أنه ليس بالخمر الجيد .. ولكننا
سنشرب وسنتقارع الأقداح . خذ ، هذا كأسك !

دقا قدحيهما أحدهما بالآخر ، وشربا .

— نعم ، هكذا اذن ، هكذا اذن . آه !

قال بافل بافلوفتش ذلك ، ووضع يده على جبينه ، وظل على هذه
الحال بضع لحظات . تراءى لفلتشانينوف أنه يهم أن يقول شيئا

حاسما . ولكن بافل بافلوفتش لم يقل شيئا ، بل نظر اليه ، وابتسم
ابتسامة عريضة صامتة ، هي الابتسامة الماكرة الفائضة بالكنايات التي
طافت في وجهه قبل ذلك . فثارت ثائرة فلتشائينوف ، وضرب الأرض
بقدمه ، وصرخ :

— ماذا تريد مني أيها السكّير اللعين ؟ أتهزأ بي ؟ أتضحك عليّ ؟

فأسرع الآخر يهدئه بحركة من يده قائلاً :

— لا تصرخ ، لا تصرخ ! فيم الصراخ ؟ اننى لا أهزأ بك ،
ولا أضحك عليك . لا . هل تعلم ماذا أنت الآن بالنسبة اليّ ؟

قال ذلك ، ثم تناول يده فجأة ، وقبّلها . فجمد فلتشائينوف
من الدهشة .

— هذا أنت بالنسبة اليّ الآن ! والآن أذهب ، لا أذهب الى
الشیطان ، بل الى جميع الشياطين !

هتف فلتشائينوف ، وقد أفاء الى نفسه :

— انتظر ، انتظر . نسيت أن أقول لك ..

فالتفت بافل بافلوفتش ، وكان قد وصل الى الباب .

دمدم فلتشائينوف يقول بسرعة ، وقد احمر وجهه ، وحوّل بصره :

— يجب أن تذهب في غد حتما الى أسرة بورجورلتسييف .. تتعرف

اليهم ، وتشكرهم . يجب أن تذهب اليهم حتما ..

— نعم ، حتما . أفهم ذلك حق الفهم .

قال بافل بافلوفتش هذا بسرعة كبيرة ، وهو يحرك يده حركة موجزة معناها أن ذلك أمر مفروغ منه ، ولا داعى الى تذكيره به .

— زد على ذلك أن ليزا تنتظر بك صبر فارغ .. لقد وعدت ..

فعاد بافل بافلوفتش أدراجه وقال :

— ليزا .

ثم هتف فجأة وكأنه خرج عن طوره :

— هل تعرف ماذا كانت ليزا بالنسبة الى ؟ وماذا هى الآن بالنسبة

الى ؟ نعم ، ماذا كانت وماذا هى الآن ؟ ولكن .. هه هه .. سأحدثك

عن هذا فيما بعد . كل هذا سأحدثك عنه فيما بعد . والآن ، يا ألكسى

ايفانوفيتش ، ليس يكفينى أننا شربنا معا ، وانما أريد أيضا لذة أخرى .

قال ذلك ، ثم وضع قبعته على المائدة ، وألقى على فلتشائينوف

النظرة التى ألقاها عليه منذ قليل ، لاهثا بعض الشيء .

— قبلنى يا ألكسى ايفانوفيتش .

— أنت سكران .

— نعم ، ولكن قبلنى مع ذلك يا ألكسى ايفانوفيتش . قبلنى . ألم

أقبل يدك منذ هنيهة ؟

ظل ألكسى ايفانوفيتش صامتا بضع لحظات ، كأن أحدا ضربه على

جمجمته بعصا . ثم انحنى فجأة على بافل بافلوفتش الذى كان لا يصل

الا الى كتفه ، فقبله على فمه الذى تخرج منه روائح الخمر قوية .

على أنه لم يتأكد كل التأكد من أنه قبله .

فصاح بافل بافلوفتش مرة أخرى ، باندفاعه سكرى ، وعينين متقدتين :

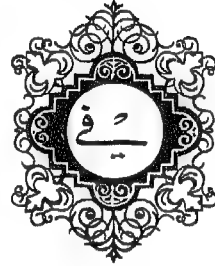
— نعم ، الآن ، الآن .. اليك ما أريد أن أقوله لك : لقد تساءلت منذ برهة بينى وبين نفسى : « كيف ؟ هو أيضا ! .. اذا كان هو أيضا ، فمن يجب اذن أن أصدق ؟ .. » .

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وأخذ ييكى .
— هل فهمت الآن أى صديق أنت بالنسبة الى ؟ قال ذلك ثم هرب ، وقبعته بيده .

ظل فلتشائينوف ساكنا بضغ لحظات ، فى وسط الغرفة ، كما حدث عند الزيارة الأولى .

« انما هو مهرج سكران ، لا أكثر ! » .
قال فلتشائينوف هذا ، وحرك يده حركة احتقار .
وحين خلع ملابسه واستلقى على سريره ، ردد يقول مرة أخرى :
« نعم ، ليس أكثر من ذلك » .

ليزا المريضة



صباح الغد كان فلتشائينوف يسير في غرفته
جئة وذهابا ، ويختسى قهوته جرعات صغيرة ،
ويدخن ، بانتظار وصول بافل بافلوفتش الذى
وعد أن يأتى فى الموعد المضروب للذهاب الى
أسرة بوجورلتسيف . كان فلتشائينوف يحس أثناء ذلك احساسا
واضحا بأنه أشبه بانسان يستيقظ فى الصباح فيتذكر أنه قد صفع
فى الليلة البارحة .

قال لنفسه مذعورا : « انه يفهم الوضع تماما ، وسينتقم منى
متوسلا بليزا » .

وانبثقت فى ذهنه الصورة الحلوة الحزينة ، صورة الطفلة البائسة .
فلما تصور أنه سيرى قريبا ، بعد ساعتين ، عزيزته ليزا ، أخذ قلبه
يخفق خفوقا سريعا . قال فى نفسه متحمسا : « لا جدال فى هذا .. انها
حياتى وهدف وجودى . ما قيمة تلك الصفعات ، ما قيمة تلك الذكريات؟

فيم أنفقت حياتي الى الآن ؟ لم تكن حياتي حتى اليوم الا فوضى وحزنا .. أما الآن فستجري الأمور مجرى آخر ، مجرى مختلفا عن هذا المجرى كل الاختلاف ! » .

ولكنه ، رغم حماسه هذه ، كان يزداد هما .

« سيعذبنى ، متوسلا بليزا . ذلك واضح . وسيعذب ليذا أيضا . بهذا سينتقم لنفسه من كل شيء ! .. لا أستطيع طبعاً أن أسمح له بعد الآن بتكرار ما فعله أمس .. » .

قال فلتشائينوف ذلك لنفسه ، واحمر وجهه :

« انه ، مع ذلك ، لم يأت حتى الآن ، وقد شارفنا على الظهر » .
انتظر مدة طويلة ، حتى الثانية عشرة والنصف ، وكان قلقه يشتد . ثم راودته مرة أخرى تلك الفكرة التي ساورتها منذ برهة ، وهى أن صاحبه سيتعمد أن لا يجيء ، لاستئناف خطته التي استعملها أمس ، فخرج عن طوره : « انه يعرف أنني رهن به . ما الذى سيحدث الآن لليزا ؟ وكيف أقابلها دون أن يكون معي ؟ » .

وأخيرا ، لم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل ، فأسرع الى بوكروف * . فقبل له فى الفندق ان بافل بافلوفتش لم يقض ليلته فى بيته ، وانه لم يرجع الا فى الصباح ، وانه عاد فخرج بعد ربع ساعة . كان فلتشائينوف واقفا قرب الباب يستمع الى شروح الخادمة ، ويدير قبضة الباب آليا يحاول فتحه . فلما ثاب الى نفسه ، ابتعد عن الباب ، وطلب أن يقاد الى ماريا سيسوفنا . ولكن ماريا سيسوفنا جاءت من تلقاء نفسها حين علمت بوجوده . انها امرأة طيبة ممتازة ، ذات «عواطف

نبيلة » ، على حد تعبير فلتشائينوف في وصفها حين نقل حديثها الى كلافديا بتروفنا بعد ذلك .

سألته ماريا سيسوينفا عن اقامة « الصغيرة » أولا ، ثم أخذت تقص عليه ما تعرفه عن بافل بافلوفتش . قالت : « لولا هذه الطفلة لطرده من البيت منذ مدة طويلة . وقد سبق أن طرد من الفندق بسبب فضائحه . أليس عارا أن يأتي ببغايا الى بيته ليلا ، في حين أن هناك طفلة تفهم كل شيء ؟ كان يقول لها صارخا : ستكون هذه أمك اذا شئت أنا ذلك . نعم . وصدقنى اذا شئت : انها طفلة ، ولكنها بصقت في وجهه . فصرخ : « لست ابنتى ، أنت بنت زنا » .

صاح فلتشائينوف مذعورا :

— ماذا تقولين ؟

— سمعته يقول لها ذلك بأذنى . صحيح أنه كان ثملا ، خارجا عن طوره ، ولكن أمورا كهذه لا يمكن أن تقال أمام طفلة . انها ما تزال صغيرة ، ولكن عقلها يعمل ، وهى تفهم . انها تبكى . انها تتألم . ومنذ بضعة أيام وقعت في فناء البيت مصيبة : كان مفوض فى الشرطة قد استأجر غرفة فى المساء ، فاذا هو يشنق نفسه فى الصباح . يقال انه كان قد سرق الخزينة . وأسرع جميع الناس ، ولم يكن بافل بافلوفتش فى البيت ، وما كان أحد يراقب الطفلة . فماذا رأيت ؟ رأيت الطفلة واقمة فى الدهليز مع جمهور الناس ، وهى تنظر الى المشنوق نظرة غريبة . فأمسكت يدها ، وأرجعتها . فهل تعرف ما الذى وقع لها ؟ أخذت ترتعش ، واسود وجهها ، فما أن وصلت بها الى غرفتها حتى سقطت

على الأرض ، وأخذت تتشنج . ولم أستطع أن أعيدها الى وعيها الا بعد غناء كبير . ومنذ ذلك الحين أصبحت مريضة دائما . ولما عاد ، هو ، وعلم بالأمر ، أخذ يقرصها في كل جزء من أجزاء جسمها ، ذلك أنه لا يضربها في العادة ، بل يقرصها قرصا . ثم سكر ، وأخذ يخيفها ، قال لها : « سأشلق نفسي أنا أيضا ، بسببك أنت ، هذا هو الجبل الذى سأشلق نفسي به ، جبل الستارة » . وأخذ يعقد الجبل أمامها . أصبحت الطفلة كالمجنونة ، فكانت تصرخ ، وتحيطه بذراعيها الصغيرتين قائلة : « لن أفعل ذلك بعد الآن ، لن أفعل ذلك بعد الآن ! » . كانت رؤيتها تثير الشفقة والرحمة !

كان فلتشانيوف يتوقع كل شيء ، ومع ذلك فقد بلغ من شدة الدهشة عند سماع هذه القصص أنه لم يشأ أن يصدقها . واستمرت ماريا سيسويفنا تتحدث . قالت : وفي ذات مرة أوشكت الطفلة أن ترمى بنفسها من النافذة ، لولا أنني كنت هناك .

خرج فلتشانيوف من الفندق ، يتمايل كأنه سكران ، ويردد قائلا : « سأقتله كما يقتل كلب ، سأقتله ضربا بالعصا على رأسه » .

وركب عربة ، وأمر السائق أن يذهب الى أسرة بوجورلتسيف . كانت العربة ما تزال في المدينة ، حين اضطرت الى الوقوف عند أحد المنعطفات ، قرب الجسر ، على القناة ، بسبب جنازة تمر . كان قد توقف الناس وتوقفت العربات ، على جانبي الجسر . انه لمأثم غنى كل الغنى . ان العربات طابور طويل . وفجأة ، لمح فلتشانيوف ،

فى باب احدى العربات ، وجه بافل بافلوفتش . وما كان له أن يصدق عينيه لولا أن بافل بافلوفتش الذى أخرج رأسه من باب العربة ، قد حياه مبتسما ، وكأنما أسعده كثيرا أن يلقى فلتشائينوف ، حتى لقد حرك له يده بإشارة صداقة ومودة . فقفز فلتشائينوف من عربته ، واستطاع رغم الازدحام ورغم الشرطة ، ورغم أن عربة بافل بافلوفتش كانت قد دخلت الجسر ، استطاع أن يتسلل حتى وصل الى باب العربة . كان بافل بافلوفتش وحده .

هتف يسأله :

— ماذا حدث ؟ لماذا لم تجيء ؟ ما وجودك هنا ؟

— أقوم بآخر واجباتى ! لا تصرخ ! لا تصرخ ! لا تصرخ !
انى أقوم بآخر واجباتى ! أرافق صديقى الرائع ستيفان ميخائيلوفتش الى مثواه الأخير !

قال بافل بافلوفتش ذلك وهو يضحك ضحكة خبيثة ، ويعمز بعينه .

فصرخ فلتشائينوف بصوت أعلى ، بعد أن بهت لحظة :

— هذا مستحيل .. كل هذا .. أيها السكير ، أيها المجنون ، انزل حالا ، تعال معى ، حالا .

— لا أريد .. ان الواجب ..

فزأر فلتشائينوف يقول :

— ان لم تنزل ، شددتك بالقوة ..

— وأنا سأستدعى ، سأستدعى ..

كان بافل بافلوفتش يقول هذا الكلام ، وهو يزداد اغراقا في الضحك ، كأن الأمر مزاح ، ولكنه كان مع ذلك يزداد اندساسا في ركن العربة .

— اتبه ! ستدهس ..

بهذا صاح الشرطى .

وفعلا ، مرت في تلك اللحظة عربة ليست من الموكب ، فاخرقت الموكب ، وأحدثت في الجمهور بعض القوضى والاضطراب . فاضطر فلتشانينوف أن يتنحى ، فجاءت عربات أخرى فأبعدته أكثر من ذلك ، فبصق من شدة الغيظ وعاد الى عربته .

ثم قال لنفسه قلقا مبهوتا « على كل حال ، ما كان لى أن أصحبه وهو على هذه الحال » .

وحين نقل الى كلافديا بتروفنا ما قصته عليه ماريا سيسوفنا ، وحين أخبرها بلقاءه بافل بافلوفتش ، أطرقت تفكر ، ثم قالت له : « انتى خائفة عليك . يجب أن تقطع كل صلاتك به ، والسرعة فى هذا أولى » .

فهتف فلتشانينوف يقول بحماسة :

— ما هو الا مهرج سكير .. لا أكثر من ذلك . أنا أخاف منه ؟ وكيف أستطيع أن أقطع كل صلة به ، وهناك ليزا ؟ تذكرى ليزا ! كانت ليزا مريضة ، راقدة فى سريرها . لقد اتابتها فى مساء أمس حمى ، وهم ينتظرون الآن طبيبا مشهورا أرسلوا يستدعونه من المدينة فى ساعة مبكرة من الصباح . اضطرب فلتشانينوف اضطرابا

كبيراً . وذهبت به كلافديا بتروفنا الى المريضة . قالت وهى تقف أمام غرفة ليزا :

— راقبتها أمس باهتمام . انها طفلة مغلقة على نفسها ذات كبرياء . انها تشعر بالخجل من وجودها عندنا ، ومن هجر أبيها لها . وهذا هو سبب مرضها فيما يخیل الى .

— لماذا تظنين أن أباهـا « هجرها » ؟

— يكفى أنه تركها تذهب الى أناس لا يعرفهم ، مع شخص لا يكاد يعرفه أيضاً ، أو كانت بينه وبينه صلات . .

— ولكننى أتيت بها الى هنا بالقوة .. لست أرى أن ..

— هوه .. ان ليزا ، الطفلة ، ترى ذلك . لن يأتى أبداً .. هذا هو الأمر ..

وحين رأت ليزا أن فلتشائينوف جاء وحده ، لم يدهشها ذلك . بل ابتسمت ابتسامة حزينة ، وحولت وجهها المحترق من الحمى الى ناحية الجدار . ولم تجب بشئ على ما أخذ يقوله لها مواسيا ، ولا على الوعود التى راح يبذلها قائلاً انه سيأتيها بأبيها فى غد . فلما خرج من الغرفة أخذ يبكى على حين فجأة .

ولم يصل الطبيب الا فى المساء . فلما فحص المريضة ، أرعبهم جميعاً بالكلمات الأولى التى-نطق بها ، اذ لامهم على أنهم لم يستدعوه قبل ذلك . حتى اذا قالوا له ان المرض لم يبدأ الا مساء أمس لم يشأ أن يصدقهم فى أول الأمر ، وقال أخيراً : « كل شئ رهن بهذه الليلة كيف تقضيها » . وبعد أن أصدر اليهم وصاياه ، ذهب واعداد أن

يرجع في غد أبكر ما يمكن . أراد فلتشائينوف أن يقضى هذه الليلة في منزل بوجورلتسيف ، غير أن كلافديا بتروفنا نفسها أصرت عليه أن يحاول مرة أخرى أن « يجيء بذلك الشيطان » .

قال فلتشائينوف وقد ثارت ثائرتة :

— مرة أخرى ؟ لسوف أربطه بالحبال وأجىء به الى هنا رغم أنه ! واستبدت به هذه الفكرة ، أن يوثق بافل بافلوفتش وأن يجره بالقوة ، فأصبح في شوق شديد الى تنفيذها . قال وهو يودع كلافديا بتروفنا : « أصبحت لا أشعر بأنى آثم في حقه » . وأضاف يقول حائقا : « اننى أتراجع عن جميع الكلمات العاطفية الخائرة التى قلتها هنا » .

كانت ليزا راقدة مغمضة العينين ، وكان يبدو أنها نائمة ، وأن صحتها تحسنت . فلما انحنى عليها فلتشائينوف محاذرا ، كى يقبل طرف ثوبها على الأقل ، فتحت عينيها فجأة ، كأنما كانت تنتظره ، وهمست تقول له : « خذنى معك » .

كانت كلمتها هذه رجاء رقيقا حزينا ، ليس فيه شيء من هياج الليلة البارحة . ولكنها كانت تعرف هى نفسها أن رجاءها هذا لن يلبى ، فما ان أخذ فلتشائينوف يقنعها بأن هذا مستحيل (وقد بلغ به الحزن غايته) حتى أغمضت عينيها صامتا ، دون أن تنبس بكلمة ، كأنها أصبحت لا تسمعه ولا تراه .

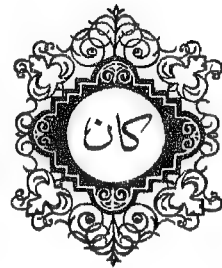
فلما وصل الى المدينة أمر السائق أن يقوده رأسا الى بوكروف . وكانت الساعة التاسعة . فلم يجد بافل بافلوفتش فى بيته ، فانتظره

نصف ساعة يذهب ويجيء في الدهليز نافذ الصبر متألماً . فأقنعتـه
 ماريا سيسويـفنا أخيراً بأن بافل بافلوفتش لن يعود حتماً الا في
 الفجر ، فقال فلتشائينوف لنفسه : « اذن أرجع في الفجر » -
 وعاد الى البيت ، خارجاً عن طوره .

وما كان أشد انشداهه حين أخبرته مافرا ، وهو يصعد السلم ،
 أن الضيف الذي جاءه أمس ينتظره منذ الساعة العاشرة . وأضافت
 مافرا قولها :

— قدمت له الشاي ، وأرسلنى أشتري خمرًا ، كما فعل أمس
 أعطانى خمسة روبلات .

السج



بافل بافلوفتش جالسا جلسة مريحة على
الكرسى نفسه الذى جلس عليه أمس ، كان
يدخن السجائر ، وقد صب القدح الرابع
والأخير من الشبانيا . وكان الى جانبه على

المائدة ابريق الشاي وقدح من الشاي فرغ نصفه . وكان وجهه
المحمر يشع رضى وراحة . حتى لقد خلع سترته مكنفيا بالصدره .
فلما رأى فلتشانينوف أسرع يلبس سترته ، وهتف يقول :
— عفوك أيها الصديق الوفي ، فقد خلعت ردائي لأزيد متعتى
بهذه اللحظة السعيدة .

فاقترب فلتشانينوف منه بوجه مخيف وسأله :

— ألم تسكر بعد سكرنا تاما ؟ هل يمكن التحدث معك ؟

ففقد بافل بافلوفتش هدوءه قليلا ، وقال :

— لا ، لم أسكر سكرًا تامًا .. لقد شربت احتفالًا بذكرى
المرحوم .. لكنني لم أبلغ من السكر غايته .
— هل تفهمني إذا كلمتك ؟
— ما جئت إلى هنا إلا لهذا ، لأفهمك .
فقال فلتشانينوف بصوت يخنق :
— اذن أبدأ بأن أقول لك انك انسان شقى .
فقال بافل بافلوفتش محتجًا وقد ظهر عليه الرعب :
— اذا بدأت بهذا ، فبماذا تنتهى ؟
ولكن فلتشانينوف ظل يصيح دون أن يصغى إليه :
— ابنتك تحتضر . انها مريضة . هل تتركها ؟
— هل يمكن أن تكون فى حالة احتضار ؟
— انها مريضة ، مريضة جدا ، انها من مرضها فى خطر .
— ربما كانت هذه نوبات صغيرة بسيطة ..
— دعك من هذه السخافات . انها فى خطر . يجب أن تذهب
إليها ، ولو من أجل أن ..
— أن أشكرهم على حسن استقبالهم لها . اننى أفهم حق الفهم ،
يا ألكسى ايفانوفتش ، أيها الصديق ، الكامل .
قال ذلك وأمسك فجأة يد فلتشانينوف بيديه ، ثم هتف يقول
بلهجة عاطفية ، متباكية ، كأنه يتوسل إليه أن يعفو عنه :
— ألكسى ايفانوفتش ، لا تصرخ ، لا تصرخ . هبنى مت

الآن ، هبنى غبت فى أعماق نهر نيثا ثملا .. فما عسى أن يكون لهذا من قيمة فى الظروف الراهنة ؟ أما ذلك السيد بوجورلتسيف ، فسيستع وقتنا دائما للذهاب اليه ..
 ثاب فلتشانينوف الى نفسه ، وكظم غيظه قليلا ، وقال بلهجة قاسية :

— أنت الآن سكران ، ولست أفهم ماذا تريد أن تقول .
 اتنى مستعد للافضاء اليك بما تريد ، بل انتى ليسعدنى أن أفرغ من هذا الموضوع . حتى لقد ذهبت .. ولكن اعلم قبل كل شيء أننى سأنفذ ما أريد : ستنام الليلة عندى ، وغدا آخذك الى هناك . لن أتركك (هكذا زار فلتشانينوف مرة أخرى) سأوثقك بالجبال ، وأحملك الى هناك ! .. هل يربحك النوم على هذا « الديوان » ؟ (قال ذلك ، وأشار ، لاهنا ، الى الديوان الواسع المريح الذى يقابل ديوانه الذى ينام هو عليه ، قرب الجدار الآخر) .
 — كيف لا ؟ سأنام فى أى مكان ..

— لا ، ليس فى أى مكان ، بل على هذا الديوان . خذ :
 هذا غطاء ، وهذا لحاف ، وهذه وسادة . (أخرج فلتشانينوف هذه الأشياء من الخزانة ، وقذفها بسرعة الى بافل بافلوفتش الذى كان مادا ذراعيه يتناولها خاضعا مطيعا) . افرش سريرك حالا . هيا افرشه !

ظل بافل بافلوفتش واقفا فى وسط الغرفة لحظة ، حاملا هذه الأشياء التى حملها اياها فلتشانينوف . كان يبدو مترددا

وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة سكرى طويلة . ولكن حين كرر فلتشانينوف أمره بصوت هائج ، أسرع ينفذ الأمر ، فدفع المائدة ، وأخذ يمد الغطاء ويشده لاهثا . واقترب منه فلتشانينوف يساعده . لقد شعر فلتشانينوف بشيء من الرضى حين رأى فى صاحبه الخضوع والذعر .

قال مرة أخرى بلهجة أمرة ، وهو يحس أن من المستحيل عليه أن يتكلم بلهجة أخرى :

— أفرغ كأسك ، وارقد فى فراشك . هل أنت أرسلت مافرا لتشتري لك خمرا ؟

— نعم .. أنا .. خمرا .. كنت أعلم يا ألكسى ايفانوفتش أنك لن ترسل أحدا ليشتري خمرا .

— يعجبني أنك عرفت ذلك . ولكن يجب أن تعرف شيئا آخر أيضا . أقول لك مرة أخرى اننى قد عزمت أمرى ، وسأنفذ تدابيرى . لن أقبل بعد الآن تهريجاتك ، لن أقبل بعد الآن قبلاتك السكرى ! — أنا أفهم من تلقاء نفسى ، يا ألكسى ايفانوفتش ، أن ذلك لا يمكن الا مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر .

قال بافل بافلوفتش ذلك وابتسم ابتسامة ماهرة .

وكان فلتشانينوف يسير فى الغرفة جيئة وذهابا ، فلما سمع هذا الجواب توقف فجأة أمام بافل بافلوفتش ، وقال بلهجة فخمة :

— بافل بافلوفتش ، تكلم بصراحة . أنت رجل ذكى ، أسلم

لك بذلك مرة أخرى . ولكننى أؤكد لك أنك تسير فى طريق خطأ ..
تكلم بصراحة ، واعمل بصراحة ، ولك على عهد الشرفاء أن أجيب
على جميع أسئلتك .

فابتسم بافل بافلوفتش ، مرة أخرى ، تلك الابتسامة الطويلة
الماكرة الخبيثة التى تخرج فلتشائينوف عن طوره . فصاح
فلتشائينوف مرة أخرى يقول :

— انتظر . اياك والمهزلة . اننى أقرأ فى ضميرك كما أقرأ فى
كتاب . أعود فأقول لك : اننى على استعداد للإجابة على جميع
الأسئلة ، أعاهدك على ذلك عهد الشرف ، بل اننى مستعد لأن أقدم
لك ما يمكن وما لا يمكن أيضا من ألوان الارضاء . آه كم أتمنى
لو تستطيع أن تفهمنى !

فاقترب بافل بافلوفتش من فلتشائينوف محاذرا وقال :

— ما دمت طيبا كل هذا الطيب ، فسأقول لك ان ما ذكرته
أمس عن « الانسان الضارى » قد شاقنى كثيرا .

فحرك فلتشائينوف يده حركة تدل على التبرم وضيق الصدر ،
وعاد يمشى فى الغرفة بخطى أسرع .

— لا يا ألكسى ايفانوفتش ، لا يجب أن تضيق ذرعا ، لا يجب
أن ينفد صبرك ، ان كلامك يهمنى كثيرا ، حتى لقد جئت لأعرف
هل .. ان لسانى يتعثر قليلا ، فاعذرنى .. لقد قرأت أنا نفسى شيئا ما
فى مجلة من المجلات .. مقالا نقديا عن النموذج « الضارى » *
والنموذج « المسالم » . وتذكرت المقال هذا الصباح .. ولكننى

نسيت ما قاله الكاتب ، أو قل اننى لم أفهمه يومئذ . وأريد الآن أن أعرف الى أى نموذج ينتمى المرحوم ستيفان ميخائيلوفتش باجاوتوف : أالى النموذج « الضارى » أم الى النموذج « المسالم » ؟

كان فلتشائينوف لا يزال يسير فى الغرفة صامتا ، فتوقف فجأة، وصرخ فى سورة من الغضب يقول :

— الانسان « الضارى » هو ذلك الذى كان يمكن أن يدس السم فى كأس باجاوتوف وهو يشرب معه الشمبانيا « احتفالا بلقائهما السعيد » كما فعلت ذلك بى أنا أمس . ولكن ذلك الانسان « الضارى » ما كان له أن يشيع تابوت باجاوتوف الى المقبرة ، كما فعلت أمس ، مدفوعا بدوافع خفية لا أدرى ما عسى تكون ، ربما لمجرد التهريج ! — أما أنه ما كان له أن يشيعه الى المقبرة ، فهذا صحيح ، ولكنك تعاملنى بطريقة ..

لم يصغ فلتشائينوف اليه ، بل ظل يصيح وقد خرج عن طوره :

— الانسان « الضارى » ليس ذلك الذى يلفق قصة خيالية ، وينفق وقته فى حساب ما له من حقوق ، ويجتر اهائته ، ويتباكى ، ويجعد وجهه تصنعا ، ويمثل المهزلة تلو المهزلة ، ويرتمى على أعناق الناس ، فاذا هو يضيع حياته فى سخافات وحماقات .. هل صحيح أنك أردت أن تشنق نفسك ؟ هل صحيح هذا ؟

— هذا ممكن ، لأننى كنت ثملا . فكرة راودتنى .. لا أتذكرها الآن .. أما قضية صب السم فى القدح ، فهذا ، يا ألكسى ايفانوفتش ، أمر لا يليق بنا نحن . أنا موظف مرموق ، ثم اتنى عدا ذلك أملك ثروة طيبة ، وقد أريد أخيرا أن أتزوج مرة ثانية .

— ثم هناك الأشغال الشاقة .

— طبعاً .. قد يحدث هذا أيضا ، رغم أن المحاكم الآن تجد فى أكثر الأحيان أسبابا مخففة . أريد يا ألكسى ايفانوفتش أن أروى لك هذه الحكاية الصغيرة المضحكة التى تذكرتها منذ برهة فى العربة . لقد قلت أنت الآن : « يرتسى على أعناق الآخرين » . لعلك تتذكر سيمون بتروفتش ليفتزووف ، الذى جاء الى ت .. أثناء وجودك فيها . ان الأخ الأصغر لهذا الرجل ، وكان يعد شابا أنيقا من شباب المجتمع الراقى بيطرسبرج ، كان ملحقا بحاكم مدينة ف .. وكانت له مزايا رائعة . تناقش هذا الشاب ذات مساء مع جولوبنكو ، الكولونيل ، أمام عدد من السيدات كالت بينهن السيدة التى يخفق لها قلبه . فرأى أثناء المناقشة أنه قد أهين ، ولكنه بلغ الاهانة ، وسكت . وبعد فترة من الوقت ، سرق منه جولوبنكو تلك السيدة ، وطلبها زوجة له . فانظر ما حدث : لقد استطاع ليفتزووف هذا أن يصبح الصديق الحميم لجولوبنكو ، لم يصلحه فحسب ، بل أصر أن يكون له فتى الشرف ، فحمل التاج فوق رأسه أثناء الاحتفال . حتى اذا انتهى كل شئ ، اقترب من جولوبنكو ليهنئه ويقبله ، فاذا به ، وهو فى رداء الاحتفال مصفف الشعر معطر ، أمام الحاكم ، وأمام المجتمع الأنيق كله ، يسدد الى بطنه طعنة قوية بالسكين ،

فيخر جولوبنكو على الأرض ! على أن هذا كله ليس شيئاً ! الأنكى من ذلك أن ليفتروف ما ان طعن الكولونيل تلك الطعنة حتى التفت الى من كانوا حوله يهتف قائلاً : « آه .. ماذا صنعت ؟ ماذا صنعت ؟ » وأخذ يبكي ، وينتحب ، ويرتعث ، ويرتمى على أعناق الناس ، حتى السيدات .. « آه .. ماذا صنعت ؟ ماذا صنعت ؟ » هي ، هي ، هي .. كان المنظر يفتس من الضحك . ولم يكن ثمة الا جولوبنكو شخص يثير الشفقة .

قال فلتشائينوف بقسوة وهو يقطب ما بين حاجبيه :
— لست أفهم لماذا قصصت علىّ هذا .

فقال بافل بافلوفتش وهو يضحك ضحكا صامتا :
— من أجل تلك الطعنة . بديهي أن ذلك الرجل لم يكن ضارياً . بل كان قاذورة من القاذورات ، لأن ذعره أنساه جمع قواعد اللياقة ، فارتدى على أعناق السيدات والقاضي موجود . ومع ذلك فقد حقق هدفه ، اذ طعن صاحبه في بطنه . هذا ما كان في ذهنه ، حين قصصت عليك هذه الحكاية .

فزأر فلتشائينوف فجأة ، بصوت تبدل كل التبدل ، كأن شيئاً فيه قد تحطم ، فقال :

— اذهب الى الشيطان ، اذهب الى جميع الشياطين ، أنت ونفسك المتخفية الدنيئة .. أنت وأفكارك القذرة الملتوية المتعرجة . أتظن أنك تخيفني ؟ .. أنت لا تقدر الا على تعذيب طفلة ، أيها الجبان ، أيها الجبان .

هكذا صرخ ، وقد خرج عن طوره تماما ، وأخذ يلهث لهاثا
شديدا .

فاتنفض بافل بافلوفتش من مكانه ، وتبدد سكره فجأة ،
وأخذت شفتاه ترتعشان .

— أأنت تصفنى باننى « جبان » يا ألكسى ايفانوفتش !
أأنت تصفنى أنا باننى جبان ؟

ولكن فلتشائينوف ثاب الى نفسه ، فأجابه بعد صمت ، وقد أظلم
وجهه وشرد فكره :

— أنا مستعد للاعتذار اليك ، شريطة أن نقبل أن تكون
صريحا .

— لو كنت مكانك يا ألكسى ايفانوفتش لاعتذرت ، بدون
أى شرط .

فقال فلتشائينوف بعد صمت آخر :

— لك ما تشاء يا بافل بافلوفتش . اتنى أعتذر اليك . ولكن
يجب أن توافق أنت نفسك ، بعد الذى وقع ، على أننى لن أعد
نفسى مدينا لك ، لا فيما يتصل بما قيل الآن ، بل فيما يتصل
بكل شئ .

— الأمر بسيط . لا داعى الى هذه الحسابات .
قال بافل بافلوفتش ذلك ، وهو يبتسم ، ويترك الى الأرض .
— عظيم ، عظيم . والآن أفرغ كأسك ، وارقد فى فراشك ،
لأننى لن أتركك ..

— نعم .. الخمر ..

كان بافل بافلوفتش ييدو مضطربا حائرا بعض الشيء . واقترب مع ذلك من المائدة ، وفرض على نفسه واجب افراغ كأسه الذى صبه منذ مدة طويلة . لا شك أنه كان قد شرب كثيرا ، لأن يده كانت ترتعش فاندلق الخمر ، فلطخ الأرض وقميصه وصدرته . ومع ذلك شرب الكأس حتى آخر قطرة ، كأنه لا يستطيع أن يدع فيها شيئا ، ثم أعادها الى المائدة باحترام ، ومضى يخلع ثيابه قرب سريره خاضعا . وفجأة قال يسأل فلتشائينوف وهو يمسك بيده أحد حذائه بعد أن خلعه :

— أليس الأفضل أن لا أقضى هذه الليلة عندك ؟

فأجابه فلتشائينوف بلهجة حازمة ، دون أن ينظر اليه ، وهو ما يزال يسير فى الغرفة :

— بل الأفضل أن تقضى هذه الليلة عندى .

فأتم بافل بافلوفتش خلع ملابسه ، ورقد فى فراشه . وبعد ربع ساعة ، رقد فلتشائينوف هو الآخر ، وأطفأ الشمعة .

ولم يستطع أن يغفو . ان شيئا جديدا كان قد ظهر فزاد قضيته تعقيدا ، وكان هو من ذلك فى قلق ، وفى خجل من هذا القلق . وما ان بدأ يغفو قليلا حتى أيقظته ضجة خفيفة على حين فجأة . فألقي نظرة سريعة على سرير بافل بافلوفتش . كان الظلام شديدا (الستائر مسدلة تماما) ، ولكن خيل اليه أن بافل بافلوفتش لم يكن راقدا ، بل كان جالسا على سريره . فسأله :

— ماذا بك ؟

فأجابه بافل بافلوفتش بعد لحظة من انتظار ، بصوت لا يكاد يسمع :

— شبح .

— ماذا ؟ أى شبح ؟

— هناك ، فى هذه الغرفة . رأيت ما يشبه الشبح يمر أمام الباب .
فسأله فلتشائينوف بعد بضع لحظات :

— شبح من ؟

— شبح ناتاليا فاسيليفنا .

فوضع فلتشائينوف قدميه على السجادة ، ونظر الى جهة الغرفة المجاورة التى كان بابها يظل مفتوحا دائما . ولم يكن لتلك الغرفة من ستائر الا غلالة بيضاء .. فكان الظلام فيها أقل كثافة .

— ليس ثمة شىء ، وانما أنت سكران . أرقد .

قال فلتشائينوف ذلك ، وعاد فرقد متلفعا باللحاف . ولم يقل بافل بافلوفتش شيئا ، وتمدد على فراشه هو الآخر .

وبعد عشر دقائق سأله فلتشائينوف :

— هل سبق أن رأيت هذا الشبح قبل الآن ؟

فأجابه بافل بافلوفتش ، بعد لحظات ، بصوت ضعيف :

— يخيّل الىّ أننى رأيته مرة قبل ذلك .

ثم خيّم الصمت من جديد .

لا يعرف فلتشائينوف ، على وجه اليقين ، هل نام أم لا . ولكنه ، بعد ساعة ، التفت مرة أخرى على حين فجأة . هل أيقظته ضجة ما ؟ ليس يدري . ولكن تراءى له أن شيئاً يقترب منه ، شيئاً أبيض متميزاً عن الظلام ، وصل الى وسط الغرفة . فنهض جالسا ، يحاول أن يشق بصره الليل الذى يحيط به .

— أهذا أنت يا بافل بافلوفتش ؟

قال ذلك بعد دقيقة ، بصوت ضعيف . ان هذا الصوت الضعيف الذى ترجع صده فى قلب السكون والليل بدا له هو نفسه غريبا . ولم يجئه جواب . ولكنه الآن لا يساوره أى شك : ان هناك شخصا يقف فى وسط الغرفة .

— أهذا أنت يا بافل بافلوفتش ؟

قال ذلك بصوت عال ، بصوت يبلغ من العلو أن بافل بافلوفتش لو كان نائما لاستيقظ وأجاب .

ولم يجب أحد . ولكن تراءى له أن الشكل الأبيض الذى لا يكاد يثرى واضحا فى هذا الظلام الدامس كان يزداد اقترابا . فحدث فى نفسه تغير مفاجئ . ان شيئاً فى نفسه ينفجر ، فصرخ أقوى صراخ يستطيعه ، بصوت لاهث يخنقه الحنق والغضب ، قائلا :

— اذا كنت تظن أيها السكير أنك تستطيع أن تخيفنى ، فسألنتم نحو الجدار ، وسأعطى رأسى باللحاف ، وسأظل ساكنا لا أتحرك طوال الليل ، لأبرهن لك على مدى ما أشعر به نحوك من احتقار .. ولو

بقيت على هذه الحال من التهريج حتى الصباح .. وهأنذا أبصق
في وجهك ! ..

قال ذلك وبصق حائقا على ما كان يفترض أنه بافل بافلوفتش ، ثم
استدار نحو الحائط ، وشد اللحاف فوق رأسه ، وسكن على هذا
الوضع سكونا تاما . وساد صمت عميق كأنه سكون الموتى . تثرى
هل كان الشبح يقترب منه ، أم أنه ما يزال في مكانه ؟ لم يعرف ذلك ،
الا أن قلبه كان يخفق ، ويخفق ، ويخفق .. وانقضى على هذا خمس
دقائق ، فاذا هو يسمع فجأة ، على بعد خطوتين منه ، صوت
بافل بافلوفتش يترجع ضعيفا كأنه الأنيب :

— لقد نهضت يا ألكسى ايفانوفتش باحثا عن .. (سمى أداة
لا يستغنى عنها من أدوات المنزل) فلم أجدها قرب سريري ، فأردت
أن أرى .. قرب سريرك .. دون أن أحدث ضجة .

— لماذا لم تجبني ، حين صرخت ؟

سأله فلنشائينوف هذا السؤال بصوت متقطع بعد نصف دقيقة
من صمت .

— خفت .. كان صراخك قويا جدا ، فخفت ..

— هناك ، على الشمال ، عند الركن ، قرب الباب ، في الخزانة
الصغيرة . أشعل الشمعة .

قال بصوت ذليل وهو يتجه نحو الخزانة الصغيرة :

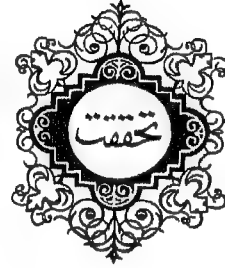
— أستغنى عن الشمعة . عفوك يا ألكسى ايفانوفتش ، فانتى
أزعجتك . لقد شعرت فجأة أنني سكران تماما .

ولكن فلتشانينوف لم يجب . كان مستلقيا على فراشه ، ملتفتا الى ناحية الجدار ، وظل على هذه الحال الى آخر الليل لم يستدر نحو الجهة الأخرى مرة واحدة . هل كان يريد أن ينفذ ما قطع على نفسه من عهد ، اظهارا لاحتقاره ؟ لقد كان هو نفسه يجهل ما يشعر به . كانت أعصابه نائرة حتى كاد يهذى ، وظل مدة طويلة لا يستطيع أن ينام . فلما استيقظ في الساعة العاشرة من صباح غد وثب عن سريره فجأة كأن أحدا هزه ، فلم يجد بافل بافلوفتش في الغرفة . كان سريره خاليا ، منفوشا .. لقد هرب عند طلوع النهار .. قال فلتشانينوف وهو يضرب جبينه بيده :

— « كنت أعرف ذلك » .

١.

المقبرة



مخاوف الطبيب ، فقد ساءت صحة ليزا فجأة ،
 ساءت أكثر كثيرا مما كان يتوقع فلتشانينوف
 وتتوقع كلافديا بتروفنا ، أمس . وجبن وصل
 فلتشانينوف في الصباح كانت الحمى قد
 أضنتها ، ولكنها كانت لا تزال في وعيها . وقد أكد فلتشانينوف ،
 فيما بعد ، أنها ابتسمت له حين رأته ، بل ومدت اليه يدها الصغيرة
 المحترقة . هل وقع هذا حقا ، أم أنه تخيله على غير ارادة منه تعزية
 لنفسه ؟ انه لم يستطع أن يتحقق من ذلك على كل حال . وما ان جاء
 المساء حتى فقدت المريضة وعيها ، ولم تنف من غيبوبتها بعد ذلك .
 وماتت في اليوم العاشر من وصولها الى أسرة بوجورلتسيف . وقد عاش
 فلتشانينوف في هذه الفترة حياة أليمة ، حتى أن أسرة بوجورلتسيف
 التي قضى بينها معظم هذه الأيام القاسية كانت تخشى على صحته من
 فرط ما عانى من عذاب . كان في الأيام الأخيرة من مرض ليزا يظل

جالسا فى ركن من الأركان ساعات برمتها ، كأنه لا يفكر فى شىء . وكانت كلافديا بتروفنا تحاول أن تواسيه ، ولكنه لا يكاد يجيبها بشىء ، بل يبدو عليه فى بعض الأحيان أنه يضيق ذرعا بأحاديثها . كانت كلافديا بتروفنا لا تتوقع « أن يؤثر فيه هذا الأمر تأثيرا يبلغ هذه الدرجة من العنف والقوة » . وكان الأطفال يستطيعون أن يسلوه أكثر منها ، حتى لقد كان يضحك معهم فى بعض اللحظات ، غير أنه كان لا ينى يترك ركنه الذى هو فيه ، ويمضى على رؤوس الأصابع يلقي نظرة على المريضة . كان يخيل اليه فى بعض الأحيان أنها تعرفه . وكان ، كسائر من فى البيت ، قد فقد كل أمل فى شفائها ، غير أنه كان لا يبتعد عن الغرفة التى تحتضر فيها ليزا ، وكان يظل دائما فى الغرفة المجاورة .

ومع ذلك فقد أظهر خلال هذه الفترة نشاطا جبارا ، مرة أو مرتين . فكان يسرع الى بطرسبرج ، يبحث عن أشهر الأطباء ، ويجيء بهم الى المريضة يفحصونها . وآخر مرة جاء فيها بالطبيب كانت قبل موتها بيوم واحد . وقد أصرت عليه كلافديا بتروفنا ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، أن يمضى باحثا عن تروسوتسكى ، وأن يجيء به ، قائلة « اذا وقع للطفلة مكروه قبل أن يأتى ، فلن تتمكن حتى من دفنها » . فقال لها فلتشانينوف بلهجة غامضة ذاهلة ، انه سيكتب اليه . فقالت بوجورلتسييف عندئذ انها ستبعث اليه بالشرطة لتجىء به . وأخيرا عزم فلتشانينوف أمره على أن يكتب اليه بضع كلمات ، حملها بنفسه الى فندق بوكوروفسكى . لم يكن بافل بافلوفتش هناك ، على عادته ، فترك فلتشانينوف الرسالة عند ماريا سيسوفنا .

ماتت ليزا في مساء من أماسى الصيف ، عند غروب الشمس . وفي تلك اللحظة انسا بدا أن فلتشانيوف يثوب الى نفسه . فلما مددوا جثمانها على المائدة في الصالون ، وغطوها بتوب أبيض من ثياب احدى بنات كلافديا بتروفنا ، ووضعوا أزهارا بين يديها الصغيرتين المضمومتين احداهما الى الأخرى ، اقترب فلتشانيوف من كلافديا بتروفنا متقد العينين ، وقال انه ذاهب فوراً لاقتياد « القتاتل » ، ثم خرج رغم أنه نصح بارجاء سفره الى غد .

كان يعرف أين يجد بافل بافلوفتش . انه لم يكن يذهب في الآونة الأخيرة الى بطرسبرج بغية استدعاء الأطباء فحسب ، بل كان يخيل اليه في بعض الأحيان أنه لو استطاع أن يقود بافل بافلوفتش الى ليزا ، فقد ترتد اليها الحياة حين تسمع صوت أبيها . فكان يركض باحتا عنه كالمجانين . كان بافل بافلوفتش لا يزال يسكن تلك الغرفة نفسها ، ولكن كان من العبث أن يبحث عنه في غرفته . قالت ماريا سيسوفنا : « انه يتفق له أن يتغيب ثلاثة أيام متتالية ، لا يعود الى بيته لحظة واحدة . واذا عاد مصادفة ، فانه لا يمكث الا بضعة دقائق ثم يخرج . لقد انحدر الى الدرك الأسفل » . وقال خادم الفندق لفلتشانيوف ، فيما قال له ، ان بافل بافلوفتش يتردد الى البنات الساقطات في شارع فوزنيسكى . فلما بحث عنهن فلتشانيوف ، عثر عليهن بلا عناء . ولما دفع لهن بعض المال تذكرن فوراً زبونهن صاحب القبعة ذات الشريط الأسود ، واتهنزن هذه المناسبة لسبه وشتمه ، لأنه أصبح لا يجيء اليهن . قالت احداهن ، واسمها كاتيا ، انها تستطيع أن تجد بافل بافلوفتش في كل ساعة » لأنه أصبح لا يترك ماشكا بروسناكوف . ان المرء لا يرى لأمواله نهاية ..

أما ماشكا تلك فليس اسمها بروستاكوفا بل بروكفوستوفا * . لقد كانت مريضة في المستشفى ، وتكفى وشاية صغيرة عليها ، تكفى كلمة واحدة عنها ، حتى ترسل الى سيبيريا .

لم تظهر كاتيا ، ذلك اليوم ، بالعثور على بافل بافلوفتش ، ولكنها وعدت وعدا قاطعا بأن تعثر عليه في المرة القادمة . فعلى كاتيا اذن كان يعتمد فلتشانيوف .

فلما وصل الى المدينة في الساعة العاشرة ، استدعاها فورا ، وسار معها بعد أن دفع لصاحب المحل أجرة الوقت الذي سيستغرقه طوافها . كان لا يعرف ، بعد ، ما الذي سيعمله . أ يقتل بافل بافلوفتش أم يكتفى بإبلاغه نبأ موت ابنته قائلا ان دفنها مستحيل ما لم يتدخل هو في الأمر؟ ولم توفق مساعيهما الأولى . وعلمنا أن معركة قامت منذ ثلاثة أيام بين ماشكا بروكفوستوفا وبين بافل بافلوفتش ، وأن شخصا مهنته «خازن» قد «ضربه بمنضدة فكاد يغطس رأسه في جسمه» . وطال البحث ، وطال ، فلما دقت الساعة الثامنة من الصباح ، كان فلتشانيوف خارجا من مكان دلتوه عليه ، فاذا هو أمام بافل بافلوفتش وجها لوجه .

كان بافل بافلوفتش في حالة سكر تام : كانت تجره امرأتان الى ذلك المكان ، وكانت احدهما تسنده من ذراعه . وكان يتبعهم رجل ضخم قوى ، لا شك أنه منافس ، يحرك يديه حركات عريضة ، ويوجه الى بافل بافلوفتش أفحش أنواع التهديد والوعيد . كان يقول ، فيما يقول صارخا : « ان بافل بافلوفتش يستغله ويسمم حياته » . كان يبدو

أن الخلاف خلاف على مبلغ من المال . وكانت المرأتان تغذان خطاهما ،
وقد ذعرتا ذعرا شديدا . فلما رأى بافل بافلوفتش صاحبه فلتشائينوف
أسرع نحوه ، ماذا اليه يديه ، وقال :
— النجدة ، أيها الأخ .

فما ان رأى المنافس فلتشائينوف ولاحظ جسمه الرياضى القوى ،
حتى اختفى فى مثل لمح البصر ، فأحس بافل بافلوفتش بأنه انتصر على
خصمه ، فالتفت الى الوراء ، يلوح بيده ، وصرخ صرخة طويلة علامة
الظفر . ولكن فلتشائينوف أمسكه من كتفيه (لا يدرى على وجه
الدقة لماذا) ، وأخذ يهزه هزا عنيفا ، حتى صارت أسنانه تصطك من
قوة ذلك الهز العنيف . فانقطع بافل بافلوفتش حالا عن الصراخ ،
والتفت الى جلاده ينظر اليه نظرة سكير خائف مبهوت . ولعل
فلتشائينوف كان لا يدرى ما يصنع به ، ولكنه أجلسه بحركة وحشية
على حافة الرصيف ، وقال له :
— ماتت ليزا .

ظل بافل بافلوفتش جالسا على حافة الرصيف تسنده احدى
المرأتين ، وهو ما يزال معلقا بصره بفلتشائينوف . وأخيرا فهم ، فاذا
بوجهه يسترخى فجأة .

— ماتت ..

هكذا دمدم .

لم يعرف فلتشائينوف أبترسم صاحبه ابتسامة سكير خبيثة ، أم
تشنج وجهه قليلا . ولكن بافل بافلوفتش ما لبث بعد برهة وجيزة أن

رفع يده اليمنى التى كانت ترتعش ، محاولا أن يرسم اشارة الصليب -
غير أن الحركة لم تتم ، وسقطت يده . وبعد لحظة قصيرة ، نهض
مثنافلا ، وأمسك بذراع المرأة ، وأخذ يسير متوكئا عليها ، كأنه لا يعى
ما حوله ، وكأنه نسى فلتشائينوف نسيانا تاما ، ولكن فلتشائينوف
قبض عليه مرة أخرى من كتفه ، وصرخ صراخا لاهثا يقول له :
— هل تفهم ، يا سكير ، يا شيطان ، أن من المستحيل أن تدفن
بدونك ؟

فتمتم بافل بافلوفتش يقول بصوت متلعثم :
— هل تتذكر .. الملازم فى المدفعية ؟
فزأر فلتشائينوف يقول ، وهو يرتعش ارتعاشا مؤلما :
— ماذا ؟
— هو أبوها ، فابحث عنه ، من أجل الدفن ..
فصرخ فلتشائينوف ثائرا :
— أنت كاذب .. انك تقول هذا الكلام عن خبث وشر .. كنت
أعرف أنك ستلفق هذا التليفق ..
قال ذلك ، وقد استبد به الحنق والغيط ، ثم رفع قبضته القوية
فوق رأس بافل بافلوفتش ، وهمَّ أن يضربه ضربة تجهز عليه . فابتعدت
المرأتان فجأة وهما تصرخان صرخات حادة ، ولكن بافل بافلوفتش لم
يتزحج ، وعبر وجهه بانقباضه عن كره وحشى ، فطيع ..
قال بصوت مدوٍ قوى ، كأن سكره قد ذهب :
— هل تعرف تعبيرنا الروسى ؟ (سأل هذا السؤال ونطق بشتيمة
لا يمكن ذكرها) ، هل يعجبك هذا التعبير ؟ ابلعه اذن ! ..

ثم تملأص بعنف من بين يدي فلتشائينوف ، وارتطم ، وكاد يقع .
فأمسكته المراتان من ابطه ، وهربتا به ، تجرانه جرا ، وهما تصرخان .
فلم يتبعهم فلتشائينوف .

وفي الساعة الواحدة من الغد جاء الى منزل بوجورلتسيف موظف
طاعن في السن قليلا ، مهذب جدا ، يرتدى الزى الرسمي ، فتقدم من
كلافديا بتروفنا وأسلمها ظرفا مختوما بعث به اليها بافل بافلوفتش .
كان الظرف يحتوي ، عدا الوثائق اللازمة لدفن ليزا ، على رسالة
وثلاثمائة روبل . وكانت الرسالة موجزة تتضمن كثيرا من الأدب
والاحترام ، يعبر بها بافل بافلوفتش لصاحبة السعادة كلافديا بتروفنا
عن عظيم شكره على الرعاية النبيلة التي أحاطت بها اليتيمة ، والتي
لا يستطيع الا الله أن يجزيها عليها ، ويقول بشيء من الغموض ان وعكة
خطيرة ألمت به ، تمنعه من شهود دفن ابنته الشقية الحبيبة ، وانه يعتمد
في كل شيء على ما تتصف به صاحبه السعادة كلافديا بتروفنا من
نبل كنبل الملائكة . أما عن الروبلات الثلاثمائة ، فيقول انها نفقات
الدفن والنفقات التي اقتضاها المرض . فاذا فاض من هذا المبلغ شيء
فرجاؤه ، مع الخضوع وعظيم الاجلال ، أن ينفق في اقامة قداس
على روح ليزا . ولم يستطع الموظف أن يضيف شيئا على ما جاء في
الرسالة ، حتى لقد فقه من بعض كلامه أنه لم يقبل حمل هذا الظرف
بنفسه الى صاحبة السعادة كلافديا بتروفنا الا بعد الحاح شديد
من بافل بافلوفتش . وقد شعر بوجورلتسيف من قول بافل بافلوفتش
« النفقات التي اقتضاها المرض » بشيء من الالهانة ، فصرخ بأن من
الواجب أن لا يحتفظ من المبلغ الا بخمسين روبلا للدفن (اذ يستحيل

أن يحرم أب من دفع نفقات دفن طفله) ، وأن يرد الباقي فوراً ، وهو مائتان وخمسون روبلاً ، الى تروسوتسكى . ولكن كلافديا بتروفا قررت أخيراً دفع هذا المبلغ الى كنيسة المقبرة ، على روح « العذراء اليزابث » ، وأخذت « ايصالاً » بذلك ، أعطته لفلتشانينوف من أجل أن يرسله حالاً الى بافل بافلوفتش ، فأودعه فلتشانينوف البريد على عنوان الفندق .

غاب فلتشانينوف عن القفلا بعد دفن ليزا . وظل خلال أسبوعين كاملين ، يضرب في المدينة على غير هدى ، على غير هدف ، وحيداً ، ذاهلاً ، حتى ليصطدم بالناس في الطرقات . وكان في بعض الأحيان أيضاً يبقى في بيته أياماً برمتها ، راقداً على سريره ، ناسياً حتى الأمور الأولية . وقد أرسلت أسرة بوجورلتسيف استدعيه مراراً ، فكان يعد بأن يجيء ثم ما يلبث أن ينسى . وجاءت اليه كلافديا بتروفا بنفسها ذات يوم ، ولكنها لم تجده . وهذا ما وقع أيضاً لمحاميته الذي جاء يحمل اليه خبراً هاماً ، وهو أنه استطاع ببراعته أن يرتب الأمور ، فحمل الخصم على أن يعقد مع فلتشانينوف اتفاقاً يضمن له جزءاً كبيراً جداً من الميراث موضوع الخلاف ، ولم يبق الا أن يوافق فلتشانينوف على ذلك . فلما استطاع المحامي أخيراً أن يجتمع به ، أدهشه أشد الدهشة أن زبونه هذا الذي كان متعجلاً الأمر ، نافذ الصبر ، قد استقبل النبأ بدون اكتراث .

كانت تلك الأيام أشد أيام تموز (يوليو) حرارة . ولكن فلتشانينوف كان قد فقد احساسه بالزمان . كان ألمه أشبه بقرحة

ناضجة ، فهو يسمم نفسه تسميما ، ويسيطر على فكره لا يبرحه لحظة . كان يعذبه خاصة أن ليزا لم تعرفه ، وأنها ماتت قبل أن تدرك مدى ما يمكنه لها من حب أليم . ان الهدف الذي سطع أمامه ، قد انطفأ فجأة ، وغاب في الظلام الأبدى . كان فلتشائينوف يفكر في ذلك الهدف بلا انقطاع ، ويريد أن تشعر ليزا بما يضره لها من حب لن يزول ما بقى هو على قيد الحياة . وكان يقول لنفسه أحيانا، وقد تملكته حماسة قائمة مظلمة : « ليس لأحد ولا يمكن أن يكون لأحد هدف أعلى من ذلك الهدف . قد يكون ثمة أهداف أخرى ، ولكن ذلك الهدف أقدها جميعا » .

كان يقول لنفسه : « ان حب ليزا كان يمكن أن يطهر نفسى ، وأن يفدى حياتى الماضية العقيمة السيئة .. كان يمكننى ، أنا الانسان العاقل ، الفاسد ، المتعب ، أن أسعد بتدليل مخلوق تقى جميل ، تغفر لى من أجله كل الخطايا ، وأغفر لنفسى من أجله كل الخطايا » .

جميع أفكاره ، الواعية كل الوعى ، كانت مرتبطة ارتباطا لا انفصام له بذكرى الطفلة الميتة ، هذه الذكرى الواضحة ، المائلة في ذهنه دائما ، المؤلمة لقلبه بغير انقطاع . كان يرى وجهها الصغير الشاحب ، ويتذكر كل تعبير لاح في ذلك الوجه . كان يراها كما كانت في تابوتها تحف بها الأزهار .. وكان يراها راقدة في فراشها وقد أضنتها الحمى وغابت عن الدنيا وجمدت عيناها . وتذكر فجأة أن احدى أصابعها الصغيرة قد اسودت قبل الموت ، لا يدري الا الله لماذا ؟ فأثر فيه ذلك تأثيرا شديدا ، وأشفق على هذه الأصبع

اشفاقا كبيرا ، وفي تلك اللحظة انما اثبتت في ذهنه لأول مرة ، فكرة البحث عن بافل بافلوفتش فورا ليقتله . أما قبل ذلك فقد كان « لا يحس شيئا » .

هل المذلة التي عاها قلب هذه الطفلة هي التي حطمتها ، أم حطمتها الآلام التي سببها لها أبوها خلال ثلاثة أشهر ، ذلك الأب الذي حل الكره محل حبه على حين فجأة ، فأخذ يهينها ويشتمها ويعبث بخوفها ، ثم تركها لغرباء ؟ لم ينقطع فلتشائينوف عن التفكير في هذا كله ، وظل يجتر هذه الأفكار ويقلبها على ألف وجه ووجه . وتذكر بغتة ، صيحة تروسوتسكى : « هل تعرف ما هي ليزا بالنسبة الى » ، فأدرك أن هذه الصيحة لم تكن صيحة سكران ، بل كانت صيحة صادقة ، كانت حبا . « كيف استطاع هذا الوحش أن يقسو كل تلك القسوة على هذه الطفلة التي كان يحبها ذلك الحب كله ؟ هل هذا ممكن ؟ .. » . هكذا كان يتساءل أحيانا ، ولكنه كان في كل مرة يطرد هذا السؤال من فكره ، ويرميه الى بعيد . كان في ذلك شيء رهيب ، رهيب جدا ، لا يقين فيه .

وفي ذات يوم ، ذهب ، على غير وعى تقريبا ، الى المقبرة التي دفنت فيها ليزا ، واتجه نحو قبرها . لم يكن قد ذهب الى هناك مرة واحدة بعد الدفن . كان يبدو له أنه سيعانى ألما لا قبل له باحتماله ، فلم يجزؤ أن يذهب . ولكن الشيء الغريب أنه حين انحنى على القبر ، وطبع عليه قبلة طويلة شعر فجأة بشيء من الراحة . كان المساء صافيا والشمس تغرب . وقد نبتت حول القبور أعشاب كثيفة غضة نضيرة . وكان ثمة نحلة تدندن في دغل من أشجار الزعرور .

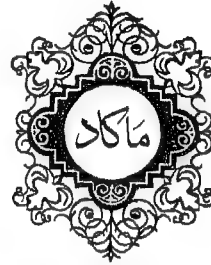
وكانت الأزهار والأكاليل التي وضعها أولاد كلافديا بتروفنا على القبر الصغير ما تزال هناك ، وقد تساقط بعض أوراقها . فشعر فلتشانينوف ، لأول مرة ، منذ مدة طويلة ، بشيء من الأمل يحيى قلبه . قال في نفسه وقد تسلل الى روحه ما في المقبرة من هدوء ، وغاب بصره في السماء الصافية : « ما أعذب هذا ! » . ان طمأنينة غريبة ، هادئة ، صافية قد صعدت فيه ، وملأت نفسه . قال : « ليزا هي التي ترسل الى هذا ، ليزا هي التي تخاطبني » .

وحين قفل راجعا ، كان الليل قد هبط . ومر ، في الطريق ، غير بعيد عن المقبرة ، بيت من خشب هو نوع من فندق ريفي . وكانت النوافذ مفتوحة ، فرأى في داخل البيت أناسا متحلقين حول مائدة . ثم بدا له فجأة أن واحدا منهم ، جالسا قرب النافذة ، يراه أيضا ، وينظر اليه نظرة مستطلعة : انه بافل بافلوفتش . فتابع سيره ، وما لبث أن سمع وقع خطوات وراه . انه بافل بافلوفتش يركض محاولا اللحاق به . لعل ما كان يشيع في وجه فلتشانينوف من هدوء وطمأنينة قد شجعه بل جذبه . فلما وصل اليه ، ابتسم ابتسامة خائفة ، ولكنها ليست ابتسامة السكير التي عهدا فيه . لم يكن الآن ثملا .

— مساء الخير .

— مساء الخير .

بافل بافلوفتش بيّزوج



ينطق فلتشساينوف بهاتين الكلمتين حتى
استغرب ذلك هو نفسه . لقد أدهشه كثيرا أن
رؤية هذا الرجل لم تثر فيه الغضب ، بل أيقظت
فيه عواطف أخرى مختلفة عن الغضب كل
الاختلاف ، أو قل أيقظت فيه رغبة في الشعور بهذه العواطف
الأخرى . قال بافل بافلوفتش بلهجة لطيفة :

— ما أجمل هذا المساء !

— ألم تسافر بعد ؟

قال فلتشساينوف ذلك ، وهو يتابع سيره ، وكأنه لا يطرح سؤالا
بل يفكر بصوت عال .

— نعم ، لقد تأخرت بعض التأخر ، ولكنني حصلت على تعييني
في منصب أعلى ، وسأسافر بعد غد حتما .

فسأله فلتشائينوف هذه المرة :

— حصلت على تعيينك ؟

فأجاب بافل بافلوفتش وهو يطم شفتيه قليلا :

— لِمَ لا ؟

— نعم ، نعم ، وانما قلت ذلك ..

وقطب فلتشائينوف ما بين حاجبيه ، وجعل يتنفس في بافل بافلوفتش خلسة . فما كان أشد دهشته حين رأى ثياب السيد تروسوتسكى ، وقبعته ذات الشريط الأسود ، ومظهره كله ، قد أصبحت أليق كثيرا مما كانت منذ أسبوعين . فتساءل بينه وبين نفسه : « ترى ما وجوده في هذا الفندق ؟ » .

وعاد بافل بافلوفتش يقول :

— كنت أنوى يا ألكسى ايفانوفتش أن أنهى إليك فرحة أخرى .

— فرحة ؟

— اتنى أتزوج .

— كيف ؟

— بعد العذاب يأتى السرور . هذه سنة الحياة . أود لو ..
يا ألكسى ايفانوفتش .. ولكننى لا أدرى .. قد تكون مستعجلا .
ان مظهرك ..

أنا مستعجل حقاً وأشعر بشيء من الاعياء .

لقد شعر فلتشانينوف فجأة برغبة فى التخلص من رفيقه .
ان الاستعدادات الطيبة التى نبتت فى نفسه منذ قليل ، قد تبددت
بغتة .

— كنت أتمنى لو ..

لم يقل بافل بافلوفتش ما كان يتمناه ، ولا اهتم فلتشانينوف
بكلامه .

— اذن أرجىء ذلك الى مرة أخرى ، اذا نحن التقينا .

— نعم نعم ، الى مرة أخرى .

قال فلتشانينوف ذلك بسرعة دون أن ينظر اليه ، وهو يتابع سيره .

وساد الصمت دقيقة من الزمن . وكان بافل بافلوفتش يسير الى
جانبه . قال أخيرا :

— الى اللقاء ، اذن .

— الى اللقاء ، أتمنى لك ..

ورجع فلتشانينوف الى بيته وقد عاد اليه اضطراب شديد .
ان رؤية « هذا الشخص » كانت حقا فوق ما تطيقه قواه .
ولما استلقى فى سريره ، تساءل مرة أخرى : « ما وجوده قرب
المقبرة ؟ » .

وفى صباح غد ، قرر أخيرا أن يذهب الى منزل بوجورلتسييف ،
قرر ذلك على مضض . كان يؤلمه كل مظهر من مظاهر العطف ، حتى
عطف أسرة بوجورلتسييف . ولكنهم كانوا فى قلق عليه ، فلا بد أن

يذهب اليهم . وخيل اليه فجأة أنه سيشعر بشيء من العار حين يعود الى رؤيتهم لأول مرة . كان يتساءل وهو يسرع في الانتهاء من التهام فطوره « أأذهب أم لا أذهب ؟ » ، فإذا هو يرى بافل بافلوفتش يدخل فجأة عليه ، فدهش من ذلك أشد الدهشة .

كان فلتشائينوف ، رغم لقاء الأمس ، لا يستطيع أن يتخيل أن هذا الرجل سيتخطى عتبة بيته يوما ، فبلغ من شدة ذهوله عند رؤيته أنه نظر اليه دون أن يستطيع مخاطبته بكلمة . ولكن بافل بافلوفتش حياه بدون تحرج ، وجلس على ذلك الكرسي نفسه الذى جلس عليه منذ ثلاثة أسابيع ، عند زيارته الأخيرة التى تذكرها فلتشائينوف فجأة بوضوح ما بعده وضوح . نظر فلتشائينوف الى الزائر نظرة يمتزج فيها القلق بالاشمئزاز .

قال بافل بافلوفتش ، وقد أدرك معنى هذه النظرة :

— أنت مندهش ؟

انه الآن أقل تحرجا مما كان بالأمس ، ولكن المرء يشعر مع ذلك أنه أكثر خجلا وخوفا . كان مظهره غريبا كل الغرابة . لم تكن ثيابه لائقة فحسب ، بل كانت أنيقة أيضا : كان يرتدى سترة صيفية خفيفة ، وسروالا ضيقا زاهرا ، وصدرة ناصعة ، وقفازين ، وقميصا أبيض جديدا ، وكان يضع على إحدى عينيه نظارة ذهبية ، لا يدرى الا الله لماذا ! كان ذلك كله أنيقا غاية الأناقة . حتى لقد تطيب بالعطر . كان فى مظهره هذا كله شيء مضحك يثير فى الوقت نفسه فكرة غريبة ، مزعجة .

تابع يقول بجهد ظاهر :

— واضح ، يا ألكسى ايفانوفتشس أن زيارتى تدهشك . انتى أحس بذلك ، ولكننى أقول ان هناك بين الناس دائما شيئا أسمى من جميع الاحتمالات ومن جميع الازعاجات التى يمكن أن تقع ، أليس كذلك ؟..

— بافل بافلوفتشس ، قل بسرعة كل ما تريد أن تقول ، قلّه بلا تكلف ولا تصنع .

قال فلتشائينوف ذلك ، وقطب ما بين حاجبيه .

فأسرع بافل بافلوفتشس يقول :

— اليك الأمر بكلمتين : سأتزوج ، وأنا ذاهب حالا الى خطيبتى . انها تسكن فى الريف أيضا . وأتمنى لو أشرف بتقديمك الى أسرته ، لذلك أبيع لنفسى أن أرجوك بكثير من المذلة والخضوع (قال ذلك وأحى رأسه) أن ترافقنى اليها .

— أرافقك الى أين ؟

قال فلتشائينوف ذلك محملا .

— اليهم ، فى الفيلا التى يسكنونها . عفوك يا ألكسى ايفانوفتشس ، انتى محموم قليلا ، وقد أكون على شئ من الارتباك ، ولكننى أخاف كل الخوف أن ترفض تلبية رجائى . ونظر الى فلتشائينوف نظرة متوسلة دامعة .

قال فلتشائينوف ، وهو يلقي عليه نظرة سريعة ، ولا يكاد يصدق عينيه ولا أذنيه :

— تريد منى أن أرافقك الآن الى بيت خطيبتك ؟

قال بافل بافلوفتش وقد تملكه رعب شديد :

— نعم . لا تحقق علىَّ يا ألكسى ايفانوفتش . ليس ذلك منى وقاحة ، بل رجاء ، رجاء ذليل . لقد تخيلت أنك قد لا ترفض تلبية هذا الرجاء .

— أولا ، هذا مستحيل ..

قال فلتشائينوف ذلك وأخذ يتحرك على كرسيه . فتابع بافل بافلوفتش كلامه مصرا :

— هذه رغبة قصوى من رغباتى ، وليست شيئا آخر . لا أكتفك أن ثمة دافعا آخر يدفعنى الى هذا ، ولكنى لا أريد أن أبوح لك بهذا الدافع الا فيما بعد ، أما الآن ، فأرجوك ، وألح فى الرجاء ..

حتى لقد نهض وقد امتلا احتراما واجلالا . فنهض فلتشائينوف أيضا وهو يقول :

— ولكن هذا مستحيل ، على كل حال . يجب أن توافقنى على ذلك .

— بل هو غير مستحيل يا ألكسى ايفانوفتش . اننى أنوى أن أقدمك اليهم صديقا . ثم انهم يعرفونك هناك . انهم أسرة زاخليبينين ، مستشار الدولة زاخليبينين .

فهتف فلتشائينوف متعجبا :

— كيف ؟

انه زاخليينين مستشار الدولة ذاك نفسه ، الذى حاول
فلتشانينوف أن يلقاه فى بيته ، والذى كان يرى فى دعوى الميراث رأيا
مخالفا لمصلحته .

قال بافل بافلوفتش ذلك وهو يتسم ، كأن الاندهاش الشديد
الذى ظهر على فلتشانينوف قد بث فى نفسه شيئا من الشجاعة :

— نعم ، نعم . انه هو نفسه . هل تتذكره ؟ كنتم تسيران معا ،
وكنت أنا أنظر اليكما من الرصيف الثانى ، أتنظر أن تتركه لاقتراب
منه . لقد عملنا معا فى ادارة واحدة ، منذ عشرين سنة . ولكننى حين
كنت أتهيأ للاقتراب منه ، لم يكن فى ذهنى أى مشروع ، وانما انبعثت
هذه الفكرة فى نفسى منذ أسبوع .

قال فلتشانينوف بدهشة ساذجة :

— ولكن قل لى . ان هذه الأسرة أسرة محترمة جدا ، فيما
يخيل الى .

— محترمة جدا جدا . وماذا ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وانقبضت أسارير وجهه قليلا .

— أوه ! لا شيء .. ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله ..

قاطعته بافل بافلوفتش يقول بسرعة فرحة :

— انهم يتذكرون زيارتك ، يتذكرونها . ولكنك لم تستطع أن
ترى الأسرة فى ذلك اليوم . أما الأب فانه يتذكرك ، ويقدرك .
لقد حدثته عنك بأجمل عبارات الاحترام .

— ولكنك لم تترمل الا منذ ثلاثة أشهر . .

— لن يتم الزواج فورا . لن يتم الا بعد تسعة أشهر أو عشرة ، وبذلك أكون قد لبست السواد سنة كاملة . صدقني اذا قلت لك ان كل شيء حسن . أولا ، لقد عرفني فيدوسي بتروفتش طفلا ، وعرف بعد ذلك زوجتي ، وعرف كيف عشنا ، وهو واقف على عملي . ثم ان لي بعض الثراء ، وقد عينت لمنصب أرفع .. هذا كله له قيمته ..

— هي اذن ابنته ؟

— سأقص عليك هذا تفصيلا .

قال بافل بافلوفتش ذلك وفرك يديه سرورا . ثم أردف يقول :

— ولكن اسمح لي بأن أشعل سيجارة . على أنك ستري بأم عينك اليوم ان رجال الأعمال من أمثال فيدوسي بتروفتش يقدمون في دوائرهم كثيرا ، هنا ببطرسبرج ، حين يتوصلون الى ابراز أنفسهم ، ولفت الأنظار اليهم . ولكن واحدهم ، فيما عدا مرتباته وغير ذلك من مبالغ اضافية ، ومكافآت في الأعياد وتعويضات السكن والطعام ، لا يملك شيئا البتة . انه يعوزه رأس المال . صحيح انه يعيش حياة رخية ، ولكنه لا يدخر شيئا ، خاصة اذا كانت أسرته كبيرة . ان ليفدوسي بتروفتش مثلا ، ثمانى بنات ، وصيبا صغيرا . تصور أنه لو مات اليوم لما ترك لهم الا معاشا زهيدا . ثمانى صبايا ! تصور ! لا ، لا ، تصور ، تصور ! .. لو اشترى لكل منهن حذاء حذاء ، لدفع من أجل ذلك مبلغا

ضحكنا . ان خمسة منهم هن الآن فى سن الزواج . كبراهن فى الرابعة والعشرين من عمرها (فتاة فاتنة ، ستري) . أما السادسة ، وعمرها خمسة عشر عاما ، فما تزال فى المدرسة الثانوية . يجب ايجاد أزواج للخمس الكبريات ، ويجب تديير ذلك بسرعة : وعلى الأب اذن أن يمضى ببناته الى المجتمع الراقى . تصور كم يكلف هذا من نفقات ! هأنذا أتقدم الى هذا البيت أول خاطب .. انهم يعرفوننى حق المعرفة . يعرفون أن لى ثروة . هذا كل شىء .

كان بافل بافلوفتش يتحدث بجرارة فرحة .

— هل الكبرى هى التى خطبتها ؟

— لا .. أنا .. ليست هى الكبرى . لقد خطبت السادسة التى ما تزال فى المدرسة الثانوية .

فقال فلتشانينوف وهو يبتسم على غير ارادة منه :

— كيف ؟ ألم تقل ان سنها خمسة عشر عاما ؟

سنها الآن خمسة عشر عاما ، ولكنها ستكون بعد تسعة أشهر ستة عشر عاما ، ستة عشر عاما وثلاثة أشهر . ثم ، لِمَ لا ؟ ولما كان ذلك لا يليق الآن ، فاننا لم نعلن شيئا . اتفقنا على ذلك مع الأهل . كل شىء حسن . صدقنى .

— اذن لم يتقرر الأمر بعد ؟

— بل تقرر . تقرر كل شىء . كل شىء حسن . صدقنى .

— وهى ؟ هل تعلم ؟

— هي لا تتحدث في ذلك مراعاة للمواضعات . ولكن كيف يمكن
أن تجهل الأمر ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وغمز بعينه ، ثم أضاف يختم
كلامه خجلا :

— فماذا ؟ هلا أفرحتني هذه الفرحة ؟

— ولكن ما عساي فاعلا هناك ؟

قال فلتشائينوف ذلك ، ثم أضاف بسرعة :

— على كل حال ، ما دمت لن أذهب ، فلا داعي الى ذكر الأسباب
التي تحملك على اصطحابي .

— ألكسى ايفانوفتش ..

— ولكن كيف يمكننى أن أجلس الى جانبك في عربة ؟ فكر
في هذا الأمر !

ان شعور النفور والاشمئزاز الذى بددته ثرثرة بافل بافلوفتش
الى حين ، يستيقظ الآن في فلتشائينوف أقوى وأعنف ، حتى لكأنه
يهمّ أن يطرده من بيته . وكان فلتشائينوف يؤاخذ نفسه على ذلك ،
لا يدري لماذا !

— ستجلس الى جانبي يا ألكسى ايفانوفتش ، ستجلس الى جانبي،
ولن تندم على ذلك .

قال هذا بصوت متأثر . فلما رأى فلتشائينوف يحرك يده حركة
مفاجئة تدل على نفاد صبره ، أضاف :

— لا ، لا ، لا ، لا ، يا ألكسى ايفانوفتش . ألكسى ايفانوفتش ،
ألكسى ايفانوفتش ! انتظر قليلا قبل أن تتخذ قرارا . يخيّل الىّ أنك
ربما أسأت فهمى . اننى أفهم أننا لا يمكن أن نكون رقيقين . لست
من الغباء بحيث لا أستطيع أن أفهم ذلك . والخدمة التى أرجوكم الآن
أن تقدمها الىّ لا تربطك بشيء فى المستقبل . ثم اننى مسافر بعد غد
حتما ، فكان شيئا لم يحدث . هو هذا اليوم وكفى . حين جئت اليك ،
كنت أبني كل أملى على نبل عواطفك ، يا ألكسى ايفانوفتش ، على
هذه العواطف التى استطاعت فى هذه الآونة الأخيرة ، أن تستيقظ
فى قلبك .. أظن أن كلامى واضح . أم تراه غير كاف بعد ؟

بلغ بافل بافلوفتش أقصى حدود الاضطراب ، وكان فلتشائينوف
ينظر اليه مندهشا . قال وهو يفكر :

— انك تطلب منى تقديم خدمة لك ، وتلج فى ذلك الحاحا يدعونى
الى الحذر والريية . أريد مزيدا من المعرفة بالأمر .

— الخدمة التى أطلب منك أن تقدمها لى هى أن تصحبنى ،
ولا شيء غير ذلك . وبعد أن نعود ، سأقص عليك كل شيء ، كمن
يعترف لكاهن . ألكسى ايفانوفتش ، ثق بى .

ولكن فلتشائينوف أصر على رفضه ، خاصة وقد أحس بفكرة
غامضة سيئة تبزغ فى نفسه . كانت هذه الفكرة تضرب فيه مبهما
منذ تحدث بافل بافلوفتش عن خطيئته . أهى حب الاطلاع وحده ،
أم هى رغبة أخرى لم تتبلور بعد ؟ كان ثمة شيء يدفعه الى القبول ،
ولكنه كان كلما ازداد الاغراء قوة يزداد هو مقاومة . كان جالسا على

كرسيه ، متكئا على ذراعه ، يفكر . وكان بافل بافلوفتش يدور حوله ويتوسل اليه .

وفجأة قال مضطربا ، قلقا بعض القلق :
— سأذهب .

فظهرت على بافل بافلوفتش امارات فرح عظيم . قال وهو يتوالب حول فلتشائينوف الذى أخذ يرتدى ملابسه :

— ولكنى أرجوك يا ألكسى ايفانوفتش أن تتأنق ، كما تجيد ذلك كل الاجادة .

« لماذا يورط هذا السخيف نفسه فى مثل هذا الأمر ! » . ذلك ما قاله فلتشائينوف لنفسه .

— أنتظر منك خدمة أخرى يا ألكسى ايفانوفتش . ما دمت قد وافقت على اصطحابى ، فكن الآن مستشارى .

— فى أى شىء مثلا ؟

— سؤال هام جدا : الشريط الأسود ، أأبقيه أم أرفعه ؟ أى الأمرين أليق ؟

— كما تريد .

— لا ، لا ، اننى أنتظر قرارك . ماذا كنت تفعل أنت ، لو كان على قبعتك شريط أسود ؟ كان من رأى أن أبقيه ، لأن ذلك يدل على وفائى وعلى ثبات عواطفى ويزكىنى .

— يجب أن ترفعه بداهة .

— هل ذلك بديهي الى هذه الدرجة ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك ، وسكت يفكر لحظة ، ثم أضاف :

— لا بل أوثر أن أبقيه .

— كما تريد .

قال فلتشائينوف لنفسه : « انه مع ذلك لا يثق بي . حسن جدا » .

وخرجا . كان بافل بافلوفتش ينظر بكثير من الدهشة الى فلتشائينوف الأنيق كل الأناقة ، وكان وجهه يعبر عن مزيد من المهابة وخطورة الشأن . كان وضعه يثير دهشة فلتشائينوف الذي كان وضعه الخاص يدهشه أكثر من ذلك أيضا . وكانت عربة جميلة تنتظرهما عند الباب .

— هل استأجرت عربة قبل أن تصعد الى ؟ أكنت اذن واثقا كل

هذه الثقة من أنني سأوافق ؟

— طلبت العربة لنفسى ، وكنت على شبه يقين من أنك

ستجىء أيضا .

أجاب بافل بافلوفتش بذلك ، وقد لاحت في وجهه كل أمارات

السعادة .

قال فلتشائينوف حائقا بعض الحق ، حين ركبا العربة ، وسارت

بهما :

— هيه ، بافل بافلوفتش ! ألا تظن أنك مسرف في الثقة بي ؟

فأجاب بافل بافلوفتش جادا بصوت قوى :

— ما أنت ، يا ألكسى ايفانوفتش ، ما أنت من يقول لى ان هذا حماقة منى .

تساءل فلتشانينوف بينه وبين نفسه قائلا : « وليزا ؟ » لكنه ما لبث أن دفع هذه الفكرة عن نفسه ، كأنه يخشى أن يدنس المقدسات . وفجأة ظهر لنفسه صغيرا تافها ، وظهرت له الفكرة التى كانت تغريه فكرة بائسة دنيئة ، فأحس مرة أخرى برغبة قوية فى أن يدع كل شىء ، وأن يقفز الى خارج العربة ، ولو اقتضى ذلك أن يستعمل القوة مع بافل بافلوفتش . ولكن بافل بافلوفتش عاد يتكلم ، فاستولى الاغراء مرة أخرى على نفس فلتشانينوف .

— ألكسى ايفانوفتش ، هل لك خبرة بالأحجار الكريمة ؟

— أى أحجار كريمة ؟

— الماس .

— نعم ، لى به خبرة .

— أريد أن أقدم هدية صغيرة . فقل لى : هل يجب أن أفعل ذلك ؟

— فى رأى ، لا .

— أما أنا فأريد أن أقدم هذه الهدية ، ولكن ماذا اشترى ؟

أشترى الطقم كاملا : حليلة الصدر ، وقرطى الأذنين ، والسوار ، أم أكتفى بشىء واحد ؟

— كم تريد أن تدفع فى ذلك ؟

— أربعمائة روبل ، أو خمسمائة .

— أوه .. أوه ..

— هل هذا كثير ؟

قال بافل بافلوفتش ذلك قلقلنا . فأجابه فلتشانيوف :

— لا تشتري الا سوارا بمائة روبل .

بدا الحزن والأسف على بافل بافلوفتش . انه يريد أن يدفع أكثر من ذلك ، يريد أن يشتري طقما كاملا . وأصر على ذلك . ووقفت بهما العربية أمام أحد المخازن . فلم يشتريا مع ذلك الا سوارا ، لا السوار الذى أحب بافل بافلوفتش أن يشتريه ، بل السوار الذى نصح به فلتشانيوف . وقد أراد بافل بافلوفتش أن يشتري السوارين كليهما ، وحين قبل الصائع أن يبيع السوار بمائة وخمسين روبلا بعد أن طلب مائة وستين ، شعر بافل بافلوفتش من ذلك ببعض الاستياء . انه مستعد لدفع مائتين ، اذا طلب منه ذلك . هكذا كانت رغبته فى الاتفاق قوية .

فلما استأنفت العربية المسير قال بافل بافلوفتش ، وقد ازداد فرحا :

— لا ضير فى أن أقدم بعض الهدايا منذ الآن . انهم ليسوا من

الطبقة المتكلفة المتصنعة ، هؤلاء أناس بسطاء .

ثم قال وهو يبتسم ابتسامة مريحة متخابثة :

— البراءة تحب الهدايا الصغيرة . لقد ضحكت منذ هنيهة من

الأعوام الخمسة عشرة ، يا ألكسى ايفانوفتش ، ولكن هذا نفسه هو

ما ألهب خيالى .. أنها ما تزال تذهب الى المدرسة ، ويدها كيس

صغير مما تحمله التلميذات .. هىء هىء هىء ! ذلك الكيس هو الذى

استولى على . انتى أحب البراءة يا ألكسى ايفانوفتش . وفى نظرى
أن البراءة ، لا جمال الوجه ، هى الشئ الهام . ما أروع تلك الضحكات
فى الزوايا مع صديقة ! وفى أى موضوع ؟ فى موضوع قطرة قفرت من
المنضدة الى السرير ، وتدرجت عليه . يا للتفاح الغض النضير ! ..
قد يكون من الأفضل أن أنزع الشريط الأسود ، أليس كذلك ؟

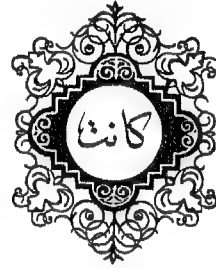
— كما تريد .

— أنزعه .

خلع قبعته ، فنزع منها الشريط الأسود ، ورماه الى الطريق .
ورأى فلتشائينوف وجهه يشرق بالأمل حين أعاد قبعته الى رأسه
الأصلع .

ولكن فلتشائينوف تساءل وقد تملكه غضب حقيقى : « أحقا هذا
كل شئ ؟ ألا ينطوى الحاحه على أى فخ ؟ أهو يعتمد حقا على كرمى
وسماحتى ؟ » ، حتى لقد بدا له هذا الافتراض الأخير مهينا .
« ما هذا الانسان ؟ مهرج ، أبله ، زوج أبدي ؟ ولكن هذا مستحيل ،
أخيرا ! .. » .

عند أسرة زاخليينين



أسرة زاخليينين « أسرة محترمة » حقا ، كما قال فلتشائينوف منذ قليل : كان الأب يشغل منصبا عاليا ، وكان رجلا مرموقا . وما قاله بافل بافلوفتش عن مواردهم المالية صحيح أيضا : « انهم يعيشون حياة مترفة ، ولكن لو مات الأب لما بقي لهم شيء » .

واستقبل زاخليينين صاحبنا فلتشائينوف بحرارة عظيمة . أصبح الخصم صديقا . قال أول ما قال ، بلهجة لطيفة لكنها رصينة :

— أهنتك . هذا أفضل . لقد ألححت أنا نفسى على اللجوء الى حل بالتراضى . أما بيوتر كارلوفتش (محامى فلتشائينوف) فانه رجل ممتاز من هذه الناحية . ستقبض ستين ألف روبل ، بلا مناقشات ، ولا تأجيلات .. بينما كان يمكن أن تطول القضية ثلاثة أعوام !

وقد قدم فلتشانينوف رأسا الى السيدة زاخليينين . انها سيدة متقدمة فى السن ، بدينة جدا ، ذات وجه متعب عادى . وجاءت البنات بعد ذلك ، بعضهن وراء بعض . انهن كثيرات : عشر أو اثنا عشرة . لم يستطع فلتشانينوف حتى أن يعدهن . بعضهن يدخل ، وبعضهن يخرج .. ولكن بينهن بنات من الجيران ، وصديقات للأسرة . كانت فيللا أسرة زاخليينين بناء كبيرا من الخشب ، شيد على طراز مجهول غريب ، له ملحقات ترجع الى عهود مختلفة ، وحديقة واسعة تتصل بها ثلاث فيلات أخرى أو أربع ، فكانت الحديقة اذن مشتركة ، وكان هذا يسهل التقارب اذن بين الآنسات زاخليينين وجاراتهن .

أدرك فلتشانينوف ، منذ الكلمات الأولى ، أنهم كانوا ينتظرونه ، وأنهم قد أبلغوا نبأ زيارته بشئ من الاحتفال ، على أنه صديق لبافل بافلوفتش يرغب فى أن يتعرف بالأسرة . وسرعان ما استطاعت نظراته الثاقبة الخيرة فى هذه الشؤون ، أن تكتشف النية الخاصة التى تتوى وراء هذه الحفاوة : فقد استنتج من هذا التودد الشديد الذى استقبله به الأبوان ، ومن ذلك التهيؤ وهذه الزينة فى الآنسات (وكن فى أجمل حلة حقا) أن بافل بافلوفتش قد عمد الى الحيلة فأيقظ فى النفوس بعض الآمال بكلمات مستترة طبعاً ، فوصف فلتشانينوف أمام هذه الأسرة بأنه رجل من « الطبقة الراقية » ، ذو ثراء ، قد سئم حياة العزوبة ، ويمكن أن « ينهيا » ، وأن يستقر ، خاصة وأنه قد « ورث منذ قليل » . كان واضحا أن كبرى الآنسات زاخليينين ، واسمها كاترينا فيدوسييفنا ، وهى التى فى الرابعة والعشرين من عمرها والتى تحدث عنها بافل بافلوفتش قائلاً انها فتاة فاتنة ، قد اتخذت وضعاً خاصاً .

كانت تتميز عن أخواتها بمزيد من العناية بهندامها ، وبذلك الطريقة الطريفة في تصفيف شعرها الجميل . وكان يبدو في وجوه أخواتها وفي وجوه سائر الفتيات انهن على يقين من أن فلتشانيوف قد جاء « يتمعّن كاتيا » . كانت نظراتهن وحتى بعض الكلمات التي أفلتت منهن أثناء النهار تؤيد هذا الافتراض الذي افترضه فلتشانيوف . ان كاترينا فيدوسويفنا شقراء فارعة القوام ، قوية البنية ، تكاد تكون مليئة ، ذات وجه محبب وطبع عذب ، ساكن ، لا يخلو من رخاوة . تسأل فلتشانيوف بينه وبين نفسه ، رغما عنه ، وهو ينظر اليها شاعرا بشيء من اللذة : « انه لغريب حقا انها لم تتزوج الى الآن . صحيح أنها لا تملك بائعة ، وأنها ستصبح مسرفة في السنة بعد قليل . ولكن لا بد أن يوجد الآن هواة .. » ولم تكن الأخوات الأخريات غير جميلات أيضا . ولاحظ فلتشانيوف بين الجارات وجوها مليحة بل جميلة . وأخذ هذا الموضوع يسليه . ثم انه قد بيّت أمرا عند دخوله .

أما نانديجدا فيدوسويفنا ، الأخت السادسة ، التلميذة في المدرسة النانوية ، التي كان بافل بافلوفتش يعدها خطيبته ، فقد أخذ فلتشانيوف يشتهي أن يراها ، فكان ينتظرها بصبر فارغ ، حتى لقد أدهشه ذلك منه في أعماق نفسه . ودخلت أخيرا ، تصحبها صديقة لها اسمها ماريا نيكيتشنا ، وهي فتاة سمراء يقظة الوجه حاذقة شرسة كان بافل بافلوفتش يخاف منها خوفا شديدا كما اتضح ذلك فيما بعد . ان ماريا نيكيتشنا هذه فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها ، ضحوك ذكية ، تعمل مربية عند أسرة صديقة من الجيران لها أطفال صغار . وكانت أسرة زاخليبينين منذ مدة طويلة تعدها منها ، وكانت الفتيات

تجها حب عبادة . وكان واضحا أن ناديا خاصة لا تستطيع الاستغناء عنها في هذه اللحظة . لاحظ فلتشائينوف من النظرة الأولى أن الفتيات جميعا قد اعتصبن على بافل بافلوفتش ، حتى الجارات ، ولم يلبث أن لاحظ أيضا بعد دخول ناديا بدقيقة واحدة أنها تحتقره أيضا . ولاحظ كذلك أن بافل بافلوفتش لا يدرك ذلك ، أو لا يريد أن يصدق . كانت ناديا أجمل أخواتها ، ما في ذلك جدال : فتاة صغيرة سمراء ، عنيقة الوجه قليلا ، جريئة جسورة ، شيطانة ذات عيني ملتمعتين براقتين ، وابتساماة عذبة على مكر وخبث في بعض الأحيان ، وشفتين جميلتين ، وأسنان رائعة ، وكانت ذات قوام أهيف ، ممشوق . وكان وجهها ، على أنه ما يزال وجه طفلة ، يعبر منذ الآن عن حرارة الروح ، واتقاد الفكر . وكانت كل حركة من حركاتها وكل كلمة من كلماتها تنبئ عن سنيها الخمس عشرة . وقد اتضح فيما بعد أنها حقا كانت تحمل كيسا من القماش المشمع مما تحمله التلميذات ، حين رآها بافل بافلوفتش أول مرة ، ولكنها أصبحت الآن لا تحمل هذا الكيس .

لم يظفر السوار بالاعجاب ، حتى لقد أحدث شيئا من الانزعاج . ان بافل بافلوفتش ، ما ان لمح خطيبته ، حتى تقدم منها مبتسما ، وقدم لها هديته بحجة « السرور العظيم الذي شعر به في المرة السابقة حين غنت ناديجدا فيدوسوينا تلك الأغنية الجميلة على البيانو .. » قال ذلك ، وارتبك ، ولم يستطع أن ينهى كلامه ، بل ظل حائرا مضطربا يحاول أن يدس العلبة في يد ناديا التي كانت لا تريد أن تأخذها ، وكانت تحاول أن ترد ذراعيها الى وراء ، وقد احمر وجهها خجلا

وغضبا . ثم التفتت بوقاحة الى أمها التى كان يبدو عليها انزعاج شديد ،
فقال بصوت عال :

— لا أريد أن آخذها يا أمى !

قال الأب بصوت حازم قاس :

— خذها ، واشكره .

ولكن الأب كان مستاء هو أيضا ، فقال لبافل بافلوفتش بصوت
منخفض وهو ينظر اليه نظرة ذات معنى :

— عبث ، عبث !

واضطرت ناديا الى الامتثال ، فتناولت اللعبة ، غاضبةً طرفها ، ثانية
ساقها الى وراء علامة الاحترام ، كما تفعل البنات الصغيرات ، ولكنها
فعلت ذلك بعنف وسرعة . واقتربت احدى أخواتها لترى السوار ،
فأعطتها ناديا اللعبة مغلقة ، لتدل بذلك على انها لا تريد حتى أن تنظر .
ولكنهن نظرن فيه جميعا صامتات ، حتى أن بعضهن نظرن فيه وهنَّ
يبتسمن ابتسامة ساخرة . وقالت الأم وحدها ، بصوت رخو ، ان
السوار جميل جدا . تمنى بافل بافلوفتش لو تنشق الأرض وتبلعه .

وسرعان ما أسعفه فلتشائينوف ، اذ أخذ يتدفق فى الحديث بصوت
عال ، منتهزا أول فكرة خطرت بباله ، فما انقضت خمس دقائق ،
الا واستولى على انتباه جميع الحضور . كان فلتشائينوف يجيد فن
الحديث فى الصالونات اجادة رائعة ، وهو فن قوامه الظهور بمظهر
البساطة التامة والصدق الكامل ، والظهور بمظهر من يعدّه مستمعيه

أناسا ينعمون بغاية البساطة ومنتهى الصدق أيضا . وكان يعرف كيف يمثل دور الانسان المرح السعيد اذا اقتضى الحال . وكان يعرف أيضا أن يرمى في اللحظة المناسبة كلمة فكهة أو غمزة مضحكة أو نكتة جميلة ، كأنها جاءت مصادفة دون أن يقصدها أو يهيئها ، رغم أن الكلمة الفكهة والغمزة المضحكة والنكتة الجميلة وحتى الحديث كله ، رغم أن ذلك جميعا يمكن أن يكون مهينا منذ مدة طويلة ، وأن يكون محفوظا على ظهر القلب ، وأن يكون قد درج على اللسان مرارا . الا أن مزاجه اليوم كان يسعف فنه ويساعده . لقد كان يشعر بحماسة وكان ثمة شيء يدفعه الى الحديث دفعا . كان على يقين مطلق مظفر ، من أن هذه الأعين كلها ستلنفت اليه بعد بضع دقائق ، وأن هؤلاء الأشخاص جميعا لن يصغوا الى أحد غيره ، ولن يكلموا أحدا غيره ، ولن يضحكوا الا لما سيقوله هو . وما هي الا فترة قصيرة اذا بالضحكات تنطلق فعلا من هنا ومن هناك . وما لبث الحديث أن أصبح عاما يشاركون فيه جميعا ، وصرت تسمع ثلاثة أصوات أو أربعة أصوات تكلم معاً في آن واحد ، حتى أن وجه السيدة زاخليين الجهم المتعب انبسطت أساريره رضى بل وفرحا . وكذلك كاترينا فيدوسوفنا التي كانت تصغى وتتنظر مفتونة مأخوذة . وكانت ناديا تراقب فلتشائينوف خلصة بانتباه شديد . كان واضحا أنها قد حذرت منه ، فبا زادها ذلك الا حماسة . أما ماريا نيكيتشنا « الخيشة » فقد استطاعت أن ترميه أثناء الحديث بغمزة لاذعة : قالت ان بافل بافلوفتش قد حدثهم أمس بأن فلتشائينوف صديق من أصدقاء طفولته ، وبذلك أضافت الى سنه سبع سنين طوال ، ملححة على ذلك . ولكن فلتشائينوف

استطاع أن يحظى حتى باعجاب الخبيشة ماريا نيكيتينا . وبهت بافل بافلوفتش . كان يعرف ، طبعاً ، ما يملكه صديقه من وسائل ، وقد سره نجاحه كثيراً في أول الأمر ، فضحك مع الضاحكين في تواضع ، وانضم اليهم في الحديث ، ولكنه ما لبث أن أصبح حالماً ذاهلاً حزينا ، وفضح وجهه المهموم ما يضطرب في نفسه من عواطف .

قال الأب زاخليبين بلهجة مرحة ، وهو ينهض ذاهباً الى غرفته في الطابق الثاني حيث تنتظره أوراق كثيرة يجب أن يوقعها رغم أن اليوم يوم عيد :

— أرى أنك ضيف لا حاجة بالمرء في معاملته الى كلفة . تخيل أنتى كنت أظنك من أشد الشباب كآبة . ما أكثر ما يخطئ الانسان ! وكان في الصالون بيانو . فأراد فلتشائينوف أن يعرف من يعزف عليه ، فاتجه فجأة الى ناديا يسألها :

— أظن أنك تغنين ؟

فأجابته بجفاف :

— من قال لك ذلك ؟

— قال لى ذلك بافل بافلوفتش منذ هنيهة .

— غير صحيح . أنا لا أغنى الا لأضحك ، وليس لى صوت جميل .

— وأنا أيضا صوتى غير جميل ، ومع ذلك أغنى .

— هل تغنى اذن ؟ اذا غنيت أنت أغنى أنا .

قالت ناديا ذلك وقد التمت عيناها . ولكنها أضافت :

— غير أتنى لن أغنى الآن ، بل فيما بعد .. بعد الغداء . لقد
سئمت البيانو . جميع الناس في بيتنا يغنون ، ويعزفون من الصباح الى
المساء . لو لم تعزف الا كاتيا ، لكان ذلك فوق الكفاية ..

فأدرك فلتشانيوف الأمر في مثل لمح البصر . ان كاترينا فيدوسويفنا
هى الوحيدة التى تمارس الموسيقى جادة . فسألها فوراً أن تعزف .
وسُرت الفتيات جميعاً من أنه اتجه الى كاتيا ، حتى أن ماما نفسها
احمر وجهها سروراً . نهضت كاترينا فيدوسويفنا مبتسمة ، واتجهت
الى البيانو . واحمر وجهها فجأة ، فاضطربت أشد الاضطراب من هذا
الاحمرار الذى فاجأها كأنها طفلة صغيرة ، مع أنها كبيرة ، قوية ، فى
الرابعة والعشرين من عمرها . ظهرت هذه المشاعر كلها فى وجهها حين
أخذت تعزف .

عزفت لحناً لهايدن ، فكان عزفها واضحاً ، ولكن ليس فيه تعبير
كثير : لقد كانت خجلى . فلما انتهت من العزف أخذ فلتشانيوف يكيل
المديح حاراً لا لعزفها بل لهايدن ، ولهذا اللحن الذى عزفته خاصة .
فلاحت فى وجهها معانى السرور الكبير والسكر العميق على أن المدائح
لم توجه اليها بل الى هايدن ، فما وسع فلتشانيوف الا أن ينظر اليها
نظرة أحفل بالانتباه واللفظ ، كأنه يقول لها : « انك حقاً لفتاة طيبة » ،
وبدا أن الحاضرين جميعاً فهموا هذه النظرة ، وخاصة كاترينا فيدوسويفنا
نفسها .

قال فلتشانيوف فجأة ، دون أن يتجه بكلامه الى أحد بالذات ،
وهو يلتفت الى باب الشرفة الزجاجى :

— ما أجمل حديقتكم هذه . هيا بنا الى الحديقة !

— نعم ، هيا بنا الى الحديقة .

بهذا صاحوا جميعا فرحين ، كأن فلتشانينوف قد أدرك أقوى رغبة

تجيش في أنفسهم كلهم .

وظلوا يتنزهون في الحديقة حتى حان وقت الغداء . ان السيدة

زاخليينين التى كانت تريد منذ مدة طويلة أن تذهب لتستريح

لم تستطع أن تمنع نفسها من الخروج معهم ولكنها آثرت أن تجلس

على الرصيف من باب الحذر ، ثم ما لبثت أن غفت . انعقدت أواصر

الصدقة بين فلتشانينوف والفتيات . وهرع من الفيلات المجاورة

ثلاثة فتيان انضموا الى الموكب : أحدهم طالب فى الجامعة ، والثاني

تلميذ فى مدرسة ثانوية . وقد أسرع هذان الشابان كل الى

« آنسته » ، وكان واضحا أنهما لم يجيئا الا من أجلهما . أما الثالث

فهو شاب فى نحو العشرين من العمر أشعث فظ ، مظلم الوجه ،

على عينيه نظارتان زرقاوان ضخمتان . تحدث مع ماريا نيكيتشنا

ومع ناديا حديثا سريعا بصوت منخفض ، ثم قطب ما بين حاجبيه ،

وأخذ يرمى فلتشانينوف بنظرات قاسية ، كأنه يشعر أن من واجبه

أن يحتقره احتقارا عميقا . واقترحت بعض الفتيات أن يبدأوا اللعب

بلا ابطاء ، فسأل فلتشانينوف عن اللعب الذى يلعبونه عادة ، فقبل

له انهم يلعبون أنواعا شتى من اللعب ، ولكنهم فى المساء يؤثرون

لعب الأمثال : يجلس الجميع ، ويبتعد الشخص الذى عليه أن يحزر .

فيختارون عندئذ مثلا من الأمثال ، كقولهم : « وصاحب البيت

أدرى بالذى فيه » ، ثم ينادون الشخص الذى عليه أن يحزر ،

ويكون على كل واحد منهم أن يقول له جملة مهيأة من قبل ، فالأول يقول جملة تشتمل على كلمة « صاحب » ، والثاني يقول جملة نضم كلمة « أدرى » ، وهكذا دواليك ، ويكون على الحازر أن يلتقط هذه الكلمات فيركب منها المثل .

قال فلتشائينوف :

— لا بد أن هذا اللعب مسل جدا .

فأجابته عدة أصوات في آن واحد :

— بل هو ممل جدا .

فتدخلت ناديا تقول متجهة بالكلام اليه :

— اننا نلعب أحيانا لعبة المسرح . هل ترى تلك الشجرة الكبيرة التي يحيط بها مقعد ؟ تلك هي الكواليس التي يقف فيها الممثلون : الملك ، الملكة ، الأميرة ، الفتى الأول . ثم يخرج كل واحد منهم متى شاء ، ويأخذ يقول ما يخطر بباله . ان هذه اللعبة تنجح في بعض الأحيان .

فقال فلتشائينوف مجبذا مرة أخرى :

— لعبة جميلة جدا .

— بل هي مملة الى أقصى الحدود . لا بأس بها في البداية ، ولكن كل شيء يرتبك ويختلط في النهاية ، لأن أحدا لا يعرف كيف يختسها . قد تنجح أكثر من ذلك اذا اشتركت فيها أنت . ألا ما أجهلنا ! لقد تصورنا أنك صديق بافل بافلوفتش ! لقد أراد

التباهى ، هذا كل ما فى الأمر . اننى لسعيدة جدا بأنك جئت .

قالت ذلك ، ونظرت الى فلتشانينوف نظرة ذات معنى ، نظرة جادة ، ثم مضت تلحق بماريا نيكييتشنا فورا .

همست فتاة كان فلتشانينوف قد لمحها لمحا ، ولم تكن قد اتجهت اليه بكلام بعد ، همست فى أذنه سرا تقول :

— سنلعب لعبة الأمثال فى المساء . نهىء « المقابل » لبافل بافلوفتش وتشترك أنت فى ذلك .

وقالت فتاة لم يكن قد لاحظها أبدا ، وكأنها انبجست فجأة من مخبأ ، وهى فتاة قصيرة حمراء ، زاد الركض والحر حرستها حتى أصبح وجهها مضحكا ، قالت :

— ما أسعدنا بمجيئك ! ان الجو هنا يبعث على الضجر .

كان بافل بافلوفتش يزداد قلقه شيئا بعد شيء . وانتهى الأمر بأن انعقدت أواصر الصداقة بين فلتشانينوف وناديا . أصبحت لا تنظر اليه شزرا ، ولا تفكر فى التحدث اليه محدقة متفرسة . لقد أخذت تضحك ، وتقفز ، وتطلق صرخات صغيرة ، حى انها أمسكت بيده مرتين . كانت سعيدة جدا ، واستمرت لا تلتفت الى بافل بافلوفتش ، ولا تحفل به ، كأنه لا وجود له . وأيقن فلتشانينوف أن ثمة مؤامرة حقيقية على بافل بافلوفتش : فبينما كانت ناديا وزمرة من البنات يجذبن اليهن فلتشانينوف كانت زمرة أخرى تجذب اليها بافل بافلوفتش بحجج وأعدار شتى . الا أن بافل بافلوفتش كان يهرب

منهن ، ويسرع راكضا الى فلتشانيوف وناديا يدس بينهما رأسه
الأصلح القلق فجأة لسمع ما يقولان . وأصبح أخيرا لا يتحفظ . في
ذلك أى تحفظ ، وأصبحت سذاجة موقفه تثير الدهشة في بعض
اللحظات . ولم يسمع فلتشانيوف الا أن يظل يلاحظ كاترينا
فيدوسوفنا بكثير من الانتباه . كان واضحا أنها أدركت أن
فلتشانيوف لم يجيء من أجلها ، وأنه يهتم بناديا اهتماما كبيرا .
غير أن وجهها ظل يعبر عن تلك العذوبة نفسها ، وعن ذلك الرضا
نفسه الذى كان يعبر عنه قبل ذلك . كانت تبدو سعيدة بوجودها
مع الآخرين ، واصفاها الى الزائر الجديد . وكانت المسكينة لا تعرف
كيف تنخرط في الحديث انخراطا سهلا لبقا .

قال فلتشانيوف لناديا فجأة بصوت منخفض :

— ما ألفتها ، أختك كاترينا فيدوسوفنا .

فأجابته ناديا بحماسة :

— كاتيا ! هل يمكن أن يكون أحد أطف منها ؟ انها ملاكنا

جميعا . اننى آهوها !

وأخيرا ، في الساعة الخامسة ، وضع الغداء . كان واضحا
أنه ليس غداء عاديا ، وأن الأسرة قد تكلفت من أجل الضيف الجديد
بعض النفقات . لقد أضيف الى قائمة الطعام المألوفة طبقان أو ثلاثة
أطباق معقدة . وكان أحد هذه الأطباق غريبا جدا ، حتى أن أحدا
لا يستطيع أن يقول ماهو ، في أغلب الظن . واضافة الى خمور
المائدة العادية ، جىء بزجاجة من خمر توكى ، لا شك أنها اشترت

لهذه المناسبة خصيصاً ، حتى لقد جرى في آخر الغداء بزجاجة من الشمبانيا . وأسرف الأب زاخليينين قليلاً في الشراب ، فصفا مزاجه ، وأصبح يضحك لكل ما يقوله فلتشائينوف . ولم يستطع بافل بافلوفتش أخيراً أن يصمد أكثر مما صمد ، فحاول أن ينكت هو أيضاً ، تدفعه الى ذلك روح المنافسة ، فاذا بالفتيات يضحكن ضحكا صاخبا عند آخر المائدة ، حيث كان يجلس بافل بافلوفتش مع السيدة زاخليينين . وصرخت اثنتان منهن في آن واحد ، تقولان : — بابا ، بابا ، لقد قال بافل بافلوفتش نكتة أيضاً : قال انا فتيات جديرات بالاعجاب * .

— ها ! هو أيضاً أخذ ينكت ! ماذا قال ؟
كذلك سأل زاخليينين ، بلهجة وقوره كأنها تحمى بافل بافلوفتش ، وبابتسامة تستبق النكتة التي سيسمعها .
— قال انا « فتيات جديرات بالاعجاب » .
— نعم ، ولكن ؟..
مرة أخرى لم يفهم الأب ، ومع ذلك ازدادت ابتسامته وداعة ولطفاً .

— كيف لا تفهم يا بابا ؟
وشرحت له النكتة أخيراً ، فقال مرتبكا بعض الارتباك :
— ها . نعم . هيم° .. لطيف .. في مرة أخرى ، يقول نكتة ألطف من هذه أيضاً .

قال ذلك وانفجر ضاحكا .

وصاحت ماريا نيكيتشنا تقول بلهجة ساخرة :

— لا يمكن أن يملك المرء جميع المواهب في آن واحد ،
أليس كذلك يا بافل بافلوفتش ؟
ثم هتفت وهى تنهض فجأة :

— ما بك ؟ انه يختنق .. لا شك أنها حسكة من السمك !
وعم الاضطراب ، وهذا بعينه ما كانت تريده ماريا نيكيتشنا ،
مع أن كل ما فى الأمر أن بافل بافلوفتش قد غص بجرعة من الخمر
شربها اخفاء لخلجه واضطرابه . ولكن ماريا نيكيتشنا أخذت تحلف
إيماناً مغلظة بأنها « حسكة سمك » ، وبأنها رأت الحسكة بأم عينها ،
وبأن ذلك يمكن أن يسبب الوفاة » .

صاح أحدهم يقول :

— اضربه على ظهره !

فقال زاخليبين :

— هذا خير ما يعمل حقا !

وتطوع المتطوعون للنهوض بهذه المهمة . ان ماريا نيكيتشنا ،
والفتاة القصيرة الحمراء (وقد دعيت أيضا الى تناول الغداء) ،
والسيدة زاخليبين نفسها ، (وقد ذعرت ذعرا شديدا) ، هؤلاء
جميعا أردن أن يضربن بافل بافلوفتش الذى نهض عن المائدة ، وأخذ
يحاول الافلات منهن ، مؤكدا لهن أن الأمر لا يعدو أن يكون غصة ،

وأن سعاله سيهدأ فورا . وأدرك الجميع أن ذلك كان « مقلبا » من ماريا نيكيتشنا .

— هذا يتجاوز الحدود ، انك تسرفين ..

ذلك ما حاولت السيدة زاخليينين أن تقوله لها بلهجة قاسية ، ولكنها لم تستطع أن تكمل عبارتها ، بل انفجرت في ضحكة مجنونة ليست من عاداتها ، فأحدث ذلك أثره أيضا ..

وبعد الغداء ، احتسوا القهوة على الرصيف .

قال زاخليينين بلهجة فخمة وهو يتأمل الحديقة راضيا مسرورا :

— ما أجمل هذه الأيام في هذه السنة ! ولكن لعلنا أصبحنا في حاجة الى مطر غزير .

ثم أضاف وهو ينهض :

— أنا ذاهب لارتاح قليلا . أتمنى لكم تسليية جميلة ! أتمنى لك أيضا تسليية جميلة .

قال جملته الأخيرة هذه وهو يربت على كتف بافل بافلوفتش ،

ثم خرج .

فلما نزلوا جميعا الى الحديقة ، هرع بافل بافلوفتش فجأة

نحو فلتشانيوف ، وأمسكه من كفه ، وهمس في أذنه وقد فرغ صبره يقول :

— دقيقة ، من فضلك .

ودخلا في ممر بالحديقة منعزل . فقال بافل بافلوفتش بصوت

خافت يخنقه الغيظ وهو يشد على ذراع فلتشانيوف :

— لا ، لا ، لن أسمح لك في هذه المرة ، اعذرني .. لن أسمح لك في هذه المرة ..

فسأله فلتشانينوف محملا :

— ماذا ؟ ماذا هناك ؟

فنظر اليه بافل بافلوفتش دون أن يستطيع الكلام . كانت شفتاه ترتجفان ، وكان يتسم ابتسامة الحنق والغضب .

ووصلت أصوات الفتيات من بعيد تنادى متعجلة :

— أين ذهبتما ؟ أين أتما ؟ لقد هينا كل شيء !

فهر فلتشانينوف كتفيه ، ومضى يلحق بهن ، فأسرع بافل بافلوفتش يتبعه .

قالت ماريا نيكيتشنا :

— أراهن أنه طلب منك منديلا ! لقد نسي منديله في المرة الماضية .

وأسرعت إحدى بنات زاخليينين تقول :

— انه ينسى منديله دائما .

— نسي منديله ! — بافل بافلوفتش نسي منديله ! — ماما ،

بافل بافلوفتش نسي منديله هذه المرة أيضا ! — ماما ، بافل بافلوفتش

أصيب بركام مرة أخرى !

هكذا كانت أصوات تصرخ من كل جانب .

فقالت السيدة زاخليينين بصوت بطيء :

— ولكن لماذا لا يقول ؟ لماذا هذه الكلفة ؟ الزكام لا مزاح معه . سأتيك بمنديل . ولكن كيف يمكن أن يكون مصابا بزكام دائما ؟

أضافت سؤالها الأخير هذا وهي تبتعد ، وقد أسعدها كثيرا أن تجد حجة للعودة الى البيت .
فصرخ بافل بافلوفتش يقول لها :

— معى منديلان ، وليس بى أى زكام .

ولكنها لم تسمعه . وما هى الا لحظات ، بينما كان بافل بافلوفتش يتبع الآخرين ويحاول أن يكون أقرب ما يكون من ناديا وفلتشائينوف ، اذا بخادمة تصل لاهثة ، حاملة اليه منديلا .
وتعالت أصوات من كل جانب تقول :

— هيا بنا نلعب لعبة الأمثال .

كأنهم قد يبتوا أمرا ، فهم يتوقعون أن يجنوا من هذه اللعبة لذة خاصة لا يعلم الا الله ما عسى تكون .

واختاروا مكانا ، وجلسوا على المقاعد . وكان على ماريا نيكيتشنا أن تكون أول الحازرين . فطلب اليها أن تبتعد أكثر ما يمكن الابتعاد ، وأن لا تحاول التسمع على ما يقولونه . حتى اذا اختاروا المثل ، توزعوا الكلمات فيما بينهم فلما نادوا ماريا نيكيتشنا حزرت المثل فورا . كان المثل هو : الخطر عظيم ولكن الله رحيم .

ثم جاء دور الشاب الأشعث ذى النظارتين الزرقاوين . فأتخذت معه احتياطات أكبر : قيل له أن يبتعد حتى يصل الى حيطان البيت

وأن يدير وجهه الى الجدار . قام هذا الشاب بواجبه متعاليا محترقا، كأنه يشعر أن هذا اللعب يذله ، فلما نودى لم يستطع أن يحزر : طاف على الحلقة مرتين ، وجعل كلا من أفرادها يكرر الجملة التي قالها ، وفكر مدة طويلة ، قاتم الوجه مظلم الأسارير ، على غير طائل . فأخذوا يعيرونه ، على العادة في هذه اللعبة . وكان المثل الذى يجب أن يحزره هو : « ما صلاة لله ولا خدمة للقيصر بذاهبة سدى » .

قال الشاب متذمرا ، وهو يعود فيجلس في مكانه مهانا :

— المثل سخي ف أصلا !

وارتفعت أصوات تقول متململة :

— ما هذه اللعبة المملة !

وجاء بعد ذلك دور فلتشانينوف . فاضطروه أن يتعد أكثر من ذلك أيضا . ولم يستطع أن يحزر هو الآخر ، فزاد عدد الأصوات المتململة قائلة :

— ما هذه اللعبة المملة ! ما هذه اللعبة المملة !

قالت ناديا :

— الآن دورى أنا .

— بل دور بافل بافلوفتش ، دور بافل بافلوفتش .

ثم اقتيد بافل بافلوفتش الى جدار السور ، فأوقف هنالك واضعا أنفه في زاوية ، وجعلت الفتاة الحمراء القصيرة رقية عليه ..

استرد بأفل بأفلوفنتش بعض هدوئه ، وعاد اليه شيء من صفاء المزاج ، فكان يستعد للقيام بواجبه على أدق وجه . فوقف ساكنا كأنه حطبة ، لا يجروء أن يلتفت الى الراء ، ولا يزيح عينيه عن الجدار . وكانت الصغيرة الحمراء تراقبه مضطربة على بعد عشرين خطوة منه ، وتلوح للفتيات سرا . كان واضحا أن شدة حادثا ينتظره بصبر فارغ . وفجأة حركت الصغيرة الحمراء يديها ، فإذا هن يهربن جميعا بخطى راكضة سريعة .

— أركض ، أركض ، مالك لا تركض ؟

هكذا قالت فلتشانيوف أصوات عشر بنات في آن واحد ، وقد أقلقهن أنه لا يزال في مكانه .

فسألهن وهو يتبع الآخرين :

— ماذا هنالك ؟ ما الذى حدث ؟

— أسكت . لا تصرخ . سيبقى واقفا هناك ، ملصقا أنفه بالجدار . أما نحن فنهرب . أنظر ! ها هى ذى ناستيا تهرب أيضا .

كانت ناستيا (الفتاة القصيرة الحمراء) تركض كمن طاش صوابه ، وهى تحرك ذراعيها . لكأن أمرا لا يعلمه الا الله قد وقع . ووصلوا أخيرا الى الطرف الثانى من الحديقة ، وراء غدير . فلما أدرکہم فلتشانيوف رأى كاترينا فيدوسوينا تناقش الفتيات الأخريات ، وخاصة ناديا وماريا نيكيتشنا ، نقاشا حارا . قالت لها ناديا وهى تقبلها :

— كاتيا ، حبيبتى ، لا تزعلى .

— طيب . لن أقول ذلك لماما . ولكننى ذاهبة . ان هذا عيب .
ما عساه يقول هذا المسكين ، قرب الجدار ؟

قالت ذلك ، ثم تركتهن .. الا أن الأخريات لم تأخذهن به رحمة
ولا شفقة . وطلبن الى فلتسانينوف أن لا يلتفت الى بافل بافلوفتش
أى التفات حين يلحق بهن بعد قليل ، كأن شيئا لم يقع . وصاحت
الفتاة القصيرة الحمراء تقول فرحة أشد الفرح :

— والآن فلنلعب لعبة السباق .

لم يلحق بهم بافل بافلوفتش الا بعد ربع ساعة فى أقل تقدير ،
ولا شك أنه قضى ثلثى هذا الوقت ساكنا جامدا قرب الجدار .
كانوا يلعبون فى حماسة ، وكادت الفتيات جميعا تصرخ وتضحك ،
فهرع بافل بافلوفتش الى فلتسانينوف رأسا ، وقد جن جنونه من
الحق ، فأمسك بكمه مرة أخرى ، وقال له :

— لحظة قصيرة ، من فضلك .

— هوه ! ما أكثر لحظاته القصار المزعجة !

وقالت عدة أصوات فى آن واحد :

— انه فى حاجة الى منديل أيضا .

قال بافل بافلوفتش وهو يقرع أسنانه :

— أنت السبب ، فى هذه المرة ، أنت السبب !

فقاطعه فلتسانينوف ، ونصحه ، هادئا كل الهدوء ، بأن يكون

مرحاً . قال له : « هذا هو السبب في أنهم يسخرن منك . أنت مزعج ،
بينما جميع الناس يلهون ويضحكون ويعبثون » . وما كان أشد
دهشة فلتشانيوف حين رأى أن كلماته أثرت في بافل بافلوفتش
تأثيراً قوياً ، فإذا هو يصمت فجأة ، بل يطيء رأسه ذلاً وانكساراً ،
ويلحق بالموكب ثم يشارك في الألعاب . وقد عاملته الفتيات خلال فترة
من الوقت معاملة لطيفة ، فكن يلعبن معه كما يلعبن مع غيره ،
وما هي الا نصف ساعة حتى عاد اليه مرحة تاماً كاملاً . وكان ،
إذا اختار كل واحد من الرجال سيدة له ، يختار هو الفتاة القصيرة
الحمراء « الخائنة » ، أو يختار إحدى أخوات ناديا . ودهش
فلتشانيوف كثيراً حين لاحظ أن بافل بافلوفتش لم يتجه الى ناديا
مرة واحدة بالكلام ، رغم أنه كان يحوم حولها دائماً . كان يبدو
على كل حال أنه ارتضى عدم احتفالهن به ، كأن ذلك أمر طبيعي
لا غرابة فيه . ولكنهن دبرن له ، في النهاية ، « مقلبا » جديدا .
كانوا يلعبون لعبة « الاختباء » ، وكان يسمح للشخص أن
ينتقل أثناء اختبائه ، من مكان الى مكان . وقد خطر فجأة على بال
بافل بافلوفتش الذي اختبأ تحت ذغل كثيف ، أن يختبئ في البيت .
فلما رأيته يركض ، دوت صرخاتهن . فصعد السلم بسرعة ، وهرع
الى القبو . كان يعرف هنالك ركنا صغيرا وراء صندوق ، فأراد أن
يندس في ذلك الركن . غير أن الفتاة القصيرة الحمراء ركضت وراءه
على رءوس أصابعها ، فلما وصلت الى الباب ، أغلقته وأدارت
مفتاحه . فانقطعت البنات عندئذ جميعا عن اللعب ، كما فعلن في
المرة الماضية ، وهربن لا يلوين على شيء . ولاحظ بافل بافلوفتش

بعد عشر دقائق أن أحدا لا يبحث عنه ، فنهض من مكانه ، ومد رأسه من النافذة ، فلم ير أحدا . لم يستطع أن ينادى ، مخافة أن يوقظ الأبوين . وقد أوعزت البنات الى الخادم والى الطباخة ايعازا شديد اللهجة أن تختفيا ، وأن لا تردا على بافل بافلوفتش اذا هو صرخ ينادى أحدا . فما كان يمكن أن ينقذه أحد غير كاترينا فيدوسوينا . ولكن كاترينا كانت قد غفت حين عادت الى غرفتها ناعسة . وهكذا ظل بافل بافلوفتش سجيناً قرابة ساعة ، ظهرت بعدها الفتيات واحدة بعد الأخرى :

— بافل بافلوفتش ! لماذا لا تجيء إلينا ؟ ان جونا مرح جدا .
 اننا نلعب لعبة المسرح . ألكسى ايفانوفتش يمثل دور الفتى الأول .
 — بافل بافلوفتش ! ماذا تصنع هناك ! انك لتدهشنا حقاً ! ..
 — ماذا هنالك ؟

هكذا دوى فجأة ، صوت السيدة زاخليبين . لقد استيقظت ، فقررت أن تنزل الى الحديقة ، وأن تشاهد ألعاب « الأولاد » بانتظار موعد الشاي .

— انظرى الى بافل بافلوفتش !

قلن لها ذلك ، وأشارن بالأصابع الى النافذة التى يترى فى اطارها وجه بافل بافلوفتش الشاحب من الحنق ، المتشنج بابتسامة .

قالت السيدة العجوز وهى تهز رأسها :

— أية لذة يجد في البقاء هناك وحده ، بينما الآخرون يلهون ويتسلون ؟

في أثناء ذلك الوقت ، كان فلتشانيوف قد شرف بالخطوة بثقة ناديا ، فشرحت له السبب في أنها « سعدت بزيارته أشد السعادة » . وقد تم الحديث بينهما في ممر بالحديقة منعزل . لقد اقتربت منه ماريا نيكييتشنا ، وأشارت اليه بيدها ، بينما كان يشارك في اللعب ، وبشعر بحزن عميق ألم به فجأة ، ثم قادته الى قرب ناديا ، وتركته وحيدا معها . بدأت ناديا تقول ، جريئة ، بصوت سريع متعجل :

— أيقنت الآن أنك لست صديقا حميما لبافل بافلوفتش ، كما كان يتباهى هو بذلك . وأعتقد أنك الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يقدم لى هذه الخدمة الهامة . خذ سواره هذا الكريه (قالت ذلك وسحبت اللعبة من جيبيها الصغير) ، ورجائي اليك أن ترده اليه حالا ، لأننى لن أخاطبه ما حييت . وتستطيع أن تقول له اننى أنا الذى كلفتك بذلك ، وتستطيع أن تطلب منه ، عدا هذا ، أن لا يتجراً بعد الآن على أن يقدم لى أية هدية . أما ما عدا ذلك ، فسأكلف به آخرين . هل لك أن تخدمنى هذه الخدمة ، فتنفذ ما طلبته منك ؟

صاح فلتشانيوف وهو يرد اليها اللعبة :

— اعفينى من هذه المهمة ، أرجوك ..

— كيف ؟ أعفيك ؟

دهشت ناديا من رفضه أشد الدهشة ، فحملت . ثم فقدت سيطرتها على نفسها فجأة ، وأوشكت أن تجهش باكية . فانفجر فلتشانيوف ضاحكا :

— ليس معنى هذا أنتى .. كان يسعدنى جدا أن .. ولكن بيننا
حسابا يجب أن يَُصفى ..
فقاطعته تقول بسرعة :

— أعرف أنه ليس صديقك ، وأنه كذب . لن أنزوجه أبدا . اعرف
هذا . لن أنزوجه أبدا . بل اننى لا أفهم كيف تجرأ أن .. ولكن يجب
عليك مع ذلك أن ترد اليه سواره القذر ، والا فهل لى من سبيل آخر ؟
أريد حتما ، حتما ، أن يَُرد اليه فى هذا اليوم نفسه ، أن يتلقى هذه
الاهانة . واذا تجرأ أن يشكونى الى بابا ، فسيعرف ما سيحدث له ..
وفى هذه اللحظة ، انبجس الشاب الأشعث ذو النظارتين
الزرقاوين ، انبجس فجأة من أحد الأدغال . وقال لفلتشانينوف بلهجة
حائقة غاضبة :

— يجب عليك أن ترد اليه السوار .. على الأقل باسم حقوق
المرأة .. هذا اذا كنت قادرا على الارتفاع الى مستوى ..
ولكنه لم يستطع أن يكمل جملته . ذلك أن ناديا أمسكت ذراعه
بقوة ، ودفعته ، وهى تصيح به :

— ما أحملك يا بردبوسيلوف ! هيا اذهب . هيا اذهب . ولا تسمح
لنفسك بعد الآن أن تتجسس علينا . لقد أمرتك بأن تظل بعيدا ..

كانت ناديا تضرب الأرض برجليها . وغار الشاب الأشعث فى
الأدغال . ولكنها ظلت تذرع المر جيئة وذهابا ، وقد خرجت عن
طورها ، واتقدت عيناها ، وضمت ذراعيها الى صدرها . ثم وقفت
فجأة أمام فلتشانينوف وقالت له :

— انك لا تستطيع أن تتصور حماقتهم . أنت تضحك .. ولكن
فكر فيما يمكن أن أشعر به أنا .

فسألها فلتشائينوف ضاحكا :

— ليس هذا هو ، أليس كذلك ؟

— طبعا ليس هو . وكيف يمكن أن تظن أنه هو ؟

قالت ناديا ذلك مبتسمة ، واصطبغ وجهها بالحمرة . ثم أضافت :

— هذا صديقه . ولكننى أنساءل كيف يختار لنفسه مثل هذا
الصديق ! أنا لا أفهم ذلك . انهم يجمعون على أن لهذا الشاب مستقبلا
عظيما .. أما أنا فلا أفهم شيئا من هذا .. ألكسى ايفانوفتش ،
ليس ثمة شخص آخر التجيء اليه . كلمة أخيرة : هل ترد السوار ؟
— هاتيه ..

— ما أطفك ، ما أطيبك .

قالت ذلك وهى تناوله اللعبة فرحة كل الفرح . وأضافت :

— وفى مقابل ذلك ، سأغنى لك طوال السهرة ، لأننى أغنى غناء
جيذا جدا ، فاعلم ذلك .. لقد كذبت حين زعمت لك أننى لا أحب
الموسيقى . ليتك تعود ، ولو مرة واحدة أخرى .. لشد ما يسرنى أن
تعود . سأقص عليك كل شيء ، كل شيء ، وسأروى لك أشياء أخرى
كثيرة ، لأنك طيب ، طيب جدا ، مثل كاتيا تماما .

فلما عادوا للتناول الشاى غنّت له ناديا فعلا لحنين غراميين بصوت
لم يتصل بعد ، لكنه صوت جميل ما فى ذلك شك . كان بافل
بافلوفتش جالسا قرب الأبوين حول مائدة الشاى التى كان عليها

سماور كبير يغلى ، وأقداح من خزف سيفر . كان لعله يحدثهما في أمور هامة جدا ، لأنه سيسافر بعد غد ، وسيغيب تسعة أشهر . بدا باخل بافلوفتش كأنه لا يهتم بالشبيبة العائدة من الحديقة ، ولا يحفل بفلتشانينوف خاصة . وكان واضحا أنه لم يشك أمره بعد . كان كل شيء الى ذلك الحين هادئا . حتى اذا تهيأت ناديا للغناء ، ظهر فجأة . فتعمدت ناديا أن لا ترد على سؤال وجهه اليها . ولكنه لم يضطرب من ذلك ولم يرتبك بل جلس وراء كرسيها ، كأنما ليعلن بذلك أن هذا هو مكانه وأنه لن يتخلى عنه لأحد .

— ألكسى ايفانوفتش هو الذى سيغنى الآن . ماما ، ان ألكسى ايفانوفتش يريد أن يغنى .

هكذا صاحت الفتيات وهن يسرعن الى البيانو ، ويتحلقن حول فلتشانينوف الذى جلس اليه جلسة الواثق من نفسه ، واستعد لأن يعزف لنفسه أثناء غناؤه . فانتقل الأبوان من قاعة الطعام الى الصالون ، وكذلك فعلت كاترين فيدوسوفنا التى هيأت الشاي .

اختار فلتشانينوف أغنية غرامية من تأليف جلنكا ، أصبحت اليوم منسية * :

حين تنفرج شفتاك
فى اللحظة الفرحة

فتخطيبينى بكلام أرق من سجع حمامة ..
فغناها متجها الى ناديا الواقعة قربه . لقد فقد فلتشانينوف صفاء صوته منذ مدة طويلة ، ولكن المرء يدرك حين يسمعه أن صوته كان

جميلا من غير شك . لقد سمع فلتشائينوف هذه الأغنية ، أول مرة ، منذ عشرين عاما ، حين كان طالبا ، سمعها من جلنكا نفسه ، في سهرة فنية أقيمت في بيت أحد أصدقاء المؤلف . ففى ذلك اليوم غنى جلنكا الأغنيات التى كان يؤثرها على غيرها من أغنياته ، وكانت هذه الأغنية من بينها .. وكان جلنكا يومئذ يعنى ويعزف بحماسة وحرارة ، رغم أنه كان قد فقد جمال صوته . ولكن فلتشائينوف ما يزال يتذكر الأثر العميق الذى أحدثته هذه الأغنية نفسها فى قلوب المستمعين . ما كان لأى فنان حاذق ، ولا لأى مغن من مغنى الصالونات أن يبلغ فى غنائه ما بلغه جلنكا يومئذ من عنف التعبير . ان الهوى ليشتد ويتفتح فى هذه الأغنية عند كل جملة جديدة من اللحن . ومن أجل هذا التوتر الذى ما ينفك يزداد ، فان أيسر مبالغة يقع فيها المغنى ، وأبسط خطيئة يقتربها ، مما قد يفوت المرء ادراكه فى أوبرا ، يمكن أن يهدم هنا معنى اللحن ، وأن يضعف دلالاته . ان هذه الأغنية البسيطة كل البساطة ، ولكن الرائعة كل الروعة ، تتطلب ممن يريد أن يعنيتها غناء تاما ، أن يكون صادق الالهام ، صادق الهوى ، أو أن يعيد خلق ما فيها من شعر ، فى أقل تقدير ، والا بدت الأغنية عامية مبتذلة : ان من المستحيل أن يعبر المرء بهذه الأغنية عن هوى عنيف هذا العنف تعبيرا قويا هذه القوة ، بدون أن يثير شيئا من الاشتمزاز ، ما لم يثب فيها ما يجب لها من صدق وبساطة وشئ من سذاجة . ان فلتشائينوف يتذكر أنه استطاع فى الماضى أن ينجح فى غنائها نجاحا تاما . لقد تمثل طريقة جلنكا فى غنائها أكمل تمثل . فلما بدأ فى غنائها هذه المرة ، أسكر الالهام روحه وأرعرش صوته ، منذ أول نغمة من اللحن ،

منذ أول بيت من القصيدة . فاذا العاطفة تزداد تدفقا وتزداد جرأة
في التعرى ، عند كل كلمة جديدة ؛ واذا الأبيات الأخيرة أتته بصيحات
من صياح الهوى الجامح ، والعشق الهائم ، حتى اذا غنى هذه
الأبيات ، وهو يشخص بعينه المتقدمين الى ناديا :
الآن أنظر في عينيك نظرة جريئة .

وأقرب شفتى من شفئك .

بعد أن فقدت القدرة على الاصغاء الى كلامك ،

أريد أن أقبلك ، أن أقبلك ، أن أقبلك .

أريد أن أقبلك ، أن أقبلك ، أن أقبلك ،

ارتعشت ناديا بما يشبه الخوف ، حتى لقد تراجعت بحركة
صغيرة الى الوراء ، واصطنع خذاها بحمرة الدم ، ولاحظ فلتشائينوف
في وجهها الخجل الوجع تعبيرا سريعا عن الرضى والقبول . وبدأ على
جميع المستمعين أنهم مفتونون ، ولكنهم مضطربون ، كأنهم يعتقدون
جميعا أن من المستحيل ، أن من المخجل أن يغنى المرء هكذا . ومع
ذلك كانت وجوههم تحمر ، وعيونهم تنقد ، وكأنهم ينتظرون أن
يستمر المغنى فى الغناء . ولاحظ فلتشائينوف خاصة وجه كاترينا
فيدوسوفنا الذى أوشتك أن يصبح جميلا .

ودمد العجز زاخليبينين يقول مضطربا :

— ها .. هذه أغنية .. ولكن أليست عنيفة مسرفة فى العنف ؟

انها جميلة جدا ، ولكنها عنيفة ..

وتدخلت امرأته تقول :

— نعم هى عنيفة ..

ولكن بافل بافلوفتش لم يتح لها أن تتم كلامها ، فقد نهض مسرعا ، وكما يفعل مجنون فقد كل سيطرة على نفسه ، مضى نحو البيانو ، فأمسك بذراع ناديا وأبعدها عن فلتشائينوف بعنف ، وقد أصبحت عيناه كعيني وحش كاسر ، وأخذت شفتاه ترتجفان ، فقال لفلتشائينوف بصوت متقطع :

— أريد أن أكلمك .

أدرك فلتشائينوف أن بافل بافلوفتش قادر في الحالة التي هو فيها ، على ارتكاب أفظع الأعمال الجنونية ، فأمسك يده ، وخرج به دون أن يلتفت الى ما أصاب الحاضرين من دهشة ، خرج به الى الرصيف ، وسار به بضع خطوات في الحديقة التي أوشكت أن يعمها الظلام .

قال بافل بافلوفتش :

— هل تعرف أن عليك أن تذهب معي ، حالا ، في هذه اللحظة ؟

— لا ، لا أعرف .

فاستأنف بافل بافلوفتش يقول بصوت حار ، ولكنه مختنق :

— هل تتذكر انك أردتني ذات يوم على أن أقول لك كل شيء ، كل شيء ، صراحة ؟ أن أقول لك « الكلمة الأخيرة » ؟ هل تتذكر ؟ اذن فاعلم أن الوقت قد حان الآن .. وأنتى سأقول لك هذه الكلمة.. فلنذهب !

فكّر فلتشائينوف ، ورمى بافل بافلوفتش بنظرة أخيرة ، ووافق على الذهاب .

فلما أعلنّا أنهما ذاهبان دُهِش الأَبوان واستاءت البنات جميعا .

قالت السيدة زاخليينين بصوت شاكٍ :

— فنجان من الشاي ، على الأقل ..

وقال العجوز زاخليينين بلهجة مستاءة قاسية ، متجها بكلامه

الى بافل بافلوفتش الذى كان صامتا يحاول أن يتسّم :

— فيم اضطرابك هذا ؟

وأّت البنات تقفن لبافل بافلوفتش متنهدات ، وهن ينظرن اليه

نظرات غاضبة :

— لماذا تأخذ ألكسى ايفانوفتش ، يا بافل بافلوفتش ؟

أما ناديا فقد رمته بنظرة فيها من السوء ما جعله يرتبك ويشعر

بكثير من الحرج ، ولكنه لم يخضع .

قال فلتشائينوف وهو يصافح رب البيت ويودع السيدة

زاخليينين ويودع الفتيات ، وينحنى أمام كاترينا فيدوسويفنا انحناءة

خاصة لوحظت :

— انى لأشكر بافل بافلوفتش على أنه ذكرنى بأمر خطير كل

الخطورة كنت قد نسيته .

قال زاخليينين بلهجة عميقة نافذة :

— نشكر لك زيارتك هذه ، وسيسعدنا دائما أن نراك .

وأضافت زوجته تلح بحرارة :

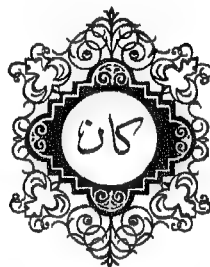
— نعم ، سيسعدنا أن نراك .

— عد الينا ، يا ألكسى ايفانوفتش ، عد الينا .

هكذا صاحت به الفتيات من أعلى الشرفة ، بينما كان يركب
العربة الى جانب بافل بافلوفتش ، حتى لقد خيل اليه أنه سمع صوتا
صغيرا يهتف هتافا دون هتاف الأخريات علوا : « عد الينا أيها العزيز،
أيها العزيز ايفانوفتش » .

فقال في نفسه « انها الحمراء القصيرة » .

إلى أي جسم عميل الميزان



ما يزال قادرا على أن يفكر في الفتاة القصيرة
 الحمراء ، ولكنه كان مستاء من نفسه ،
 وكان الندم يقلق روحه . ثم انه طوال ذلك
 اليوم الذى انقضى مرحا كل ذلك المرح في
 الظاهر ، لم يتركه حزنه لحظة واحدة ، حتى أنه قبل أن يأخذ بالغناء
 أصبح لا يعرف كيف يتخلص من هذا الحزن . ولعل هذا هو السبب
 في أنه استطاع أن يغنى الأغنية الغرامية بعاطفة مشبوبة .
 قال لنفسه بمرارة : « كيف أمكننى أن أنحدر الى هذا الدرك..
 وأن أنسى كل شيء ؟ » ولكنه أسرع يدفع أفكاره في مجرى آخر .
 لقد تراءى له أن من الذل والهوان أن يثن ويتفجع . ان من الأفضل
 أن يصب غضبه على شخص ما ، بأسرع ما يمكن .
 فدمدم يقول حائقا ، وهو يلقي نظرة مواربة على بافل بافلوفتش
 الذى كان يجلس الى جانبه صامتا :

— أحقق .

ولكن بافل بافلوفتش أصر على صمته . لعله كان يهين نفسه ، ويستجمع أفكاره . كان من حين الى حين يرفع قبعته بحركة نافذة الصبر ، ويمرّ على جبينه بمنديله .

قال فلتشائينوف لنفسه مهتاجا : « انه يعرق » .

ولم يفتتح بافل بافلوفتش فمه بكلام الا مرة واحدة ، ليسأل الحوذى هل ينذر الجو بعاصفة ؟ فأجابه الحوذى :

— آ .. طبعا .. كيف لا ؟ لقد كان النهار ثقيلا جدا .. وأربدت السماء فعلا . ولعلت بروق بعيدة تخذّد الأفق . وصلت العربة الى المدينة فى الساعة الحادية عشرة .

فلما أمست غير بعيدة عن منزل فلتشائينوف ، قال بافل بافلوفتش منبها :

— سأذهب الى بيتك .

— أعرف ذلك ، ولكننى أنبهك منذ الآن الى أننى مريض حقا .

— لن أمكث مدة طويلة .

فلما دخلا باب العمارة ، مضى بافل بافلوفتش لحظة الى ماфра فى حجرة البواب . حتى اذا لحق بفلتشائينوف سأله هذا بلهجة قاسية :

— ماذا ذهبت تصنع هناك ؟

ودخلا البيت .

فأجابه بافل بافلوفتش بقوله :

— لا شيء .. من أجل العربة .

— لن أسمح لك أن تشرب .

لم يجب بافل بافلوفتش . وأشعل فلتشائينوف الشمعة . فما لبث
بافل بافلوفتش أن جلس على المقعد . ووقف فلتشائينوف أمامه عابسا
مظلم الوجه ، ثم قال له بغيظ ما يزال مكبوحا :

— أنا أيضا وعدتك بأن أقول لك الكلمة « الأخيرة » ! اسمع :
اننى أرى ، وأنا أملك وعيى كاملا ، أن جميع المسائل قد صُفيت
بيننا تصفية حاسمة ، فلم يبق اذن ما يقوله أحدنا للآخر . أفليس
من الأفضل ، والحالة هذه ، أن تذهب فورا ، وأن أغلق الباب وراءك؟
فقال بافل بافلوفتش أخيرا ، وهو ينظر فى عينى صاحبه نظرة
وديعة رقيقة :

— لنصف حساباتنا يا ألكسى ايفانوفتش .

قال فلتشائينوف ، وقد دهش أشد الدهشة :

— نصفى حساباتنا ؟ يا له من تعبير غريب هذا الذى تستعمله !
أية حسابات ؟ أهذه هى الكلمة « الأخيرة » التى ذكرت منذ قليل
أنك سنقولها لى ؟

— هذه هى .

— لم يبق بيننا حسابات نصفها . لقد تمت التصفية منذ
مدة طويلة .

قال فلتشائينوف ذلك برهو و صلف .

فأجابه بافل بافلوفتش بلهجة مؤثرة وهو يضم يديه على صدره
ضما وثيقا بحركة غريبة :

— هل تعتقد بذلك حقا ؟

فلم يجبه فلتشائينوف ، بل أخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابا .
وكان قلبه يئن قائلا : « ليزا ؟ » . وقال بعد صمت طويل :

— كيف تريد أن أسدد ما على ؟

كان بافل بافلوفتش ما ينفك يتابعه بعينه ، ويداه ما تزالان
مضمومتين على صدره ، فقدم بصوت متوجع يقول وهو ينهض
فجأة عن مقعده :

— لا تذهب بعد الآن الى هناك !

— كيف ؟ أهذا كل شيء ؟

قال فلتشائينوف ذلك ، وضعك ضحكة خبيثة ، ثم أضاف
يقول باحتقار :

— أستطيع أن أقول انك أدهشتني اليوم .

ولكن تعبير وجهه ما لبث أن تبدل فجأة ، فقال بصوت حزين ،
وعاطفة عميقة :

— اسمعنى يا بافل بافلوفتش . أعتقد أننى ما هبطت يوما ،
في أى ظرف من الظروف ، الى مثل هذا الدرك الأسفل الذى هبطت
اليه اليوم : أولا بقبولى مرافقتك الى هناك ، وثانيا بسلوكى الذى
سلكته هناك .. هذه ضعة ، هذه حقارة .. لقد دنست نفسى .. لقد
حقرت شرفى ، حين ارتضيت .. نسيت .. نعم .. ثم ماذا ؟

ولم يتم فلتشائينوف كلامه ، فقد ثاب الى رشده . ثم أردف يقول :

— اسمع ! لقد غافلتني اليوم مغافلة .. كنت مهتاجا ، مريضا .. ولكن علام أبرر نفسي ؟ اننى لن أذهب الى هناك ، وأؤكد لك أنه لا شيء يعرّيني بالذهاب .
— حقا ؟ حقا ؟

هكذا صاح بافل بافلوفتش دون أن يخفى فرجه . فنظر اليه فلتشائينوف من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، باحتقار ، ثم استأنف سيره في الغرفة . ولم يستطع أخيرا أن يمنع نفسه عن أن يقول لصاحبه :

— يظهر أنك مصر كل الاصرار على أن تكون سعيدا .
فأجابه بافل بافلوفتش بصوت عذب يقول :
— نعم .

قال فلتشائينوف لنفسه : « هل يهمنى أن لا يكون الا مهرجا ، وأن لا يكون خبثه الا حماقة وغباء ؟ اننى لا أستطيع الا أن أكرهه ، حتى لو كان لا يستحق الكره » .

قال بافل بافلوفتش وهو يتسم ابتسامة ذليلة مدعنة :
— لست الا « زوجا أبديا » . لقد تعلمت منك هذا التعبير ، يا ألكسى ايفانوفتش ، حين كنت لا تزال تقيم قربنا . لقد حفظت ، في تلك السنة ، كثيرا من تعابيرك . فلما قلت في المرة الماضية ، هنا ، « الزوج الأبدى » ، فهمت .
دخلت مافرا تحمل زجاجة شمبانيا ، وقدحين .

— اعذرني يا ألكسى ايفانوفتش ، فأنت تعرف حق المعرفة أئنى
لا أستطيع أن أستغنى عن هذا . لا تعد ذلك وقاحة منى ، ولا تنظر
الىّ نظرتك الى غريب ، نظرتك الى شخص غير جدير بك أبدا .
فقال فلتشائينوف يأذن له مشمئزاً :

— اشرب . ولكننى أؤكد لك أئنى مريض .

فأسرع بافل بافلوفتش يقول :

— نعم ، حالا ، حالا . كأس واحد لا أكثر ، ان حلقى ..

قال ذلك وأفرغ كأسه فى جوفه بسرعة ، دفعة واحدة ، وجلس
وهو يلقي على فلتشائينوف نظرات توشك أن تكون عاطفية .

وخرجت مافرا .

دمدم فلتشائينوف يقول :

— عار ، عار .

— الذنب ذنبهن ، هاته الصديقات الصغيرات . ثم انهن فى
مبعة الصبا ، وتمام الغنج .. يعشن ويلعبن .. بل ان هذا لفاتن ساحر .
وهناك ، سأكون خادمها .. أنت تفهم ذلك . ستجد نفسها محاطة
بألوان الرعاية والاحترام .. المجتمع الراقى .. لسوف تتبدل
كل التبدل .

قال فلتشائينوف لنفسه مسرورا وهو يتلمس اللعبة فى جيبه :
« يجب مع ذلك أن أرد له السوار » .

وتابع بافل بافلوفتش كلامه يقول بلهجة النجوى والمسارة ،
بلهجة رقيقة :

— كنت تقول منذ لحظة اننى مصر على أن أكون سعيدا . وهذا صحيح ، والا ما عسى أن أصير اليه من مصير ؟ انظر ! (قال ذلك وأشار الى الزجاجة) . وهذه أيسر عيوبى وآفاتى . لا أستطيع أن أعيش اذا لم أتزوج ، اذا لم أسترد ثقتى القديمة بنفسى . ان الايمان يبعثى بعثا جديدا .

— ولكن لماذا تقص على هذه الأمور كلها ؟
قال فلتشانينوف ذلك وأوشك أن ينفجر ضاحكا . لقد بدا له ذلك مضحكا . ثم أردف :

— قل أخيرا لماذا جررتنى الى هناك ؟ ماذا كانت حاجتك الى ؟
— لأعرف ..

بدأ بافل بافلوفتش يقول ذلك ثم اذا به يرتبك فجأة أشد الارتباك .

— لتعرف ماذا ؟

— لأعرف ما يكون لك من تأثير .. اسمع يا ألكسى ايفانوفتش ..
اننى لم أبدأ محاولتى هناك الا منذ أسبوع (كان يزداد ارتباك) ، وقد لقيتكم أمس ، فقلت فى نفسى : « اننى لم أره بعد فى مجتمع من الغرباء ، مع أناس غيبرى » . فكرة حمقاء ، أشعر بذلك الآن . فكرة حمقاء لا محل لها . ولكن الاغراء كان أقوى من أن أستطيع دفعه . ذلك هو طبعى السيىء .

قال ذلك ورفع رأسه فجأة ، وقد احمر وجهه .
تساءل فلتشانينوف مذهولا : « ترى هل يقول كل الحقيقة ؟ » .

ثم سألته :

— ثم ماذا بعد ذلك ؟

فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة الرضى الماكر ، وقال :

— لم يكن ذلك كله الا لعبا طفوليا جميلا ! والذنب ذنب الصديقات على كل حال . اغفر لى سلوكى الأحمق اليوم معك . ألكسى ايفانوفتش لن أفعل ذلك مرة أخرى أبدا ، لن يقع هذا مرة أخرى أبدا .

قال فلتشائينوف وهو يبتسم :

— ولكننى لن أذهب الى هناك بعد الآن .

— اعتمد على ما تقول .

فاغتاط فلتشائينوف لحظة ، ثم قال :

— ولكننى لست الانسان الوحيد فى الدنيا .

فاحمر وجه بافل بافلوفتش من جديد وقال :

— يؤلمنى أن أسمعك تقول هذا الكلام يا ألكسى ايفانوفتش :

اننى أحترم ناديجدا فيدوسوفنا كثيرا . صدقنى .

— عفوك ، ما قصدت شيئا . ولكننى أستغرب مع ذلك أنك

وثقت بى هذه الثقة الكاملة كلها ، رغم ما تظنه فى من قدرة عظيمة على الاغراء .

— ما وثقت كل هذه الثقة ، الا لأن الأمر يجرى الآن ، بعد

كل ما جرى فى الماضى .

- أأنت اذن ما تزال تعدنى رجلا شريفا كل الشرف .
- قال فلتشانينوف ذلك وتوقف عن الكلام فجأة . ان سداجة هذا السؤال كان يمكن أن تدهسه هو نفسه فى غير هذه اللحظة .
- قال بافل بافلوفتش وهو يعض طرفه :
- لقد عددتك دائما كذلك .
- نعم نعم ، طبعاً ، ما الى هذا قصدت ، ما أردت هذا المعنى ..
- وانما أردت أن أقول : رغم كل التقديرات ..
- نعم رغم كل التقديرات ..
- وحين سافرت الى بطرسبرج ؟
- لم يستطع فلتشانينوف أن يمنع نفسه عن طرح هذا السؤال ، على علمه بأن استطلاع هذا شيء خبيث شيطانى .
- حين سافرت الى بطرسبرج ، كنت أعدك أيضا رجلا شريفا كل الشرف . كنت أقدرك وأحترمك دائما يا ألكسى ايفانوفتش .
- رفع بافل بافلوفتش عينيه ، وأخذ ينظر الى خصمه صراحة ، دون أى اضطراب . ف شعر فلتشانينوف بشيء من الخوف فجأة ، فلم يحاول أن يحدث بعد ذلك أى انفجار ، وأراد أن لا تتجاوز الأمور حداً ما ، ولا سيما بخطيئة منه .
- كنت أحبك كثيراً يا ألكسى ايفانوفتش .. كنت طوال تلك السنة التى قضيتها فى ت .. أشعر نحوك بالحب .. كنت أنت لا تلاحظ ذلك (قال هذا بصوت مرتجف أخاف فلتشانينوف) . كنت أنا أهون

عندك من أن أجعلك تلاحظ ذلك . على كل حال ، ربما كان ذلك أفضل . وخلال هذه السنين التسع الطويلة كنت أتذكرك دائما ، لأنني لا أتذكر سنة تشبه تلك السنة (التمتع عينا بافل بافلوفتش التماعا غريبا) . وقد حفظت عددا كبيرا من تعابيرك ، ومن آرائك . كنت أتذكرك دائما ، كرجل حار القلب ، نبيل العواطف ، مثقف ، مثقف جدا ، صاحب أفكار : « الأفكار الكبيرة ثمرة القلب الكبير لا العقل الكبير » . هذا ما قلته أنت ، ولعلك لا تتذكره ، أما أنا فقد حفظته . كنت أرى فيك دائما انسانا ذا قلب . فكنت أعتمد عليك ، وكنت أثق بك رغم كل شيء ..

أخذت ذقنه ترتجف فجأة . وذعر فلتشائينوف . كان لا بد من قطع هذه اللهجة غير المتوقعة قطعا سريعا . فجمجم فلتشائينوف يقول ، وقد احمر وجهه ، وانزعج وذهب صبره :

— كفى ، أرجوك .

ثم صاح فجأة يقول :

— ولكن لماذا ، لماذا تلاحق رجلا مريضا ، مهدم الأعصاب ، يكاد يهذى ؟ لماذا تجره الى ظلمات كثيفة .. مع أن هذا كله ليس الا أشباحا ، وسرابا ، وكذبا شائنا ، واسرافا .. الاسراف هو الشيء الأساسى ، هو ما يثير الحقن أكثر من أى شيء آخر : الاسراف . كل ذلك سخيف مضحك . نحن كلانا فاسدان ، خيثان ، نحن كلانا كاذبان . هل تريد ، هل تريد أن أبرهن لك فورا على أنك لا تجنبني ، على أنك تكرهني من أعماق نفسك ، وعلى أنك تكذب دون أن تعرف

ذلك أنت نفسك ؟ لقد أخذتني الى هناك ، لقد جررتني الى هناك ، لغرض سخيف مضحك ، ليس هو أن تمتحن خطيبتك (وهذه فكرة غبية) ، ولكنك حين رأيتني أمس عاد اليك الغضب ، فأخذتني الى هناك ، لتريني خطيبتك ، ولتقول لي : « حاول ان استطعت ! » لقد أردت أن تتحداني . لعلك كنت لا تعي ذلك ، ولكن هذا هو الواقع .. هذا ما كنت تحسه . والمرء لا يتحدى هذا التحدي الا اذا كره ، وأنت اذن تكرهني .

كان فلتشائينوف يذرع الأرض جيئة وذهابا ، وهو يقذف هذا الكلام بصوت لاهث ذليل ، يعذبه الشعور بالانحدار الى مستوى بافل بفلوفتشس .

قال بافل بفلوفتشس فجأة ، بصوت منخفض ، متعجل ، وقد أخذت ذقنه ترتجف من جديد :

— أردت أن أعقد بيننا صلحا ..

فما أن سمع فلتشائينوف هذا الكلام حتى اسنبد به غضب مجنون ، كأنه لم يسمع في حياته اهانة كهذه الاهانة ، فزأر يقول :

— أعود فأقول لك انك تلاحق انسانا مريضا مهدم الأعصاب .. تلاحقه لتنتزع منه الكلمة التي تنتظرها في غير طائل ! ولكننا .. نعم .. ولكننا ننتمي الى عالمين مختلفين .. افهم هذا أخيرا .. ثم .. ثم ان بيننا قبرا ..

قال ذلك بصوت مختنق ، ثم ما لبث أن ثاب الى نفسه .

قال بافل بفلوفتشس وقد اصفر وجهه فجأة وتشنج :

— ولكن كيف تستطيع أن تفهم ماذا يعنى هذا القبر بالنسبة الى .. هنا ؟

قال ذلك وهو يسير نحو فلتشائينوف ، ويضرب صدره ضربة مضحكة ولكنها قوية .

— أنا أعرف ما هو هذا القبر الصغير . انه بيننا نحن الاثنين ، وأنت وأنا واقفان على طرفيه .. ولكن الطرف الذى أقف عليه أنا فيه أكثر .. أكثر .. أكثر .. أكثر ..

ردد كلماته الأخيرة هذه متمتما كأنه يهذى ، وهو ما زال يضرب صدره بيده .

وفجأة قترع الجرس قرعا قويا ذكرهما بنفسيهما . ان الطارق يقرع الجرس قرعا عنيفا كأنه يريد أن يقطع الجبل .
قال فلتشائينوف مضطربا :

— ما من أحد يقرع الجرس فى بيتى هذا القرع العنيف .
فتمتم بافل بافلوفتش يقول خجلا ، وقد تاب الى نفسه وعاد كما كان بافل بافلوفتش منذ برهة :

— ليس هذا بيتى مع ذلك .
ومضى فلتشائينوف يفتح الباب مستاء .

قال فى حجرة المدخل صوت شاب قوى ملء بالثقة :
— أظنك السيد فلتشائينوف ؟

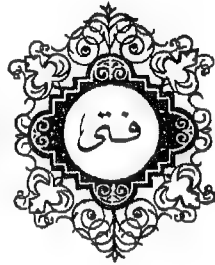
— ماذا تريد ؟

تابع الصوت القوي الرنان كلامه يقول :

— أعرف أن عندك في هذه اللحظة رجلا اسمه تروسوتسكى .
أحب أن أراه .

لا شك أن فلتشانينوف كان يسره كثيرا أن يركل هذا الشاب
الواثق من نفسه ركلة واحدة بقدمه فاذا هو يتدحرج على السلم .
ولكنه فكر في الأمر لحظة ، ثم تنحى قليلا ، وسمح للطارق أن يدخل:
— ادخل .. هذا هو السيد تروسوتسكى .

ساستاوانا



فى ريعان الصبا ما تجاوز التاسعة عشرة من
عمره ، ولعله دون ذلك سنا .. ان وجهه
الجميل ، المتكبر ، الواثق ، يبدو كأنه وجه
طفل . أنيق المظهر ، أو متناسب الملابس على
كل حال ، أميل الى الطول ، فاحم الشعر غزيره ، يتبعثر شعره خصلات
جامحة ، أسود العينين جرىء النظرات ، وذلك كله يضاف على وجهه
تعبيرا خاصا . لو لم يكن له من الجمال الا هذا الأنف لكان فتى جميلا .
دخل وقد بدا فى وجهه الجهد والرصانة :

— أظن أنتى أحدث السيد تروسوتسكى .

قال ذلك وهو يفحص الكلمات ، ويحرص على أن تخلو عبارته
من أى معنى من معانى الاحترام ، ليدل على أن حديثه مع هذا الرجل
الملقب باسم تروسوتسكى لا يشرفه ولا يمتعه .
أخذ فلتشائينوف يفهم الأمر ، وبدأ على بافل بافلوفتش أيضا أنه

أحس بشيء ما . فقد لاح في وجهه قلق ، ولكنه حاول أن يسيطر على نفسه . فأجاب بلهجة وقورة :

— لم أشرف بمعرفتك قبل الآن ، وافترض أنه ليس بيننا شيء مشترك .

— اصغ الىّ أولاً ، ثم تقول رأيك بعد ذلك .
قال ذلك بلهجة رصينة متفخمة . ثم وضع نظارته المربوطة بخيط من الحرير ، وضعها على إحدى عينيه وتفرس في زجاجة الشمبانيا الموضوعة على المائدة . حتى اذا انتهى من تفرسه ، طوى نظارته بهدوء ، وقال يتجه بالكلام مرة أخرى الى بافل بافلوفتش :

— ألكسندر لوبوف .

— ماذا يعنى ، الكسندر لوبوف ؟

— الكسندر لوبوف هو أنا . ألا تعرفنى ؟
— لا .

— ليس لك أن تعرفنى على كل حال . لقد جئت لشأن هام يتعلق بك . ولكن اسمح لى أن أجلس فأنا متعب ..
قال فلتشيانينوف :
— اجلس .

ولكن الفتى كان قد جلس قبل أن ينتظر السماح له بالجلوس .
شعر فلتشيانينوف رغم الألم الشديد الذى كان يحسه فى صدره ،
والذى كان يتزايد لحظة بعد لحظة ، شعر رغم ذلك باهتمام كبير بهذا

الفتى الوقح . وخيل اليه أن ثمة شبحا بين هذا الوجه الجميل الوردى
وبين ناديا .

قال الفتى لبافل بافلوفتش وهو يشير الى كرسى أمامه ، بحركة
مهملة من رأسه :

— اجلس أنت أيضا .

— بل سأبقى واقفا .

— ستتعب من الوقوف . أما أنت ، يا سيد فلتشائينوف ، فأظن
أنك تستطيع البقاء .

— ليس ما يدعوني الى الخروج . أنا فى بيتى .

— كما تريد . ويجب أن أعترف لك بأننى أؤثر أن تحضر حديثى
مع هذا السيد . لقد كلمتنى عنك ناديجنا فيدوسوفينا بكثير من
الاطراء .

— صحيح ؟ متى اتسع وقتها لهذا ؟

— بعد ذهابكما مباشرة . أنا آت الآن من عندهم .

قال ذلك ثم التفت الى بافل الذى كان ما يزال واقفا ، وأضاف
يقول ببطء :

— اليك الموضوع يا سيد تروسوتسكى . اننا أنا وناديجدا
فيدوسوفينا يجب كل منا الآخر منذ مدة طويلة ، وقد تعاهدنا على
الزواج . وأنت تقف الآن حائلا بيننا . وانما جئت اليك لأطلب منك
أن تنسحب . فهل أنت مستعد لأن تطيع ؟

أوشك بافل بافلوفتش أن يقع ، واصفر وجهه ، ولكن ابتسامة خبيثة شوهدت شفقيه . فقال بوضوح :
— لا ، أبدا .

فتبختر الفتى على مقعده ، ووضع ساقا على ساق ، وقال :
— هكذا ؟

فأضاف بافل بافلوفتش يقول :

— اننى لا أعرف الشخص الذى أكلمه . وأظن أنه لم يبق ما يقوله أحدا للآخر .

فلما فرغ من التطق بهذه الكلمات رأى من المستحسن أن يجلس هو أيضا ، فجلس . فقال له الفتى فى اهمال :

— ألم أقل لك انك ستتعب ؟ أما عن الشخص الذى تكلمه فقد سبق أن قلت لك ان اسمى لوبوف ، وأنا أنا وناتاليا فيدوسوفنا قد خطب أحدا للآخر . فلا تستطيع اذن أن تقول انك لا تعرف الشخص الذى تكلمه ، لا ولا تستطيع أن تظن أنه لم يبق ثمة ما يقوله كل منا للآخر . ان الأمر لا يتعلق بى وحدى ، بل يتعلق أيضا بناديغدا فيدوسوفنا التى تلاحقها هذه الملاحظة الوقحة . هذا وحده سبب كاف للحديث بيننا .

أخرج هذا الكلام كله من بين أسنانه ، بلهجة متغطرة ، وهو لا يكاد يتنازل الى حيث ينطق بالألفاظ نطقا واضحا ، حتى لقد وضع نظارته مرة أخرى ، وتظاهر بأنه يفحص شيئا من الأشياء أثناء الكلام.

حاول بافل بافلوفتش أن يقاطعه ، وقد غضب غضبا شديدا ،
فقال :

— اسمح لى أيها الشاب ..

ولكن « الفتى » أوقفه فورا عن اكمال جملته ، قائلا :

— ما كان لى فى أية لحظة أخرى أن أسمح لك بمخاطبتى « أيها الشاب » . ولكن يجب أن تعترف الآن بأن هذا الشاب هو بعينه التفوق الأكبر الذى أمتاز به عليك . واليوم مثلا حين قدمت لها سوارك حاولت أن تبدو أقرب الى الشاب قليلا .
تمتم فلتشائينوف يقول : « يا له من أفعى » .

وأجاب بافل بافلوفتش يقول فى وقار :

— على كل حال ، أيها السيد ، أنا لا أرى أن الحجج التى أوردتها ، وهى حجج مشكوك فيها وغير لائقة ، كافية لحملنا على متابعة حديثنا . اننى أرى أن هذا كله عبث أطفال لا قيمة له البتة .
سأسأل منذ الغد السيد المحترم جدا فيدوسوئى سيمينوفتش عن هذا الأمر ، وأرجوك الآن أن لا تعكر على هدوئى .

فهتف المراهق يقول وهو يتجه بالكلام الى فلتشائينوف ويعجز عن الاحتفاظ بلهجته السابقة :

— هل ترى الى هذا الانسان ؟ ليس يكفيه أن يطرده من هناك ، وأن تتمد له الألسن سخرا ، بل يريد أن يقص كل شىء على الأب .
لا تبرهن بذلك أيها الرجل العنيد على أنك تريد الحصول على الفتاة عنوة ، وأنت تشتريها شراء من أبويها اللذين صاروا الى الطفولة ،

ولكن الوحشية الاجتماعية تحفظ لهما سلطتهما عليها . ألم تظهر لك
احتقارها اظهارا كافيا ؟ ألم ترد اليك هديتك غير اللاتقة ؟ ألم ترد
اليك سوارك ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

فارتجف بافل بافلوفتش ، وقال :

— لم يرد الىّ أحد سوارى ، وهذا من جهة أخرى مستحيل .
— مستحيل ؟ تقول ان هذا مستحيل ؟ ألم يرد لك السيد
فلتشانينوف سوارك ؟

قال فلتشانينوف لنفسه « سحقا له » ، ثم التفت الى بافل
بافلوفتش قائلا :

— حقا لقد كلفتنى ناديجدا فيدوسوفنا بأن أرد لك هذه اللعبة
يا بافل بافلوفتش . لم أشأ أن آخذها . ولكنها أصرت . وقد ساءنى
ذلك كثيرا .

قال ذلك وأخرج اللعبة من جيبه فوضعها ، خجلا ، أمام
بافل بافلوفتش المشدوه .

قال الفتى لفلتشانينوف بلهجة قاسية :

— لماذا لم تردها اليه ؟

فأجاب فلتشانينوف وقد انزعج انزعاجا شديدا :

— لم يتسع الوقت لهذا .

— غريب جدا !

— ماذا ؟

— يجب أن تعترف بأن ذلك شيء غريب في أقل تقدير . على
أننى مستعد للتسليم بأن ثمة سوء تفاهم .
عصفت بفلتشانينوف رغبة قوية في أن ينهض فيشد أذنى هذا
الصبي ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بجده ، فاذا هو ينفجر ضاحكا
منه أمام أنفه . فأخذ الفتى يضحك أيضا . ولكن بافل بافلوفتش
لم يضحك . ولو قد لمح فلتشانينوف النظرة الرهيبة التى رمى بها
بافل بافلوفتش صاحبه الفتى لأدرك أنه قد بلغ فى هذه اللحظة حدا
خطرا .. ولكنه ، رغم أنه لم يلاحظ تلك النظرة ، أحس أن عليه أن
يساعد بافل بافلوفتش .

فقال بلهجة ودية صداقية :

— اسمع يا سيد لوبوف . أحب أن ألقى نظرك ، دون الدخول
فى بحث البواشخ الأخرى التى أريد استبعادها ، الى أن بافل بافلوفتش
يمتاز عليك ، اذ يخطب ناديجدا فيدوسوفنا ، بأنه معروف جدا عند
هذه الأسرة الكريمة . ويجب عدا هذا أن يحسب حساب المركز
المتناز الذى يحتله ، ويجب كذلك أن يحسب حساب الثروة الطائلة
التي يملكها . فمن الطبيعي جدا ، والحالة هذه ، أن يشعر
بافل بافلوفتش بكثير من الاستغراب حين يرى منافسا مثلك : قد
تكون لك مزايا كبيرة ، ولكنك أصغر سنا من أن يعدك منافسا
ذا شأن .. ومن حق ما دام الأمر كذلك أن يرجوك انهاء هذا الحديث .
— ماذا تعنى بقولك « صغير السن » . لقد بلغت التاسعة عشرة
منذ شهر . ويحق لى من ناحية القانون أن أتزوج منذ مدة طويلة .
هذا كل شيء .

— ولكن أى أب يرضى أن يزوجك ابنته الآن ، حتى ولو سلمنا بأنك ستصبح فى المستقبل من أصحاب الملايين أو من مشاهير الانسانية . ان فتى فى التاسعة عشرة من عمره لا يمكن أن يسأل عن أفعاله الخاصة ، فكيف تطمع فى تأمين مستقبل انسان آخر صغير السن مثلك ؟ ألا تجد أن هذا ليس على جانب عظيم من النبل والشرف ؟ ولئن أبحث لنفسى أن أكلّمك صراحة فلأنك أنت نفسك فد عددتنى وسيطاً بينك وبين بافل بافلوفتش منذ لحظة .

— ها .. نعم . اسمه بافل بافلوفتش . ولكن لماذا كنت أتصور أن اسمه فاسيلى بتروفتش ؟

قال ذلك ثم أردف وهو يتجه الى فلتشانينوف :

— نعم ! ان كلامك لم يدهشنى أبداً : فلقد كنت أعرف أنكم جميعا سواء . على أئننى أستغرب بعض الاستغراب . فقد حدثونى عنك حديثهم عن رجل يحمل فكر العصر الحديث . على كل حال ، ليس لهذا كله من قيمة . وانما المهم أئننى ، على خلاف ما سمحت لنفسك بأن تقوله منذ هنيهة ، لا أرتكب أى عمل مناف للنبل والشرف ، بل الحقيقة هى عكس هذا ، كما سأحاول أن أبرهن لك على ذلك . أقول أولاً : اتنا قد تعاهدنا ، وأقول ثانيا اننى قد وعدتها وعدا قاطعا أمام شاهدين بأننى ، اذا هى أحبت يوما شخصا آخر أو هى ندمت على زواجها بى وأرادت أن تفصم عرى هذا الزواج ، سأعترف كتابة بأننى قارفت اثم الخيانة الزوجية ، وبذلك أهيبء لها الأسباب اللازمة للحصول على الطلاق . وليس هذا كل شئ . بل سأعطيها ، يوم الزواج نفسه ، سندا قيمته مائة ألف روبل ، فاذا

تراجعت فى المستقبل عن تعهدى ، وأبيت أن أكتب لها تلك الوثيقة ، ورفضت الموافقة على الطلاق ، استطاعت أن تستعمل ذلك السند وأن تضعنى فى السجن . معنى ذلك كله أننا احتطنا لكل مفاجأة ، وأنتى لا أعرض مستقبل أحد للخطر .

— أراهن أن الشخص الآخر .. ما اسمه ؟ بردبوسيلوف ! نعم أراهن أن بردبوسيلوف هو الذى تخيل هذه الخطة الجميلة ؟
— هـى هـى هـى ..

هكذا ضحك بافل بافلوفتش ضحكا خيئا .

— ما الذى يضحك هذا السيد ؟ نعم لقد حذرت الحقيقة : ان بردبوسيلوف هو صاحب هذه الفكرة . ولابد لك من الاعتراف بأنه أحسن تخيل هذا كله . وبذلك نعطل التشريع السخيف تعطيلا كاملا . لقد قررت أن أحبها الى الأبد ، طبعاً ، وهذه الاحتياطات كلها تضحكها كثيرا . ولكنها احتياطات بارعة على كل حال . ولابد من الاعتراف بأنها عمل نبيل ، لا يقدم عليه أى انسان .

— فى رأى أن هذا العمل لا يعوزه النبل فحسب ، بل هو عمل سبىء مردول .

قال فلتشانينوف ذلك ، فهز الفتى كتفيه ، ثم قال بعد لحظة من صمت :

— ليس يدهشنى كلامك ، أكرر ذلك . ان هذه الأمور أصبحت منذ مدة طويلة لا تدهشنى . ولعل بردبوسيلوف قد ذكر لك بوضوح أن عجزكم عن فهم الأمور ، مهما تكن طبيعية ، يرجع الى أن عواطفكم

وأفكاركم قد أفسدتها أولاً هذه الحياة السخيفة التي تعيشونها منذ مدة طويلة ، وأفسدها ثانياً فراغكم الطويل .. وعلى كل حال ، لعلنا لم نتفاهم بعد : لقد حدثوني عنك بثناء واطراء .. هل أنت في نحو الخمسين من العمر ؟

— لنعد الى موضوعنا ، من فضلك !

— أعتمد عن فضولى ، وأرجو أن لا تشعر من ذلك بضير ، فما قصدت الى أى سوء . وها أنذا أعود الى الموضوع : لن أكون فى المستقبل من أصحاب الملايين كما تخيلت منذ برهة (والفكرة مضحكة !) . أنا كما ترانى . ولكنى مطمئن الى مستقبلى كل الاطمئنان . لن أكون لا بطلا ولا مشهورا من مشاهير الانسانية . غير أننى سأكفل حياة زوجتى وحياتى . صحيح أننى لا أملك الآن شيئا ، حتى لقد نشأت فى أسرتهن منذ طفولتى ..

— كيف ؟

— نعم نشأت فى أسرتهن ! كان أبى يمت الى زوجة هذا السيد زاخلييينين بقربى بعيدة . فلما مات هو وأمى ، كنت فى الثامنة من عمرى ، فضمنى العجوز اليه ، ثم أرسلنى بعد ذلك الى المدرسة الثانوية . انه رجل شهيم طيب ، اذا أردت أن تعرف ذلك .

— أعرفه .

— نعم ، ولكن رأسه محشو بأفكار عتيقة . هو طيب جدا على كل حال . وقد تحررت من وصايته منذ مدة طويلة ، لأننى أريد أن أسعى الى رزقى بنفسى ، وأن لا أكون مدينا لأحد بشئ .

سأله فلتشيانينوف وقد ثار فيه حب الاطلاع :

— منذ متى ؟

— منذ أربعة أشهر تقريبا .

— اذن لقد اتضح كل شيء : أتتما اذن صديقا طفولة . وهل

حصلت على عمل ؟

— نعم ، عند كاتب بالعدل : خمسة وعشرون روبلا في الشهر .

وهذا شيء موقت . ولكنى حين تقدمت خاطبا لم أكن أملك حتى

هذا . كنت أعمل عندئذ في ادارة السكك الحديدية بعشر روبلات

في الشهر . ولكن هذا كله شيء موقت .

— هل تقدمت بالخطبة الى الأبوين اذن ؟

— تقدمت بالخطبة رسميا منذ مدة : منذ ثلاثة أسابيع .

— فماذا قالوا ؟

— ضحك الأب في أول الأمر ، ثم غضب غضبا هائلا ، وحبس

ابنته . ولكن ناديا كانت بظلة . واذا كنا لم نظفر ، فلأن الأب كان

حاقدا على منذ مدة : فلقد تركت الادارة التى أدخلنى فيها قبل ذلك

بأربعة أشهر . كان ذلك قبل السكك الحديدية أيضا . انه شيخ

شهم ممتاز ، كما قلت لك ، وهو فى بيته بسيط جدا مرح جدا .

ولكن ليتك تراه فى مكتبه ! انه يتبدل هنالك تبديلا تاما : انه هنالك

جويتر حقيقى . ولقد أفهمته طبعاً أن طرائقه هذه لا تعجبني . ولكن

المذنب الحقيقى فى الموضوع كان هو نائب الرئيس ، فقد ارتأى هذا

السيد أن يشكو « فظاظتى » ، مع أننى لم أزد على أن قلت له ان

ثقافته ناقصة . ثم تركتهما كليهما ، وها أنذا الآن عند الكاتب بالعدل .

— هل كان أجرك حسنا في تلك الادارة ؟

— كنت زائدا عن العدد المحدد للوظائف ، فكان العجز زاخليبيين هو الذى يدفع أجرى . انه رجل طيب جدا ، كما قلت لك . ولكننا لن ندعن ! ان خمسة وعشرين روبلا لا تكفى . لذلك آمل أن أشارك قريبا فى ادارة أملاك الكونت زافيليسكى الذى اضطرت شؤونه اضطرابا كبيرا ، وسأبدأ عندئذ بثلاثة آلاف روبل . والا فسأصبح محاميا . ان الحاجة الى رجال فعالين نشيطين حاجة ماسة الآن ! .. أوه ! ما هذا الرعد ! ستهب العاصفة عما قليل . من حسن حظى أتى وصلت قبل هبوبها . لقد جئت من هنالك سيرا على الأقدام ، وكنت أركض ركضا طوال الوقت تقريبا .

— ولكن قل لى ، كيف اتسع وقتك ، ما دام الأمر كذلك ، لأن نتحدث مع ناديجدا فيدوسوفنا ، خاصة وأنت لا تستقبل فى بيتهم ؟ — يمكن التحدث من وراء السياج .

ثم قال وهو يضحك :

— ألم تلاحظ الفتاة القصيرة الحمراء ؟ انها تسعى بيننا ، وكذلك ماريا نيكيتشنا . ولكن ما بك ؟ أأنت خائف من العاصفة ؟ — لا ، ولكننى أشعر بالمر شديد .

والحق أن الألم الذى أحسه فلتشائينوف فجأة فى صدره ، أصبح يوجعه أشد الوجع ، فنهض عن مقعده ، وحاول أن يسير فى الغرفة بضع خطوات .

— اذن أنا أزعجك .. لا تتخرج منى .. أنا ذاهب حالا .

قال الفتى ذلك ، ونهض فجأة .

فقال له فلتشائينوف بأدب ورقة :

— لا لا ، لست تزعجنى . الأمر بسيط .

— كيف يكون بسيطاً ؟ « حين يشعر كوبلنيكوف بألم في

بطنه .. » * هل تتذكر هذا الكلام عند شيدرين ؟ هل تحب شيدرين ؟

— نعم .

— وأنا أيضا .. والآن يافاسيلي .. ها .. عفوا .. يا بافل بافلوفتش!

يجب أن تنهى هذا الأمر (قال ذلك وهو يلتفت الى بافل بافلوفتش

ويكاد يضحك) . ها أنذا أصوغ لك السؤال مرة أخرى حتى تفهم

حق الفهم : هل توافق على أن تصرح للأبوين ، غدا ، تصريحاً رسمياً ،

أمامي ، بأنك تعدل عن جميع ما طمعت فيه بشأن ناديجدا فيدوسوفنا؟

— لا ، لا أوافق .

قال بافل بافلوفتش ذلك وهو ينهض نافد الصبر مهتاجاً . ثم

أردف يقول :

— وأرجوك أن تتركني هادئاً وأن لا تعكر صفوى .. لأن هذا

كله ليس الا عبث أطفال ، وحماسة ! ..

قال الفتى وهو يتسهم ابتسامة متعجرفة ، ويلوح باصبعه مهلهلاً :

— حذار ! انك تخطيء الحساب ! وهل تعرف الى أين يمكن أن

يؤدى بك هذا الخطأ في الحساب ؟ أما أنا فأنبئك منذ الآن بأنك

حين ستعود بعد عشرة أشهر ، وتكون قد أنفقت ما أنفقت من مال

كثير ، وعانيت ما عانيت من صداع عسير ، ستضطر الى العدول عن ناديجدا فيدوسوينا ، فاذا لم تعدل ، عاد عليك ذلك بمتاعب كثيرة ! هذا ما سيقع ! ويجب أن أقول لك (واغفر لى هذا التشبيه) ان مثلك الآن كمثل كلب راقد على علف : لا هو يأكل ، ولا هو يدع لأحد أن يأكل . وأعود فأقول لك من قبيل العطف عليك والاحسان اليك : فكر فى الأمر ، حاول أن تفكر فى الأمر تفكيراً جاداً ، ولو مرة واحدة فى حياتك على الأقل .

قال بافل بافلوفتش وقد جئن حقاً :

— أرجوك أن تعينى من هذه المواعظ . أما عن تلميحاتك السافلة .. فسأخذ اجراءاتى منذ غد أيها السيد ، سأخذ اجراءات جديدة !

— تلميحاتى السافلة ؟ ما الذى تعنيه ؟ لأنت السافل اذن ، ما دامت تراودك أفكار كهذه ! على كل حال ، أنا أوافق على الانتظار الى غد . أما اذا .. ما هذا ؟ رعد أيضاً ؟ الى اللقاء ! لقد سعدت جداً بمعرفتك .

قال جميلته الأخيرة لفلتشانينوف وهو يحييه ، ثم مضى بسرعة ، ليسبق العاصفة ، ويتحاشى المطر .

سرد الحساب



خرج الشاب حتى أسرع بافل بافلوفتش نحو
فلتشانينوف صائحا :

— هل رأيت ؟ هل رأيت ؟

— حفظك سيء .

قال فلتشانينوف ذلك دون أن يفكر . وأغلب الظن أنه لولا
ذلك الهياج الذى يسببه له أله المتزايد فى صدره ، لما أفلت منه
هذا الكلام .

فاتنفض بافل بافلوفتش كأن حرقا أصابه . وقال :

— وأنت ؟ أغلب الظن أن شفقتك علىّ هى التى منعتك من رد

السوار الىّ ، أليس كذلك ؟

— بل لم يتسع الوقت .

— لا شك أنك رثيت لحالى ، لأنك صديق صادق ؟

— نعم ، رثيت لحالك !

قال فلتشمانينوف هذا وقد تملكه الغضب .

ومع ذلك قص عليه ، بايجاز ، كيف رد اليه السوار ، وكيف أن ناديجدا فيدوسوينا قد أكرهته اكراها على تولي هذا الأمر .. وقال :

— لم أشأ أن آخذه ، فان لى من متاعبى الخاصة ما يكفينى ..

فقال بافل بافلوفتش ضاحكا :

— استسلمت للاغراء ، فرضيت أن تأخذه .

— مضحك هذا الذى تقول . ويجب عليك أن تعتذر عنه . ألم تقنع منذ قليل بأننى لا ألب الدور الأساسى فى هذا الأمر ، وأن هنالك آخرين .

— لقد استسلمت للاغراء ، مع ذلك .

قال بافل بافلوفتش هذا وجلس يصب لنفسه خمرًا ، ثم أردف :
— هل تتصور أننى سأذعن أمام هذا الصبى ؟ لسوف أحطمه كما يحطم الزجاج . هذا ما سأصنعه به . سأذهب الى هناك منذ غد ، وأدبر أمر هذا العبث ، عبث الأطفال .. كله ..

ثم أفرغ كأسه فى جوفه ، وصب كأسا أخرى . فعل ذلك بدون تحرج .

— نادنكا وساشنكا ! ألا ما أجمل الأطفال ! .. ها ها ها ..

أصبح لا يستطيع كظم غيظه .

والتمتع برق باهر ، ما لبث أن أعقبه رعد رهيب ، وأخذ المطر
ينهمر سيولا . فهض بافل بافلوفتش الى النافذة فأغلقها .

— أرى أنك تستقر هنا . سأرقد أنا ، فافعل ما يحلو لك .

قال فلتشائينوف ذلك وهو لا يكاد يقوى على الكلام من فرط
ما يشعر به من ألم .

فأجاب بافل بافلوفتش وقد لاح عليه أنه يشعر بأنه أهين ، ولكن
يكاد يسعده أن يشعر بذلك ، أجاب قائلا :

— في مثل هذا الجو ، لا يطرّد كلب الى خارج .

فقال فلتشائينوف بصوت متعب :

— اذن فابق ، واشرب .. واقض الليلة هنا اذا شئت .

ثم تمدد على ديوانه ، وأن " أنينا خافتا .

— أقضى الليلة هنا ؟ ولا تخاف مني ؟

— مم أخاف ؟

قال فلتشائينوف ذلك وهو ينهض رأسه فجأة .

— أوه ! لاشيء .. قلت ذلك هكذا .. ولكن كان يبدو عليك

في المرة الماضية أنك تخشى شيئا ما .. أو هذا ما تراءى لى ..

— أنت غيبى !

كذلك قال فلتشائينوف عاجزا عن كبح جماحه ، ثم أدار رأسه
نحو الحائط .

قال بافل بافلوفتش :

— أوه ! لا ، لأشئ ..

وما هي الا لحظات حتى نام المريض . ان التوتر الذى اصطنعه طوال النهار قد هبط الآن فجأة ، وكانت صحته مضعضة كثيرا ، فاذا هو يشعر أنه ضعيف كطفل .

ولكن الألم انتصر على التعب وعلى النوم ، فما هي الا ساعة حتى استيقظ ، واضطره الوجع الى النهوض . كانت العاصفة قد هدأت . والغرفة ملأى بدخان التبغ . وزجاجة الخمر قد فرغت . وبافل بافلوفتش نائم على الديوان الآخر . انه مستلق على ظهره ، ورأسه منقلب الى جانب . لم يخلع ملابسه ، لا ولا حذاءه . وقد انزلت نظارته من جيبه ، وتدلّت من طرف سلكها الحريري حتى كادت تلامس الأرض ، وتدرجت قبعته . نظر اليه فلتشائينوف نظرة قاتمة ، ولكنه لم يوقظه . وراح يسير فى الغرفة وقد انطوى نصفين من شدة الألم . أصبح لا يقوى على البقاء راقدا ، وكان يئن ، ويفكر فى وجعه .

انه خائف من هذا الوجع . ومن حقه أن يخاف . انه يصاب بمثل هذه النوبات منذ مدة طويلة ، ولكنها لا تقع له الا من حين الى حين ، مرة فى السنة أو فى السنتين . وكان يعرف أن منشأها الكبد : فالألم ، عند حفرة المعدة أو فوقها قليلا فى نقطة من الصدر ، يبدأ ضغطا أصم ، مزعجا ، مثيرا ، رغم أنه ما يزال ضعيفا ، ثم ما ينفك يشتد ويشتد طوال عشر ساعات فى بعض الأحيان ، ثم يبلغ الألم من القوة ويبلغ الضغط من العنف أن المريض يرى الموت يهيم به .

وفي المرة الأخيرة ، منذ سنة ، بعد عشر ساعات من آلام هدأت أخيرا ، بلغ فلتشانيوف من فرط الارهاق أنه أصبح لا يقوى على تحريك يده وهو راقد في سريره . ولم يسمح له الطبيب بأن يتناول ، طوال ذلك اليوم ، الا بضع جرعات من شاي خفيف جدا ، مع قليل من الخبز المغموس بالمرق ، كأنه طفل . كانت الآلام تنبثق فجأة دون سبب ظاهر ، ولكنها لا تكاد توافيه الا على أثر هياج عصبى شديد . وكانت تزول أيضا بطريقة غريبة جدا : كان يمكن في بعض الأحيان وقف النوبة منذ بدايتها ، منذ نصف الساعة الأولى ، بواسطة كمادات ساخنة لا أكثر ، وفي أحيان أخرى لا يجدى فيها شيء ، كما وقع ذلك في آخر نوبة ، ولا تزول الآلام عندئذ الا باستعمال المقيئات مرة بعد مرة . وقد اعترف الطبيب فيما بعد أن الظن قد ذهب به الى أن سمأ قد وضع له في طعامه .

والآن ، ما يزال الصباح بعيدا . وفلتشانيوف يكره أن يستدعى طبيبا في الليل . بل انه لا يحب الأطباء أصلا . ولكنه لم يستطع أخيرا أن يحتمل أكثر مما احتمل ، فأخذ يئن أنينا عاليا ، فأيقظ تأوّهه بافل بافلوفتش ، فنهض هذا واقفا على ديوانه ، وظل على هذه الحال برهة يستمع الى أئین فلتشانيوف مذعورا ، وينظر اليه راكضا من غرفة الى غرفة ، وقد استبد به رعب شديد . كان واضحا أن زجاجة الخمر التي أفرغها في جوفه قد أثرت فيه أكثر مما تؤثر فيه عادة ، فلم يستطع أن يشوب الى رشده الا ببطء ، حتى اذا فهم أخيرا ، هرع الى فلتشانيوف الذي كان لا يكاد يقوى على الكلام ، وهتف يقول له مضطربا أشد الاضطراب :

— هذا من الكبد . أعرف ذلك . ان بيوتر كوزتش الذى تعرفه
قد أصيب بهذا الشيء نفسه ، وكان ذلك ناشئا عن الكبد . يجب أن
نضع كمادات ساخنة . كان بيوتر كوزتش يضع دائما كمادات ساخنة ،
فى مثل هذه الحالة .. ذلك أن هذه النوبة خطيرة يمكن أن تؤدى الى
الموت . سأنادى مافرا ، هه ؟

فدفعه فلتشائينوف عن نفسه منزعجا ، وهو يقول :

— لاداعى الى ذلك ، لا داعى الى ذلك . لست فى حاجة الى شيء .
ولكن بافل بافلوفتش كان مضطربا أشد الاضطراب ، لا يدرى
الا الله لماذا ! كأن الأمر أمر حياة ابن له . لم يشأ أن يسمع شيئا ،
وأصر على أن يقبل فلتشائينوف الكمادات ، وعلى أن يتلع قدحين
أو ثلاثة أقداح من الشاي دفعة واحدة ، « يجب أن لا يكون الشاي
ساخنا بل غاليا » ، فأسرع يوقظ مافرا ، دون أن يأذن له فلتشائينوف
بذلك ، وساعد مافرا على اشعال النار فى المطبخ المهجور منذ مدة
طويلة ، وأغلى الماء فى السماور . وأرقد المريض أثناء ذلك على
قراشه ، وخلع له ملابس ، وغطاه . وما هى الا عشرون دقيقة حتى
كان الشاي قد أعد ، وكذلك الكمادة الأولى .

قال بافل بافلوفتش فى حماسة ، وهو يضع على صدر فلتشائينوف
صحنا مسخنا ملفوفا بمنشفة :

— هذه صحون ساخنة . ليس عندنا شيء آخر . وهى على كل
حال أحسن أنواع الكمادات . أقسم لك . لقد جربت بها بنفسى على

كوزتش . ذلك أن حالتك خطيرة ، قد تؤدي الى الموت . اشرب الشاي . ابلعه بسرعة ، ولو حرقت حلقك . ان انقاذ حياتك يستحق أن تقبل من أجله بعض الحروق .

كان بافل بافلوفتش يصطدم من فرط السرعة بمافرا التي كانت لا تزال شبه نائمة ، وكانا يتبادلان صحننا بصحن كل دقيقتين أو كل ثلاث دقائق . وشعر فلتشائينوف بعد الصحن الثالث وقبح الشاي الثاني ، شعر فجأة بشيء من التحسن .

— اذا استطعنا أن نكسر شدة الألم ، وأن نسيطر عليه ، كان ذلك وحده علامة حسنة يجب أن نحمد الله عليها !

بهذا هتف بافل بافلوفتش ، وأسرع يهبيء قدحا آخر من الشاي ، وصحننا آخر ، وهو يشعر بفرح شديد .

— المهم هو كسر شدة الألم .. هو وقف سيره ..

هذا ما كان يردده بافل بافلوفتش في كل لحظة .

وما هي الا نصف ساعة ، حتى كان الألم قد هدأ كل الهدوء تقريبا ، ولكن المريض كان قد بلغ من الاعياء أنه رفض « وضع صحن واحد آخر » رفضا قاطعا ، رغم كل ضراعات بافل بافلوفتش . كانت عيناه تغمضان من فرط الضعف .

قال بصوت ضعيف :

— أنا .. أنا ..

فأجابه بافل بافلوفتش :

— ذلك خير شيء تفعله .

— افض الليلة هنا .. كم الساعة الآن ؟

— تبلغ الثانية الا ربعا بعد قليل .

— ارقد .

— نعم سأرقد .

وبعد دقيقة واحدة ، نادى المريض بافل بافلوفتش ، فجاءه وانحنى
عليه ، فدمدم يقول له :

— أنت .. أنت .. أنت خير منى . فهمت كل شيء ، كل شيء ..
سكرا .

فقال له بافل بافلوفتش بصوت خافت :

— يجب أن تنام الآن ، يجب أن تنام ..

ثم عاد الى ديوانه يمشی على رؤوس الأصابع .

حين نام فلتشائينوف كان لا يزال يسمع صاحبه وهو يرتب
سريره بسرعة ، ويخلع ملابسه ، ويطفىء الشمعة ، ويرقد في فراشه
حابساً أنفاسه مخافة أن يوقظه .

لا شك أن فلتشائينوف قد نام بعد اطفاء الشمعة حالا . فقد
تذكر ذلك تذكرًا واضحًا فيما بعد . ولكنه ظل طوال مدة النوم وحتى
للحظة التي استيقظ فيها ، ظل يحلم بأنه لا ينام وبأنه لا يستطيع أن
ينام رغم ما هو فيه من اعياء وضعف . وحلم بأنه يهذى وهو يقظان ،
وبأنه لا يستطيع أن يبدد الرؤى التي تزدهم حوله ، رغم شعوره
النام بأنها ليست الا رؤى . ثم انه كان يتعرفها جميعا : غرفته ملأى

بالناس ، والباب مفتوح . الناس يدخلون جماعات جماعات ،
 ويزدحمون على السلم ، وأمام المائدة . في وسط الغرفة يجلس رجل ،
 تماما كما في الحلم الذي رآه منذ شهر . والرجل كما في المرة السابقة،
 متكئ على المائدة صامت . ولكن على رأسه في هذه المرة قبعة مدورة
 ذات شريط أسود . قال فلتشائينوف لنفسه : « ماذا ؟ كان هو اذن
 بافل بافلوفتش أيضا في المرة الماضية ! » . ولكنه تفرس في هذا
 الرجل الصامت ، فرأى أنه ليس بافل بافلوفتش ، بل شخص آخر .
 « لماذا يضع على قبعته شريطا أسود ؟ » والناس الذين يزدحمون حول
 المائدة يتكلمون ويصرخون ، وتصبح الجلبة فظيعة . والجمهور حائق
 على فلتشائينوف ، كما في الحلم الأول أيضا . فهم يهددونه بقبضة
 اليد ، ويصرخون في وجهه ، ولكنه لا يفهم ماذا يريدون منه . قال
 في نفسه « انتى أهذى . أعرف ذلك . أعرف أنتى لم أستطع أن أنام ،
 وأننى نهضت عن فراشى ، من شدة الألم ! » . ومع ذلك فان هؤلاء
 الناس ، وصرائحهم ، وحركاتهم ، كل ذلك يبلغ من الوضوح والواقعية
 أن الشكوك تساوره من حين الى حين « أهذه كلها هواجس حقا ؟
 ماذا يريد منى كل هؤلاء الناس ؟ رباه ! ولكن .. اذا لم يكن هذا
 هواجس ، فهل يمكن أن لا يوقظ هذا الصراخ بافل بافلوفتش ؟
 ذلك أنه نائم هنا على ديوانه ! » ووقع أخيرا شيء ، كما في الحلم
 السابق تماما : أسرع جميع الناس نحو السلم ، وازدحموا أمام
 الباب . ذلك أن جمهورا جديدا يصعد السلم ليدخل الى الغرفة .
 ان هؤلاء الناس يحملون شيئا : شيئا كبيرا ثقيلًا . ان خطواتهم الثقيلة
 وأصواتهم اللاهثة المتداخلة تدوى على السلم . وترجعت في الغرفة

صرخات : « أتوا به .. أتوا به » . فالتفت جميع الأعين ، وحدثت في فلتشائينوف ، وأخذت تدله على السلم متوعدة منتصرة . فلم يشك في أن هذا كله واقع ، فارتفع على رؤوس الأصابع ، ليرى من فوق هامات الناس ، بسرعة ، الشيء الذى يحمله الحاملون . ان قلبه يخفق ، ويخفق ويخفق . وفجأة ، كما في الحلم الماضى ، قرع الجرس ثلاث قرعات قوية ، هى في هذه المرة أيضا تبلغ من الوضوح أنها لا يمكن أن تكون حلما . صرخ فلتشائينوف واستيقظ من نومه . ولكنه لم يشب الى الباب كما فعل في المرة الماضية . ثرى ما هى الفكرة التى ولدت حركته الأولى ، بل هل كان في ذهنه في تلك اللحظة فكرة ما ؟ .. لكان شخصا ، مع ذلك ، قد همس في أذنه بما يجب أن يعمل ، فانتصب على سرير ، ووثب نحو الجهة التى ينام فيها بافل بافلوفتش ، وثب ماداً ذراعيه الى الأمام كأنما ليدافع عن نفسه ، ليذب عن نفسه هجوما . فاذا يدها تصطدمان بيدين آخرين سدودتين عليه ، فقبض عليهما قبضا قويا : كان هناك اذن شخص وافق قرب سرير ، مائل عليه . كانت الستائر مسدلة ، ولكن الظلام لم يكن كاملا ، لأن شعاعا ضئيلا من النور كان يأتى من الغرفة المجاورة التى ليس لها ستائر . وأحس فجأة بألم هائل في راحة يده اليسرى وفي أصابعها ، فأدرك أنه قبض على نصل سكين أو موسى حلاقة وأنه شد على النصل شدا قويا .. وفي تلك اللحظة نفسها سقط شيء على الأرض ، فأحدث قرقعة ثقيلة .

ان قوة فلتشائينوف تساوى ثلاثة أضعاف قوة بافل بافلوفتش على الأقل . ومع ذلك دام صراعهما مدة طويلة لا تقل عن ثلاث دقائق،

قلبه فلتشائينوف بعدها على الأرض ، شادا ذراعيه الى الوراء . ولكنه أصر على أن يوثق هذين الذراعين ، فأمسك يديه بيسراه المجروحة ، وأخذ يتلمس باليمنى حبل الستارة ، ودام ذلك مدة طويلة ، ثم عثر على الحبل فشده فانتزعه . لقد دهش فلتشائينوف نفسه ، فيما بعد ، من الجهد الجبار الذى أنفقه فى هذا . لم ينبس أحد من الرجلين خلال ذلك بكلمة ، فكان لا يسمع الا تنفسهما اللاهث والا صوت الصراع الأصم . فلما فرغ فلتشائينوف من تكييل يدي بافل بافلوفتش مشدودتين وراء ظهره ، رماه على الأرض ، ووقف ، فأزاح الستارة ثم فتح النافذة ، وظل واقفا بضع لحظات يتنشق الهواء الطرى تنشقا عميقا . كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة . فلما أغلق النافذة اتجه نحو الخزانة بلا اسراع ، فتناول منها منشفة نظيفة لف بها يده اليسرى ، وشدها شدا قويا ليقطع جريان الدم الذى كان ينزف غزيرا . واصطدمت قدماء بموسى مسلولة ، فتناولها من الأرض وطواها ، وأعادها الى العلبة التى كانت موضوعة منذ الصباح على منضدة صغيرة الى جانب الديوان الذى نام عليه بافل بافلوفتش . ثم خبأ العلبة فى درج مكتبه . ولم يعد الا فى تلك اللحظة الى بافل بافلوفتش، فأخذ ينظر فيه متفرسا .

كان بافل بافلوفتش قد استطاع أثناء ذلك بكثير من الجهد أن ينهض فيجلس على المقعد . لم يكن مرتديا ملابسه ، ولا منتعلا حذاه . وكان قميصه مضرجا بالدم فى ظهره والكمين ، ولكن هذا الدم هو الدم الذى نزل من يد فلتشائينوف المجروحة . انه بافل بافلوفتش نفسه ، ولكن كان يمكن جدا أن لا يُعرف

من النظرة الأولى ، لو رئي فجأة . لقد تبدل تبديلا كبيرا . كان وجهه مخضرا ، متشجبا ، مغربا . وكانت يداها الموثقتان وراء ظهره تجعلان جلوسه على المقعد متجمدا متصلبا . وكان يرتعش من حين الى حين . أدار نحو فلتشائينوف نظرة ثابتة ، ولكنها منطفئة ، كأنه لا يميز كل شيء بعد . وفجأة ابتسم ابتسامة نائمة . ثم تمنم يقول وهو يشير بحركة من رأسه الى ابريق الماء الموجود على المائدة :

— ماء ..

فصب له فلتشائينوف كأسا من الماء ، وسقاه . مد بافل بافلوفتش شفثيه بشراة . حتى اذا تجرع ثلاث جرعات ، رفع رأسه ، وتفرس في فلتشائينوف الذى كان واقفا أمامه ممسكا بالكأس ، ولكنه لم يقل شيئا ، بل عاد يشرب . فلما انتهى من الشرب تنفس تنفسا عميقا . حمل فلتشائينوف وسادته ، وجمع ملابسه ، ومضى الى الغرفة الثانية ، مغلقا الباب على بافل بافلوفتش بالمفتاح .

لقد اختفت الأوجاع التى كان يحسها اختفاء تاما . ولكنه يحس الآن بضعف شديد ، بعد الجهد الكبير الذى أنفقه لا يدرى الا الله كيف ! حاول أن يدرك ما وقع ، ولكن أفكاره كانت ما تزال مضطربة غير متسقة . لقد كانت الهزة قوية مسرفة فى القوة . أغمض عينيه مدة عشر دقائق ، ثم ارتعش فجأة ، وصحا ، وتذكر كل شيء . فرفع يده الجريحة الملفوفة بمنشفة يبللها الدم ، كانت تؤلمه ، وأخذ يفكر فى الأمر بنوع من الشراة المحمومة . ثممة نقطة واحدة بدت له واضحة : لقد أراد بافل بافلوفتش حقا أن يذبحه ، ولكن لعله

كان قبل ذلك بربع ساعة لا يعرف هو نفسه أنه سيفعل هذا . لعله قد وقع بصره على علبة الموسيقى في مساء أمس ، دون أن توقظ هذه العلبة في نفسه أية فكرة ، ولكن صورتها بقيت في ذاكرته (من عادة فلتشائينوف أنه يضع أمواس الحلاقة في درج المكتب ويقل عليها بالفتاح ، ولكنه أخرجها أمس لنزع شعرات زائدة حول شاربيه والوجنتين) .

قال فلتشائينوف لنفسه ، فيما قال : « لو كان قد قرر قتلى منذ مدة طويلة لأعد سكيناً أو مسدساً ، ولما اعتمد على أمواس التي لم يرها قط قبل أمس مساء » .

ودقت الساعة السادسة أخيراً . وثاب فلتشائينوف الى نفسه ، فارتدى ملابسه ، ودخل على بافل بافلوفتش . لقد تساءل وهو يفتح الباب ، دون أن يستطيع تعليل هذا التساؤل لنفسه : « ترى لماذا أقفل الباب على بافل بافلوفتش ، بدلاً من أن يطرده فوراً » .

فما كان أشد دهشته حين رأى السجين يرتدي ملابسه . لقد استطاع بافل بافلوفتش أن يحل وثاقه ، وجلس على المقعد . فلما رأى فلتشائينوف داخلاً ، نهض . وكان يحمل قبعته استعداداً للخروج . ورمى فلتشائينوف بنظرة قلقه كأنها تقول : « لا تبدأ ، فما يجب أن تتكلم » .

قال له فلتشائينوف :

— أخرج !

ثم أضاف :

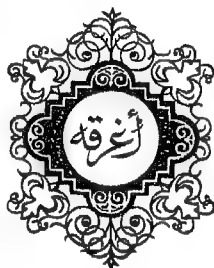
— وخذ علبتك .

فعاد بافل بافلوفتش أدراجه ، فتناول علبته ، فوضعها في جيبه ،
وخرج . ومضى فلنشائينوف وراءه حتى الباب ، ليعلقه . والتفت
نظراتهما لآخر مرة . فتوقف بافل بافلوفتش فجأة ونظر كل منهما
في الآخر كأنه يتردد . ودام ذلك خمس ثوان . وأخيرا أشار له
فلنشائينوف بحركة يسيرة من يده أن يخرج ، قائلا بصوت خافت:

— أخرج .

وأقل الباب بالمفتاح .

محلل



فرح كبير عظيم : ان شيئاً قد انتهى ، ان عقدة قد انحلت . ان القلق الحاد الذي كان يحاصره ، قد ابتعد الآن وتبدد . هذا ما تراءى له . لقد دام ذلك القلق خمسة أسابيع . رفع يده ، ونظر الى المنشفة المبللة بالدم ، وتمتم يقول : « في هذه المرة ، انتهى كل شيء » . وظل طوال ذلك الصباح ، لأول مرة منذ ثلاثة أسابيع ، لا يكاد يفكر في ليزا ، كأن هذا الدم الذي جرى من أصابعه يسد ذلك الحساب أيضا .

كان يدرك ادراكا واضحا أنه نجا من خطر رهيب . قال في نفسه : « ان أمثال هؤلاء الناس الذين لا يعرفون ، قبل دقيقة واحدة ، أيقنلون أم لا يقتلون ؛ متى أمسكوا بيديهم سكيناً ، وشعروا بأول دفعة من دفعات الدم الحار تجرى في أصابعهم ، لم يكتفوا بالقتل ، بل لابد لهم من أن يذبحوا ضحيتهم ذبحاً . نعم انهم كذلك » .

لم يستطع أن يبقى في بيته ، فخرج ، وهو على يقين من أنه سيعمل شيئاً ما ، أو أن شيئاً ما سيقع له . كان يسير في السوارع ، ينتظر . ان به رغبة قوية في أن يلقي أحداً ، في أن يتحدث الى أى انسان ، ولو كان لا يعرفه . وفي هذه اللحظة انما بدا له أن يذهب الى طبيب ، يضمد جرحه تضميداً مناسباً . فذهب الى طبيب يعرفه منذ مدة طويلة . فلما فحص الطبيب الجرح شاء له حب الاستطلاع أن يعرف كيف « أمكن أن يقع هذا الأمر » ، فبدأ فلتشائينوف يجيبه مازحاً ، وهو ينفجر في ضحك قوى ، وهم « أن يقصّ عليه كل شيء ، ولكنه ما لبث أن لجم لسانه . وجسّ الطبيب نبضه . ولما علم بالنوبة التي أصابته الليلة البارحة ، أقنعه بتناول شراب مهدئ كان بين يديه . وطمأنه على عواقب الجرح قائلاً : « لا ، لن تنشأ عنه نتائج سيئة » ، فأخذ فلتشائينوف يضحك ، وأكد للطبيب أن النتائج كانت ممتازة جداً .. واستبدت به في ذلك الصباح نفسه رغبة قوية عارمة في أن يقص كل شيء ، استبدت به تلك الرغبة مرتين ، حتى أنه في إحدى هاتين المرتين هم أن يقص الأمر على سيد لا يعرفه أية معرفة ، ولكنه اقيه في أحد محال بيع الحلوى ، فاتجه اليه بالكلام أول من اتجه اليه ، رغم أنه يكره كل الكره أن يدخل في حديث مع أناس لا يعرفهم ، في مكان عام .

دخل مخازن كثيرة ، واشترى جريدة وذهب الى خياطه يوصيه ببدلة . وكان لا يزال يكره أن يمضى الى زيارة أسرة بوجورلتسيف ، وكان يحاول أن لا يفكر فيهم . ثم انه كان لا يستطيع أن يذهب الى الضواحي ، لأنه ينتظر شيئاً لا بد أن يحدث هنا في المدينة . وأقبل

على تناول غدائه بشهوة عظيمة ، وتحدث مع خادم المطعم ، وتحدث الى جاره في المائدة ، وشرب نصف زجاجة من الخمر . لم يخطر له ببال أن نوبة الليلة البارحة يمكن أن تعود ، وكان مقتنعا بأن مرضه قد زال زوالا تاما في اللحظة التي وثب فيها عن سريريه ، فصرع القاتل ، بعد أن نام ساعة ونصف الساعة ، مهدود القوى تماما . ومع ذلك أصيب عند المساء بدوار وحاصرته في بعض اللحظات أفكار شبيهة بالأفكار التي وافته في حلم الليلة البارحة . عاد الى بيته عند هبوط الظلام ، فلما دخل الى غرفته شعر من منظرها ببعض الخوف . بدا له منزله حزينا ، كالحا جهما . طاف في البيت عدة مرات ، حتى لقد زار المطبخ ، وكان لا يدخله أبدا . « هنا كانا يسخران الصحون » . كذلك قال لنفسه . أغلق الباب بعناية واحكام ، وأشعل الشموع قبل أوان اشعالها في العادة . وحين أغلق الباب تذكر أنه لما مر منذ برهة أمام حجرة البواب ، نادى مافرا وسألها هل جاء بافل بافلوفتش أثناء غيابه ، كأنه كان يمكن أن يجيء .

فلما أحكم اقفال الباب ، ذهب الى مكتبه ، ففتح الدرج ، وأخرج علبة الأمواس ، وأنعم النظر في موسى « الليلة البارحة » . كان على الساعد العاجي من الموسى قليل من آثار دم . ثم أعاد الموسى الى العلبة ، ووضع العلبة في الدرج . كان يريد أن ينام ، ويشعر أن عليه أن يرقد فوراً ، والا « لم يصلح لشيء في غد » . ذلك أنه يتصور أن غدا سيكون يوما « حاسما » ، لا يدري لماذا ! ان تلك الأفكار نفسها التي لم تبرحه ، في الشارع ، طوال النهار ، لحظة واحدة ، تزدهم الآن في رأسه ، وتغزو دماغه المريض ، لا تدع له لحظة من

هدنة . كان يفكر ، ويفكر ، فظل مدة طويلة لا يستطيع الى النوم سبيلا .

« اذا كان من الثابت أنه حاول أن يقتلني دون سابق تصور وتصميم ، فهل سبق أن راودته هذه الفكرة ، ولو مرة واحدة على الأقل ؟ » .

هكذا تساءل ثم حسم هذا السؤال حسما غريبا ، قائلا لنفسه :
« نعم ، لقد أراد بافل بافلوفتش أن يقتلني ، ولكن فكرة القتل لم تراوده في أية لحظة من اللحظات ، أى أن بافل بافلوفتش أراد أن يقتلني ، ولكنه كان لا يعرف أنه يريد أن يقتل . هذا كلام ليس له معنى ، ولكن الأمر كذلك . انه لم يجرى الى بطرسبرج من أجل باجاوتوف ، ولا جاء اليها من أجل ترقيته في الوظيفة ، رغم أنه طاف على الوزارات ، وذهب الى باجاوتوف يحاول أن يراه . لقد أحققه موت باجاوتوف . ولكنه كان يحتقر باجاوتوف كشقة . من أجل اذن انما جاء الى بطرسبرج ، وأتى بليزا ..

« وأنا هل كنت أتوقع أن .. يحاول قتلى ؟ نعم كنت أتوقع أن يقتلني ، وذلك منذ رأيته في العربة يشيع جنازة باجاوتوف . منذ تلك الدقيقة ، أصبحت أتوقع شيئا ما ، ولكن هذا الشيء ليس هو القتل . لم أتوقع أن يذبحني .

« وهل يمكن (بهذا هتف فلنشائينوف وهو ينهض رأسه عن المخدة فجأة ويفتح عينيه) هل يمكن أن يكون هذا .. المجنون .. صادقا حين أكد لى حبه أمس ، وحين أخذت ذقنه ترتعش ، وحين راح يضرب صدره بيديه ؟

« نعم ، لقد كان صادقا (هكذا قال فلتشائينوف لنفسه وهو يوغل في التفكير والتحليل) . ان كازيمودو ت .. هذا ، لهو من الكرم والغباء بحيث يمكن أن يحب عشيق امرأته التي بدا له سلوكها خلال عشرين عاما سليما لا غبار عليه . لقد ظل خلال تسع سنين يحترمني ويقدس ذكراى ، وبحفظ « تعابيرى » ! ألا ما أغبانى حين لم يخطر لى ذلك على بال . انه ما كان يكذب أمس . ولكن هل كان يحبنى أمس حين صرح لى بحبه وقال لى : « لنصف حساباتنا ؟ » . نعم ، كان يحبنى وهو يكرهنى ، وذلك هو أقوى حب ..

« لا شك أنتى حين كنت فى ت .. قد تركت فى نفسه أثرا هائلا . مفيدا » . هذا ما لا بد أن يقع لشخص يجتمع فيه شيللر وكازيمودو . لقد ضحمنى مائة مرة .. لأننى أحدثت تشويشا عميقا فى وحدته الفلسفية .. انه لمن الشائق أن يعرف المرء ما الذى شوشه على وجه الدقة ! ربما قفازاى النضيران ، وطريقتى فى لبسهما . ان أمثال كازيمودو يحبون الاستيتيك كثيرا .. بعض الناس ممن يملكون نفوسا كريمة سمحة ، و « الأزواج الأبديون » خاصة ، يكفيهم قفازان ... حتى يضخموا ما عداهما ألف مرة ... وانهم لمستعدون أن يقاتلوا من أجلك ، اذا شئت . وما أكثر ما يقدر وسائلى فى الاغراء ! بل لعل هذه الوسائل نفسها هى التى أسرته أكثر من أى شىء آخر . وصرخته تلك التى صرخها فى ذلك اليوم : « اذا كان هو أيضا .. فمن أصدق ؟ » ان المرء ليصبح بعد صرخة كهذه ، حيوانا كاسرا ..

« هم .. لقد جاء الى هنا « ليقبلنى ويبكى .. » كما عبر هو نفسه عن ذلك هذا التعبير الخبيث . معنى ذلك أنه جاء الى بطرسبرج

ليدق عنقى .. ولكنه كان يتخيل أنه جاء « ليقبلنى ويبكى » . وقد أتى بليزا .. لو أننى أخذت أبكى معه ، اذن لكان يمكن أن يغفر لى . لقد كان فى شوق عنيف الى الغفران ! .. ولكن هذا كله انقلب منذ اللقاء الأول الى تكشيرات سكران ، الى حركات فظة غليظة ، الى تأوهات جبانة كتأوهات امرأة مهانة (والقرنان ، القرنان اللذان تباهى بهما ! ..) من أجل هذا انما جاء ثملا . لقد سكر حتى يستطيع أن يسكب ما يعتلج فى نفسه ، ولو بعربدات . ذلك أنه ما كان ليستطيع أن يتكلم بدون سكر . هل كان يحبها ، هذه العربدات وتلك التهريجات ؟ آه كم كان يحبها ! وما كان أشد فرحه حين استطاع أن يحملنى على تقبيله ! ولكنه كان لا يعرف كيف سينتهى الأمر : أينتهى بقبل أم ينتهى بطعنات سكين ؟ وأخيرا ، كان أفضل شيء أن يقبل ويقتل . كان هذا هو الحل الطبيعى . نعم ان الحياة لا تحب الأشخاص الشاذين ، وهى تتخلص منهم « بحلول طبيعية » . وأشد الشاذين شاذاً يحمل عواطف نبيلة . أعرف ذلك من تجربتى الشخصية يا بافل بافلوفتش ! الطبيعة ليست للشاذين أمأ رءوما ، بل زوجة أب شرسة . ان الطبيعة تنجب الشاذ الأشوه ثم تقضى عليه بدلا من أن ترثى لحاله وترأف به . وكذلك يجب أن يكون الأمر . ان الحنان ودموع الغفران لا تصلح حتى للشرفاء فى هذا العصر ، فما بالك بنا نحن يا بافل بافلوفتش ؟

« نعم لقد كان غيبا حين أخذنى الى خطيبته . خطيبته ! اللهم رحمتك ! ان التفكير فى العودة الى حياة جديدة ، مع الاستعانة ببراءة الآنسة زاخلينين ، لا يمكن أن يراود الا رجلا من هذا النوع ،

لا يمكن أن يساور الا رجلا مثل كازيمودو . ولكنك لست آثما يا بافل بافلوفتش ، لست آثما البتة . انك انسان شاذ ، وكل شيء فيك لابد اذن من أن يكون شاذا ، لابد أن تكون أحلامك وآمالك شاذة . ولكنه ، على شذوذه ، ارتاب في حلمه ، واحتاج الى أن يدعمه فلتشائينوف المحترم المعظم . كان لابد له من أن يشجعه فلتشائينوف ، من أن يؤكد له أن ذلك ليس حلما بل هو الواقع نفسه . انه لم يأخذنى الى هناك الا لأنه يحترمنى ، ولأنه يثق بنبيل عواطفى ، ولعله كان مطمئنا الى أننا سيقبل كل منا الآخر ، هناك ، وراء دغل من الأدغال ، باكيين منتحيين ، غير بعيدين عن البراءة ! نعم كان لابد لهذا الزوج الأبدى من أن يعاقب نفسه أخيرا فى يوم من الأيام ، عقابا حاسما .. ولكى يعاقب نفسه أمسك بالموسى .. صحيح أنه لم يمسه عن سابق تصور وتصميم ، ولكنه أمسكه على كل حال ! « مع ذلك طعنه بسكين أمام القاضى » . لعله حين قص على تلك الحكاية عن الوصيف كان يفكر فى شيء من هذا القبيل . ترى هل كان يبيت شيئا ، فى تلك الليلة ، حين نهض من سريره ، وظل واقفا فى وسط الغرفة ؟ لا .. كان ذلك مزحة . لقد نهض لحاجة ، ولكنه حين رأى خائفا ، ظل لا يجب مدة عشر دقائق ، لأنه كان يسره كثيراً أن يرانى خائفا منه . ولعل الفكرة ما نبتت فى ذهنه لأول مرة الا فى تلك اللحظة ، حين كان واقفا فى الظلام .

« وأغلب الظن مع ذلك أن شيئا مما وقع أمس ، ما كان ليقع لولا اننى نسيت الأمواس على المنضدة . هل الأمر كذلك ؟ هل هو حقا كذلك ؟ لقد كان يتحاشانى ، ولم يجتنى الا بعد ثلاثة أسابيع . كان

يختبئ عني ، لأنه كان يشفق على . اختار في أول الأمر باجاوتوف ، ولم يخترنى أنا . وما هذه الصحون التي مضى يسخنها في الليل ؟ « كان يأمل أن يصرف ذهنه الى شيء آخر ، أراد أن يصرف فكره عن السكين الى الحب ! .. كان يريد أن ينقذني ، وأن ينقذ نفسه بواسطة الصحون الساخنة » .

هكذا ظل عقل فلتشائينوف يعمل مدة طويلة في فراغ .. هكذا كانت الأفكار تضطرب في الدماغ المريض ، دماغ هذا الرجل الذي كان يوما من « رجال الصالونات » .. الى أن هدأ أخيرا فنام . حتى اذا استيقظ في صباح غد ، كان رأسه ما يزال مريضا ، ولكن ذعرا جديدا قد استولى عليه ، ولم يكن في الحسبان .

ان مصدر هذا الذعر الجديد هو أنه أيقن فجأة أنه ، هو ، فلتشائينوف ، رجل المجتمع الراقى ، سيذهب ، في هذا اليوم نفسه ، طائعا مختارا ، الى بافل بافلوفتش .. لماذا ؟ لأى غرض ؟ ذلك ما كان لا يعرفه ، ولا يريد من فرط اشمئزازه أن يعرفه . كان يعرف شيئا واحدا هو أنه محمول على ذلك حملا ، دون أن يفهم لماذا !

وقد بلغت هذه الفكرة المجنونة (كان لا يستطيع أن يصفها الا بأنها مجنونة) من الوضوح أنها اتخذت شكلا معقولا ، وانتحلت لنفسها عذرا كافيا . كان فلتشائينوف قد تخيل ، منذ أمس ، أن بافل بافلوفتش ، حين سيعود الى بيته ، سيسجن نفسه في غرفته بعد أن يقفل بابها بالمفتاح ، وسيشئ نفسه ، كذلك الخازن الذي حدثته عنه ماريا سيسوفينا . وتحولت هذه الفكرة شيئا بعد شيء الى يقين سخي ، ولكن لا يمكن أن يغالب . كان فلتشائينوف يقول

لنفسه محاولا قطع مجرى أفكاره : « ولكن علام يشنق هذا الأبله نفسه ! » . ثم كان يتذكر كلمات ليزا فيقول لنفسه : « على أننى لو كنت فى مكانه فقد أشنق نفسى .. » .

وأخيرا قرر فلتشانينوف أن يتجه الى مسكن بافل بافلوفتش ، بدلا من أن يذهب الى المطعم لتناول العشاء . كان يقول لنفسه : « لن أزيد على أن أسأل عنه ماريا سيسويفنا » . ولكنه ما ان وصل الى آخر السلم ، حتى وقف تحت الرواق .

هتف وقد احمر وجهه خجلا وشعورا بالعار : « كيف ؟ كيف ؟ أصبح أننى أجر نفسى الى هناك لأقبله وأبكى ؟ هل يجب أن أضيف هذه الضعة المجنونة الى كل ذلك العار ؟ » .

ولكن العناية الالهية التى تسهر على جميع الناس اللاتقين المحترمين ، قد أنقذته من هذه « الضعة المجنونة » . فما ان أصبح فى الشارع حتى اصطدم بالكسندر لوبوف . كان الفتى يلث مضطربا أشد الاضطراب .

قال :

— كنت ذاهبا اليك . ما رأيك فى صاحبنا هذا بافل بافلوفتش ؟

فتمتم فلتشانينوف يقول بلهجة شاردة :

— هل شنق نفسه ؟

— شنق نفسه ؟ لماذا ؟

قال لوبوف ذلك محملا .

— لا شيء . أكمل كلامك !

— ان لك لأفكارا عجيبة حقا ! لم يشنق نفسه (وعلام يفعل ؟) .
بالعكس ، لقد سافر . أركبته القطار منذ هنيهة ، شحنته . ولكن
ما أكثر ما يشرب ! ما أكثر ما يشرب ! كان يغنى فى القطار . وقد
تذكرك ، ولوح لنا بيده ، وحمّلنا تحية لك . ولكنه وغد . ما رأيك ؟
كان الفتى ثملا : يدل على ذلك وجهه المشرق ، وعيناه اللامعتان ،
ولسانه المتعثر .

ضحك فلتشانينوف ملء حنجرتة .

— اذن لقد انتهيا الى التآخى بالشرب . ها ها ها . لا شك أن
كلا منهما قد قبل الآخر وبكى . آه منكم أيها الشعراء ، يا اخوة
شيللر !

— لا داعى الى الشتم ، أرجوك . اعلم أنه تنازل هناك عن كل
شئ . ذهب اليهم أمس واليوم . وشى بنا ، فجبسوا ناديا فى حجرة
بالقبو . وكان صراخ ، وكان بكاء .. ولكننا لن نخضع ! .. ليتك
تعرف كم يشرب ! ثم ما كان أسوأ لهجنه من لهجة ! انه يتحدث
عنك دائما ، ولكن أنى له أن يشبه بك ! أنت على كل حال رجل
محترم ، ولقد كنت فيما مضى من الطبقة العليا من المجتمع ، وانسا
أنت تنزل عن هذه الطبقة الآن لقلة مواردك ، فيما أظن .. ليذهب
الى الشيطان ! اننى لم أفهم حق الفهم ! ..

— أهو الذى حدثك عنى بهذا ؟

— نعم هو ، ولكن لا تزعل . لخير للانسان أن يكون مواطنا
صالحا من أن ينتمى الى الطبقة العليا .. أقول هذا لأننا أصبحنا

في روسيا لا نعرف في هذه الأيام من نحترم ونقدر . لا شك أنه بئس
في عصر من العصور أن لا يعرف المرء من يحترم ويقدر . أليس هذا
صحيحا ؟

— صحيح ، صحيح ، ولكن هو ؟

— هو ؟ من ؟ ها .. نعم .. ترى لماذا كان لا ينفك يقول :
«فلتشانينوف هذا الذي له من العمر خمسون عاما ، ولكنه مهدم» . لماذا
يقول « ولكنه مهدم » ، بدلا من أن يقول « ومهدم » . كان يضحك
ويردد هذا الكلام ألف مرة . وحين ركب القطار ، أخذ يضحك ،
ثم أخذ يبكي . كان ذلك يبعث على التقزز والاشمئزاز لا أكثر من
ذلك ولا أقل . كان هذا الرجل السكران في حالة من الوضاعة
يرثى لها . اتنى لا أحب البلهاء ! وقد أخذ بعد ذلك يوزع مالا على
الفقراء على روح اليزابث . أهى زوجته ؟

— هى ابنته .

— ماذا بيدك ؟

— جرح بسيط .

— هل تعلم ؟ لقد أحسن صنعا اذ سافر . ليأخذه الشيطان .
ولكننى أراهن أنه سيتزوج فور وصوله الى هناك . ألا تعتقد
بذلك ؟

— ولكنك تريد أنت أيضا أن تتزوج ؟

— أنا ؟ زواجى أنا شيء آخر .. انك حقاً لشخص عجيب ! اذا
كنت أنت في الخمسين من العمر ، فلا بد أن يكون هو في الستين .

يجب على المرء أن يكون منطقيا يا عم . ثم اننى كنت فى الماضى ، منذ مدة بعيدة ، من أنصار السلافية ، أما الآن فنحن ننتظر الفجر من الغرب . هيا ! الى اللقاء . من حسن الحظ اننى صادفتك فى الشارع ، فما اضطرت أن أصعد الى بيتك . يستحيل أن أدخل ، لا تلج ، وقتى لا يتسع .

قال هذا واستأنف ركضه ، ولكنه ما لبث أن عاد أدراجه :

— أين دماغى ؟ لقد حملنى رسالة اليك . هذه هى الرسالة . لماذا لم تصحبه الى المحطة ؟

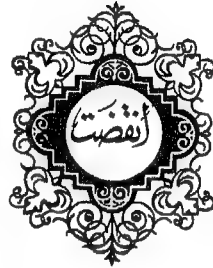
صعد فلتشائينوف الى بيته ، وفض الغلاف الذى كتب عليه اسمه . لم يكن يضم الغلاف سطورا واحدا من بافل بافلوفتش ، بل كان يحتوى على رسالة أخرى عرف فلتشائينوف خطها . كان الورق قد اصفر ، وكان الحبر قد حال . ان الرسالة مكتوبة منذ عشر سنين ، بعد سفره من ت . . بشهرين . ولكنها لم ترسل اليه ، بل أرسلت اليه رسالة أخرى بدلا منها . ذلك واضح من مضمونها . فى هذه الرسالة تودعه ناتاليا فاسيليفنا الى الأبد ، كما فى الرسالة التى وصلته ، ولا تخفى عنه أنها حبلى ، مع اعترافها بأنها تحب الآن شخصا آخر . ولكنها تعده ، من قبيل المواساة له ، بأنها ستنتهز فرصة من الفرص لرد ولدهما اليه ، وتقول ان عليها بعد الآن واجبات أخرى ، وان صداقتهما موطدة بذلك الى الأبد . أى ان الرسالة كانت خالية من المنطق ، ولكن الهدف واحد ، هو التخلص من حب فلتشائينوف . حتى لقد سمحت له بأن يجيء الى ت . . بعد سنة ، ليرى الطفل .

لا يدري الا الله لماذا استعاضت عن هذه الرسالة برسالة أخرى بعد أن فكرت في الأمر .

امتقع لون فلتشانينوف وهو يقرأ الرسالة ، ولكنه تخيل بافل بافلوفتش ، وهو يعثر على هذه الرسالة فيقرأها لأول مرة أمام الصندوق المصنوع من خشب الأبنوس والمرصع بالصدف .

قال في نفسه وهو ينظر الى وجهه في المرأة : « لا شك أن وجهه هو أيضا قد امتقع حتى صار كالميت . وأغلب الظن أنه كان يقرأ ، ثم يغمض عينيه ثم يفتحهما عسى أن يجد الرسالة قد استحالت ورقة بيضاء .. ولا شك أنه كرر التجربة ثلاث مرات على الأقل ! .. » .

الزوجة الأبري



على هذه الأحداث التي روينها سنتان .
 ها نحن أولاء نرى السيد فلتشائينوف ، ذات
 صباح من الصيف ، في عربة قطار من قطر
 سكنا الحديدية الجديدة . انه ذاهب الى
 اوديسا لرؤية صديق له ، ولههدف آخر لا يقل عن ذلك متعة وجمالا :
 كان يأمل أن يلقى ، بواسطة هذا الصديق ، امرأة جميلة يريد منذ
 مدة طويلة أن يوثق معرفته بها . لا نريد الآن أن ندخل في التفاصيل،
 وحسبنا أن نذكر أن فلتشائينوف قد تبدل خلال هاتين السنتين
 تبديلا كبيرا ، أو قل انه تحسن تحسنا كبيرا ، فقد زالت كآبته
 القديمة ، دون أن تخلف أثرا يذكر .

لم يبق له من « ذكرياته » ومن أنواع القلق (نتائج حالته
 المرضية) التي حاصرته في بطرسبرج ، منذ سنتين ، أبان ملاحظته
 شئون تلك الدعوى الشقية ، لم يبق له منها الا شعور خفى بالخجل

من ذلك الضعف . وكان اعتقاده بأن ذلك لن يقع بعد الآن ، وبأن أحدا لن يعرف منه شيئا ، يعزیه بعض العزاء . كان أنساء تينك الستين قد هجر علاقاته الاجتماعية هجرا تاما ، وكان لا يعنى بهندامه ، وكان يختبئ عن الناس ، ولا شك أن جميع أبناء الطبقة الراقية قد لاحظوا ذلك . ولكنه سرعان ما عاد الى المجتمع ، نادما ، مستردا ثقته بنفسه ، متبدلا كل التبدل ، وبلغ من هذا كله أن « جميع » الناس ما لبثوا أن عذروا اهماله ذاك الوقت .

حتى ان أولئك الذين انقطع عن تحيتهم كانوا أول من اعترفوا به ، ومدوا اليه أيديهم ، دون أن يسألوه عن شيء ، كأنه كان خلال ذلك الوقت كله غائبا عنهم لأسباب عائلية لا شأن لأحد بها ، ثم عاد اليهم . ولا شك أن سبب هذه التبدلات السعيدة انما هو النتيجة التي انتهت اليها الدعوى . ذلك أن فلنشائينوف قد حصل على مبلغ ستين ألف روبل ، وهو مبلغ ليس بالضخم حتما ، ولكن له عند فلنشائينوف قيمة كبيرة . فقد أصبح الآن راسخ القدم ، مطمئن النفس . هذا أولا ، ثم انه كان يعلم ثانيا أنه لن يبدد موارده الأخيرة هذه تبديدا أبله ، كما فعل بثروتيه السابقين ، وأن هذا المال سيكفيه الى آخر حياته . وكان يقول لنفسه أحيانا وهو يرى هذه الأشياء العجيبة التي تدور من حوله في روسيا : « لا مانع أن ينهار نظامهم الاجتماعي ، ولا مانع أن ينفخوا في آذاننا ما يشاءون .. ان البشر والأفكار تتبدل ما حلا لها التبدل ، أما أنا فساظل واثقا من هذا الطعام اللذيذ الذي أجلس اليه الآن ، وأنا تبعا لذلك مستعد لكل شيء » .

ان هذه الفكرة العذبة المستعة قد استولت عليه شيئا فشيئا

استيلاء تاما ، وبدلته تبديلا كبيرا ، بدلته جسما وروحا معا . انه الآن انسان آخر ، لا يمت بصلة الى ذلك « المتذمر » الذى وصفناه والذى كانت تقع له قصص غر لائقة . كان مظهره مرحا ، متفتحا رضيا . وحتى العضون المقلقة التى ظهرت حول عينيه وفى جبينه قد زالت زوالا شبه تام ، وابيض لونه وتورد .

انه الآن جالس جلسة مريحة فى عربة من عربات الدرجة الأولى من القطار ، وقد راودته ، منذ لحظة ، فكرة مستعجلا . هناك تفرع فى السكة بعد محطتين : ان خطا جديدا يتجه الى اليسين : « فاذا تركت الخط المستقيم وانحرفت يمنة ، استطعت بعد محطتين من ذلك التفرع أن أمضى الى زيارة سيدة عادت من الخارج منذ قليل ، وهى تقيم الآن فى الريف وحدها ، وهذا يفيدنى وان كان يسوءها . وفى وسعى اذن أن أقضى هنالك وقتا جميلا لا يقل جمالا عن الوقت الذى سأقضيه فى أوديسا ، خاصة وأنى أستطيع أن أذهب الى أوديسا فيما بعد » . ولكنه كان لا يزال مترددا ، لا يستطيع أن ينتهى الى قرار . كان ينتظر « الصدمة » المفاجئة التى يمكن أن تحلها على أن يعزم أمره . ان القطار يقترب من المحطة ، وها هى ذى الصدمة تحدث .

ان وقوف القطار فى هذه المحطة يدوم أربعين دقيقة . وفى وسع المسافرين أن يتناولوا فيها طعام الغداء . وها هو ذا الجمهور يزدهم عند باب قاعة الانتظار ، نافذ الصبر ، متعجلا كالعادة . وكالعادة أيضا ، فى أغلب الظن ، وقعت فضيحة . نزلت من مركبة من مركبات الدرجة الثانية سيدة جميلة جدا ، ولكن ملابسها صارخة الألوان قليلا بالنسبة الى مسافرة ، نزلت من العربة وهى تجر ، بكلتا يديها

تقريبا ، ضابطا من سلاح الفرسان ، شابا جميلا ، يحاول أن يتفلسف منها . كان الفتى بالغاً من سكره كل مبلغ ، وكانت السيدة ، وهى قريبة له أكبر منه سناً فى أغلب الظن ، لا تتركه خشية أن يذهب الى المشرب . وقد اصطدم الضابط بشاب تاجر كان يتطرب ويعبث خارجاً على كل اتزان : انه فى المحطة منذ يومين يشرب مع عدد من رفاقه ، ويبدد ماله هدرًا ، دون أن يجد فرصة لمتابعة طريقة . وقام اذن شجار : فالضابط يصرخ ، والتاجر يشتم ، والسيدة مصعوقة تحاول أن تعجز الضابط ، وتتوسل اليه هاتفة به « ميتنكا ، ميتنكا ! » * وبدا ذلك للتاجر الشاب أمراً فاضحاً معيياً . صحيح أن الناس كانوا يضحكون ، ولكنه شعر هو بأن عواطفه الأخلاقية قد خدشت وأهينت ، لا يعلم الا الله لماذا ..

قال عائياً وهو يقلد صوت السيدة المنغم :

— هل ترون هذا ؟ « ميتنكا ! » * .. انهما لا يستحيان ، حتى أمام الناس .

قال ذلك ثم اقترب متميلاً مترنحاً من السيدة التى ارتمت على أحد المقاعد وأجلست الضابط الى جانبها ، فرماها بنظرة احتقار ، وقال لها بصوت متعثر :

— ما أنت الا امرأة قذرة ! امرأة قذرة !

فصرخت السيدة صرخة حادة ، وألقت حولها نظرات باكية تطلب النجدة . كانت تشعر بالعار والخوف . وزاد الطين بلة أن الضابط

وثب عن كرسيه يرغى ويزبد ، ويهم أن يهجم على التاجر ، ولكنه انزلق وتهوى على كرسيه مرة أخرى ، فازداد ضحك الناس ولم يفكر أحد في التدخل .. الا فلتشائينوف الذى هب الى النجدة ، فأمسك التاجر من ياقته ، وهزه ، ثم دفعه خمس خطوات عن المرأة المذعورة . فكان هذا نهاية الفضيحة : ان الشاب التاجر ، وقد أرهفته الهزة وأوجس خيفة من هامة فلتشائينوف ، ما لبث أن استسلم لرفاقه يجرونه الى بعيد . وأحدث مظهر هذا السيد المهيب الأنيق أنفاة عظيمة ، أحدث أثرا كبيرا فى الضاحكين ، فكفوا عن الضحك . وأخذت السيدة ، وقد احمرت احمرارا شديدا وترقرقت الدموع فى عينيها ، أخذت تعبر لفلتشائينوف عن شكرها فى تدفق . وتمتم الضابط يقول : « ش..ك..را .. ش..ك..را » ، وأراد أن يمد يده الى فلتشائينوف ، ولكنه عدل عن ذلك ، واستلقى على الكراسى بجسمه كله .

وقالت السيدة متأوهة ، بلهجة اللوم ، وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

— ميتسكا ! ..

سره فلتشائينوف من هذه المغامرة ومن ظروف تدخله . ان هذه السيدة تعجبه : لا شك أنها ريفية ذات ثراء ، فملابسها غنية ، وان تكن بغير ذوق مرهف ، وحركاتها مضحكة . وهى اذن تجمع كل الشروط التى تكفل النجاح لمختال من العاصمة يطعم فى امرأة . وتحذنا : فكانت السيدة تتكلم بحرارة ، وتشكو زوجها الذى اختفى

من المركبة فجأة ، فكان ذلك سبب كل شيء .. « انه يختفى دائما
في اللحظة التي تمس الحاجة فيها اليه » .

قال الضابط :

— كانت به حاجة ..

— أوه .. ميتنكا !

قالت ذلك وعادت تضم يديها احدهما الى الأخرى .

قال فلتشانينوف لنفسه : « مسكين أيها الزوج ! لو عرفت ماذا
سيصيبك ! » .

ثم سألها :

— ما اسمه ؟ سأذهب أبحث عنه .

— با .. ل .. با .. لتش ..

فسألها فلتشانينوف بكثير من حب الاطلاع :

— هل اسم زوجك بافل بافلوفتش ؟

سألها هذا السؤال ، ثم تراءى له الرأس الأصلع الذى يعرفه ،
تراءى له فجأة يندس بينه وبين السيدة . وتراءت له ، في لحظة ،
حديقة زاخليبينين ، والألعاب البريئة ، وذلك الرأس الأصلع الذى
لا يطاق ، ذلك الرأس الأصلع الذى كان يدخل دائما بينه وبين
ناديجدا فيدوسوفنا ..

هتفت السيدة مغتظة :

— هذا أنت أخيرا !

انه بافل بافلوفتش نفسه . كان ينظر الى فلتشانيوف مدهوشا ،
 مذعورا ، متجمدا ، كأنه يرى شبحا من الأشباح . وقد بلغ من فرط
 الانصاع أنه ظل خلال مدة كأنه لا يفهم شيئا مما تشرحه له زوجته
 المهانة متدفقة في الكلام حائقة . وأخيرا ارتعش وفهم في لحظة واحدة
 كل فظاعة الموقف : خطيئته ، وما فعله ميتسكا ، وكيف كان « هذا
 السيد ملاكنا الحارس ، ومنقذنا ، بينما أنت تذهب حين يكون عليك
 أن تبقى ! » .

انفجر فلتشانيوف ضاحكا ، وقال :

— ولكننا صديقان قديمان ، نحن صديقا طفولة . ألم يحدثك
 يوما عن فلتشانيوف ؟

قال ذلك للسيدة المدهوشة كل الدهشة ، وهو يضع يده اليمنى
 بلا كلفة على كتف بافل بافلوفتش الذي كان يتسم ابتسامة غامضة.

أجابته السيدة وهي متحيرة بعض التحير :

— لا ، أبدا .

فقال لصاحبه :

— هيا قدمي الى عروسك أيها الصديق غير الوفي !

— نعم ، هي لبيوتشكا * يا سيد فلتشانيوف ..

بدأ يقول ذلك مضطربا ، وارتبك . واحمر وجه زوجته ورمته
 بنظرة حائقة ، لأنه دعاها لبيوتشكا .

قال فلتشانينوف :

— تصورى أنه لم ينبئني بأنه سيتزوج ولا دعاني الى حفلة
الزواج . أما أنت يا أولمبيادا ..

— سيميونوفنا .

قال بافل بافلوفتش ذلك يلقيه تنمة الاسم . وتدخل الضابط النائم
يقول فجأة :

— سيميونوفنا .

— اعذريه يا أولمبيادا سيميونوفنا . أقسم لك بشرفي ، وبشرف
لقائنا هذا .. انه زوج ممتاز .

قال فلتشانينوف ذلك وضرب بافل بافلوفتش على كتفه ضرب
الصديق لصديقه تحببا .

حاول بافل بافلوفتش أن يبرر نفسه ، فقال :

— انما ابتعدت يا عزيزتى لحظة قصيرة ..

ولكن لبيوتشكا قاطعته فورا بقولها :

— وتركت زوجتك تشتم وتحقر .. حين نكون فى حاجة اليك
نبحث عنك فلا نجدك ، وحين لا نكون فى حاجة اليك تظل معنا .

فكرر الضابط يقول ملحا :

— حيث لا يجب ، تكون .. حيث لا يجب ، حيث لا يجب ..
كانت لبيوتشكا تكاد تختنق غضبا . كانت تفهم أن ذلك لا يحسن
أمام فلتشانينوف ، فكانت تحمر خجلا ، ولكنها لا تستطيع أن تكظم
غيظها . فأقلت من لسانها قولها :

— أنت مفرط في الحذر حين لا يجب الحذر ، مفرط في الحذر .
وتحمس ميتسكا بدوره قائلاً :

— تحت السرير .. يبحث عن عشاق .. تحت السرير .. حيث
لا يجب .. لا يجب ..

ولكن كان لا يمكن الرد على ميتسكا بشيء . ثم ان الأمور قد
انتهت على أحسن وجه . زاد التعارف ، وأُرسِل بافل بافلوفتش ليأتي
بقهوة ومرق . وذكرت أولمبيادا سيميونوفنا لفلتشانينوف أنهم آتون
من أو .. مكان عمل زوجها ، وأنهما ذاهبان الآن الى أرضهم التي
تبعد عن المحطة مسافة أربعين كيلومترا ، لقضاء شهرين ؛ وأن لهم
هنالك عدا هذا كثيرا من الجيران ، وقالت له : اذا أحب الكسى
ايفانوفتش أن يتفضل بزيارتهم « في عزلتهم » ، فستستقبله على أنه
« ملاكها الحارس الأمين » ، لأنها لا تستطيع أن تتصور ، دون جزع
شديد ، ما كان يمكن أن يقع هنا لولا .. الخ .. المهم أنها ستستقبله
على أنه « ملاكها الحارس الأمين » .

قال الضابط يلح في حرارة :

— منقذ ، منقذ ..

شكرها فلتشانينوف بكثير من اللطف والأدب ، وأجاب بأن
زيارته لهم تسره كثيرا ، وليس هناك ما يمنعه من القيام بهذه الزيارة،
اذ ليس له مشاغل تحجبه عنها ، وأنه يعتز بهذه الدعوة التي وجهتها
اليه أولمبيادا سيميونوفنا . ثم ما لبث أن بدأ حديثا مرحا جدا ،
استطاع أثناءه أن يكيل لها المديح مرتين أو ثلاثا . فاحمرت لبيوتسكا

لذة ، فما ان عاد بافل بافلوفتش حتى أنبأته ، فرحةً ، بأن الكسى ايفانوفتش قد تفضل فقبل أن يقضى معهم شهرا فى القرية ، وبأنه وعد أن يجىء بعد أسبوع . فابتسم بافل بافلوفتش ابتسامة تائية دون أن يقول شيئا . فهزت اولمبيادا سيميونوفنا كتفها الجميلين ، ورفعت نظرها الى السماء . وهموا أخيرا أن يفترقوا ، فعادت تفيض فى التعبير عن شكرها ، واستعملت مرة أخرى قولها « الملاك الحارس الأمين » ، و « ميتنكا » الخ . وقاد بافل بافلوفتش زوجته والضابط الى عربة القطار .

أشعل فلتشائينوف سيجارا ، وراح يمشى على الرصيف جيئة وذهابا . كان يعلم أن بافل بافلوفتش سيهرع اليه ليقول له بضع كلمات قبل تحرك القطار . وذلك ما حدث فعلا . فقد ظهر بافل بافلوفتش ، وكانت قسما وجهه وعيناه تعبر عن تساؤل قلق . فأخذ فلتشائينوف يضحك ، وأمسكه من ساعده « امساك الصديق لصديقه » ، وسار به الى مقعد قريب ، فجلس عليه وأجلسه الى جانبه . كان ساكتا ، يريد أن يبدأ بافل بافلوفتش الكلام . فتمتم بافل بافلوفتش يقول داخلا فى الموضوع رأسا :

— اذن ستأتى الينا ؟

— كنت أعرف أنك ستسألنى هذا السؤال . لم يتغير بافل بافلوفتش أى تغير .

قال فلتشائينوف ذلك ، وانفجر ضاحكا . ثم أردف ، وهو يضربه على كتفه مرة أخرى :

— ولكن هل استطعت أن تصدق حقا ، خلال لحظة واحدة ، أنني
سأجىء اليكم ؟ وأنتى أيضا سأقضى معكم شهرا كاملا ؟ ها ها ..
فنهض بافل بافلوفتش واقفا وقد ظهرت عليه علائم الفرح
الشديد . وهتف دون أن يخطر على باله اخفاء فرحه :

— اذن لن تجىء ؟

— لا لن أجيء ، لن أجيء .

قال فلتشائينوف هذا ، وابتسم ابتسامة الرضى . وكان ، من
جهة أخرى ، لا يفهم كل الفهم لماذا يبدو له هذا الأمر كله مضحكا ،
ولكنه كان كلما ازداد تفكيرا فيه ، ازداد شعورا بأنه مضحك .

— حقا ؟ هل تقول هذا جادا ؟

سأل بافل بافلوفتش هذا السؤال ، وهو ينتفض انتفاضة من
يستبد به انتظار محوم . فأجابه فلتشائينوف :

— قلت لك اننى لن آتى . انك حقا لغريب ! ..

— ولكن اذا كان الأمر كذلك فماذا أقول لأوليبيدا سيميونوفنا
الذى ستنتظرك ، حين ينقضى الأسبوع وما تجىء ؟

— قل لها كسرت ساقه أو قل لها أى شيء آخر من هذا القبيل .

فقال بافل بافلوفتش بصوت ضعيف متوجع :

— لن تصدقنى !

— وهل يصيبك من هذا مكروه ؟ اننى ألاحظ يا صديقى العزيز
أنك ترتعد خوفا أمام امرأتك الفاتنة ، هه ؟

قال فلتشانيوف ذلك ضاحكا . فحاول بافل بافلوفتش أن يتسم ولكنه لم يستطع . أما أن يرفض فلتشانيوف المجيء فذلك شيء عظيم ، وأما أن يتحدث عن السيدة تروسوتسكى بهذه اللهجة التى زالت منها الكلفة فذلك لا يسر . وأظلم وجه بافل بافلوفتش . وفى أثناء ذلك قُرع مرة ثانية الجرس الذى يؤذن بتهيؤ القطار للمسير ، ودوى من بعيد صوت رقيق قلق ينادى بافل بافلوفتش . فأخذ هذا يضطرب ، ولكنه لم يدرك النداء : كان ينتظر أن يعده فلتشانيوف مرة أخيرة بأن لا يجيء .

— ما اسم زوجتك قبل أن تتزوج ؟
هكذا سأله فلتشانيوف كأنه لا يلاحظ قلقه . فأجابه وهو يصيح
بسمعه وينظر الى عربة القطار نظرات قلقة :

— هى ابنة رئيس كهنتنا .

— ها .. نعم . أظن أنك تزوجتها لجمالها ، أليس كذلك ؟
فلما سمع بافل بافلوفتش هذا السؤال كثر مرة أخرى .

— ومن هو ميتنكا هذا ؟

— لا أحد .. هو شخص يمت الى بقرابة .. قرابة بعيدة . انه ابن بنت عمى المتوفاة جولوبتشيفخوف . أخرجوه من الخدمة لقصة من القصص ، ثم أعادوه الآن ، ولقد جهزناه تجهيزا تاما .. يا له من شاب شقى !

قال فلتشانيوف لنفسه : « كل شيء اذن على ما يرام .. كل شيء على أتم وجه ! » .

وجاء الصوت الذى ينادى من العربة وقد ازداد حنقا :
— بافل بافلوفتش !
وأعقبه صوت آخر مخمور :
— با .. ل .. با .. لمتش .
فتحرك بافل بافلوفتش من جديد ، ولكن فلتشانينوف أمسكه
من زنده ، وأوقفه ، قائلاً له :
— هل تريد أن أذهب الآن الى زوجتك ، فأقصّ عليها كيف
حاولت أن تذبحنى ؟ ما رأيك ؟
فصرخ بافل بافلوفتش مذعورا ، يقول :
— كيف ؟ هل يخطر ببالك هذا حقا ؟
— بافل بافلوفتش ، بافل بافلوفتش !
هكذا دوى الصوت المنادى من بعيد مرة أخرى . فتكره
فلتشانينوف أخيرا وهو بضحك من أعماق قلبه ، قائلاً له :
— هيا اذهب .
فتمتم بافل بافلوفتش ، حزينا ، يقول لآخر مرة ، وهو يضم
يديه أمامه كما فعل فى الماضى :
— لن تأتى اذن ؟
فأجابه فلتشانينوف :
— أقسم لك على ذلك . هيا اركض ، والا قام الشجار .
قال له ذلك ومد اليه يده بحركة عريضة ، مدها ثم ارتعش :
ذلك أن بافل بافلوفتش لم يتناول هذه اليد بل سحب يده .

وقترع الجرس الأخير ايذانا بتحريك القطار . فاذا تبدل يطرأ في مثل لمح البصر : ان الرجلين كليهما يتغيران الآن . ان شبنا قد اهتز وتحطم في فلتشائينوف الذي كان منذ لحظة يضحك ضحكا مرحا كل المرح . فأمسك بافل بافلوفتش من كتفه بقوة وقال له هامسا ، وقد اصفرت شفاته وأخذتا تختلجان :

— اذا مددت لك أنا هذه اليد (قال ذلك وأشار الى راحة يده اليسرى التى تظهر فيها ندبة كبيرة خلفها جرح) ففى وسعك أن تتناولها .

فاصفر وجه بافل بافلوفتش أيضا ، واختلجت شفاته كذلك ، وطافت في وجهه تشنجات خفيفة . ثم تمتم يقول وقد أخذت شفاته وخذاه وذقنه ترتعش على حين فجأة ، وتدفقت من عينيه الدموع :

— وليزا ؟

فظل فلتشائينوف واقفا أمامه متجمدا .

وصفر القطار .

فثاب بافل بافلوفتش الى نفسه ، وحرك يده بحركة حزينة يائسة، وركض نحو القطار بسرعة . كان القطار قد أخذ يتحرك ، ولكنه استطاع أن يمسك بمقبض الباب ، فقفز الى عربته طيرانا .

ظل فلتشائينوف هنالك حتى المساء . ثم ركب القطار التالى السائر على الخط المستقيم . انه لم ينتجه يمنة ، لم يذهب الى السيدة التى كانت تقيم وحدها فى الريف . ولكن ما أكثر ما ندم على ذلك فيما بعد !

حواش

- الصفحة
- ١٣ * لقد اختار دوستويفسكى لروايته في أول الأمر عنوان « رولتبرج » تم غيره استجابة للراح الناشر . ولعله يريد باسم رولتبرج مدينة فسياد الألمانية التي قامر فيها بالرويت سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٥ .
- ١٤ * « ميشا » و « نادبا » هما بصغير اسمى مستيل ونادجدا .
- ١٧ * ان معرض نيحنى نوفجورود (على نهر الفولجا) كان اكبر معرض يقام فى روسيا .
- ١٩ * « الأوبنيون ناسيونال » . كانت هذه الجريدة للبرالية الفرنسية كثيرا ما تهاجم النظام الروسى بسبب بولنده .
- ٢٠ * « كانت تلك وسيلة غير غبية » ، بالفرنسية فى الأصل .
- ٢١ * « مذكرات الجنرال ف . ٢ . پروفيسكى » ، نشرت سنة ١٨٦٥ ؛ لقد استطاع هذا الجنرال ، وقد اعتقله الفرنسيون سنة ١٨١٢ ، أن يرى كيف أن الفرنسيين كانوا يطلقون الرصاص على كل سجين يبلغ من الضعف والوهن أنه لا يقدر على السير فى الطابور .
- ٢٣ * « بابولنكا » ، تصفير بابكا ، أى الجدة ؛ وتقال توددا وتحبا .
- ٢٧ * لقد تصور دوستويفسكى رواية « المفامر » فى نهاية صف ١٨٦٣ ، أثناء رحلة الى الخارج قام بها مع أبوليناريا سوسولفا التى تسمى أيضا پاولين . راجع مقدمة المترجم عن حباة دوستويفسكى فى المجلد الأول من « أعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة » .

- الصفحة
- ٣٥ * « خمسة فريديكات » : قطع نقدية ذهبية المانية من ذلك العصر تساوى كل منها ١٠ - ١١ تالير (فلورين) .
- ٥٢ * كلمة Vater الألمانية معناها أب ، وقد استعملها المؤلف بالألمانية في الأصل .
- ٥٣ * « هوب وشركاه » ، مصرف كبير في أمستردام .
- ٥٥ * « المركيز دى جريو ، الفرنسى القصير » ؛ أن دستوفسكى يطلق هنا على ابن عم مدموازيل بلانش اسم بطل رواية « مانون ليسكو » ، وهذه إشارة الى أن المركيز المزعوم هو خليل بلانش وعشيقتها .
- ٧٣ * « سيدتى البارونة ، انه ليشرافنى أن أكون عبدك » : بالألمانية في الأصل .
- ٧٤ * « ياقول » ، بالألمانية في الأصل ، ومعناها « نعم » مؤكدة .
- ٧٤ * « أنت مجنون ؟ » : بالألمانية في الأصل .
- ١١٧ * كثيرا ما بنادى الاطفال الروس الذين يتربون تربية أجنبية بأسماء فرنسية أو انجليزية تقارب أسماءهم . وقد أصبح اسم پراسكوڤيا هنا : پاولين .
- ١٩٤ * جان بالاكيريف : مهرج الامبراطورة آنا (١٧٣٠ - ١٧٤٠) .
- ٢٠٩ * مارى بلانشار (١٧٧٨ - ١٨١٩) زوجة الملاح الجوى الذى اخترع المظلة (الباراشوت) ، هلكت بباريز سنة ١٨١٩ على متن منطاد كانت تطلق منه أسهما نارية فانفجر المنطاد .
- ٢١٣ * نصف « پاود » يساوى نحواً من ثمانية كيلو غرامات .
- ٢١٥ * الفرنك المقصود هنا هو الفرنك الذهبى فيجب ضرب هذا المبلغ بخمسين لمعرفة ما ربحه من فرتكات هذه الأيام . لقد ربح ما يساوى مليون فرنك (جديد) تقريبا .
- ٢٢٣ * « يا لهؤلاء الروس ! » : بالألمانية في الأصل .

- الصفحة
- ٢٢٨ * « الك قلب يا بنى ؟ .. شىء آخر ... » حوار من مسرحية « السيد » لكورنى .
- ٢٣٤ * « قصر الأزهار » : أحد المقاهى التى تعزف فيها الموسيقى بباريز ، فى ذلك الاوان .
- ٢٣٧ * « هومبورج » ، هى حتى سنة ١٨٩٩ عاصمة دوقيه هسه ؛ وقد كان فيها دار للقمار .
- ٢٣٨ * « تيريز الفيلسوفة » : اشارة الى الرواية الشائكة العسيرة التى لا يعرف مؤلفها ، وعنوانها : « تيريز الفيلسوفة » ، أو مذكرات لقصة السيد ديفرى والآنسة ايروديس » ، وقد ظهرت هذه الرواية فى لاهى سنة ١٧٤٨ .
- ٢٦٩ * « من دم ولبن » ، تعبر روسى يعنى أن اللون نضر والخدين زاهيين والبشرة ببضاء .
- ٢٧٨ * « النهر الأسود » (تشرنايا ريتشكا) : صاحبة من ضواحي العاصمة ، تقع على احد روافد نهر نيفا .
- ٣٠٣ * « الريفية » ، ملهاة لتورجنيف (١٨٥١) ، من شخصياتها سيدة من الريف اسمها داريا ستوبنيديف ، وهى زوجة موظف مسن تستثير حب كونت كان مارا بالقرية .
- ٣١٢ * « الخلستيس » : ملة دينية منشقة ظهرت فى القرن الثامن عتر ، كانت تؤمن بأن ام المسيح العذراء يمكن أن تعود الى التجسد فى فتاة مصطفىة من حين الى حين .
- ٣٣٣ * « ليسنوى » ، حى اصطيف يقع فى غابة (ليس) شمال العاصمة .
- ٣٥٣ * « ولكن عاس ترسيت اللثيم » ... : من قصيدة لشيللر بعنوان « ظفر الظافرين » ، ترجمها ف . جوكوفسكى سنة ١٨٢٨ .
- ٣٦٧ * « بوكروف » : حى من احياء بطرسبرج يسمى باسم كنيسة بوكروف . واسم الفندق هو بوكروفسكى .

٣٧٩ * نموذج « الانسان الضارى » والنموذج « المسالم » ، نشر الناقد ستراخوف ، صديق دوستويشكى ، مقالة عن رواة بولسنى « الحرب والسام » ، وفي هذه المقالة عرض ستراخوف رأى آبولون جريجوريف الذى يقول : « ان ادبنا يمثل صراعا بين هذين النموذجين ، فتارة يسفه احدهما وتارة يمجده ، وهما النموذج « الضارى » والنموذج « المسالم » .

٣٩٢ * « ماشكا بروستاكوفا » : ههنا لعب لفظى ، فان كلمة بروستاكوفا مشتقة من كلمة پروستورى ومعناها البسيط الساذج البريء ؛ اما كلمة بروكوسنوفا فمشتقة من كلمة بروكوسست ومعناها الوغد اللئيم الحفير . واما ماشكا فهو تصغير لاسم مارى من قبيل النحفر .

٤٢٨ * نقوم النكتة هنا على لعب لفظى ، فقد استعمل بافل بافلوفتش كلمتين بينهما شىء من جناس ، الأولى هى « ديفنسا » ومعناها فتاة ، والثانية كلمة « ديفتسا » ومعناها اعجاب .

٤٤١ * من قصيدة للشاعر البولندى آدم مبكيقتس ، ترجمت الى الروسية سنة ١٨٣٤ ووضع موسيقاها الملحن مبشيل جلنكا .

٤٦٠ * « ساشنكا » و « نادنكا » : هما تصغير اسمى الكسندر ونادبجدا من باب التودد والتحبب .

٤٧٢ * « حين يشعر كوبلنيكوف بألم فى بطنه . . . » ، جملة مستمدة من قصة تهكمية ساخرة من تأليف م . ساليكوف — كاترين (١٨٢٦ — ١٨٨٩) .

٥٠٤ * « ميتنكا » ، تصغير اسم ديمترى ، توددا .

٥٠٧ * « ليوتشكا » ، تصغير اسم اولبيادا ، تحببا .

الفهرس

الصفحة

٥	تقديم
١١	المقامر
٢٦٥	الزوج الأبدى
٢٦٧	١ . فلنسنبايىوف
٢٧٨	٢ : صاحب القبة ذات الشريط الأسود
٢٩٣	٣ : يافل يافلوفتنس تروسونسكى
٣٠٨	٤ : الزوج والزوجة والعشيق
٣١٩	٥ : ليزا
٣٣٧	٦ : النروة الجديدة
٣٤٨	٧ : الزوج والعشيق يقبل كل منهما الآخر
٣٦٦	٨ : ليزا مريضة
٣٧٥	٩ : الشبح
٣٨٩	١٠ : المقبرة
٤٠٠	١١ : يافل يافلوفتنس يتزوج
٤١٦	١٢ : عند أسرة زاخلبين
٤٤٧	١٣ : الى اى جهة يميل الميزان
٤٦٠	١٤ : ساشنكا ونادنكا
٤٧٤	١٥ : سدد الحساب
٤٨٨	١٦ : تحليل
٥٠١	١٧ : الزوج الأبدى
٥١٥	حواش

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الثامن</u>
الفقراء	الجريمة والعقاب - ١.
المثل	<u>المجلد التاسع</u>
قلب ضعيف	الجريمة والعقاب - ٢.
<u>المجلد الشافعي</u>	<u>المجلد العاشر</u>
نبوتشكا زفانوفنا	الأبلة - ١.
الليالي البيضاء	<u>المجلد الحادي عشر</u>
بروخار تشين	الأبلة - ٢.
الجارة	<u>المجلد الثاني عشر</u>
المهراج	الشياطين - ١.
السارق الشريف	<u>المجلد الثالث عشر</u>
البطل الصغير	الشياطين - ٢.
قصة في سبع رسائل	<u>المجلد الرابع عشر</u>
شجرة عيد الميلاد والزواج	الرامق - ١.
زوجة آخر، ورجل تحت السرير	<u>المجلد الخامس عشر</u>
<u>المجلد الثالث</u>	الرامق - ٢.
قريبة ستيان تشيكوفو وسكانها	<u>المجلد السادس عشر</u>
حلم العم	قصص
<u>المجلد الرابع</u>	<u>المجلد السابع عشر</u>
مذلون مهانوف	الأخوة كارامازوف - ١.
<u>المجلد الخامس</u>	<u>المجلد الثامن عشر</u>
ذكريات من منزل الأموات	الأخوة كارامازوف - ٢.
<u>المجلد السادس</u>	<u>المجلد التاسع عشر</u>
في قبوي	الأخوة كارامازوف - ٢.
قصة اليمعة	<u>المجلد العاشر</u>
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	الأخوة كارامازوف - ٢.
التمساح	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأنبيدي	

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبانين " فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."
الكسندر ف. سربرفيف